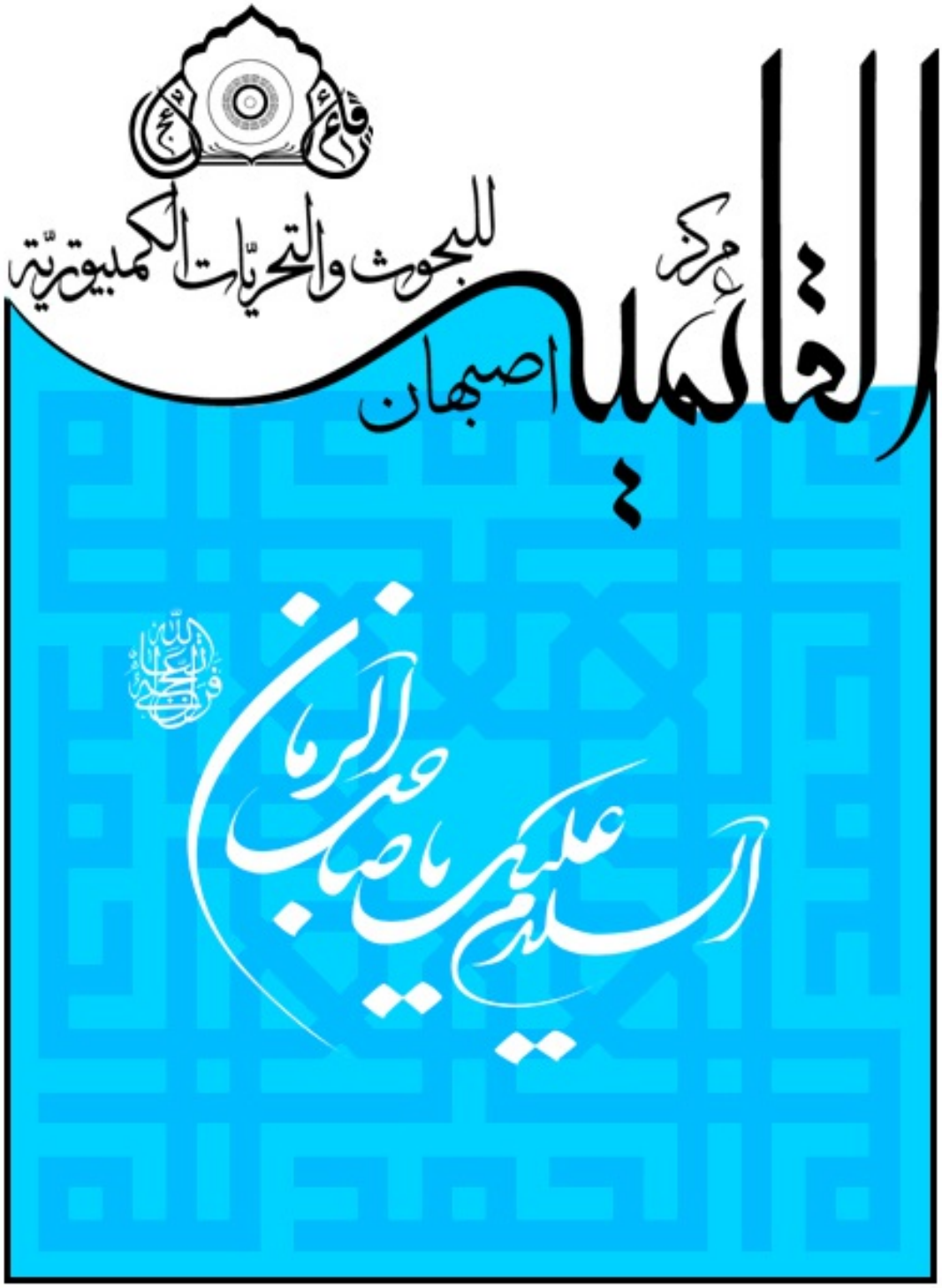

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب

وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

للشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني

الجزء السادس

تحقيق

يوسف الشيخ محمد البقاعي

إشراف

مكتب البحوث والدراسات

في

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

كاتب:

مقرى، احمد بن محمد

نشرت فى الطباعة:

دارالفكر

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب المجلد ۶ ----- ۱۴
اشارة ----- ۱۴
[القسم الثانی فی التعریف بلسان الدین بن الخطیب] ----- ۱۴
الباب الأول فی أولیة لسان الدین و ذکر أسلافه ----- ۱۴
اشارة ----- ۱۴
[منزلته فی الکتابة] ----- ۱۴
[للأمیر إسماعیل بن یوسف بن الأحمر فی شأن لسان الدین، من کتاب له یسمی «فرائد الجمان، فیمن نظمنی و إیاه الزمان»] ----- ۱۴
[لابن خلدون فی شأن لسان الدین] ----- ۱۵
[لغیر هذین فی سلف لسان الدین] ----- ۱۵
[تعقیب للمؤلف] ----- ۱۵
[تعریف لسان الدین بنفسه فی آخر کتابه «الإحاطة» و نسب لسان الدین] ----- ۱۵
[سعید جد لسان الدین الأعلی] ----- ۱۶
[عبد اللّه بن سعید] ----- ۱۶
[سعید بن عبد اللّه الجد الأقرب للسان الدین و والده] ----- ۱۶
[بعض ما رثی به والد لسان الدین و قد استشهد فی موقعة طریف، لأبی محمد عبد اللّه الأزدی] ----- ۱۷
[قصیدة للسان الدین یجیب بها أبا محمد الأزدی الذی رثی والده] ----- ۱۷
[ذکر موقعة طریف التی استشهد فیها والد لسان الدین] ----- ۱۸
[ترجمة لسان الدین لوالده عبد اللّه بن سعید، و ذکر نماذج من شعره] ----- ۱۹
[رثاء لسان الدین لوالده] ----- ۲۰
[رثاء أبی زکریا بن هذیل لوالد لسان الدین عبد اللّه بن سعید] ----- ۲۰
[ترجمة أبی بکر بن عاصم، بقلم ابنه الوزیر أبی یحیی بن عاصم القیسی] ----- ۲۱
[عود إلی ترجمة لسان الدین و ذکر سلفه و ذکر نسبتهم «السلمانی» و أنهم من حی من مراد من عرب الیمن القطحانیین] ----- ۲۲

[بين لسان الدين و شيخه أبى الحسن بن الجياب] ----- ۲۲
[نونية للوزير أبى فارس عبد العزيز الفشتالى] ----- ۲۳
[نونية أخرى لأبى الفتح محمد بن عبد السلام المغربى التونسى نزيل دمشق] ----- ۲۶
[نونية لسان الدين بن الخطيب فى فتح تلمسان] ----- ۲۸
[كتاب من لسان الدين يخاطب به السلطان أبا سالم بعد فتح تلمسان، و قد جعله مقدمة لنونيته السابقة] ----- ۳۲
[نونية الفقيه الزجال عمر التى سماها «تسريح النصال، إلى مقاتل الفصال»] ----- ۳۳
[نونية للوزير أبى عبد اللّه بن زمرک أنشدها سلطان الأندلس يوم عيد] ----- ۳۶
[كلمة عن ابن زمرک الوزير] ----- ۳۹
[«لوشة» التى ينسب إليها لسان الدين بن الخطيب] ----- ۳۹
[ترجمة أبى عبد اللّه محمد بن إدريس المعروف بابن مرج الكحل] ----- ۳۹
[نماذج من شعر ابن مرج الكحل] ----- ۴۰
[وفاة ابن مرج الكحل] ----- ۴۲
[رائية لشمس الدين الكوفى الواعظ] ----- ۴۲
[من نظم ابن مرج الكحل] ----- ۴۳
[بين ابن مرج الكحل و الأديب أبى بحر صفوان بن إدريس] ----- ۴۴
[خطبة نكاح من إنشاء أبى بحر صفوان بن إدريس] ----- ۴۴
[رسالة عتاب من إنشاء صفوان بن إدريس] ----- ۴۵
[ترجمة صفوان بن إدريس عن «الإحاطة» للسان الدين بن الخطيب] ----- ۴۶
[قصيدة لصفوان بن إدريس فى تقديم مرسية على غيرها من البلدان] ----- ۴۶
[قصيدة لصفوان يراجع فيها أبا الربيع بن سالم عن أبيات مثلها] ----- ۴۸
[من رسال لصفوان بن إدريس يهنئ فيها قاضى الجماعة أبا القاسم بن بقى] ----- ۴۹
[رحلة صفوان إلى مراكش] ----- ۵۰
[ترجمة صفوان بن إدريس، عن ابن سعيد و ابن الأبار] ----- ۵۰
[من رثاء الحسين بن على بن أبى طالب رضى اللّه عنه لناهض بن محمد الوادى آشى] ----- ۵۱

[من شعر صفوان بن إدريس أيضا] ----- ۵۱
[بين صفوان بن إدريس و الوزير الكاتب أبي محمد بن حامد (إجازة)] ----- ۵۲
[بين صفوان و الوزير أبي إسحاق و قد رآه يقيد أشعارا من ظهر دفتر (إجازة)] ----- ۵۲
[بين صفوان و الوزير أبي محمد بن حامد أيضا و من شعر صفوان] ----- ۵۳
الباب الثاني في نشأة لسان الدين و ترقيه و وزارته ----- ۵۳
اشارة ----- ۵۳
[مولد لسان الدين، نقلا عن «الإحاطة» و نشأته نقلا عن ابن الأحمر] ----- ۵۳
[بعضهم في ذكر منزلة لسان الدين] ----- ۵۴
[من ترجمة لسان الدين بقلمه في كتابه «الإحاطة، في أخبار غرناطة»] ----- ۵۴
[تعريف لسان الدين بالسلطان أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج، أحد ملوك بني نصر] ----- ۵۶
[قصيدة للسان الدين في رثاء السلطان أبي الحجاج] ----- ۵۶
[ذكر خلع سلطان لسان الدين و قيام أخيه مقامه، عن لسان الدين في «اللمحة البدرية»] ----- ۵۸
[لسان الدين ينشد بين يدي سلطان فاس و قد التجأ هو و سلطانه إليه] ----- ۵۹
[من خطاب من إنشاء لسان الدين عن سلطانه إلى سلطان مصر المنصور بن أحمد بن الناصر بن قلاوون] ----- ۶۱
[رواية ابن خلدون في خلع ابن الأحمر سلطان لسان الدين] ----- ۶۴
[رواية أخرى لابن خلدون في خلع ابن الأحمر تتضمن نشأة لسان الدين و نهايته] ----- ۶۵
[ابن خلدون يتحدث عن مقتل لسان الدين] ----- ۷۰
[أبيات للسان الدين قالها و هو سجين] ----- ۷۱
[حديث للحافظ ابن حجر عن مقتل لسان الدين] ----- ۷۲
[تخميس بعض بني الصباغ لأبيات لسان الدين التي قالها و هو في السجن] ----- ۷۲
[أبيات لبعض الشاميين في معنى بعض أبيات لسان الدين] ----- ۷۳
[كلام لأبي الخطاب بن دحية في التسلي عن كوارث الزمان] ----- ۷۴
[أبيات في الاعتبار- و ذكر الموت] ----- ۷۵
[من أعداء لسان الدين القاضي أبو الحسن النباهي، و ما يتصل بذلك] ----- ۷۵

[حكاية للسان الدين مع رسول ملک النصارى تدل على علو همته] ۷۶
[مدح لسان الدين للقاضى النباهى و ذم لسان الدين للقاضى النباهى بعد أن أظهر له العداوة] ۷۷
[خطاب تقريع من القاضى النباهى إلى لسان الدين] ۷۷
[صورة مرسوم من إنشاء لسان الدين بتولى القاضى أبى الحسن النباهى القضاء، و فيه من الثناء على القاضى ما يدل على أنه لم يشكر النعمة] ۸۱
[مرسوم من إنشاء لسان الدين أيضا بتولى ابن زمرک كتابة السر] ۸۳
[مقارنة من المؤلف بين خلق لسان الدين و خلق القاضى النباهى و الكاتب ابن زمرک] ۸۳
و من إنشاء لسان الدين فى حقّ القاضى ابن الحسن أيضا- حين أضيفت إليه الخطابة إلى القضاء- على لسان سلطانه: ۸۴
[مرسوم من إنشاء لسان الدين أيضا بتولى القاضى النباهى الخطابة مع القضاء] ۸۴
[من هجو لسان الدين فى الوزير إبراهيم بن أبى الفتح الأصلع الغوى و فى ابن عمه محمد بن إبراهيم العقرب الردى] ۸۵
[من هجوه فى قاض من قضاة دولة السلطان إسماعيل بن الأحمر] ۸۷
[من هجوه فى وزير المغرب محمد بن على بن مسعود] ۸۷
[كتاب عتاب من لسان الدين بعث به إلى قاضى مكناسة الزيتون و قد تأخر عن لقائه يوم قدومه عليهم] ۸۷
[رسالة للسان الدين فى أحوال خدمة الدولة، و مصايرهم، و ما يجب عليهم، و كتب بها إلى ابن مرزوق] ۸۸
[تعليق لابن مرزوق على بعض ما جاء فى رسالة لسان الدين] ۹۱
[تعليق لابن لسان الدين على تعليق ابن مرزوق] ۹۲
[تعليق للمؤلف على كلام ابن مرزوق] ۹۲
[مرثية من شعر ابن صابر المنجنيقى] ۹۲
[إشارة و نماذج من مراث أخرى] ۹۳
[زيارة المؤلف لقبر لسان الدين] ۹۴
[رسالة لبعض أهالى المغرب فى العزاء بأبى جعفر بن جبير] ۹۴
[مقطوعات فى الزهد] ۹۵
[من شعر ابن الجوزى فى المعنى] ۹۶
[كلمة عن أبى الفرج بن الجوزى و مجالس وعظه، عن الذهبى و غيره] ۹۷
[رجع إلى أخبار لسان الدين] ۹۹

[من شعر لسان الدین و أخباره] ۹۹
[تحقیق فی شأن بیتین یقال إنهما قیلا فی لسان الدین] ۱۰۰
[عود إلی أخبار لسان الدین] ۱۰۱
[من قصیدة لابن زمرک یعرض فیها بلسان الدین] ۱۰۱
[قصیدة أخری لابن زمرک یهنئ فیها سلطانه الغنی بالله بفتح بلاد المغرب و ظفره بابن کاس مجیر لسان الدین] ۱۰۳
[قصیدة ثالثة لابن زمرک یهنئ بها سلطانه، قالها بعد مقتل لسان الدین] ۱۰۶
[رجع إلی أخبار لسان الدین] ۱۰۹
[استعطاف الوزیر أبی بکر بن عمار إلی المعتمد بن عباد حین قبض علیه] ۱۰۹
[نکبة عبد المؤمن بن علی للوزیر أبی جعفر بن عطیة] ۱۱۰
[من اعتذارات ابن عطیة لعبد المؤمن بن علی] ۱۱۰
[ذکر بعض الأدباء من آل عطیة و إجازة بین عبد المؤمن بن علی و وزیره أبی جعفر بن عطیة] ۱۱۲
[من رسالة لأبی جعفر بن عطیة کانت السبب فی ظهور تفوقه] ۱۱۲
الباب الثالث فی ذکر مشایخ لسان الدین الجلة هداة الناس و نجوم الملة ۱۱۳
اشارة ۱۱۳
[محمد بن أحمد، الحسین، السبتی، قاضی الجماعة] ۱۱۳
[مرثیة الوزیر ابن زمرک لشیخه قاضی الجماعة الحسنی، المذکور] ۱۱۶
[أبناء القاضی الحسین المذکور] ۱۱۸
[من شیوخ لسان الدین أبو عبد اللّه محمد بن جابر الوادی آشی] ۱۱۹
[بعض ما أنشده لسان الدین من شعر شیوخه، و لم یسمهم] ۱۲۰
[من شیوخ لسان الدین قاضی قضاة فاس أبو عبد اللّه المقری جد المؤلف (ترجمة مستفیضة)] ۱۲۱
[ترجمة أبی موسی عمران بن موسی بن یوسف المشدالی (من شیوخ المقری الکبیر)] ۱۳۰
[ترجمة أبی إسحاق إبراهیم بن حکم السلوی] ۱۳۰
[ترجمة أبی محمد عبد اللّه بن عبد الواحد بن إبراهیم بن الناصر، المجاصی] ۱۳۳
[ترجمة الشریف القاضی أبی علی حسن بن یوسف بن یحیی، الحسینی السبتی] ۱۳۴

[ترجمة قاضى الجماعة أبى عبد اللّه محمد بن منصور بن على بن هدية، القرشى] ----- ۱۳۵
[ترجمة لأبى عبد اللّه محمد بن أحمد بن على التميمى] ----- ۱۳۵
[ترجمة لأبى عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن عبد النور] ----- ۱۳۶
[ترجمة لأبى عبد اللّه محمد بن الحسين البرونى] ----- ۱۳۶
[ترجمة لأبى عمران موسى المصمودى الشهير بالبخارى] ----- ۱۳۶
[ترجمة لأبى عبد اللّه محمد بن يحيى بن على بن النجار] ----- ۱۳۶
[ترجمة لأبى الحسن على بن أبى بكر بن سبع بن مزاحم، المكناسى] ----- ۱۳۷
[ترجمة لأبى عبد اللّه محمد بن حسين، القرشى، الزبيدى، التونسى] ----- ۱۳۷
[ترجمة لإمام أهل الحديث فى عصره أبى محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمى] ----- ۱۳۸
[ترجمة أبى عبد اللّه محمد بن سليمان السطى] ----- ۱۳۸
[ترجمة أبى عثمان سعيد بن إبراهيم بن على الخياط] ----- ۱۳۸
[ترجمة أبى عبد اللّه محمد بن على بن الجمال و ابنا أبى عبد اللّه محمد بن مرزوق العجيسى، و هما أبو عبد اللّه محمد، و أبو العباس أحمد] ۱۳۸
[أبو زيد عبد الرحمن بن يعقوب الصنهاجى و أبو عبد اللّه محمد بن محمد الغزمونى] ----- ۱۳۹
[أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم العبدرى] ----- ۱۳۹
[أبو عبد اللّه بن أحمد بن شاطر الجمحى] ----- ۱۴۱
[ذكر جماعة من شيوخ المقرى الكبير بتلمسان] ----- ۱۴۲
[ذكر شيوخه فى تونس] ----- ۱۴۲
[شيوخه فى فاس، و فى أغمات] ----- ۱۴۳
[شيوخه فى مكة، و فى المدينة، و فى الشام] ----- ۱۴۴
[رواية ابن خلدون عن شيخه أبى عبد اللّه المقرى الكبير] ----- ۱۴۴
[من فوائد المقرى الكبير فى مواضع مختلفة] ----- ۱۴۵
[من فوائده التى ذكرها تلميذه النظار أبو إسحاق الشاطبى فى كتابه «الإنشاءات و الإفادات»] ----- ۱۴۹
[من فوائد المقرى الكبير مما لم يذكر سابقا] ----- ۱۵۱
[ترجمات قصار للمقرى الكبير عن صاحب كتاب «نيل الابتهاج» و عن المرزوقى، و عن الوانشريسى] ----- ۱۵۵

[مؤلفات المقرى الكبير] ----- ۱۵۷
[بعض فوائد المقرى الكبير التى أودعها كتابه «المحاضرات»] ----- ۱۵۸
[رجع إلى سرد مؤلفات المقرى الكبير] ----- ۱۷۰
[من فوائد المقرى الكبير التى أودعها فى كتابه «الحقائق و الرقائق»] ----- ۱۷۰
[من شعر المقرى الكبير و لمحة العارض لتكملة تائية ابن الفارض] ----- ۱۷۸
[من شعره الذى رواه لسان الدين فى الإحاطة] ----- ۱۸۴
[او من شعره الذى لم يذكره فى الإحاطة] ----- ۱۸۵
[تلامذة المقرى الكبير] ----- ۱۸۶
[ترجمة ابن عباد الرندى شارح حكم ابن عطاء اللّه الإسكندرى] ----- ۱۸۶
[عود إلى شيوخ لسان الدين و ترجمة أبى محمد عبد الحق بن سعيد بن محمد] ----- ۱۹۰
[ترجمة الفقيه يونس بن عطية (ابن أبى عفيف) الوانشريسى] ----- ۱۹۱
[أبو على عمر بن عثمان الوانشريسى] ----- ۱۹۱
[أبو جعفر أحمد بن محمد، الجنان، الأوسى] ----- ۱۹۱
[أبو عبد اللّه بن أبى رمانة] ----- ۱۹۱
[أبو على الحسن بن عثمان بن عطية الوانشريسى] ----- ۱۹۱
[أبو العباس أحمد بن عاشر] ----- ۱۹۲
[أبو عبد اللّه محمد بن على الفخار البيرى] ----- ۱۹۳
و لنورد بعض فوائد ابن الفخار فنقول ----- ۱۹۳
[أبو عبد اللّه محمد بن خميس التلمسانى] ----- ۱۹۵
[عود إلى ترجمة ابن الفخار، و ذكر فوائده] ----- ۲۰۵
[أبو محمد عبد اللّه بن عبد اللّه بن حذلم، و ذكر نموذج من شعره] ----- ۲۰۷
[وفاة ابن الفخار] ----- ۲۰۸
[من مشايخ لسان الدين أبو عبد اللّه بن عبد الولى العواد] ----- ۲۰۸
[و منهم أبو عبد اللّه بن بيبش] ----- ۲۰۸

[او منهم قاضی الجماعة أبو عبد اللّه بن أبی بکر، الأشعری، المالقی] ----- ۲۰۹
و من أهل إفریقیة المعمر أبو محمد بن هارون و محمد بن سید الناس. ----- ۲۱۰
[او منهم ابن أبی یحیی، و اسمه إبراهیم بن عبد الرحمن بن أبی بکر، التسولی] ----- ۲۱۰
[او منهم محمد بن أحمد الطنجالی الهاشمی] ----- ۲۱۰
[او منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن مرزوق (ترجمته باستفاضة عن لسان الدین)] ----- ۲۱۱
و من النساء الشیخة المسندة ست الفقهاء فاطمة بنت محمد الفیومی البکری. ----- ۲۱۳
[نماذج من شعر ابن مرزوق] ----- ۲۱۴
[خطاب من لسان الدین إلی ابن مرزوق حین قدم علی بنی مرین مفلتا من الأندلس] ----- ۲۱۹
[نکبة ابن مرزوق و خلاصه منها] ----- ۲۲۰
[ترجمة أبی عبد اللّه بن مرزوق عن المؤرخ ابن خلدون] ----- ۲۲۳
[ترجمة ابن مرزوق عن الحافظ ابن حجر] ----- ۲۲۴
[ترجمته عن الخطیب القسمطینی] ----- ۲۲۴
[ترجمة ابن مرزوق (و یعرف بابن مرزوق الکفیف، و هو والد أم جد المؤلف) و ترجمة عالم الدنیا أبی عبد اللّه محمد بن مرزوق (المعروف بابن مرزوق
[او من شیوخ لسان الدین أبو الحسن علی بن الجیاب، الأنصاری، الغرناطی] ----- ۲۳۳
[رثاء لسان الدین لشیخه ابن الجیاب] ----- ۲۴۰
[رثاء الفقیه أبی عبد اللّه بن جزی لأبی الحسن بن الجیاب] ----- ۲۴۲
[مطالع ثلاث مراث فی ابن الجیاب] ----- ۲۴۳
[من شعر ابن الجیاب فی الألغاز] ----- ۲۴۴
[من نظم ابن الجیاب فی رثاء عمر بن علی بن عتیق القرشی الغرناطی] ----- ۲۴۶
[بین ابن الجیاب و ابن شیرین و ابن أبی العافیة و غیرهم] ----- ۲۴۷
[بین ابن الجیاب و أبی محمد بن أبی المجد] ----- ۲۴۸
[ترجمة عبد اللّه بن عبد البر بن علی بن سلیمان الرعینی (المعروف بابن أبی المجد)] ----- ۲۴۸
فهرس الرسائل و الخطب و المراسیم للجزء السادس من کتاب نفح الطیب ----- ۲۴۸
فهرس الجزء السادس من کتاب نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب للمقری التلمسانی ----- ۲۴۹

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ---------- ۲۵۵

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب المجلد ۶

اشارة

نام كتاب: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

نويسنده: مقرى، احمد بن محمد

تاريخ وفات مؤلف: ۱۰۴۱ ه. ق

محقق / مصحح: بقاعى، يوسف

موضوع: جغرافياى شهرها

زبان: عربى

تعداد جلد: ۱۰

ناشر: دار الفكر

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ۱۴۱۹ ه. ق

[القسم الثانى فى التعريف بلسان الدين بن الخطيب]

الباب الأول فى أولية لسان الدين و ذكر أسلافه

اشارة

فى أوّلية لسان الدين و ذكر أسلافه، الذين ورث عنهم المجد و ارتضع درّ أخلافه، و ما يناسب ذلك ممّا لا يعدل المنصف إلى خلافه.

[منزلته فى الكتابة]

أقول: هو الوزير، الشهير الكبير، لسان الدين الطائر الصّيت فى المغرب و المشرق المزرى عرف الثناء عليه بالعنبر و العبير، المثل المضروب فى الكتابة و الشعر و الطبّ و معرفة العلوم على اختلاف أنواعها، و مصنّفاته تخبر عن ذلك و لا ينبئك مثل خبير، علم الرؤساء الأعلام، الوزير الشهير الذى خدمته السيوف و الأقلام، و غنى بمشهور ذكره عن مسطور

[للأمير إسماعيل بن يوسف بن الأحمر فى شأن لسان الدين، من كتاب له يسمى «فرائد الجمان، فيمن نظمنى و إياه الزمان»]

التعريف و الإعلام، و اعترف له بالفضل أصحاب العقول الراجحة و الأحلام.

قال سليل السلاطين الأمير العلامة إسماعيل بن يوسف ابن السلطان القائم بأمر اللّه محمد بن الأحمر نزيل فاس رحمه اللّه فى كتابه المسمّى ب «فرائد الجمان، فيمن نظمنى و إياه الزمان» فى حقّ المذكور ما نصّه: ذو الوزارتين، الفقيه الكاتب أبو عبد اللّه بن محمد الرئيس الفقيه الكاتب المنتزى ببلده لوشة عبد اللّه ابن الفقيه الكاتب القائد سعيد بن عبد اللّه، ابن الفقيه الصالح ولى اللّه الخطيب سعيد، السّلمانى، اللّوشى، المعروف بابن الخطيب.

[لابن خلدون فى شأن لسان الدين]

و قال القاضى ابن خلدون المغربى المالكى رحمه اللّه فى تاريخه الكبير، عند ما أجرى ذكر لسان الدين، ما نصّه: أصل هذا الرجل من لوشة، على مرحلة من غرناطة فى الشمال

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۴

من البسيط الذى فى ساحتها، المسمّى بالمرج، و على وادى شنجيل - و يقال شنيل- المخترق فى ذلك البسيط من الجنوب إلى الشمال، كان له بها سلك معدود فى وزرائها، و انتقل أبوه عبد اللّه إلى غرناطة، و استخدم لملوك بنى الأحمر، و استعمل على مخازن الطعام؛ انتهى.

[لغير هذين فى سلف لسان الدين]

و قال غيره: إنّ بيتهم يعرف قديما ببنى الوزير، و حديثا ببنى الخطيب، و سعيد جدّه الأعلى أوّل من تلقّب بالخطيب، و كان من أهل العلم و الدين و الخير، و كذلك سعيد جدّه الأقرب كان على خلال حميدة من خطّ و تلاوة وفقه و حساب و أدب، خيرا صدرا، توفى عام ثلاثة و ثمانين و ستمائة، و أبوه عبد اللّه كان من العلماء بالأدب و الطبّ، و قرأ على أبى الحسن البلوطى و أبى جعفر ابن الوزير و غيرهما و أجازه طائفة من أهل المشرق، و توفى بطريف عام أحد و أربعين و سبعمائة شهيدا يوم الاثنين السابع من جمادى الأولى من العام المذكور مفقودا ثابت الجأش، شكر اللّه فعله!.

[تعقيب للمؤلف]

قلت: و ما ذكره هؤلاء أكثره مأخوذ من كلامه عند تعريفه رحمه اللّه بنفسه آخر «الإحاطة»، و لنذكر ملخّصه إذ صاحب البيت أدرى بالذى فيه، مع ما فيه من الزيادة على ما سبق، و هى تتم للطالب أمله و توفّيه.

[تعريف لسان الدين بنفسه فى آخر كتابه «الإحاطة» و نسب لسان الدين]

قال رحمه اللّه: يقول مؤلف هذا الديوان تغمّد اللّه خطله فى ساعات أضاعها، و شهوة من شهوات اللسان أطاعها، و أوقات للاشتغال بما لا يعنيه استبدل بها اللهو لما باعها: أمّا بعد حمد اللّه الذى يغفر الخطيّة، و يحث من النفس اللّجوج المطيّة، فتحرّك ركائبها البطيّة، و الصلاة و السلام على سيدنا و مولانا محمد ميسّر سبل الخير الوطيّة و الرضا عن آله و صحبه و منتهى الفضل و مناخ الطيّة، فإننى لمّا فرغت من تأليف هذا الكتاب الذى حمل عليه فضل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۵

النشاط، مع الالتزام لمراعاة السياسة السلطانية و الارتباط، و التفتّ إليه فراقنى منه صوان درر، و مطلع غرر، قد تخلّدت مآثرهم مع ذهاب أعيانهم، و انتشرت مفاخرهم مع انطواء زمانهم، نافستهم فى اقتحام تلك الأبواب، و لباس تلك الأثواب، و قنعت باجتماع الشمل بهم و لو فى الكتاب، و حرصت على أن أنال منهم قربا، و أخذت أعقابهم أدبا و حبّا، و كما قيل: ساقى القوم آخرهم شربا، فأجريت نفسى مجراهم فى التعريف، و حذوت بها حذوهم فى بابى النسب و التصريف، بقصد التشريف، و اللّه سبحانه لا يعدمنى و إيّاهم واقفا يترحّم، و ركاب الاستغفار بمنكبه يزحم، عندما ارتفعت وظائف الأعمال، و انقطعت من التّكسّبات حبال الآمال، و لم يبق إلّا رحمة اللّه التى تنتاش النفوس و تخلّصها، و تعينها بميسم السعادة و تخصّصها، جعلنا اللّه ممّن حسن ذكره، و وقف على التماس ما لديه فكره، بمنّه.

[سعيد جد لسان الدين الأعلى]

محمد بن عبد اللّه بن سعيد بن عبد اللّه بن سعيد بن على بن أحمد السّلمانى، قرطبى الأصل، ثم طليطليه، ثم لوشيّه، ثم غرناطيّه، يكنى أبا عبد اللّه، و يلقّب من الألقاب المشرقية بلسان الدين. (أوّليّتى) يعرف بيتنا فى القديم بوزير، ثم حديثا بلوشة ببنى الخطيب. انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية كيحيى الليثى و أمثاله، عند وقعة الرّبض الشهيرة، إلى طليطلة، ثم تسرّبوا محوّمين على وطنهم قبل استيلاء الطاغية عليه، فاستقرّ منهم بالموسطة الأندلسية جملة من النبهاء تضمّن منهم ذكر خلق، كعبد الرحمن قاضى كورة باغة، و سعيد المستوطن بلوشة الخطيب بها، المقرون اسمه بالتّسويد عند أهلها، جاريا مجرى التسمية بالمركّب فى تاريخ الغافقى و غيره، و سكن عقبهم بها، و سكن بعضهم منتقرير مملكين إياها مختطين جبل التحصن و المنعة فنسبوا إليها.

و كان سعيد هذا من أهل العلم و الخير و الصلاح و الدّين و الفضل و ذكاء الفطنة، أوقفنى الوزير أبو الحكم بن محمد المنتقيرى- و هو بقية هذا البيت و إخباريه- على جدار برج ببعض ربى أملاكنا بلوشة، تطؤه الطريق المارة من غرناطة إلى إشبيلية، و قال: كان جدّك يذيع بهذا المكان فصولا من العلم، و يجهر بتلاوة القرآن، فيستوقف الرفاق المدلجة الحنين إلى

نغمته، و الخشوع إلى صدقه، فتعرّس رحالها لصق جداره، و تريح ظهرها موهنا، إلى أن يأتى على ورده. و توفى و قد أصيب بأهله و حرمه عند ما تغلّب العدوّ على بلده عنوة فى خبر طويل.

وقفت على مكتوبات من المتوكل على اللّه، محمد بن يوسف بن هود أمير المسلمين بالأندلس، فى غرض إعانته و الشفاعة إلى الملكة زوج سلطان قشتالة بما يدلّ على نباهته قديما و يفيد إثارة عبرة، و استقالة عثرة.

[عبد اللّه بن سعيد]

و تخلّف ولده عبد اللّه جاريا مجراه فى التجلّد و التمعش من حرّ النّشب، و النزيّى بالانقباض، و التحلّى بالنزاهة، إلى أن توفى

[سعيد بن عبد اللّه الجد الأقرب للسان الدين و والده]

و تخلّف ولده سعيدا جدّنا الأقرب، و كان صدرا خيّرا مستوليا على خلال حميدة، من خطّ و تلاوة وفقه و حساب و أدب، نافس جيرته بنى الطّنجالى الهاشميين، و تحوّل إلى غرناطة عند ما شعر بعملهم على الثورة، و استطلاعهم إلى النّزوة التى خضدت الشوكة، و استأصلت منهم الشّأفة، و صاهر بها الأعيان من بنى أضحى بن عبد اللطيف الهمدانى، أشراف جند حمص، الداخلين إلى الجزيرة فى طليعة بلج بن بشر القشيرى، و لحقه من جرّاء منافسيه لما جاهروا السلطان بالخلعان اعتقال أعتبه السلطان بعده، و أحظاه على تفئته، و ولّاه الأعمال النّبيهة و الخطط الرفيعة.

حدّثنى من أثق به قال: عزم السلطان أن يقعد جدّك أستاذا لولده، فأنفت من ذلك أمّ الولد إشفاقا عليه من فظاظة كانت فيه. ثم صاهر القواد من بنى الجعدالة على أمّ أبى، و متّت إلى زوج السلطان ببنوّة الخؤولة، فنبه القدر، و انفسحت الحظوة، و انثال على البيت الرؤساء و القرابة، و كان- على قوة شكيمته و صلابة مكسره- مؤثرا للخمول، محبّا فى الخير. حدّثنى أبى عن أمّه قالت: قلّما تهنّأنا نحن و أبوك طعاما حافلا لإيثاره به من كان يكمن بمسجد جواره من أهل الحاجة و أحلاف الضرورة، يهجم علينا منهم بكل وارد، و يجعل يده مع يده، و يشركه فى أكيلته، ملتذّا بموقعها من فؤاده. و توفى فى ربيع الآخر سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة، صهرته الشمس مستسقيا فى بعض المحول، و قد استغرق فى ضراعته، فدلّت الحتف على نفسه.

و تخلّف والدى نابتا فى الترف نبت العلّيق، يكنفه رعى أمّ تجر ذيل نعمة و تحنو منه على واحد تحذر عليه النسيم إذا سرى، ففاته

لترفه حظّ كبير من الاجتهاد، و على ذلك فقرأ على الخطيب أبى الحسن البلوطى و المقرئ أبى عبد اللّه بن سمعون و أبى جعفر بن الزبير

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۷

خاتمة الجلة، و كان يفضّله. و انتقل إلى لوشة بلد سلفه مخصوصا بلقب الوزارة إلى أن قصدها السلطان أبو الوليد متخطّيا إلى الحضرة هاويا إلى ملك البيضة، فعضّد أمره، و أدخله بلده، لدواع يطول استقصاؤها. و لمّا تمّ له الأمر صحب ركابه إلى دار ملكه، مستأثرا بشقص عريض من دنياه. و كان من رجال الكمال، طلق الوجه، مع الظرف، و تضمّن كتاب «التاج المحلّى» و «الإحاطة» رائقا من شعره، و فقد فى الكائنة العظمى بطريف يوم الاثنين سابع جمادى الأولى سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، ثابت الجأش، غير جزوع و لا هيّابة. حدّثنى الخطيب بالمسجد الجامع من غرناطة، الفقيه أبو عبد اللّه بن اللوشى قال: كبا بأخيك الطّرف، و قد غشى العدو، و جنحت إلى إردافه، فانحدر إليه والدك، و صرفنى، و قال: أنا أولى به، فكان آخر العهد بهما، انتهى.

[بعض ما رثى به والد لسان الدين و قد استشهد فى موقعة طريف، لأبى محمد عبد اللّه الأزدى]

و ممّا رثى به والد لسان الدين و أخوه ما ذكره فى «الإحاطة» فى ترجمة أبى محمد عبد اللّه الأزدى إذ قال ما نصّه: و ممّا كتب إلىّ فيما أصابنى بطريف: [الكامل]

خطب ألمّ فأذهب الأخ و الأبا رغما لأنف شاء ذلك أو أبى

قدر جرى فى الخلق لا يجد امرؤ عمّا به جرت المقادر مهربا

إمّا جزعت له فعذر بيّن قضت الدواهى أن تحلّ له الحبا

لا كان يومهما الكريه فكم و كم فيه المجلّى و المصلّى قد كبا

يوم لوى ليّانه لم يبق لل إسلام حدّ مهنّد إلّا نبا

و تجمّعت فيه الضلال فقابلت فيه الهدى فتفرّقت أيدى سبا

آها لعزّ المحتدين صرامة لأذلّ عزّ المهتدين و أذهبا

دهم المصاب فعمّ إلّا أنه فيما يخصّك ما أمرّ و أصعبا

يا ابن الخطيب خطاب مكترث لما قد ألزم البتّ الألدّ و أوجبا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۸

قاسمتك الشجو المقاسمة التى صارت بخالص ما محضتك مذهبا

لم لا و أنت لدىّ سابق حلبة تزهى بمن فى السابقين تأدّبا

لا عاد يوم نال منك و لا أتت سنة به ما الليل أبدى كوكبا

يهنى الشهيدين الشهادة إنها سبب يزيد من الإله تقرّبا

وردا على دار النعيم و حورها كلفا ببرّهما يزدن ترحّبا

فاستغن بالرحمن عمّن قد ثوى من حزب خير من ارتضى و من اجتبى

[قصيدة للسان الدين يجيب بها أبا محمد الأزدى الذى رثى والده]

فأجبته بقولى: [الكامل]

أهلا بمقدمك السنىّ و مرحبا فلقد حبانى اللّه منك بما حبا

وافيت و الدنيا عليّ كأنها سمّ الخياط و طرف صبرى قد كبا

و الدهر قد كشف القناع و لم يدع لى عدّة للروع إلّا أذهبا

صرف العنان إليّ غير مدافع عنى، و أثبت دون نصرتى الشّبا

خطب تأوّبنى يضيق لهوله رحب الفضا و تهى لموقعه الرّبا

لو كان بالورق الصوادح فى الدّجى ما بى لعاق الورق عن أن تندبا

فأنرت من ظلماء همّى ما دجا و قدحت من زند اصطبارى ما خبا

فكأننى لعب الهجير بمهجتى و بعثت لى من نفحها نفس الصّبا

لا كان يومك يا طريف فطالما أطلعت للآمال برقا خلّبا

و رميت دين اللّه منك بفادح عمّ البسيط مشرّقا و مغرّبا

و خصصتنى بالرّزء و الثّكل الذى أوهى القوى منى و هدّ المنكبا

لا حسن للدنيا لدىّ و لا أرى للعيش بعد أبى و صنوى مأربا

لو لا التعلّل بالرحيل و أننا ننضى من الأعمار فيها مركبا

فإذا ركضنا للشبيبة أدهما حال المشيب به فأصبح أشهبا

و الملتقى كثب و فى ورد الرّدى نهل الورى من شاء ذلك أو أبى

لجريت طوع الحزن دون نهاية و ذهبت من خلع التصبّر مذهبا

و الصبر أولى ما استكان له الفتى رغما، و حقّ العبد أن يتأدّبا

و إذا اعتمدت اللّه يوما مفزعا لم تلف منه سوى إليه المهربا

[ذكر موقعة طريف التى استشهد فيها والد لسان الدين]

و واقعة طريف هذه استشهد فيها جماعة من الأكابر و غيرهم، و كان سببها أنّ سلطان فاس أمير المسلمين أبا الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المرينى أجاز البحر إلى جزيرة الأندلس برسم الجهاد و نصرة أهلها على عدوّهم، حسبما جرت بذلك عادة سلفه و غيرهم من ملوك العدوة، و شمّر عن ساعد الاجتهاد، و جرّ من الجيوش الإسلامية نحو ستين ألفا، و جاء إليه أهل الأندلس بقصد الإمداد، و سلطانهم ابن الأحمر و من معه من الأجناد، فقضى اللّه الذى لا مردّ لما قدّره، أن صارت تلك الجموع مكسّرة، و رجع السلطان أبو الحسن مفلولا، و أضحى حسام الهزيمة عليه و على من معه مسلولا، و نجا برأس طمرّة و لجام، و لا تسل كيف، و قتل جمع من أهل الإسلام، و لمّة وافرة من الأعلام، و أمضى فيهم حكمه السيف، و أسر ابن السلطان و حريمه و خدمه، و نهبت ذخائره، و استولت على الجميع أيدى الكفر و الحيف، و اشرأبّ العدوّ الكافر لأخذ ما بقى من الجزيرة ذات الظلّ الوريف، و ثبتت قدمه إذ ذاك فى بلد طريف، و بالجملة فهذه الواقعة من الدواهى المعضلة الداء، و الأرزاء التى تضعضع لها ركن الدين بالمغرب، و قرّت بذلك عيون الأعداء، و لو لا خشية الخروج عن المقصود لأوردت قصّتها الطويلة، و سردت منها ما يحقّ لسامعه أن يكثر بكاءه و عويله، و قد ألمّ بها الولى قاضى القضاة ابن خلدون المغربى فى كتاب «العبر، و ديوان المبتدأ و الخبر، فى

أيام العرب و العجم و البربر، و من عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر» فليراجعه من أراده فى المجلد الثامن من هذا التاريخ الجامع، فإنه ذكر حين ساق هذه الكائنة ما يخرس الألسن و يصم المسامع، و للّه الأمر من قبل و من بعد.

و قول لسان الدين رحمه اللّه فى أوّليّة سلفه: «إنهم انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية- إلى آخره» أشار بذلك إلى واقعة الرّبض الشهيرة التى ذكرها ابن حيّان فى تاريخه الكبير المسمّى ب «المقتبس، فى تاريخ الأندلس» و قصّ أمرها غير واحد كابن الفرضى و ابن خلدون، و ملخّصها أنّ أهل ربض قرطبة ثاروا على الأمير الحكم الأموى، و فيهم علماء أكابر مثل يحيى بن يحيى الليثى صاحب إمامنا مالك رضى اللّه عنه و غيره، فكانت النصرة للحكم، فلمّا ظفر و قتل من شاء أجلى من بقى إلى البلاد، و بعضهم إلى جزيرة إقريطش ببحر الإسكندرية، و فى قصتهم طول، و ليس هذا محلّها.

[ترجمة لسان الدين لوالده عبد اللّه بن سعيد، و ذكر نماذج من شعره]

و قال لسان الدين رحمه اللّه أيضا فى حقّ والده ما حاصله: عبد اللّه بن سعيد بن عبد اللّه بن سعيد بن أحمد بن على السّلمانى، أبو محمد، غرناطى الولادة و الاستيطان، لوشىّ الأصل، طليطليّه قرطبيّه.

و قال فى الإكليل: إن طال الكلام، و جمحت الأقلام، كنت كما قيل: مادح نفسه يقرئك السلام، و إن أحجمت، فما أسديت فى الثناء و لا ألحمت، و أضعت الحقوق، و خفت و معاذ اللّه العقوق. هذا و لو أنى زجرت طير البيان من أوكاره، و جئت بعون الإحسان و أبكاره، لما قضيت حقّه بعد، و لا قلت إلّا بالتى علمت سعد، فقد كان رحمه اللّه ذمر عزم، و رجل رخاء و أزم، تروق أنوار خلاله الباهرة، و تضىء مجالس الملوك من صورتيه الباطنة و الظاهرة، ذكاء يتوقّد، و طلاقة يحسد نورها الفرقد. و كانت له فى الأدب فريضة، و فى النادرة العذبة منادم عريضة، تكلّمت يوما بين يديه فى مسائل من الطب، و أنشدته أبياتا من شعرى و رقاعا من إنشائى فتهلّل، و ما برح أن ارتجل: [مخلع البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۱

الطبّ و الشعر و الكتابه سماتنا فى بنى النّجابه

هنّ ثلاث مبلّغات مراتبا بعضها الحجابه

و وقّع لى يوما بخطّه على ظهر أبيات بعثتها إليه أعرض عليه نمطها: [الكامل]

وردت كما صدر النسيم بسحرة عن روضة جاد الغمام رباها

و كأنّما هاروت أودع سحره فيها و آثرها به و حباها

مصقولة الألفاظ يبهر حسنها فبمثلها افتخر البليغ و باهى

فقررت عينا عند رؤية حسنها إنى أبوك، و كنت أنت أباها

و من نظمه قوله: [الوافر]

و قالوا قد دنا فاصبر ستشفى فترياق الهوى بعد الدّيار

فقلت هبوا بأنّ الحقّ هذا بقلبى يمّموا فبم اصطبارى

و قال: [السريع]

عليك بالصمت فكم ناطق كلامه أدّى إلى كلمه

إنّ لسان المرء أهدى إلى غرّته و اللّه من خصمه

يرى صغير الجرم مستضعفا و جرمه أكبر من جرمه

و قال: [الخفيف]

أنا بالدّهر يا بنىّ خبير فإذا شئت علمه فتعال

كم مليك قد ارتعى منه روضا لم يدافع عنه الردى ما ارتعى لا

كلّ شيء تراه يفنى، و يبقى ربّنا اللّه ذو الجلال تعالى

[رثاء لسان الدين لوالده]

مولده بغرناطة فى جمادى الأولى عام اثنتين و سبعين و ستمائة، و فقد يوم الوقيعة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۲

الكبرى بظاهر طريف، يوم الاثنين سابع جمادى الأولى عام واحد و أربعين و سبعمائة. و رثيته بقصيدة أولها: [الطويل]

سهام المنايا لا تطيش و لا تخطى و للدهر كفّ تستردّ الذى تعطى

و إنّا و إن كنّا على ثبج الدّنا فلا بدّ يوما أن نحلّ على الشّطّ

تساوى على ورد الرّدى كلّ وارد فلم يغن ربّ السيف عن ربّة القرط

و سيّان ذلّ الفقر أو عزّة الغنى و من أسرع السّير الحثيث و من يبطى

و هى طويلة.

[رثاء أبى زكريا بن هذيل لوالد لسان الدين عبد اللّه بن سعيد]

قال: ورثاه شيخنا أبو زكريا بن هذيل بقصيدة يقول فيها: [الطويل]

إذا أنا لم أرث الصديق فما عذرى إذا قلت أبياتا حسانا من الشعر

و لو كان شعرى لم يكن غير ندبة و أجريت دمعى لليراع عن الحبر

لما كنت أقضى حقّ صحبته التى توخّيتها عونا على نوب الدهر

رمانى عبد اللّه يوم وداعه بداهية دهياء قاصمة الظّهر

قطعت رجائى حين صحّ حديثه فإن يوف لى دمعى فقد خاننى صبرى

و هل مؤنس كابن الخطيب لوحشتى أبثّ له همّى و أودعه سرّى

و منها:

تولّى و أخبار الجلالة بعده مؤرّجة الأنباء طيّبة النّشر

رضينا بترك الصبر من بعد بعده على قدر ما فى الصبر من عظم الأجر.

أتى بفتيت المسك فوق جبينه نجيعا يفوق المسك فى موقف الحشر

لقد لقى الكفار منه بعزمة لها لقيته الحور بالبرّ و البشر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۳

تجلّت عروسا جنّة الخلد فى الوغى تقول لأهل الفوز: لا يغلكم مهرى

فكان من القوم الذين تبادروا إلى العالم الأعلى مع الرفقة الغرّ

تعالوا بنا نسقى الأباطح و الرّبا بقطر دموع غالبات على القطر

ألا لا تلم عينى لسكب دموعها فما سكبت إلّا على الماجد الحرّ

و منها:

أ إخواننا، جدّوا فكم جدّ غيركم و سيروا على خفّ من الحوب و الوزر

على سفر أنتم لدار تأخّرت و ما الفوز فى الأخرى سوى خفّة الظهر

و ما العيش إلّا يقظة مثل نومة و ما العمر إلّا كالخيال الذى يسرى

على الحقّ أنتم قادمون فشمّروا فليس لمخذول هنالك من عذر

و هى طويلة، تجاوز اللّه عنّا و عنهم أجمعين! انتهى ما لخّصته من كلام لسان الدين رحمه اللّه.

[ترجمة أبى بكر بن عاصم، بقلم ابنه الوزير أبى يحيى بن عاصم القيسى]

قلت: على منوال كلامه فى تحلية أبيه النبيه نسج الوزير الكاتب الشهير القاضى أبو يحيى بن عاصم القيسى الأندلسى رحمه اللّه فى وصف أبيه القاضى أبى بكر بن عاصم صاحب «التحفة فى علم القضاء»، و هو محمد بن محمد بن محمد بن عاصم الأندلسى الغرناطى، قاضى الجماعة، الرئيس أبو بكر، و نصّ المحتاج إليه فى هذا المحلّ من كلام ولده قوله رحمه اللّه: إن بسطت القول، أو عددت الطّول، و أحكمت الأوصاف، و توخّيت الإنصاف، أنفدت الطروس، و كنت كما يقول الناس فى المثل من مدح العروس، و إن أضربت عن ذلك صفحا فلبئسما صنعت، و لشرّ ما أمسكت المعروف و منعت، و لكم من حقوق الأبوة أضعت، و من ثدى للمعقّة رضعت، و من شيطان لغمصة الحقّ أطعت، و لم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۴

أرد إلّا الإصلاح ما استطعت، و إن توسّطت و اقتصرت، و أوجزت و اختصرت، فلا الحقّ نصرت، و لا أفنان البلاغة هصرت، و لا سبيل الرشد أبصرت، و لا عن هوى الحسدة أقصرت، هذا و لو أنى أجهدت ألسنة البلاغة فجهدت، و أيقظت عيون الإجادة فسهدت، و استعرت مواقف عكاظ على ما عهدت، لما قررت من الفضل إلّا ما به الأعداء قد شهدت، و لا استقصيت من المجد إلّا ما أوصت به الفئة الشانئة لخلفها الأبتر و عهدت، فقد كان- رحمه اللّه!- علم الكمال، و رجل الحقيقة، و قارا لا يخف راسيه، و لا يعرى كاسيه، و سكونا لا- يطرق جانبه، و لا يرهب غالبه، و حلما لا تزلّ حصاته، و لا تهمل وصاته، و انقباضا لا يتعدّى رسمه، و لا يتجاوز حكمه، و نزاهة لا ترخص قيمتها، و لا تلين عزيمتها، و ديانة لا تحسر أذيالها، و لا يشفّ سربالها، و إدراكا لا يفلّ نصله، و لا يدرك خصله، و ذهنا لا- يخبو نوره، و لا- ينبو مطروره، و فهما لا- يخفى فلقه، و لا- يهزم فيلقه، و لا- يلحق بحره، و لا يعطل نحره، و تحصيلا لا يفلت قنيصه، و لا يسام حريصه، بل لا يحلّ عقاله، و لا يصدأ صقاله، و طلبا لا تتّحد فنونه، و لا تتعيّن عيونه، بل لا تحصر معارفه، و لا تقصر مصارفه، يقوم أتمّ قيام على النحو على طريقة متأخرى النحاة، جمعا بين القياس و السماع، و توجيه الأقوال البصرية، و استحضار الشواهد العشرية، و استظهار اللغات و الأعربة، و استبصارا فى مذاهب المعربة، محلّيا أجياد تلك الأعاريب، من علمى البديع و البيان بجواهر أسلاك، و مجلّيا فى آفاق تلك الأساليب، من فوائد هذين الفنين زواهر أفلاك، إلى ما يتعلّق بذلك من قافية للعروض و ميزان، و ما للشعر من بحور و أوزان، تضلع بالقراءات أكمل اضطلاع، مع التحقيق و الاطلاع، فيقنع ابن الباذش من إقناعه، و يشرح لابن شريح ما أشكل من أوضاعه، و يقصر عن رتبته الدانى، و يحرز صدر المنصّة من حرز الأمانى، و يشارك فى المنطق و أصول الفقه و العدد و الفرائض و الأحكام مشاركة حسنة، و يتقدّم فى الأدب نظما و نثرا و شعرا، إلى براعة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۵

الخطّ، و إحكام الرسم، و إتقان بعض الصنائع العملية، كتفسير الكتب، و تنزيل الذهب، و غيرهما. نشأ بالحضرة العليّة لا يغيب عن حلقات المشيخة و لا يريم عن مظان الاستفادة، و لا يفتر عن المطالعة و التقييد، و لا يسأم من المناظرة و التحصيل، مع المحافظة التى لا تنخرم و لا تنكسر، و المفاوضة فى الأدب و نظم القريض و الفكاهة التى لا تقدح فى وقار انتهى ملخّصا.

و قد أطال فى تعريفه بأوراق عدة، ثم قال: مولده فى الربع الثالث من يوم الخميس ثانى عشر جمادى الأولى من عام ستين و سبعمائة كما نقلته من خطّ ابنه، ثم قال: و له مسائل متعدّدة فى فنون شتّى ضمّنها كلّ سديد من البحث و صحيح النظر، و أمّا كتبه فالدّرّ النفيس، و الياقوت الثمين، و الرّوض الأنف، و الزهر النضير، نصاعة لفظ، و إصابة غرض، و سهولة تركيب، و متانة أسلوب. انتهى.

ثم ذكر مشيخته و أطال، ثم سرد تآليفه: الأرجوزة المسماة ب «تحفة الحكام»، و الأرجوزة المسماة ب «مهيع الوصول فى علم الأصول» أصول الفقه، و الأرجوزة الصغرى المسماة ب «مرتقى الوصول للأصول» كذلك، و الأرجوزة المسماة ب «نيل المنى فى اختصار الموافقات»، و القصيدة المسماة ب «إيضاح المعانى فى القراءات الثمانى»، و القصيدة المسمّاة ب «الأمل المرقوب فى قراءة يعقوب»، و القصيدة المسمّاة ب «كنز المفاوض فى علم الفرائض»، و الأرجوزة المسماة ب «الموجز فى النحو»، حاذى بها رجز ابن مالك فى غرض البسط له و المحاذاة لقصده، و الكتاب المسمّى ب «الحدائق فى أغراض شتّى من الآداب و الحكايات».

توفى بين العصر و المغرب يوم الخميس حادى عشر شوال عام تسعة و عشرين و ثمانمائة، انتهى كلام الوزير ابن عاصم، و إنما ذكرته، لأنّ أهل الأندلس يقولون فى حقّه: إنه ابن الخطيب الثانى، و لو لا خوف الإطالة لذكرت بعض إنشائه و نظمه، فإنه فى الذروة العليا، و قد ذكرت جملة من ذلك فى «أزهار الرياض، فى أخبار عياض، و ما يناسبها ممّا يحصل به للنفس ارتياح و للعقل ارتياض».

[عود إلى ترجمة لسان الدين و ذكر سلفه و ذكر نسبتهم «السلمانى» و أنهم من حى من مراد من عرب اليمن القطحانيين]

و لنرجع إلى الترجمة المقصودة فنقول: و السلمانى نسبة سلمان - بإسكان اللام على الصحيح- قال ابن الأثير: و المحدّثون يفتحون اللام، و سلمان: حى من مراد من عرب اليمن القحطانيين، دخل الأندلس منهم جماعة من الشأم، و سلف لسان الدين رحمه اللّه تعالى ينتسبون

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۶

إليهم كما سبق فى كلامه، و هو مشهور إلى الآن بالمغرب بابن الخطيب السلمانى،

[بين لسان الدين و شيخه أبى الحسن بن الجياب]

و لذلك خاطبه شيخه شيخ الكتّاب الرئيس أبو الحسن بن الجيّاب حين حلّ مالقة بقوله: [البسيط]

أيا كتابى، إذا ما جئت مالقة دار المكارم من مثنى و وحدان

فلا تسلّم على ربع لذى سلم بها و سلّم على ربع لسلمان

فأجابه لسان الدين رحم اللّه تعالى الجميع بقوله: [البسيط]

يا ليت شعرى هل يقضى تألّفنا و يثنى الشوق عن غاياته الثانى

أو هل يحنّ على نفسى معذّبها أو هل يرقّ لقلبى قلبى الثانى

و على ذكر نسبة ابن الخطيب لسلمان فقد تذكّرت هنا بيتا أنشدنيه لنفسه صاحبنا الوزير الشهير الكبير البليغ صاحب القلم الأعلى سيدى أبو فارس عبد العزيز الفشتالى، صبّ اللّه تعالى عليه شآبيب رحماه!، من قصيدة نونية مدح بها سيد الوجود، صلّى اللّه عليه و سلّم! و تخلّص إلى مدح مولانا السلطان المنصور بالله أبى العباس أحمد الحسنى أمير المؤمنين صاحب المغرب رحمه اللّه تعالى، و هو: [الطويل]

أولئك فخرى إن فخرت على الورى و نافس بيتى فى الولا بيت سلمان

و أراد كما أخبرنى ببيت سلمان القبيلة التى منها لسان الملّة و الدين ابن الخطيب رحمه اللّه تعالى! أشار إلى ولاء الكتابة للخلافة، كما كان لسان الدين السلمانى رحمه اللّه تعالى كذلك، و فيه مع ذلك توريه بسلمان الفارسى رضى اللّه عنه و أرضاه.

و قد رأيت أن أسرد هنا هذه القصيدة الفريدة، لبلاغتها التى بذّت شعر «اليتيمة» و «الخريدة»، و لأنّ شجون الحديث الذى جرّ إليها، شوقتنى إلى معاهدى المغربية التى أكثر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۷

البكاء عليها، بحضرة المنصور بالله الإمام، سقى اللّه تعالى عهادها صوب الغمام، حيث الشباب غضّ يانع، و المؤمّل لم يحجبه مانع، و السلطان عارف بالحقوق، و الزمان و هو أبو الورى لم يشب برّه بالعقوق، و الليالى مسالمة غير رامية من البين بنبال، و الغربة الجالبة للكربة لم تخطر ببال، و رؤساء الدولة الحسنية السنية ساعون فيما يوافق الغرض و يلائم، و الأيام ثغورها بواسم، و أوقاتها أعياد و مواسم، و أفراح و ولائم، فللّه فيها عيش ما نسيناه، و عزّ طالما اقتبسنا نور الهدى من طور سيناه: [الطويل]

مضى ما مضى من حلو عيش و مرّه كأن لم يكن إلّا كأضغاث أحلام

[نونية للوزير أبى فارس عبد العزيز الفشتالى]

و هذا نص القصيدة [الطويل]

هم سلبونى الصبر و الصبر من شانى و هم حرموا من لذّة الغمض أجفانى

و هم أخفروا فى مهجتى ذمم الهوى فلم يثنهم عن سفكها حبى الجانى

لئن أترعوا من قهوة البين أكؤسى فشوقهم أضحى سميرى و ندمانى

و إن غادرتنى بالعراء حمولهم لقى إنّ قلبى جاهد إثر أظعان

قف العيس و اسأل ربعهم أيّة مضوا أ للجزع ساروا مدلجين أم البان

و هل باكروا بالسفح من جانب اللوى ملاعب آرام هناك و غزلان

و أين استقلّوا: هل بهضب تهامة أناخوا المطايا أم على كثب نعمان

و هل سال فى بطن المسيل تشوّقا نفوس ترامت للحمى قبل جثمان

و إذ زجروها بالعشىّ فهل ثنى أزمّتها الحادى إلى شعب بوّان

و هل عرّسوا فى دير عبدون أم سروا يؤمّ بهم رهبانهم دير نجران

سروا و الدّجى صبغ المطارف فانثنى بأحداجهم شتى صفات و ألوان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۸

و أدلج فى الأسحار بيض قبابهم فلحن نجوما فى معارج كثبان

لك اللّه من ركب يرى الأرض خطوة إذا زمّها بدنا نواعم أبدان

أرحها مطايا قد تمشّى بها الهوى تمشّى الحميّا فى مفاصل نشوان

و يمّم بها الوادى المقدّس بالحمى به الماء صدّا و الكلا نبت سعدان

و أهد حلول الحجر منه تحيّة تفاوح عرفا ذاكى الزّند و البان

لقد نفحت من شيح يثرب نفحة فهاجت مع الأسحار شوقى و أشجانى

و فتّت منها الشرق فى الغرب مسكة سحبت بها فى أرض دارين أردانى

و أذكرنى نجدا و طيب عراره نسيم الصّبا من نحو طيبة حيّانى

أحنّ إلى تلك المعاهد، إنها معاهد راحاتى و روحى و ريحانى

و أهفو مع الأشواق للوطن الذى به صحّ لى أنسى الهنىّ و سلوانى

و أصبو إلى أعلام مكة شائقا إذا لاح برق من شمام و ثهلان

أهيل الحمى دينى على الدهر زورة أحثّ بها شوقا لكم عزمى الوانى

متى يشتفى جفنى القريح بلحظة تزجّ بها فى نوركم عين إنسانى

و من لى بأن يدنو لقاكم تعطّفا و دهرى عنى دائما عطفه ثانى

سقى عهدهم بالخيف عهد تمدّه سوافح دمع من شؤونى هتّان

و أنعم فى شطّ العقيق أراكة بأفيائها ظلّ المنى و الهوى دانى

و حيّا ربوعا بين مروة و الصّفا تحيّة مشتاق بها الدهر حيران

ربوعا بها تتلو الملائكة العلا أفانين وحى بين ذكر و قرآن

و أول أرض باكرت عرصاتها و طرّزت البطحا سحائب إيمان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۹

و عرّس فيها للنبوّة موكب هو البحر طام فوق هضب و غيطان

و أدّى بها الروح الأمين رسالة أفادت بها البشرى مدائح عنوان

هنالك فضّ ختمه أشرف الورى و فخر نزار من معدّ بن عدنان

محمد خير العالمين بأسرها و سيد أهل الأرض م الإنس و الجان

و من بشّرت فى بعثه قبل كونه نوامس كهّان و أخبار رهبان

و حكمة هذا الكون لولاه ما سمت سماء و لا غاضت طوافح طوفان

و لا زخرفت من جنّة الخلد أربع تسبّح فيها أدم حور و والدان

و لا طلعت شمس الهدى غبّ دجية تجهّم من ديجورها ليل كفران

و لا أحدقت بالمذنبين شفاعة يذود بها عنهم زبانى نيران

له معجزات أخرست كلّ جاحد و سلّت على المرتاب صارم برهان

له انشقّ قرص البدر شقّين و ارتوى بماء همى من كفّه كلّ ظمآن

و أنطقت الأصنام نطقا تبرّأت إلى اللّه فيه من زخارف ميّان

دعا سرحة عجما فلبّت و أقبلت تجرّ ذيول الزّهر ما بين أفنان

و ضاءت قصور الشام من نوره الذى على كلّ أفق نازح القطر أو دانى

و قد بهج الأنوا بدعوته التى كست أوجه الغبراء بهجة نيسان

و إنّ كتاب اللّه أعظم آية بها افتضح المرتاب و ابتأس الشانى

و عدّى على شأو البليغ بيانه فهيهات منه سجع قسّ و سحبان

نبىّ الهدى من أطلع الحقّ أنجما محا نورها أسداف إفك و بهتان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۰

لعزّتها ذلّ الأكاسرة الألى هم سلبوا تيجانها آل ساسان

و أحرز للدين الحنيفىّ بالظّبا تراث الملوك الصّيد من عهد يونان

و نقّع من سمر القنا السمّ قيصرا فجرّعه منه مجاجة ثعبان

و أضحت ربوع الكفر و الشكّ بلقعا يناغى الصدى فيهنّ هاتف شيطان

و أصبحت السّمحا ترفّ نضارة و وجه الهدى بادى الصباحة للرانى

أيا خير أهل الأرض بيتا و محتدا و أكرم كلّ الخلق: عجم و عربان

فمن للقوافى أن تحيط بوصفكم و لو ساجلت سبقا مدائح حسّان

إليك بعثناها أمانيّ أجدبت لتسقى بمزن من أياديك هتّان

أجرنى إذا أبدى الحساب جرائمى و أثقلت الأوزار كفّة ميزانى

فأنت الذى لو لا وسائل عزّه لما فتحت أبواب عفو و غفران

عليك سلام اللّه ما هبّت الصّبا و ماست على كثبانها ملد قضبان

و حمّل فى جيب الجنوب تحيّة يفوح بمسراها شذا كلّ توقان

إلى العمرين صاحبيك كليهما و تلوهما فى الفضل صهرك عثمان

و حيّا عليّا عرفها و أريجها و والى على سبطيك أوفر رضوان

إليك رسول اللّه صمّمت عزمة إذا أزمعت فالشّحط و القرب سيّان

و خاطبت منى القلب و هو مقلّب على جمرة الأشواق فيك فلبّانى

فيا ليت شعرى هل أزمّ قلائصى إليك بدارا أو أقلقل كيرانى

و أطوى أديم الأرض نحوك راحلا نواجى المهارى فى صحاصح قيعان

يرنّحها فرط الحنين إلى الحمى إذا غرّد الحادى بهنّ و غنّانى

و هل تمحون عنّى خطايا اقترفتها خطا لى فى تلك البقاع و أوطان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۱

و ما ذا عسى يثنى عنانى و إنّ لى بآلك جاها صهوة العزّ أمطانى

إذا ندّ عن زوّاركَ البأس و العنا فجود ابنك المنصور أحمد أغنانى

عمادى الذى أوطا السماكين أخمصا و أوفى على السبع الطباق فأدنانى

متوّج أملاك الزمان و إن سطا أحلّ سيوفا فى معاقد تيجان

و قارى أسود الغاب بالصّيد مثلها إذا اضطرب الخطّىّ من فوق جدران

هزبر إذا زار البلاد زئيره تضاءل فى أخياسها أسد خفّان

و إن أطلعت غيم القتام جيوشه و أرزم فى مركومه رعد نيران

صببن على أرض العداة صواعقا أسلن عليهم بحر خسف و رجفان

كتائب لو يعلون رضوى لصدّعت صفاه الجياد الجرد تعدو بعقبان

عديد الحصا من كلّ أروع معلم و كلّ كمىّ بالرّدينىّ طعّان

إذا جنّ ليل الحرب عنهم طلى العدا هدتهم إلى أوداجها شهب خرصان

من اللاء جرّعن العدا غصص الردى و عفّرن فى وجه الثرى وجه بستان

و فتّحن أقطار البلاد فأصبحت تؤدى الخراج الجزل أملاك سودان

إمام البرايا من علىّ نجاره و من عترة سادوا الورى، آل زيدان

دعائم إيمان و أركان سؤدد ذو و همم قد عرّست فوق كيوان

هم العلويون الذين وجوههم بدور إذا ما أحلكت شهب أزمان

و هم آل بيت شيّد اللّه سمكه على هضبة العلياء ثابت أركان

و فيهم فشا الذكر الحكيم و صرّحت بفضلهم آيات ذكر و فرقان

فروع ابن عمّ المصطفى و وصيّه فناهيك من فخرين: قربى و قربان

و دوحة مجد معشب الروض بالعلا يجود بأمواه الرسالة ريّان

بمجدهم الأعلى الصريح تشرّفت معدّ على العزباء عاد و قحطان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۲

أولئك فخرى إن فخرت على الورى و نافس بيتى فى الولا بيت سلمان

إذا اقتسم المدّاح فضل فخارهم فقسمى بالمنصور ظاهر رجحان

إمام له فى جبهة الدهر ميسم و من عزّه فى مفرق الملك تاجان

سما فوق هامات النجوم بهمّة يحوم بها فوق السماوات نسران

و أطلع فى أفق المعالى خلافة عليها و شاح من علاه و سمطان

إذا ما احتبى فوق الأسرّة و ارتدى على كبرياء الملك نخوة سلطان

توسّمت لقمان الحجا و هو ناطق و شاهدت كسرى العدل فى صدر إيوان

و إن هزّه حرّ الثناء تدفّقت أنامله عرفا تدفّق خلجان

أيا ناظر الإسلام شم بارق المنى و باكر لروض فى ذرا المجد فينان

قضى اللّه فى علياك أن تملك الدّنا و تفتحها ما بين سوس و سودان

و أنك تطوى الأرض غير مدافع فمن أرض سودان إلى أرض بغدان

و تملؤها عدلا يرفّ لواؤه على الهرمين أو على رأس غمدان

فكم هنّأت أرض العراق بك العلا و وافت بك البشرى لأطراف عمّان

فلو شارفت شرق البلاد سيوفكم أتاك استلابا تاج كسرى و خاقان

و لو نشر الأملاك دهرك أصبحت عيالا على علياك أبناء مروان

و شايعك السفّاح يقتاد طائعا برايته السوداء أهل خراسان

فما المجد إلّا ما رفعت سماكه على عمدى سمر الطوال و مرّان

و هاتيك أبكار القوا فى جليتها تغاز لهن الحور فى دار رضوان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۳

أتتك أمير المؤمنين كأنها لطائم مسك أو خمائل بستان

تعاظمن حسنا أن يقال شبيهها فرائد درّ أو قلائد عقيان

فلا زلت للدنيا تحوط جهاتها و للدين تحميه بملك سليمان

و لا زلت بالنصر العزيز مؤزّرا تقاد لك الأملاك فى زىّ عبدان

انتهت القصيدة التى فى تغزّلها شرح الحال، و أعرب عمّا فى ضمير الغربة و الارتحال، و لنعزّزها بأختها فى البحر و الروى، قصيدة القاضى الشهير الذكر، الأديب الذى سلبت النّهى كواعب شعره إذ أبرزها من خدور الفكر، الشيخ الإمام سيدى أبو الفتح محمد بن عبد السلام، المغربى التونسى نزيل دمشق الشام، صبّ اللّه على ضريحه سجال الرحمة و الإنعام! فإنها نفث مصدور غريب، و بثّ مغدور أديب، فارق مثلى أوطانه و ما سلاها، و قرأ آيات الشجو و تلاها، و تمنّى أن يجود له الدهر برؤية مجتلاها، و هى قوله رحمه اللّه و أنشأها بدمشق عام واحد و خمسين و تسعمائة: [الطويل]

[نونية أخرى لأبى الفتح محمد بن عبد السلام المغربى التونسى نزيل دمشق]

سلوا البارق النجدىّ عن سحب أجفانى و عمّا بقلبى من لواعج نيران

و لا تسألوا غير الصّبا عن صبابتى و شدّة أشواقى إليكم و أشجانى

فما لى سواها من رسول إليكم سريع السّرى فى سيره ليس بالوانى

فيا طال بالأسحار ما قد تكفلت بإنعاش محزون و إيقاظ و سنان

و تنفيس كرب عن كئيب متيّم يحنّ إلى أهل و يصبو لأوطان

فللّه ما أذكى شذا نسمة الصّبا صباحا إذا مرّت على الرّند و البان

و سارت مسير الشمس و هنا فأصبحت من الشرق نحو الغرب تجرى بحسبان

و قد وقفت بالشام وقفة حامل نوافج مسك من ظباء خراسان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۴

لترتاض فى تلك الرياض هنيئة و تزداد من أزهارها طيب أردان

و ما غربت حتى تضاعف نشرها بواسطتى روح هناك و ريحان

فكم نحوكم حمّلتها من رسالة مدوّنة فى شرح حالى و وجدانى

و ناشدتها باللّه إلّا تفضّلت بتبليغ أحبابى السلام و جيرانى

تحيّة مشتاق إلى ذلك الحمى و سكّانه و النازحين بأظعان

سقى اللّه هاتيك الديار و أهلها سحائب تحكى صوب مدمعى القانى

و حيّا ربوع الحىّ من خير بلدة تخيّرها قدما أفاضل يونان

هى الحضرة العليا مدينة تونس أنيسة إنسان رآها بإنسان

لها الفخر و الفضل المبين بما حوت من الإنس و الحسن المنوط بإحسان

لقد حلّ منها آل حفص ملوكها مراتب تسمو فوق هامة كيوان

و سادوا بها كلّ الملوك و شيّدوا بها من مبانى العزّ أفخر بنيان

و كان لهم فيها بهاء و بهجة و حسن نظام لا يعاب بنقصان

و كان لهم فيها عساكر جمّة تصول بأسياف و تسطو بمرّان

جيوش و فرسان يضيق بها الفضا و تحجم عنها الفرس من آل ساسان

و كان لأهليها المفاخر و العلا و كان بها حصنا أمان و إيمان

و كان على الدنيا جمال بحسنها و حسن بنيها من ملوك و أعيان

و كانت لطلّاب المعارف قبلة لما فى حماها من أئمّة عرفان

و كان لأهل العلم فيها و جاهة و جاه و عزّ مجده ليس بالفانى

و كان بواديها المقدّس فتية تقدّس باريها بذكر و قرآن

و من أدباء النظم و النثر معشر تفوق بناديها بلاغة سحبان

و كانت على الأعداء فى حومة الوغى تطول بأبطال، و تسطو بشجعان

و ما برحت فيها محاسن جمّة و فى كلّ نوع أهل حذق و إتقان

إلى أن رمتها الحادثات بأسهم و سلّت عليها سيف بغى و عدوان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۵

فما لبثت تلك المحاسن أن عفت و أقفر ربع الأنس من بعد سكان
و شتّت ذاك الشمل من بعد جمعه كما انتثرت يوما قلائد عقيان
فأعظم برزء خصّ خير مدينة و خير أناس بين عجم و عربان
لعمرى لقد كادت عليها قلوبنا تضرّم من خطب عراها بنيران
و قد عمّنا غمّ بعظم مصابها و إن خصّنى منه المضرّ بجثمانى
و ما بقيت فيما علمناه بلدة من الشرق إلّا ألبست ثوب أحزان
فصبرا أخى صبرا على المحنة التى رمتك بها الأقدار ما بين إخوان
فما الدّهر إلّا هكذا فاصطبر له رزيّة مال أو تفرّق خلّان
أ أحبابنا إن فرّق الدّهر بيننا و طال مغيبى عنكم منذ أزمان
فإنى على حفظ الوداد و حقّكم مقيم، و ما هجر الأحبّة من شانى
و و اللّه و اللّه العظيم أليّة على صدقها قامت شواهد برهان
لقد زاد وجدى و اشتياقى إليكم و برّح بى طول البعاد و أضنانى
فلا تحسبوا أنى تسلّيت بعدكم بشىء من الدنيا و زخرفها الفانى
و لا أننى يوما تناسيت عهدكم بحال، و لا أنّ التكاثر ألهانى
و لا راقنى روض، و لا هشّ مسمعى لنغمة أطيار و رنّة عيدان
و لا حلّ فى فكرى سواكم بخلوة و لا جلوة ما بين حور و ولدان
و لا اختلجت يوما ضمائر مهجتى لغيركم فى سرّ سرّى و إعلانى
و لو لم أسلّ النّفس بالقرب و اللقا لأدرج جسمى فى مقاطع أكفانى
فما أنا فى عودى إليكم بآيس فما اليأس إلّا من علامة كفران
عليكم سلام اللّه فى كلّ ساعة تحيّة صبّ لا يدين بسلوان
مدى الدهر ما ناحت مطوّقة و ما تعاقب بين الخافقين الجديدان

[نونية لسان الدين بن الخطيب فى فتح تلمسان]

و لصاحب الترجمة لسان الدين ابن الخطيب قصيدة طنّانة بهذا الوزن و القافية، مدح بها
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۶
السلطان أبا سالم المرينى حين فتح تلمسان، و قد رأيت إيرادها فى هذا الباب، لما اشتمل عليه آخرها من شرح أمر الأعراب، الذى حيّر الألباب، و للمناسبة أسباب، لا تخفى على من له فكر مصيب، و كلّ غريب للغريب نسيب، و هى: [الطويل]
أطاع لسانى فى مديحك إحسانى و قد لهجت نفسى بفتح تلمسان
فأطلعتها تفترّ عن شنب المنى و تسفر عن وجه من السعد حيّانى
كما ابتسم النوّار عن أدمع الحيا و جفّ بخدّ الورد عارض نيسان
كما صفّقت ريح الشمال شمولها فبان ارتياح السكر فى غصن البان
تهنّيك بالفتح الذى معجزاته خوارق لم تذخر سواك لإنسان
خففت إليها و الجفون ثقيلة كما خفّ شثن الكفّ من أسد خفّان

و قدت إلى الأعداء فيها مبادرا ليوث رجال فى مناكب عقبان

تمدّ بنود النصر منهم ظلالها على كلّ مطعام العشيّات مطعان

جحاجحة غرّ الوجوه كأنما عمائمهم فيها معاقد تيجان

أمدّك فيها اللّه بالملإ العلا فجيشك، مهما حقّق الأمر، جيشان

لقد جليت منك البلاد لخاطب لقد جنيت منك الغصون إلى جانى

لقد كست الإسلام بيعتك الرضا و كانت على أهليه بيعة رضوان

و للّه من ملك سعيد و نصبة قضى المشترى فيها بعزلة كيوان

و سجّل حكم العدل بين بيوتها وقوفا مع المشهور من رأى يونان

فلم تخش سهم القوس صفحة بدرها و لم تشك فيها الشمس من بخس ميزان

و لم يعترض مبتزّها قطع قاطع و لا نازعت نوبهرها كفّ عدوان

تولّى اختيار اللّه حسن اختيارها فلم يحتج الفرغان فيها لفرغان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۷

و لا صرفت فيها دقائق نسبة و لو خفقت فيها طوالع بلدان

وجوه القضايا فى كمالك شأنها وجوب إذا خصّت سواك بإمكان

و من قاس منك الجود بالبحر و الحيا فقد قاس تمويها قياس سفسطانى

و طاعتك العظمى بشارة رحمة و عصيانك المحذور نزغة شيطان

و حبّك عنوان السعادة و الرضا و يعرف مقدار الكتاب بعنوان

و دين الهدى جسم و ذاتك روحه و كم وصلة ما بين روح و جثمان

تضنّ بك الدنيا و يحرسك العلا كأنك منها بين لحظ و أجفان

بنيت على أساس أسلافك العلا فلا هدم المبنى و لا عدم البانى

و صاحت بك العليا فلم تك غافلا و نادت بك الدنيا فلم تك بالوانى

و لم تك فى خوض البحار بهائب و لم تك فى نيل الفخار بكسلان

لقد هزّ منك العزم لمّا انتضيته ذوائب رضوى أو مناكب ثهلان

و للّه عينا من رآها محلّة هى الحشر لا تحصى بعدّ و حسبان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۶؛ ص۲۷

ار فى إثر دعوة يعمّ الأقاصى و الأدانى بطوفان

عجائب أقطار، و مألف شارد و أفلاذ آفاق، و موعد ركبان

إذا ما سرحت اللحظ فى عرصاتها تبلّد منك الذهن فى العالم الثانى

جنىّ حان و النصر العزيز اهتصاره إذا انتظمت بالقلب منها جناحان

فمن سحب لاحت بها شهب القنا و من كثب بيض بدت فوق كثبان

مضارب فى البطحاء بيض قبابها كما قلبت للعين أزهار سوسان

و ما إن رأى الراءون فى الدهر قبلها قرارة عزّ فى مدينة كتّان

تفوت التفات الطّرف حال اقتبالها كأنك قد سخّرت جنّ سليمان

فقد أطرقت من خوفها كلّ بيعة و طأطأ من إجلالها كلّ إيوان

و قد ذعرت خولان بين بيوتها غداة بدت منها البيوت بخولان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۸

فلو رميت مصر بها و صعيدها لأضحت خلاء بلقعا بعد عمران

و لو يمّمت سيف بن ذى يزن لما تقرّر ذاك السيف فى غمد غمدان

تراع بها الأوثان فى أرض رومة إذا خيّمت شرقا على طرق أوثان

و تجفل إجفال النعام ببرقة ليوث الشرى ما بين ترك و عربان

و عرضا كيوم العرض أذهل هوله عيانى، و أعيانى تعدّد أعيان

و جيشا كقطع الليل للخيل تحته إذا صهلت مفتّنة رجع ألحان

فيومض من بيض الظّبا ببوارق و يقذف من سمر الرماح بشهبان

و يمطر من و دق السهام بحاصب سحائبه من كلّ عوجاء مرنان

و جردا إذا ما ضمّرت يوم غاية تعجّبت من ريح تقاد بأرسان

تسابق ظلمان الفلاة بمثلها و تذعر غزلان الرمال بغزلان

و دون مهبّ العزم منك قواضب أبى النصر يوما أن تلمّ بأجفان

نظرت إليها و النجيع لباسها فقلت: سيوف أم شقائق نعمان

تفتّح وردا خدّها حين جرّدت و لا ينكر الأقوام خجلة عريان

كأنّ الوغى نادت بها لوليمة قد احتفلت أوضاعها منذ أزمان

فإن طعمت بالنصر كان وضوءها نجيعا و وافاها الغبار بأشنان

لقد خلصت للّه منك سجيّة جزاك على الإحسان منك بإحسان

فسيفك للفتح المبين مصاحب و عزمك و النصر المؤزّر إلفان

فرح واغد للرحمن تحت كلاءة و سرحان فى غاب العدا كلّ سرحان

و دم و المنى تدنى إليك قطافها ميسّر أوطار ممهّد أوطان

و كن واثقا باللّه مستنصرا به فسلطانه يعلو على كلّ سلطان

كفاك العدا كاف لملكك كافل فضدّك نضو ميّت بين أكفان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۹

رضا الوالد المولى أبيك عرفته و قد أنكر المعروف من بعد عرفان

فكم دعوة أولاك عند انتقاله إلى العالم الباقى من العالم الفانى

فعرّفت فى السّرّاء نعمة منعم و ألحفت فى الضرّاء رحمة رحمان

عجبت لمن يبغى الفخار بدعوة مجرّدة من غير تحقيق برهان

و سنّة إبراهيم فى الفخر قد أتت بكلّ صحيح عن علىّ و عثمان

و من مثل إبراهيم فى ثبت موقف إذا ما التقى فى موقف الحرب صفّان

إذا همّ لم يلفت بلحظة هائب و إن منّ لم ينفث بلفظة منّان

فصاحة قسّ فى سماحة حاتم و إقدام عمرو تحت حكمة لقمان

شمائل ميمون النقيبة أروع له قصبات السّبق فى كلّ ميدان

محبّته فرض على كلّ مسلم و طاعته فى اللّه عقدة إيمان

هنيئا أمير المسلمين بنعمة حبيت بها من مطلق الجود منّان

لزيّنت أجياد المنابر بالتى أتاح لها الرحمن فى آل زيّان

قلائد فتح هنّ، لكنّ قدرها ترفّع أن يدعى قلائد عقيان

أمولاى، حبّى فى علاك وسيلتى و لطفك بى دأبا بمدحك أغرانى

أياديك لا أنسى على بعد المدى نعوذ بك اللّهمّ من شرّ نسيان

فلا جحد ما خوّلتنى من سجيّتى و لا كفر نعماك العميمة من شانى

و مهما تعجّلت الحقوق لأهلها فإنك مولاى الحقيق و سلطانى

و ركنى الذى لمّا نبابى منزلى أجاب ندائى بالقبول و آوانى

و عالج أيامى و كانت مريضة بحكمة من لم ينتظر يوم بحران

فأمّننى الدهر الذى قد أخافنى و جدّد لى السّعد الذى كان أبلانى

و خوّلنى الفضل الذى هو أهله و شيكا و أعطانى فأفعم أعطانى

تخوّننى صرف الحوادث فانثنى يقبّل أردانى، و من بعد أردانى

و أزعجنى من منشئى و مبوّئى و معهد أحبابى و مألف جيرانى

بلادى التى فيها عقدت تمائمى وجم بها و فرى وجل بها شانى

تحدّثنى عنها الشمال فتنثنى و قد عرفت منى شمائل نشوان

و آمل أن لا أستفيق من الكرى إذا الحلم أوطانى بها ترب أوطانى

تلوّن إخوانى علىّ و قد جنت علىّ خطوب جمّة ذات ألوان

و ما كنت أدرى قبل أن يتنكّروا بأنّ خوانى كان مجمع خوّانى

و كانت، و قد حمّ القضاء، صنائعى علىّ بما لا أرتضى شرّ أعوانى

فلو لاك بعد اللّه يا ملك العلا و قد فتّ ما ألفيت من يتلافانى

تداركت منّى بالشفاعة منعما بريئا رماه الدهر فى موقف الجانى

فإن عرف الأقوام حقّك وفّقوا و إن جهلوا باؤوا بصفقة خسران

و إن خلطوا عرفا بنكر و قصّروا و زنت بقسطاس قويم و ميزان

و حرمة هذا اللحد يأبى كمالها هضيمة ردّ أو حطيطة نقصان

و قد نمت عن أمرى و نبّهت همّة تحدّق من علو إلى صرح هامان

إذا دانت اللّه النفوس و أمّلت إقالة ذنب أو إنالة غفران

فمولاك يا مولاى قبلة وجهتى و عهدة إسرارى و حجّة إعلانى

وقفت على مثواه نفسى قائما بترديد ذكر أو تلاوة قرآن

و لو كنت أدرى فوقها من وسيلة إلى ملككك الأرضى لشمّرت أردانى

و أبلغت نفسى جهدها غير أننى طلابى ما بعد النهاية أعيانى

قرأت كتاب الحمد فيك لعاصم فصحّ أدائى و اقتدائى و إتقانى
فدونكها من بحر فكرى لؤلؤا يفصّل من حسن النظام بمرجان
و كان رسول اللّه بالشّعر يعتنى و كم حجّة فى شعر كعب و حسّان
و و اللّه ما وفّيت قدرك حقّه و لكنه وسعى و مبلغ إمكانى
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۱

[كتاب من لسان الدين يخاطب به السلطان أبا سالم بعد فتح تلمسان، و قد جعله مقدمة لنونيته السابقة]

و كتب لسان الدين رحمه اللّه قبل هذه القصيدة نثرا من إنشائه يخاطب به السلطان أبا سالم المذكور، و ذلك أنه ورد على لسان الدين و هو بشالة سلا كتاب السلطان المذكور بفتح تلمسان، و كان وروده يوم الخميس سابع عشر شعبان عام واحد و ستين و سبعمائة، و نصّ ما كتب به لسان الدين: «مولاى فتاح الأقطار و الأمصار، فائدة الأزمان و الأعصار، أثير هبات اللّه الآمنة من الاعتصار، قدوة أولى الأيدى و الأبصار، ناصر الحقّ عند قعود الأنصار، مستصرخ الملك الغريب من وراء البحار، مصداق دعاء الأب المولى فى الأصائل و الأسحار، أبقاكم اللّه سبحانه لا تقف إيالتكم عند حدّ، و لا تحصى فتوحات اللّه تعالى عليكم بعدّ، و لا تفيق أعداؤكم من كدّ، ميسّرا على مقامكم ما عسر على كل أب كريم و جدّ، عبدكم الذى خلص إبريز عبوديته لملك ملككم المنصور، المعترف لأدنى رحمة من رحماتكم بالعجز عن شكرها و القصور، الداعى إلى اللّه سبحانه أن يقصر عليكم سعادة العصور، و يذلّل بعزّ طاعتكم أنف الأسد الهصور، و يبقى الملك فى عقبكم و عقب عقبكم إلى يوم ينفخ فى الصور، فلان من الضريح المقدس بشالة، و هو الذى تعدّدت على المسلمين حقوقه، و سطع نوره و تلألأ شروقه، و بلغ مجده السماء لما بسقت فروعه و وشجت عروقه، و عظم ببيوتكم فخرا فما فوق البسيطة فخر يفوقه، حيث الجلال قد رست هضابه، و الملك قد كسيت بأستار الكعبة الشريفة قبابه، و البيت العتيق قد ألحفت الملاحف الإمامية أثوابه، و القرآن العزيز ترتل أحزابه، و العمل الصالح يرتفع إلى اللّه ثوابه، و المستخبر يخفى بالهيبة سؤاله فيجهر بنعرة العزّ جوابه، و قد تفيّأ من أوراق الذكر الحكيم حديقة، و خميلة أنيقة، وحط بجودىّ الجود نفسا فى طوفان الضر غريقة، و التحف رفرف الهيبة التى لا تهتدى النفس فيها إلّا بهداية اللّه تعالى طريقة، و اعتزّ بعزّة اللّه و قد توسّط جيش الحرمة المرينية حقيقة، إذ جعل المولى المقدّس المرحوم أبا الحسن مقدّمة و أباه و جدّه وثيقة، يرى برّكم بهذا اللحد الكريم قد طنب عليه من الرضا فسطاطا، و أعلق به يد العناية المرينية اهتماما و اغتباطا، و ضمن له حسن العقبى التزاما و اشتراطا، و قد عقد البصر بطريقة رحمتكم المنتظرة المرتقبة، و مدّ اليد إلى لطائف شفاعتكم
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۲
التى تتكفل بعتق المال كما تكفلت بعتق الرقبة، و شرع فى المراح بميدان نعمتكم بعد اقتحام هذه العقبة، لما شنفت الأذن البشرى التى لم يبق طائر إلّا سجع بها و صدح، و لا شهاب دجنّة إلّا اقتبس من نورها و اقتدح، و لا صدر إلّا انشرح، و لا غصن عطف إلّا سرح، بشرى الفتح القريب، و خبر النصر الصحيح الحسن الغريب، فتح تلمسان الذى قلّد المنابر عقود الابتهاج، و وهب الإسلام منيحة النصر غنيّة عن الانتهاج، و ألحف الخلق ظلّا ممدودا، و فتح باب الحجّ و كان مسدودا، و أقرّ عيون أولياء اللّه الذين يذكرون اللّه قياما و قعودا، و أضرع بسيق الحقّ جباها أبيّة و خدودا، و ملككم حقّ أبيكم الذى أهان عليه الأموال، و خاض من دونه الأهوال، و أخلص فيه الضراعة و السؤال، من غير كدّ يغمز عطف المسرّة، و لا جهد يكدر صفو النعم الثرة، و لا حصر ينفض به المنجنيق ذؤابته، و يظهر بتكرار الركوع إنابته. فالحمد للّه الذى أقال العثار، و نظم بدعوتكم الانتثار، و جعل ملككم يجدّد الآثار، و يأخذ الثار، و العبد يهنئ مولاه، بما أنعم اللّه تعالى به عليه و أولاه، فإذا أجال العبيد قداح السرور فللعبد المعلّى و الرقيب، و إذا استهمّوا حظوظ الجذل فلى القسم الوافر و النصيب، و إذا اقتسموا فريضة شكر اللّه فلى الحظّ و التعصيب، لتضاعف أسباب العبودية قبلى، و ترادف النعم التى عجز

عنها قولى و عملى، و تقاصر فى ابتغاء مكافأتها وجدى و إن تطاول أملى، فمقامكم المقام الذى نفّس الكربة، و آنس الغربة، ورعى الوسيلة و القربة، و أنعش الأرماق، و فكّ الوثاق، و أدرّ الأرزاق، و أخذ على الدهر بالاستقالة العهد و الميثاق. و إن لم يباشر العبد اليد العالية بهذا الهناء، و يمثّل بين يدى الخلافة العظيمة السنا و السّناء، و يمدّ بسبب اليد إلى تلك السماء، فقد باشر به اليد التى يحنّ مولاى لتذكر تقبيلها، و يكمل فروض المجد بتوفية حقوقها الأبوية و تكميلها، و وقفت بين يدى ملك الملوك الذى أجال عليها القداح، و وصل فى طلب وصالها بالمساء الصباح، و كان فتحه إياها أبا عذرة الافتتاح، و قلت: يهنيك يا مولاى ردّ ضالّتك المنشودة، و جبر لقطتك المعرفة المشهودة، ورد أمتك المودودة، فقد استحقّها وارثك الأرضى، و سيفك الأمضى، و قاضى دينك، و قرّة عينك، مستنقذ دارك من يد غاصبها، و رادّ رتبتك إلى مناصبها، و عامر المثوى الكريم، و ساتر الأهل و الحريم، مولاى، هذه تلمسان قد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۳

طاعت، و أخبار الفتح على ولدك الحبيب إليك قد شاعت، و الأمم إلى هنائه قد تداعت، و عدوّك و عدوه قد شرّدته المخافة، و انضاف إلى عرب الصحراء فخفضته الإضافة، و عن قريب تتحكّم فيه يد احتكامه، و تسلّمه السلامة إلى حمامه، فلتطب يا مولاى نفسك، و ليستبشر رمسك، فقد نمت بركتك وزكا غرسك، نسأل اللّه أن يورد على ضريحك من أنباء نصره ما تفتح له أبواب السماء قبولا، و يترادف إليك مددا موصولا، و عددا آخرته خير لك من الأولى، و يعرفه بركة رضاك ظعنا و حلولا، و يضفى عليك منه سترا مسدولا. و لم يقنع العبد بخدمة النثر، حتى أجهد القريحة التى ركضها الدهر فأنضاها، و استشفّها الحادث الجلل فتقضاها، فلفق من خدمة المنظوم ما يتغمد حلمكم تقصيره، و يكون إغضاؤكم إذا لقى معرة العتب وليّه و نصيره، و إحالة مولاى على اللّه فى نفسى جبرها، و وسيلة عرفها مجده فما أنكرها، و حرمة بضريح مولاى والده شكرها، و يطلع العبد منه على كمال أمله، و نجح عمله، و تسويغ مقترحه و تتميم جذله: [الطويل]

أطاع لسانى فى مديحك إحسانى

إلى آخر القصيدة التى تقدّمت.

[نونية الفقيه الزجال عمر التى سماها «تسريح النصال، إلى مقاتل الفصال»]

و حيث اقتضت المناسبة جلب هذه النونيات فلنضف إليها قصيدة أديب الأندلس الفقيه عمر صاحب الأزجال، إذ هو من فرسان هذا المجال، و قد وطّأ لها بنثر، و جعل الجميع مقامة ساسانية، سماها «تسريح النصال، إلى مقاتل الفصال» و نصّ ها: يا عماد السالكين، و محطّ المستفيدين و المتبركين، و ثمال الضعفاء و المساكين المتروكين، فى طريقك يتنافس المتنافس، و على أعطافك تزهى العباءات و تروق الدّلافس، و بكتابك تحيا جوامد الأفهام، و بمذبتك تشرد ذئاب الأوهام، و فى زنبيلك يدسّ التالد و الطارف، و بعصاك يهشّ على بدائع المعارف، اللّه اللّه فى سالك، ضاقت عليه المسالك، و شاد، رمى بإبعاد، أدركته متاعب الحرفة، و أقيم من صف أهل الصّفّة، فلا يجد نشاطا، على ما يتعاطى، و لا يلقى اغتباطا، إن حلّ زاوية أو نزل رباطا، أقصى عن أهل القرب و التخصيص، و ابتلى بمثل حالة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۴

برصيص، فأحيل عليك، و توقفت إقالته على توبه بين يديك، فكاتبك استدعاء، و استوهب منك هداية و دعاء، ليسير على ما سويت، و يتحمّل عنك أشتات ما رويت، فيلقى الأكفاء الظرفاء عزيزا، و يباهى بك كلّ من خاطبك مستجيزا، فاصرف إلىّ محيا الرضا، وعد من إيناسك للعهد الذى مضى، و لا تلقنى معرضا و لا معرّضا، و أصخ لى سمعك كما قدر اللّه تعالى و قضى: [الطويل]

تعال نجدّدها طريقة ساسان نقضّ عليها ما توالى الجديدان

و نصرف إليها من مثار عزائم و نحلف عليها من مؤكّد أيمان

و نعقد على حكم الوفاء هواءنا لنأمن من أقوال زور و بهتان

و نقسم على أن لا نصدّق و اشيا يروح و يغدو بين إثم و عدوان

يطوف حوالينا ليفسد بيننا بمنطق إنسان و خدعة شيطان

على أنّنا من عالم كلّما بدا تعوّذ منه عالم الإنس و الجان

و حاشاك أن تلفى عن الصلح معرضا إلى الصلح آلت حرب عبس و ذبيان

و إنى أهمتنى شؤون كثيرة و صلحك أولى ما أقدّم من شانى

فأنت إمامى إن كلفت بمذهب و أنت دليلى إن صدعت ببرهان

سأرعاك فى أهل العباءات كلّما رأيتك فى أهل الطيالس ترعانى

و يا لابسى تلك العباءات إنها لباس إمام فى الطريقة دهقان

تفرّقت الألوان منها إشارة بأنك تأتى من حلاك بألوان

و يا بأبى الفصّال شيخ طريقة خلوب لألباب لعوب بأذهان

إذا جاء فى الثوب المحبّر خلته زنيبرة قد مدّ منها جناحان

فما تأمن الأبدان آفة لسعها و إن أقبلت فى سابغات و أبدان

سأدعوك فى حالات كيدى و كديتى بشيخى ساسان و عمّى هامان

فإن كان فى الأنساب منّا تباين فما تنكر الآداب أنّا نسيبان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۵

ألا فادع لى فى جنح ليلك دعوة لتنجح آمالى و يرجح ميزانى

لكك الطائر الميمون فى كلّ وجهة سريت إليها غير نكس و لا وانى

فكم من فقير بائس قد عرفته فرفّت عليه نعمة ذات أفنان

و كم من رفيع الجاه واليت أنسه فعاش قرير العين مرتفع الشان

فلو كنت للفتح بن خاقان صاحبا لما خانه المقدور فى ليلة الخان

و لو كنت للصابى صديقا ملاطفا لما قبلت فيه مقالة بهتان

و لو كنت من عبد الحميد مقرّبا لما هزم السفاح أشياع مروان

و لو كنت قد أرسلتها دعوة على أنى مسلم ما حاز أرض خراسان

و لو كنت فى يوم الغبيط مراسلا لبسطام لم تهزم به آل شيبان

و لو كنت فى حرب الأمين لطاهر لما هام فى يوم اللقاء ابن ماهان

و لو كنت فى مغزى أبى يوسف لما رماه بغدر عبده فى تلمسان

و لو أنّ كسرى يزدجرد عرفته لما لاح مقتولا على يد طحّان

و لو أنّ لذريقا وطئت بساطه لما أثّرت فيه مكيدة إليان

و فيما مضى فى فاس أوضح شاهد غنىّ لدينا عن بيان و تبيان

و لمّا اعتنى منك السعيد بكاتب رأى ما ابتغى عن عزّ ملك و سلطان

فلا تنسنى من أهل ودّك إننى أخاف الليالى أن تطول فتنسانى

و لا خير إن تجعل كفاء قصيدتى كفاء ابن درّاج على مدح خيران

فجد بدنانير و لا تكن التى ألمّ بها الكندىّ فى شعب بوّان

فجودك فينا الغيث فى رمل عالج و فضلك فينا الخبز فى دار عثمان

و ما زلت من قبل السؤال مقابلا مرادى بإحساب و قصدى بإحسان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۶

و لا تنس أياما تقضّت كريمة بزاوية المحروق أو دار همدان

و تأليفنا فيها لقبض إتاوة و إغرام مسنون و قسمة حلوان

و قد جلس الطرقون بالبعد مطرقا يقول نصيبى أو أبوح بكتمان

عريفى يلحانى إذا ما أتيته و لم أنصرف عنكم بواجب ألحان

و قد جمعت تلك الطريقة عندنا أئمّة حسّاب و أعلام كهّان

إذا استنزلوا الأرواح باسم تبادرت طوائف ميمون و أشياع برقان

و إن بخروا عند الحلول تأرّجت مباخرهم عن زعفران و لوبان

و إن فتحوا الدارات فى ردّ آبق ثنت عزمه أوهام خوف و خذلان

فيحسب أنّ الأرض حيث ارتمت به ركائبه سرعان رجل و ركبان

و قد عاشرتنا أسرة كيمويّة أقامت لدينا فى مكان و إمكان

فللّه من أعيان قوم تألّفوا على عقد سحر أو على قلب أعيان

و نحن على ما يغفر اللّه إنما نروح و نغدو من رباط إلى خان

مع الصبح نضفيها عباءة صفة و بالليل نلويها زنانير رهبان

أتذكر فى سفح العقاب مبيتكم ثمانين شخصا من إناث و ذكران

لديكم من الألوان ما لم يجىء به طهور ابن ذنّون و لا عرس بوران

و كم شائق منكم إلى عقد تكّة و كم هائم فيكم على حلّ همیان

فأطفأت قنديل المكان تعمّدا و أومأت فانقضّوا كأمثال عقبان

و ناديت فى القوم الركوب فأسرعوا فريق لنسوان، و قوم لذكران

فأقسم بالأيمان لو لا تعفّفى عن السوء لا نحلّت عقيدة إيمانى

فعد للذى كنّا عليه فإنّ لى على الغير إن صاحبته حقد غيران

فمن يوم إذ صيرت ودّى جانبا و أعرضت عنى ما تناطح عنزان

و لا روت الكتّاب بعد نفارنا محاورة من ثعلبان لسرحان

و ما هو قصدى منك إلّا إجازة تخولنى التفضيل ما بين خلّانى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۷

و إنك إن سخّرت لى و أجزتنى لنعم ولىّ صان ودّى و جازانى

و لم لا تروّينى و أنت أجلّ من سقانى من قبل الرحيق فروّانى

ألا فأجزنى يا إمام بكلّ ما رويت لمدغليس أو لابن قزمان

و لا تنس للدبّاغ نظما عرفته فإنكما فى ذلك النظم سيّان

و مزدوجات ينسبون نظامها إلى ابن شجاع فى مديح ابن بطّان

و ألمم بشيء من خرافات عنتر و ألمع ببعض من حكايات سوسان

و إن كنت طالعت اليتيمة واسنى بلاميّة فى الفحش من نظم واسانى

أجزنى بكشف الدك أرضى وسيلة و خير جليس فى بساط و دكان

و ناولنى المصباح فهو لغربتى ميسّر أغراضى و رائد سلوانى

و ألحق به شمس المعارف إننى أسائل عن إسناده كلّ إنسان

و قد كنت قبل اليوم عرّفتنى به و لكننى أنسيته بعد عرفان

و لا بدّ يا أستاذ من أن تجيزنى ببدء ابن سبعين و فصل ابن رضوان

و كتب ابن أحلى كيف كانت فإنها لوزن رقيق القول أكرم ميزان

و لا تنس ديوان الصبابة و الصفا لإخوان صدق فى الصّبا خير إخوان

و زهر رياض فى صنوف أضاحك و جبذ كساء فى مكايد نسوان

كذاك فناولنى كتاب حبائب وزدنى تعريفا بها و ببرجان

ولى أمل فى أن أروّى رسالة مضمّنة أخبار حيّ بن يقظان

و حبّس علىّ الكوز و الكاس و العصا فإنك مثر من عصىّ و كيزان

و صيّر لى الدلفاس أرفع لبسة فقد جلّ قدرى عن حرير و كتّان

و قد رقّ طبعى و اعترتنى خشية تكاد بها روحى تفارق جثمانى

و خلّ مفاتيح الطريقة فى يدى و سوّغ لهم حكمى مزيدى و نقصانى

فإنى لم أخدمك إلّا بنيّة و إنى لم أتبعك إلّا بإحسان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۸

فكن لى بالأسرار أفصح معلن فإنى قد أخلصت سرّى و إعلانى

و ليس قصدى- علم اللّه- بجلب هذه القصيدة ما فيها من المجون، بل ما فيها من التلميحات التى يرغب فى مثلها أهل الأدب و الحديث شجون، على أنّ أمثال هؤلاء الأعلام، لا يقصدون بمثل هذا الكلام، إلّا مجرّد الإحماض، فينبغى أن ينظر كلامهم الواقف عليه بعين الإغضاء عن النقد و الإغماض، و لا يبادر بالاعتراض، من لم يعلم فى الأصول برهان القطع و الافتراض، و اللّه سبحانه المسؤول فى التجاوز عن الزلّات، و النجاة من الأمور المضلّات، فعفوه سبحانه وراء جميع ذلك، و اللّه تعالى المطّلع على أسرار الضمائر، و الخبير بما هنالك، لا ربّ غيره، و لا خير إلّا خيره.

[نونية للوزير أبى عبد اللّه بن زمرك أنشدها سلطان الأندلس يوم عيد]

و حيث ذكرنا هذه القصائد النونية التى اتّفق فيها البحر و الروى، و جرت من البلاغة على النهج السّوىّ، فلا بأس أن نعزّزها بقصيدة الرئيس الوزير أبى عبد اللّه بن زمرك- سامحه اللّه تعالى!- و هى قصيدة ميلادية أنشدها سلطان الأندلس عام خمسة و ستين و سبعمائة، و نجعلها مكفرة لما مرّ فى قصيدة الفقيه عمر من المجون، و مبلغة للناظرين فى هذا التأليف ما يرجون، و الحديث شجون، و هى قوله: [الطويل]

لعلّ الصّبا إن صافحت روض نعمان تؤدّى أمان القلب عن ظبية البان

و ما ذا على الأرواح و هى طليقة لو احتملت أنفاسها حاجة العانى

و ما حال من يستودع الريح سرّه و يطلبها، و هى النّموم، بكتمان

و كالطيف أستقريه فى سنة الكرى و هل تنقع الأحلام غلّة ظمآن

أسائل عن نجد و مرمى صبابتى ملاعب غزلان الصريم بنعمان

و أبدى إذا ريح الشمال تنفّست شمائل مرتاح المعاطف نشوان

عرفت بهذا الحبّ لم أدر سلوة و إنى لمسلوب الفؤاد بسلوان

فيا صاحبى نجواى و الحبّ غاية فمن سابق جلّى مداه و من و انى

وراء كما ما اللوم يثنى مقادتى فإنى عن شأن الملامة فى شان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۹

و إنى و إن كنت الأبيّ قياده ليأمرنى حبّ الحسان و ينهانى

و ما زلت أرعى العهد فيمن يضيعه و أذكر إلفى ما حييت و ينسانى

فلا تنكرا ما سامنى مضض الهوى فمن قبل ما أودى بقيس و غيلان

لى اللّه إمّا أومض البرق فى الدّجى أقلّب تحت الليل أجفان و سنان

و إن سلّ من غمد الغمام حسامه برى كبدى الشوق الملمّ و أضنانى

تراءى بأعلام الثنيّة باسما فأذكرنى العهد القديم و أبكانى

أسامر نجم الأفق حتى كأننا و قد سدل الليل الرواق حليفان

و ممّا أناجى الأفق أعديه بالجوى فأرعى له سرح النجوم و يرعانى

و يرسل صوب القطر من فيض أدمعى و يقدح زند البرق من نار أشجانى

و ضاعف وجدى رسمدار عهدتها مطالع شهب أو مراتع غزلان

على حين شرب الوصل غير مصرّد وصفوا الليالى لم يكدّر بهجران

لئن أنكرت عينى الطلول فإنها تمتّ إلى قلبى بذكر و عرفان

و لم أر مثل الدمع فى عرصاتها سقى تربها حين استهلّ و أظمانى

و ممّا شجانى أن سرى الركب موهنا تقاد به هوج الرياح بأرسان

غوارب فى بحر السراب تخالها و قد سبحت فيه مواخر غربان

على كلّ نضو مثله فكأنما رمى منهما صدر المفازة سهمان

و من زاجر كوماء مخطفة الحشا توسّد منها فوق عوجاء مرنان

نشاوى غرام يستميل رؤوسهم من النوم و الشوق المبرح سكران

أجابوا نداء البين طوع غرامهم و قد تبلغ الأوطار فرقة أوطان

يؤمّون من قبر الشفيع مثابة تطلّع منها جنّة ذات أفنان

إذا نزلوا من طيبة بجواره فأكرم مولى ضمّ أكرم ضيفان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۴۰

بحيث علا الإيمان و امتدّ ظلّه و زان حلى التوحيد تعطيل أوثان

مطالع آيات، مثابة رحمة معاهد أملاك، مظاهر إيمان

هنالك تصفو للقبول موارد يسقّون منها فضل عفو و غفران

هناك تؤدّى للسلام أمانة يحيّيهم عنا بروح و ريحان

يناجون عن قرب شفيعهم الذى يؤمّله القاصى من الخلق و الدانى

لئن بلغوا دونى و خلّفت إنه قضاء جرى من مالك الأرض ديّان

و كم عزمة ملّيت نفسى صدقها و قد عرفت منى مواعد ليّان

إلى اللّه نشكوها نفوسا أبيّة تحيد عن الباقى و تغترّ بالفانى

ألا ليت شعرى هل تساعدنى المنى فأترك أهلى فى رضاه و جيرانى

و أقضى لبانات الفؤاد بأن أرى أعفّر خدّى فى ثراه و أجفانى

إليك رسول اللّه دعوة نازح خفوق الحشا رهن المطامع هيمان

غريب بأقصى الغرب قيّد خطوه شباب تقضّى فى مراح و خسران

يجدّ اشتياقا للعقيق و بانه و يصبو إليها ما استجدّ الجديدان

و إن أومض البرق الحجازىّ موهنا يردّد فى الظّلماء أنّة لهفان

فيا مولى الرحمى، و يا مذهب العمى و يا منجى الغرقى، و يا منقذ العانى

بسطت يد المحتاج يا خير راحم و ذنبى ألجانى إلى موقف الجانى

وسيلتى العظمى شفاعتك التى يلوذ بها عيسى و موسى بن عمران

فأنت حبيب اللّه خاتم رسله و أكرم مخصوص بزلفى و رضوان

و حسبك أن سمّاك أسماءه العلا و ذاك كمال لا يشاب بنقصان

و أنت لهذا الكون علّة كونه و لو لاك ما امتاز الوجود بأكوان

و لو لاك للأفلاك لم تجل نيّرا و لاقلّدت لبّاتهنّ بشهبان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۴۱

خلاصة صفو المجد من آل هاشم و نكتة سرّ الفخر من آل عدنان

و سيد هذا الخلق من نسل آدم و أكرم مبعوث إلى الإنس و الجان

و كم آية أطلعت فى أفق الهدى يبين صباح الرّشد منها ليقظان

و ما الشمس يجلوها النهار لمبصر بأجلى ظهور أو بأوضح برهان

و أكرم بآيات تحدّيتنا بها و لا مثل آيات لمحكم فرقان

و ما ذا عسى يثنى البليغ و قد أتى ثناؤك فى وحى كريم و قرآن

فصلّى عليك اللّه ما انسكب الحيا و ما سجعت ورقاء فى غصن البان

و أيّد مولانا ابن نصر فإنه لأشرف من ينمى لملك و سلطان

أقام كما يرضيك مولدك الذى به سفر الإسلام عن وجه جذلان

سمىّ رسول اللّه ناصر دينه معظّمه فى حال سرّ و إعلان

و وارث سرّ المجد من آل خزرج و أكرم من تنمى قبائل قحطان

و مرسلها ملء الفضاء كتائبا تدين لها غلب الملوك بإذعان

حدائق خضر و الدروع غدائر و ما أنبتت إلّا ذوابل مرّان

تجاوب فيها الصاهلات و ترتمى جوانبها بالأسد من فوق عقبان

فمن كلّ خوّار العنان قد ارتمى به كلّ مطعام العشيّات مطعان

و موردها ظمأى الكعوب ذوابلا و مصدرها من كلّ أملد ريّان

و للّه منها و الربوع مواحل غمام ندى كفّت المحل كفّان

إذا أخلف الناس الغمام و أمحلوا فإنّ نداه و الغمام لسيّان

إمام أعاد الملك بعد ذهابه إعادة لا نابى الحسام و لا وانى

فغادر أطلال الضلال دوارسا و جدّد للإسلام أرفع بنيان

و شيّدها، و المجد يشهد، دولة محافلها تزهى بيمن و إيمان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۴۲

وراق من الثّغر الغريب ابتسامه و هزّله الإسلام أعطاف مردان

لك الخير ما أسنى شمائلك التى يقصّر عن إدراكها كلّ إنسان

ذكاء إياس فى سماحة حاتم و إقدام عمرو فى بلاغة سحبان

أمولاى، ما أسنى مناقبك التى هى الشّهب لا تحصى بعدّ و حسبان

فلا زلت يا غوث البلاد و أهلها مبلّغ أوطار ممهّد أوطان

[كلمة عن ابن زمرك الوزير]

و لابن زمرك المذكور ترجمة نأتى بها فى هذا التأليف، إن شاء اللّه تعالى، فى محلّها، و هو من تلامذة لسان الدين، و من عداد خدّامه، فحين نبا به الزمان، و تعوّض الخوف بعد الأمان، كان أحد الساعين فى قتله كما سنذكره، و صرّح بذمّه و هجوه بعد أن كان ممّن يشكره، و هكذا عادة بنى الدنيا يدورون معها حيث دارت، و يسيرون حيث سارت، و يشربون من الكأس التى أدارت، و قد تولّى المذكور الوزارة عوضا عن ابن الخطيب، و صدح طير عزّه بعده على فنن من الإقبال رطيب، ثم آل الأمر به إلى القتل، كما سعى فى قتل لسان الدين، و كان الجزاء له من جنس عمله، و المرء يدان بما كان به يدين، و عفو اللّه سبحانه مرجوّ للجميع فى الآخرة، و هو سبحانه و تعالى المسؤول أن ينيلنا و إياهم المراتب الفاخرة، فإنه لا يتعاظمه ذنب، و ليس للكلّ غيره من ربّ.

[«لوشة» التى ينسب إليها لسان الدين بن الخطيب]

رجع إلى ما كنا بسبيله- و أمّا لوشة التى ينسب إليها لسان الدين فقد تقدّم من كلام ابن خلدون أنها على مرحلة من حضرة غرناطة فى الشمال من البسيط الذى فى ساحتها المسمّى بالمرج، و قد أجرى ذكرها لسان الدين فى الإحاطة و قال: إنها بنت الحضرة، يعنى غرناطة،

[ترجمة أبى عبد اللّه محمد بن إدريس المعروف بابن مرج الكحل]

و قال ذلك فى ترجمة ابن مرج الكحل، و لنذكر الترجمة بكمالها تتميما للغرض فنقول:

قال رحمه اللّه ما نصّه: محمد بن إدريس بن على بن إبراهيم بن القاسم، من أهل جزيرة شقر، يكنى أبا عبد اللّه، و يعرف بابن مرج الكحل. كان شاعرا مفلقا غزلا بارع التوليد، رقيق الغزل. و قال الأستاذ أبو جعفر: شاعر مطبوع حسن الكتابة ذاكر للأدب متصرّف فيه. قال ابن عبد الملك: و كانت بينه و بين طائفة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها إجادته، و كان مبتذل اللباس، على هيئة أهل البادية، و يقال: إنه كان أمّيّا.

من أخذ عنه- روى عنه أبو جعفر بن عثمان الورّاد، و أبو الربيع بن سالم، و أبو

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۴۳

عبد اللّه بن الأبار، و ابن عسكر، و ابن أبى البقاء، و أبو محمد بن عبد الرحمن بن برطلة، و أبو الحسن الرعينى.

[نماذج من شعر ابن مرج الكحل]

شعره و دخوله غرناطة- قال فى عشيّة بنهر الغنداق من خارج بلدنا لوشة بنت الحضرة، و المحسوب من دخلها أنه دخل إلبيرة، و قد قيل: إنّ نهر الغنداق من أحواز برجة، و هذا الخلاف داع لذكره: [الكامل]

عرّج بمنعرج الكثيب الأعفر بين الفرات و بين شطّ الكوثر

و لتغتبقها قهوة ذهبيّة من راحتى أحوى المراشف أحور

و عشيّة كم كنت أرقب وقتها سمحت بها الأيام بعد تعذّر

فلنا بهذا ما لنا فى روضة تهدى لناشقها شميم العنبر

و الدهر من ندم يسفّه رأيه فيما مضى فيه بغير تكدّر

و الورق تشدو و الأراكة تنثنى و الشمس ترفل فى قميص أصفر

و الروض بين مفضّض و مذهّب و الزهر بين مدرهم و مدنّر

و النهر مرقوم الأباطح و الرّبا بمصندل من زهره و معصفر

و كأنه و كأنّ خضرة شطّه سيف يسلّ على بساط أخضر

و كأنما ذاك الحباب فرنده مهما طفا فى صفحة كالجوهر

و كأنه، وجهاته محفوفة بالآس و النعمان، خدّ معذّر

نهر يهيم بحسنه من لم يهم و يجيد فيه الشعر من لم يشعر

ما اصفرّ وجه الشمس عند غروبها إلّا لفرقة حسن ذاك المنظر

و لا خفاء ببراعة هذا الشعر. و قال منها:

أرأت جفونك مثله من منظر ظلّ و شمس مثل خدّ معذّر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۴۴

و جداول كأراقم حصباؤها كبطونها و حبابها كالأظهر

و هذا تتميم عجيب لم يسبق إليه. ثم قال منها:

و قرارة كالعشر بين خميلة سالت مذانبها بها كالأسطر

فكأنها مشكولة بمصندل من يانع الأزهار أو بمعصفر

أمل بلغناه بهضب حديقة قد طرّزته يد الغمام الممطر

فكأنه و الزهر تاج فوقه ملك تجلّى فى بساط أخضر

راق النواظر منه رائق منظر يصف النضارة عن جنان الكوثر

كم قاد خاطر خاطر مستوفز و كم استفزّ جماله من مبصر

لو لاح لى فيما تقادم لم أقل (عرّج بمنعرج الكثيب الأعفر)

قال أبو الحسن الرعينى: و أنشدنى لنفسه: [الكامل]

و عشيّة كانت قنيصة فتية ألفوا من الأدب الصريح شيوخا

فكأنما العنقاء قد نصبوا لها من الانحناء إلى الوقوع فخوخا

شملتهم آدابهم فتجاذبوا سرّ السّرور محدّثا و مصيخا

و الورق تقرأ سورة الطرب التى ينسيك منها ناسخ منسوخا

و النهر قد صفحت به نارنجة فتيمّمت من كان فيه منيخا

فتخالهم خلل السماء كواكبا قد قارنت بسعودها المرّيخا

خرق العوائد فى السرور نهارهم فجعلت أبياتى له تاريخا

و من أبياته فى البديهة قوله: [الوافر]

و عندى من مراشفها حديث يخبّر أنّ ريقتها مدام

و فى أجفانها السّكرى دليل و ما ذقنا و لا زعم الهمام

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۴۵

تعالى اللّه ما أجرى دموعى إذا عنّت لمقلتى الخيام

و أشجانى إذا لاحت بروق و أطربنى إذا غنّت حمام

و من قصيدة: [الطويل]

عذيرى من الآمال خابت قصودها و نالت جزيل الحظّ منها الأخابث

و قالوا: ذكرنا بالغنى، فأجبتهم خمولا و ما ذكر مع البخل ماكث

يهون علينا أن يبيد أثاثنا و تبقى علينا المكرمات الأثائث

و ما ضرّ أصلا طيّبا عدم الغنى إذا لم يغيّره من الدهر حادث

و له يتشوّق إلى عمرو بن أبى غياث: [الوافر]

أيا عمرو، متى تقضى الليالى بلقياكم و هنّ قصصن ريشى

أبت نفسى هوى إلّا شريشا و يا بعد الجزيرة من شريش

و له من قصيدة: [الكامل]

طفل المساء و للنسيم تضوّع و الأنس يجمع شملنا و يجمّع

و الزهر يضحك من بكاء غمامة ريعت لشيم سيوف برق تلمع

و النهر من طرب يصفّق موجه و الغصن يرقص و الحمامة تسجع

فانعم أبا عمران و اله بروضة حسن المصيف بها و طاب المربع

يا شادن البان الذى دون النقا حيث التقى وادى الحمى و الأجرع

الشمس يغرب نورها و لربما كسفت و نورك كلّ حين يسطع

إن غاب نور الشمس لسنا نتّقى بسناك ليل تفرّق يتطلّع

أفلت فناب سناك عن إشراقها و جلا من الظّلماء ما يتوقّع

فأمنت يا موسى الغروب و لم أقل «فوددت يا موسى لو أنك يوشع»

و قال: [الطويل]

ألا بشّروا بالصبح من كان باكيا أضرّ به الليل الطويل مع البكا

ففى الصبح للصّبّ المتيّم راحة إذا الليل أجرى دمعه و إذا شكا

و لا عجب أن يمسك الصبح عبرتى فلم يزل الكافور للدم ممسكا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۴۶

و من بديع مقطوعاته قوله: [الرمل]

مثل الرّزق الذى تطلبه مثل الظّلّ الذى يمشى معك

أنت لا تدركه متّبعا و إذا ولّيت عنه تبعك

و قال: [الطويل]

دخلتم فأفسدتم قلوبا بملكها فأنتم على ما جاء فى سورة النمل

و بالجود و الإحسان لم تتخلّقوا فأنتم على ما جاء فى سورة النحل

و قال أبو بكر محمد بن محمد بن جهور: رأيت لا بن مرج الكحل مرجا أحمر قد أجهد نفسه فى خدمته، فلم ينجب، فقلت: [البسيط]

يا مرج كحل و من هذى المروج له ما كان أحوج هذا المرج للكحل

ما حمرة الأرض من طيب و من كرم فلا تكن طمعا فى رزقها العجل

فإنّ من شأنها إخلاف آملها فما تفارقها كيفيّة الخجل

فقال مجيبا: [البسيط]

يا قائلا إذ رأى مرجى و حمرته ما كان أحوج هذا المرج للكحل

هو احمرار دماء الروم سيّلها بالبيض من مرّ من آبائى الأول

أحببته أن حكى من قد فتنت به فى حمرة الخدّ أو إخلافه أملى

[وفاة ابن مرج الكحل]

و فاته- توفى ببلده يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول عام أربعة و ثلاثين و ستمائة، و دفن فى اليوم بعده. انتهى ما فى الإحاطة فى شأن ابن مرج الكحل.

و كتب أبو الحسن على بن لسان الدين على أوّل ترجمته ما نصّه: شاعر جليل القدر، من مشايخ شعراء الأندلس، من أهل بلنسية، و سكن جزيرة شقر.

و كتب على قوله «و النهر مرقوم الأباطح» ما صورته: لم يصف أحد النهر بأرقّ ديباجة و لا أظرف من هذا الإمام، رحمة اللّه عليه؛ انتهى كلام ابن لسان الدين.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۴۷

[رائية لشمس الدين الكوفى الواعظ]

قلت: و ما رأيت رائية تقرب من التى لابن مرج الكحل السابقة التى أولها «عرّج بمنعرج الكثيب الأعفر» إلّا رائية شمس الدين بن الكوفى الواعظ، و هى قوله: [الكامل]

روح الزمان هو الربيع فبكّر و انهض إلى اللّذّات غير منكّر

هذا الربيع يبيع من لذّاته أصناف ما تهوى، فأين المشترى

فافرح به فلفرحة بقدومه رفل الشقائق فى القباء الأحمر

و الكون مبتهج و خفّاق الصّبا يحيى القلوب بنشره المتعطّر

و الغيم يبكى، و الأقاحى باسم لبكائه كتبسّم المستبشر

و السرو إن عبث النسيم فهزّ أع طاف الغصون يميس ميس موقّر

و كأنما القدّاح فستق فضّة يهدى إليك أريج مسك أذفر

و كأنما المنثور فى أثوابه ألوان ياقوت أنيق المنظر

و ترى البهار كعاشق متخوّف متشوّق باد بوجه أصفر

و كأنما النارنج فى أوراقه ال قنديل، و الأوراق شبه مسحّر

و كأنما الخشخاش قوم جاءهم خبر يسرّهم بطيب المخبر

فثنوا ملابسهم لفرط سرورهم كى يخلعوا فرحا بقول المخبر

فتعلّقت أذيالها بأكفّهم و تعلّقت أزياقها بالمنحر

و الطّلّ من فوق الرياض كأنه درر نثرن على بساط أخضر

و ترى الرّبى بالنّور بين متوّج و مدملج و مخلخل و مسوّر

و رياضها بالزهر بين مقرطق و مطوّق و ممنطق و مزنّر

و الورد بين مضعّف و مشنّف و مكتّف و ملطّف لم يهصر

و الزهر بين مفضّض و مذهّب و مرصّع و مدرهم و مدنّر

و النثر بين مطيّب و ممسّك و معطّر و مصندل و معنبر

و الورق بين مرجّع و موجّع و مفجّع و مسجّع فى منبر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۴۸

و مغرّد و مردّد و معدّد و مبدّد فى الخدّ ماء المحجر

و لكن قصيدة ابن مرج الكحل أعذب مذاقا، و كلّ منهما لم يقصّر، رحمهما اللّه تعالى! فلقد أجادا فيما قالاه إلى الغاية، و ليس الخبر كالعيان.

[من نظم ابن مرج الكحل]

و من نظم ابن مرج الكحل قوله: [الكامل]

الشمس يغرب نورها، و لربما كسفت و نورك كلّ حين يسطع

أفلت فناب سناك عن إشراقها و جلا من الظّلماء ما يتوقّع

فأمنت يا موسى الغروب و لم أقل «فوددت يا موسى لو انك يوشع»

و لمّح بهذه الأبيات إلى قول الرصافى الأندلسى البلنسى يخاطب من اسمه موسى بقصيدة أولها: [الكامل]

ما مثل موضعك ابن رزق موضع زهر يرفّ و جدول يتدفّع

و منها:

و عشيّة لبست ثياب شحوبها و الجوّ بالغيم الرقيق مقنّع

بلغت بنا أمد السرور تألّفا و الليل نحو فراقنا يتطلّع

فابلل بها ريق الغبوق فقد أتى من دون قرص الشمس ما يتوقّع

سقطت و لم يملك نديمك ردّها فوددت يا موسى لو أنك يوشع

[بين ابن مرج الكحل و الأديب أبى بحر صفوان بن إدريس]

قلت: و من نثر ابن مرج الكحل المذكور ما كتبه إلى أديب الأندلس أبى بحر صفوان بن إدريس مراجعا له بعد نظم، و نصّ الجميع: [البسيط]

يا من تبوّأ فى العلياء منزلة جدّاه قد أسّساها أىّ تأسيس

لم يتركا فى العلا حظّا لملتمس سيّان هذا و هذاك ابن إدريس

وافى كتابكم فارتدّ لى جذلى و اعتضت من فرط أشواقى بتأنيس

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۴۹

و للنوى لوعة تطفو فيطفئها مسك المداد و كافور القراطيس

حرس اللّه سناءك و سناك! و أظفر يمناك بمناك! ودّى الأسلم كما تعلم، و عهدى الأقدم، لم تزلّ له قدم، و أنا دام عزّكم إن أتّفق معكم انتسابا فلم أتّفق فى شأو الأدب باعا، و لا قاربتكم طباعا و انطباعا، بل بذلك الاتفاق تشرفت، و سموت إلى ذروة العلا و استشرفت، و أقررت بذلك الفضل و اعترفت، و كرعت فى مناهله و اغترفت، و لقد وافى كتابكم فقلت و قد نثر الدرّ فيه من فيه، و بلغ نفسى ممّا كانت تنويه من التنويه: [الطويل]

حديث لو انّ الميت نودى ببعضه لأصبح حيّا بعد ما ضمّه القبر

و لو لا ما طالعنى وجه من رضاكم و سيم، و سقانى مزن اهتبالكم ما أروى به و أسيم، و حيّانى منكم روض و نسيم، لما ساعدنى الفكر بقسيم، لا زلتم فى ظلّ من العيش وارف، مرتدين رداء المعارف، و السلام؛ انتهى.

و كانت مخاطبة صفوان له التى أجاب عنها بما نصّه: [البسيط]

يا قاطع البيد يطويها و ينشرها إلى الجزيرة ينضى بدّن العيس

الثم بها عن أخى حبّ و ذى كلف يد العلا و القوافى و ابن إدريس

و أبلغها إليه تحيّة كالمسك صدرا و وردا، و كالماء الزلال عذوبة و بردا، يسرى بها إلى دار ابن نسيم، و يسفر منها بجزيرة شقر وجه وسيم، و هى و إن كانت تذيب المسك خجلا، و تستفز بصوتها وجلا، فما هى إلّا خائفة تترقّب، و سافرة تكاد تتنقّب، تمشى على استحياء، و تعثر من التقصير فى ذيل إعياء، هذا لأنها جلبت إلى هجر تمرا، و إلى شبام و بيت رأس خمرا، و لكن على المجد أن يبدى فى قبول عذرها و يعيد، لعلمه أنه يتيمّم من لم يجد إلّا الصعيد، فله الفضل أن لا يلفحها بنار النقد، و لا يعرضها على ما هنالك من الحلّ و العقد، و اللّه يبقى ذكره فى مقلة الأدب حورا، و فى قلب الحسود خورا، و بديمه و القوافى طوع قريحته، و الأغراض الجميلة ملء تعريضته و تصريحته، و زهر البيان تطلع فى سماء جنانه، و زهر التبيان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۵۰

يونع فى أنداء جنانه، و عذرا إليه فإنى كتبت و الحامل يمسك زمامه، و يلتفت فى البيداء أمامه؛ و السلام.

[خطبة نكاح من إنشاء أبى بحر صفوان بن إدريس]

و من إنشاء صفوان خطبة نكاح نصّها: الحمد للّه الذى تطوّل بالإحسان من غير جزاء و لا ثواب، و ألبس المخلوقات من فواضله سوابغ المطارف و كواسى الأثواب، و جاؤوا على أقدام الرجاء إلى محالّ نوافله فوجدوها مفتّحة لهم الأبواب، و سألوه كفاية المؤنة فكان الفعل بدل القول و الإسعاف بدل الجواب، خلق البرية من غير افتقار و لا اضطرار، و نقلهم من الطفولية إلى غيرها نقل البدر من التمام

إلى السرار، و شرّف هذه الطبقة الإنسانية، فرزقها الإدراكات العقلية، و الإبانات اللسانية، فضرب سرادق اعتنائه عليها، و أنشأها من نفس واحدة و جعل منها زوجها ليسكن إليها، و مع صنعه الرفيق بهم اللطيف، و تنويهه الحافّ بأرجائهم المطيف، رزقهم أحسن الصور الحيوانية و أجملها، و أتاح لهم أتمّ أقسام الاعتناء و أكملها، و بعث إليهم الرسل صلوات اللّه عليهم صنعا منه جميلا، و ربّا للصنيعة لديهم و تكميلا، فبشروا و أنذروا، و أمّنوا و حذروا، و باينوا بين الحرام و الحلال، مباينة إدراك البصير بين الكدر و الزلال، و دلوا على السمت الأهدى، و نصبوا أعلام التوفيق و الهدى، و لم يدعوا شيئا سدى، بل توازنت بهم مقادير الأقوال و الأعمال، و كانت إشاراتهم ثمال الهداية و أىّ ثمال، فآب كلّ متسحب إلى الارتباط، و شدّ كل موفق على الاعتلاق بحالهم يد الاغتباط، فصلوات اللّه الزاكية عليهم، و نوافح رحمته النامية تغدو و تروح إليهم، و أتمّ الصلاة و السلام، على علم أولئك الأعلام، الداعى على بصيرة إلى دار السلام، السراج المنير، البشير النذير، محمد، صلّى اللّه عليه و على آله و صحبه صلاة تؤول بهم إلى فسيح رضوانه و رحبه، بعثه اللّه رحمة للعالمين عامة، و أرسله نعمة للناس موفورة تامة، فأخذ بحجز مصدقيه عن التهافت فى مداحض الأقدام، و التتابع فى مزلّات الجرأة على العصيان و الإقدام، فأقام الحجّة، و أوضح المحجّة، و دلّ على المقامات التى تمحض الأولياء، و أفصح عن الكرامات التى تنقذ الأتقياء، و قال و أهلا به من قائل: «تناكحوا فإنى مكاثر بكم الأنبياء»، حرصا منه صلوات اللّه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۵۱

عليه على الزيادة فى أهل الإسلام و النّماء، و دفعا فى صدر الباطل بواضح الحقّ الصادع غيهب الظلماء، و حضّ على ذات الدين الحصان، و أغرى بالاعتصام و الإحصان، و نصب أعلام النكاح مشيدة المبانى، و جاء بها سنّة عذبة المجانى، و قال: «من تزوّج فقد كمل نصف دينه فليتّق اللّه فى النصف الثانى»، و أمر بالنكاح الذى توافقت فيه الطبيعة و الشريعة، و لبّته النفوس و هى سريعة، و أخصبت به ربوة التناسل فهى مروضة مريعة، و سدّت به عن اتّباع الهوى و ارتكاب المحارم الذريعة، و حفظت به الأنسال و الأنساب، و فاض به نهر الالتئام السلسال المنساب، إذ لا سبيل لأن يستغنى بذاته، من كان أسير هواه و مأمور لذّاته، و إنما الانفراد و الاستغناء، لمن له الكمال و الغنى، و لا- يجوز أن يتعاقب عليه الإنى، لا- إله إلا- هو له السناء و السنا. و إنّ فلانا لما ارتقت همّته إلى اتّباع الصالحات وسمت، و وسمته النجابة من أعلامها اللائحة بما وسمت، رأى أنّ الاعتصام بالنكاح أولى ما حمى به دينه و وقاه، و أهمّ ما رفع إليه اعتناءه و رقاه، فخطب إلى فلان ابنته فلانة خطبة تظافر فيها اليمن و القبول، و نفحت بها شمال من الجدّ المصمّم و قبول، و ارتقى بها إلى اللوح المحفوظ و الديوان المكنون عمل مقبول، فتلقّى فلان خطبته بالإجابة، لما توسّم فيه من مخايل النجابة، حرصا منه على المساعدة و العون، و اغتباطا بمباشرة أهل الرشد و الصّون، و انعقد النكاح بينهما على بركة اللّه التى يتضاعف بها العدد القليل و يتزيّد، و يمنه الذى ينتهض به من اعتمده و يتأيّد، و حسن توفيقه الذى يرتبط به من أخلص ضميره و يتقيّد، على أن أصدقها كذا، تزوّجها بكلمة اللّه التى علت الكلمات و بهرتها، و على سنّة نبيّه التى أحيت الحنيفية و أظهرتها، و أنقت الملّة من أرجاس الجاهلية و طهّرتها، و هداية مهديه التى غلبت الأباطيل و قهرتها، و لتكون عنده بأمانة اللّه التى هى جنّة و اعتصام، و عهدته للزوجات على أزواجهنّ التى ليس لعروتها انفصام، و على إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، و تسلسل فى ميدان التناصف و أرسان، و له عليها من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۶؛ ص۵۱

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۵۲

حسن العشرة التى هى بحقيق الاتّفاق عائدة، مثل ذلك و درجة زائدة، و اللّه تعالى يمهّد لهما مهاد نعمته الوثير، و يخلف منهما الطيب الكثير، و يرزقهما التوفيق الباعث لطول المرافقة المثير، بمنّه و نعمته.

[رسالة عتاب من إنشاء صفوان بن إدريس]

و له رحمه اللّه من رسالة عتاب: أدام اللّه سبحانه مدّة الأخ الذى استديم إخاءه، و إن واجهتنى زعازعه أرتقب رخاءه، و تجاوزت عن يومه لأمسه، و أغضيت عن ظلامه لشمسه، إنى واعتنا، و إنذارا، و إعذارا، و رحم اللّه من اعتمد على الأفهام، و عصى أوامر الأوهام، و رأى الخليفة فى المعقول، لا- فى المختلف المنقول. و بعد فإنه وصل كلامك بل ملامك، و كتابك بل عتابك، و رسالتك بل بسالتك، سمتنى بألفاظك العذاب، سوء العذاب، و أريتنى لمعان الحسام، من فقرك الوسام.

[ترجمة صفوان بن إدريس عن «الإحاطة» للسان الدين بن الخطيب]

و قال صفوان رحمه اللّه: اجتمعت مع ابن مرج الكحل يوما، فاشتكى إلىّ ما يجد لفراقى، و أطال عتب الزمان فى إشآمه و إعراقى، فقلت: إذا تفرّقنا و النفوس مجتمعة، فما يضرّ أنّ الجسوم للرحيل مزمعة؟ ثم قلت له: [مخلع البسيط]

أنت مع العين و الفؤاد دنوت أو كنت ذا بعاد

فقال و هو من بارع الإجازة: [مخلع البسيط]

و أنت فى القلب فى السويدا و أنت فى العين فى السواد

و إذ جرى ذكر صفوان فلا حرج أن نترجمه، فنقول:

قال فى «الإحاطة» ما ملخّصه: صفوان بن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس، التجيبى، المرسى، أبو بحر، كان أديبا حسيبا، ممتعا من الظّرف، ريّان من الأدب، حافظا سريع البديهة، ترف النشأة، على تصاون و عفاف، جميلا، سريّا، ممّن تساوى حظّه فى النظم و النثر، على تباين الناس فى ذلك. روى عن أبيه و خاله ابن عمّ أبيه القاضى أبى القاسم بن إدريس، و أبى بكر بن مغاور، و أبى رجال بن غلبون، و أبى العباس بن مضا،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۵۳

سمع عليه صحيح مسلم، و أبى القاسم بن حبيش، و ابن حوط اللّه، و أبى الوليد بن رشد، و أجاز له ابن بشكوال. و روى عنه أبو إسحاق بن اليابرى، و أبو الربيع بن سالم، و ابن عيشون، و له تواليف أدبية، منها «زاد المسافر»، و كتاب «الرحلة»، و كتاب «العجالة»، سفران يتضمّنان من نظمه و نثره أدبا لا كفاء له. و انفرد من تأبين الحسين و بكاء أهل البيت بما ظهرت عليه بركته من حكايات كثيرة.

[قصيدة لصفوان بن إدريس فى تقديم مرسية على غيرها من البلدان]

ثم سرد لسان الدين جملة من نظمه إلى أن قال: و قال فى غرض الرصافى من وصف بلده و ذكر إخوانه يساجله فى الغرض و الروى عقب رسالة سمّاها «طراد الجياد فى الميدان، و تنازع اللّدات و الأخدان، فى تقديم مرسية على غيرها من البلدان»: [الطويل]

لعلّ رسول البرق يغتنم الأجرا فينثر عنّى ماء عبرته نثرا

معاملة أربى بها غير مذنب فأقضيه دمع العين عن نقطة بحرا

ليسقى من تدمير قطرا محبّبا يقرّ بعين القطر أن تشرب القطرا

و يقرضه ذوب اللّجين، و إنما توفّيه عينى من مدامعها تبرا

و ما ذاك تقصيرا بها غير أنه سجيّة ماء البحر أن يذوى الزّهرا

خليلىّ قوما فاحبسا طرق الصّبا مخافة أن يحمى بزفرتى الحرّى

فإنّ الصبّا ريح علىّ كريمة بآية ما تسرى من الجنّة الصّغرى

خليلىّ أعنى أرض مرسية المنى و لو لا توخّى الصدق سمّيتها الكبرى

محلّى بل جوّى الذى عبقت به نواسم آدابى معطّرة نشرا

و وكرى الذى منه درجت فليتنى فجعت بريش العزم كى ألزم الوكرا

و ما روضة الخضراء قد مثلت بها مجرّتها نهرا و أنجمها زهرا

بأبهج منها و الخليج مجرّة و قد فضحت أزهار ساحتها الزهرا

و قد أسكرت أعطاف أغصانها الصّبا و ما كنت أعددت الصّبا قبلها خمرا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۵۴

هنالك بين الغصن و القطر و الصّبا و زهر الرّبى ولّدت آدابى الغرّا

إذا نظم الغصن الحيا قال خاطرى تعلّم نظام النثر من ههنا شعرا

و إن نثرت ريح الصّبا زهر الرّبا تعلّمت حلّ الشّعر أسبكه نثرا

فوائد أسحار هناك اقتبستها و لم أر روضا غيره يقرئ السّحرا

كأنّ هزيز الريح يمدح روضها فملأ فاها من أزاهره درّا

أيا رنقات الحسن، هل فيك نظرة من الجرف الأعلى إلى السكة الغرّا

فأنظر من هذى لتلك كأنما أغيّر إذ غازلتها أختها الأخرى

هى الكاعب الحسناء تمّم حسنها و قدّت لها أوراقها حللا خضرا

إذا خطبت أعطت دراهم زهرها و ما عادة الحسناء أن تنقد المهرا

و قامت بعرس الأنس قينة أيكها أغاريدها تسترقص الغصن النّضرا

فقل فى خليج يلبس الحوت درعه و لكنه لا يستطيع بها نصرا

إذا ما بدا فيها الهلال رأيته كصفحة سيف وسمها قبعة صفرا

و إن لاح فيها البدر شبّهت متنه بشطّ لجين ضمّ من ذهب عشرا

و فى جرفى روض هناك تجافيا بنهر، يودّ الأفق لو زاره فجرا

كأنهما خلّا صفاء تعاتبا و قد بكيا من رقّة ذلك النهرا

و كم لى بأبيات الحديد عشيّة من الأنس ما فيه سوى أنه مرّا

عشيات كأنّ الدهر غضّ بحسنها فأجلت بساط البرق أفراسها شقرا

عليهنّ أجرى خيل دمعى بوجنتى إذا ركبت حمرا ميادينها الصفرا

أعهدى بالغرس المنعّم دوحه سقتك دموعى إنها مزنة شكرى

فكم فيك من يوم أغرّ محجّل تقضت أمانيه فخلدتها ذكرا

على مذنب كالبحر من فرط حسنه تودّ الثريّا أن يكون لها نحرا

سقت أدمعى و القطر أيهما انبرى نقا الرّملة البيضاء فالنهر فالجسرا

و إخوان صدق لو قضيت حقوقهم لما فارقت عينى وجوههم الزّهرا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۵۵

و لو كنت أقضى حقّ نفسى و لم أكن لما بتّ أستحلى فراقهم المرّا

و ما اخترت هذا البعد إلّا ضرورة و هل تستجيز العين أن تفقد الشّفرا

قضى اللّه أن تنأى بى الدار عنهم أراد بذاك اللّه أن أعتب الدهرا

و و اللّه لو نلت المنى ما حمدتها و ما عادة المشغوف أن يحمد الهجرا

أ يأنس باللذّات قلبى و دونهم مرام يجدّ الكرب فى طيّها شهرا
و يصحب هادى الليل راء و حرفة و صادا و نونا قد تقدس و اصفرّا
فديتهم بانوا و ضنّوا بكتبهم فلا خبرا منهم لقيت و لا خبرا
و لو لا علا همّاتهم لعتبتهم و لكن عراب الخيل لا تحمل الزّجرا
ضربت غبار البيد فى مهرق السّرى بحيث جعلت الليل فى ضربه حبرا
و حقّقت ذاك الضّرب جمعا و عدّة و طرحا و تجميلا فأخرج لى صفرا
كأنّ زمانى حاسب متعسّف يطارحنى كسرا و ما يحسن الجبرا
فكم عارف بى و هو يحسن رتبتى فيمدحنى سرا و يشتمنى جهرا
لذلك ما أعطيت نفسى حقّها و قلت لسرب الشّعر لا ترم الذكرا
فما برحت فكرى عذارى قصائدى و من خلق العذراء أن تألف الخدرا
و لست و إن طاشت سهامى بآيس فإنّ مع العسر الذى يتّقى يسرا

[قصيدة لصفوان يراجع فيها أبا الربيع بن سالم عن أبيات مثلها]

و قال يراجع أبا الربيع بن سالم عن أبيات مثلها: [الطويل]
سقى مضرب الخيمات من علمى نجد أسحّ غمامى أدمعى و الحيا الرغد
و قد كان فى دمعى كفاء، و إنما يجفّفها ما بالضلوع من الوقد
فإن فترت نار الضلوع هنيهة فسوف ترى تفجيره للحيا العدّ
و إن ضنّ صوب المزن يوما فأدمعى تنوب كما ناب الجميع عن الفرد

و إن هطلا يوما بساحتها معا فأرواهما ما صاب من منتهى الودّ
أرى زفرتى تذكى و دمعى ينهمى نقيضين قاما بالصلاء و بالورد
فهل بالذى أبصرتم أو سمعتم غمام بلا أفق و برق بلا رعد
لى اللّه كم أهذى بنجد و أهلها و ما لى بها إلّا التوهّم من عهد
و ما بى إلى نجد نزوع و لا هوى خلا أنهم شنّوا القوافى على نجد
و جاؤوا بدعوى حسّن الشّعر زورها فصارت لهم فى مصحف الحبّ كالحمد
شغلنا بأبناء الزمان عن الهوى و للدرع وقت ليس يحسن للبرد
إلى اللّه أشكو ريب دهر يغصّ فى نوائبه قد ألجمت ألسن العدّ
لقد صرفت حكم الفؤاد إلى الهوى كما فوّضت أمر الجفون إلى السهد
أما تتوقّى ويحها أن أصيبها بدعوة مظلوم على جورها يعدى
أما راعها أن زحزحت عن أكارم فراقهم دلّ القلوب على حدّى
أعاتبها فيهم فتزداد قسوة أجدّك هل عاينت للحجر الصلد
أما علمت أنّ القساوة نافرت طباع بنى الآداب إلّا من الردّ
إذا وعدت يوما بتأليف شملنا فألمم بعرقوب و ما سنّ من وعد

و إن عاهدت أن لا تؤلّف بيننا تذكّرت آثار السموأل فى العهد

خليليّ، أعنى النظم و النثر، أرسلا جيادكما فى حلبة الشكر و الحمد

قفا ساعدانى إنه حقّ صاحب برىء جمام الكتم من كدر الحقد

بآية ما قيّدتما ألسن الورى بذكرى فيا ويح الكنانىّ و الكندى

فأين بيانى أو فأين فصاحتى إذا لم أعد ذكر الأكارم أو أبدى

فيا خاطرى وفّ الثناء حقوقه و صغه كما قالوا سوار على زند

و لا تلزمنّى بالتكاسل حجّة تشببها نار الحياء على خدّى

ثكلت القوافى و هى أبناء خاطرى و غيّبها الإقحام عنّى فى لحد

لئن لم أصغ زهر النجوم قلادة و آت ببدر التمّ واسطة العقد

إلى أن يقول السامعون لرفقتى نعم طار ذاك السّقط عن ذلك الزّند

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۵۷

أحيّى بريّاها جناب ابن سالم فيقرع فيه الباب فى زمن الورد

و هى طويلة.

و من مقطوعاته قوله: [السريع]

يا قمرا مطلعه أضلعى له سواد القلب فيها غسق

و ربما استوقد نار الهوى فناب فيها لونها عن شفق

ملّكتنى فى دولة من صبا و صدتنى فى شرك من حدق

عندى من حبّك ما لو سرت فى البحر منه شعلة لاحترق

و قال: [الكامل]

قد كان لى قلب فلمّا فارقوا سوّى جناحا للغرام و طارا

و جرت سحاب للدموع فأوقدت بين الجوانح لوعة و أوارا

و من العجائب أنّ فيض مدامعى ماء، و يثمر فى ضلوعى نارا

و شعره الرمل و القطر كثرة، فلنختمه بقوله: [المنسرح]

قالوا و قد طال بى مدى خطئى و لم أزل فى تجرّمى ساهى

أعددت شيئا ترجو النجاة به؟ فقلت: أعددت رحمة اللّه

[من رسال لصفوان بن إدريس يهنئ فيها قاضى الجماعة أبا القاسم بن بقى]

و كتب يهنئ قاضى الجماعة أبا القاسم بن بقىّ برسالة منها: لأن محلّه دام عمره، و امتثل نهيه الشرعى و أمره، أعلى رتبة و أكرم محلّا، من أن يتحلّى بخطّة هى به تتحلّى، كيف يهنأ بالقعود لسماع دعاوى الباطل، و المعاناة لإنصاف الممطول من الماطل، و التّعب فى المعادلة، بين ذوى المجادلة. أما لو علم المتشوّفون إلى خطّة الأحكام، المستشرفون إلى ما لها من التبسّط و الاحتكام، ما يجب لها من اللّوازم، و الشروط الجوازم، كبسط الكنف، و رفع الجنف، و المساواة بين العدوّ ذى الذّنب، و الصاحب بالجنب، و تقديم ابن السّبيل، على ذى الرحم و القبيل، و إيثار الغريب، على القريب، و التوسّع فى الأخلاق، حتى لمن ليس له من خلاق، إلى غير ذلك ممّا علم قاضى الجماعة أحصاه، و استعمل خلقه الفاضل أدناه و أقصاه، لجعلوا خمولهم، مأمولهم، و أضربوا عن ظهورهم، فنبذوه وراء

ظهورهم، اللهمّ إلّا من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۵۸

أوتى بسطة فى العلم، ورسا طودا فى ساحة الحلم، و تساوى ميزانه فى الحرب و السّلم، و كان كمولانا فى المماثلة بين أجناس الناس، فقصاراه أن يتقلّد الأحكام للأجر، لا للتعنيف و الزّجر، و يتولّاها للثواب، لا للغلظة فى ردّ الجواب، و يأخذها لحسن الجزاء، لا لقبيح الاستهزاء، و يلتزمها لجزيل الذّخر، لا للإزراء و السّخر، فإذا كان كذلك، و سلك المتولّى هذه المسالك، و كان مثل قاضى الجماعة و لا مثل له، و نفع الحقّ به عليه و نقع غلله، فيومئذ تهنّى به خطة القضاء، و تعرف ما للّه تعالى عليها من اليد البيضاء.

[رحلة صفوان إلى مراكش]

و رحل إلى مراكش فى جهاز بنت بلغت التزويج، و قصد دار الخلافة مادحا، فما تيسّر له شىء من أمله، ففكّر فى خيبة قصده، و قال: لو كنت أمّلت اللّه سبحانه و مدحت نبيّه، صلّى اللّه عليه و سلّم، و آل بيته الطاهرين لبلغت أملى، بمحمود عملى. ثم استغفر اللّه تعالى من اعتماده فى توجّهه الأوّل، و علم أن ليس على غير الثانى معوّل، فلم يك إلّا أن صوّب نحو هذا المقصد سهمه، و أمضى فيه عزمه، و إذا به قد وجّه عنه فأدخل على الخليفة فسأله عن مقصده، فأخبره مفصحا به، فأنفذه و زاده عليه و أخبره أنّ ذلك لرؤيا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فى النوم يأمر بقضاء حاجته، فانفصل موفّى الأغراض، و استمرّ فى مدح أهل البيت عليهم السلام، حتى اشتهر بذلك. و توفى سنة ثمان و تسعين و خمسمائة، و سنّه دون الأربعين، و صلّى عليه أبوه، فإنه كان بمكان من الفضل و الدّين، رحم اللّه تعالى الجميع! انتهى كلام ابن الخطيب فى حقّ المذكور ملخصا.

[ترجمة صفوان بن إدريس، عن ابن سعيد و ابن الأبار]

و لا بأس أن نزيد عليه ما حضر، فنقول: قال ابن سعيد و غيره: ولد صفوان سنة ستين و خمسمائة، أو فى التى بعدها، قال: و ديوان شعره مشهور بالمغرب؛ انتهى.

و من نظمه قوله: [مجزوء الرجز]

أومض ببرق الأضلع و اسكب غمام الأدمع

و احزن طويلا و اجزع فهو مكان الجزع

و انثر دماء المقلتين تألّما على الحسين

وابك بدمع دون عين إن قلّ فيض الأدمع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۵۹

و هذا من قصيدة عارض بها الحريرى فى قوله [مجزوء الرمل]

«خلّ ادّكار الأربع»

و له أيضا مطلع قصيدة فيه: [مخلع البسيط]

يا عين سحّى و لا تشحّى و لو بدمع بحذف عين

و قال ابن الأبار: توفى صفوان بمرسية ليلة الاثنين السادس عشر من شوّال سنة ثمان و تسعين و خمسمائة، و ثكله أبوه، و صلّى عليه، و هو دون الأربعين، إذ مولده سنة إحدى و ستين و خمسمائة، و كان من جلّة الكتّاب البلغاء، و مهرة الأدباء الشعراء، ناقدا فصيحا، مدركا جليل القدر، متقدّما فى النظم و النثر، ممّن جمع ذلك، و له رسائل بديعة، و قصائد جليلة، و خصوصا فى مراثى الحسين رضى اللّه تعالى عنه!.

[من رثاء الحسين بن على بن أبى طالب رضى اللّه عنه لناهض بن محمد الوادى آشى]

و قد تذكّرت هنا قول ناهض بن محمد الأندلسى الوادى آشى فى رثاء الحسين رضى اللّه تعالى عنه: [الكامل]

أمرنّة سجعت بعود أراك قولى مولّهة: علام بكاك

أجفاك إلفك أم بليت بفرقة أم لاح برق بالحمى فشجاك

لو كان حقّا ما ادّعيت من الجوى يوما لما طرق الجفون كراك

أو كان روّعك الفراق إذا لما ضنّت بماء جفونها عيناك

و لما ألفت الروض يأرج عرفه و جعلت بين فروعه مغناك

و لما اتّخذت من الغصون منصّة و لما بدت مخضوبة كفّاك

و لما ارتديت الريش بردا معلما و نظمت من قزح سلوك طلاك

لو كنت مثلى ما أفقت من البكا لا تحسبى شكواى من شكواك

إيه حمامة خبّرينى، إننى أبكى الحسين، و أنت ما أبكاك

أبكى قتيل الطّفّ فرع نبيّنا أكرم بفرع للنبوّة زاكى

ويل لقوم غادروه مضرّجا بدمائه نضوا صريع شكاك

متعفّرا قد مزّقت أشلاؤه فريا بكلّ مهنّد فتّاك

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۶۰

أ يزيد لو راعيت حرمة جدّه لم تقتنص ليث العرين الشاكى

أو كنت تصغى إذ نقرت بثغره قرعت صماخك أنّه المسواك

أ تروم ويك شفاعة من جدّه هيهات! لا، و مدبّر الأفلاك

و لسوف تنبذ فى جهنّم خالدا ما اللّه شاء و لات حين فكاك

و توفى ناهض المذكور بوادى آش سنة ۶۱۵.

[من شعر صفوان بن إدريس أيضا]

رجع إلى أخبار صفوان بن إدريس- رحمه اللّه تعالى!- فنقول: و من شعر صفوان قوله: [الكامل]

قلنا و قد شام الحسام مخوّفا رشأ بعادية الضراغم عابث

هل سيفه من طرفه أم طرفه من سيفه أم ذاك طرف ثالث

و قوله: [مجزوء الكامل]

غيرى يروع بسيفه رشأ تشاجع ساخرا

إن كفّ عنّى طرفه فالسيف أضعف ناصرا

و قال صفوان المذكور رحمه اللّه تعالى: حيّيت بعض أصحابنا بزهرة سوسن، فقال:

[الكامل]

حيّا بسوسنة أبو بحر

فقلت مجيزا:

نضراء تفضح يانع الزهر

عجبا لها لم تذوها يده من طول ما مكثت على الصدر

[بين صفوان بن إدريس و الوزير الكاتب أبى محمد بن حامد (إجازة)]

و قال أيضا: ماشيت الوزير الكاتب أبا محمد بن حامد يوما، فاتّفق أن قال لأمر تذكّره:

[الكامل]

بين الكثيب و منبت السّدر ريم غدا مثواه فى صدرى

فقلت أجيزه: [الكامل]

لوشاحه قلم بلا ألم و لقرطه خفق بلا ذعر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۶۱

لو كنت قد أنصفت مقلته برّأت هاروتا من السّحر

أو كنت أقضى حقّ مرشفه أعرضت لا ورعا عن الخمر

و ناولته يوما وردة مغلقة، فقال: [الطويل]

و محمرّة تختال فى ثوب سندس كوجنة محبوب أطلّ عذاره

فقلت أجيزه: [الطويل]

كتطريف كفّ قد أحاطت بنانها بقلب محبّ ليس يخبو أواره

[بين صفوان و الوزير أبى إسحاق و قد رآه يقيد أشعارا من ظهر دفتر (إجازة)]

و قال: رآنى الوزير أبو إسحاق و أنا أقيد أشعارا من ظهر دفتر فقال: [مخلع البسيط]

ما ذا الذى يكتب الوزير

قلت:

بدائع ما لها نظير

فقال:

درّ و لكنه نظيم من خير أسلاكه السطور

فقلت:

من أظهر الكتب أقتنيها و خلّ ما تحتوى البحور

بتلك تزهو النحور، لكن بهذه تزدهى الصدور

و لكن الإنصاف واجب، هو قال المعنى الأخير نثرا و أنا سبكته نظما.

و قال: جلسنا بعض العشايا بالولجة خارج مرسية، و النسيم يهبّ على النهر، فقال أبو محمد بن حامد: [البسيط]

هبّ النسيم و ماء النهر يطّرد

فقلت على جهة المداعبة، لا الإجازة:

و نار شوقى فى الأحشاء تتّقد

فقال أبو محمد: ما الذى يجمع بين هذا العجز و ذاك الصدر؟ فقلت: أنا أجمع بينهما، ثم قلت:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۶۲

فصاغ من مائه درعا مفضّضة و زاد قلبى و قدا للذى يجد

و إنما شبّ أحشائى لحاجته إذ ليس دون لهيب يصنع الزرد

[بين صفوان و الوزير أبى محمد بن حامد أيضا و من شعر صفوان]

و خطرنا بمقنت على ثمرة تهزّها الريح فقال أبو محمد: [مخلع البسيط]

و سرحة كاللواء تهفو بعطفها هبّة الرياح

فقلت:

كأنّ أعطافها سقتها كفّ النّعامى كؤوس راح

فقال:

إذا انتحاها النسيم هزّت أعطافها هزّة السماح

فقلت:

كأنّ أغصانها كرام تقابل الضيف بارتياح

و لصفوان رحمه اللّه: [السريع]

تحيّة اللّه و طيب السلام على رسول اللّه خير الأنام

على الذى فتّح باب الهدى و قال للناس: ادخلوا بالسلام

بدر الهدى، غيم الندى و السدى و ما عسى أن يتناهى الكلام

تحيّة تهزأ أنفاسها بالمسك، لا أرضى بمسك الختام

تخصّه منّى و لا تنثنى عن أهله الصّيد السراة الكرام

و قدرهم أرفع لكننى لم ألف أعلى لفظة من كرام

و قال: [الطويل]

يقولون لى لمّا ركبت بطالتى ركوب فتى جمّ الغواية معتدى

أعندك شىء ترتجى أن تناله؟ فقلت: نعم عندى شفاعة أحمد

صلّى اللّه عليه و سلم، و شرّف و كرّم، و مجّد و عظّم، و بارك و أنعم، و والى و كمّل و أتمّ.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۶۳

الباب الثانى فى نشأة لسان الدين و ترقيه و وزارته

اشارة

فى نشأته، و ترقّيه و وزارته و سعادته، و مساعدة الدهر له، ثم قلبه له ظهر المجنّ على عادته فى مصافاته، و منافاته، و ارتباكه، فى شباكه، و ما لقى من إحن الحاسد، ذى المذهب الفاسد، و محن الكائد المستأسد و آفاته، و ذكر قصوره و أمواله، و غير ذلك من أحواله فى تقلّباته، عندما قابله الزمان بأهواله، فى بدئه و إعادته إلى وفاته.

[مولد لسان الدين، نقلا عن «الإحاطة» و نشأته نقلا عن ابن الأحمر]

أقول: كان مولد الوزير لسان الدين بن الخطيب رحمه اللّه، كما فى الإحاطة فى الخامس و العشرين من شهر رجب عام ثلاثة عشر و سبعمائة، و قال الرئيس الأمير أبو الوليد بن الأحمر رحمه اللّه: نشأ لسان الدين بن الخطيب على حالة حسنة سالكا سبيل أسلافه، فقرأ القرآن على المكتّب الصالح أبى عبد اللّه بن عبد المولى العوّاد تكتبا، ثم حفظا، ثم تجويدا، ثم قرأ القرآن أيضا على أستاذ الجماعة أبى الحسن القيجاطى، و قرأ عليه العربية و هو أوّل من انتفع به، و قرأ على الخطيب أبى القاسم بن جزى، و لازم قراءة العربية و الفقه و التفسير على الشيخ الإمام أبى عبد اللّه بن الفخار البيرى شيخ النحويين لعهده، و قرأ على قاضى الجماعة أبى عبد اللّه بن بكر، و تأدّب بالرئيس أبى الحسن بن الجياب، و روى عن كثير من الأعيان، و سرد ابن الأحمر المذكور هنا جملة أعلام من مشايخ لسان الدين سيأتى ذكرهم إن شاء اللّه تعالى، ثم قال: و أخذ الطب و التعليم و صناعة التعديل عن الإمام أبى زكريا يحيى بن هذيل و لازمه؛ انتهى.

[لبعضهم فى ذكر منزلة لسان الدين]

و قال بعضهم فى حق لسان الدين: هو الوزير العلامة المتحلى بأجمل الشمائل و أفضل المناقب، المتميّز فى الأندلس بأرفع المراقى و أعلى المراتب، علم الأعلام، و رئيس أرباب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۶۴

السيوف و الأقلام، جامع أشتات الفضائل، و المربى بحسن سياسته و عظيم رياسته على الأواخر و الأوائل، حائز رتبة رياسة السيف و القلم، و القائم بتدبير الملك على أرسخ قدم، صاحب القلم الأعلى، الوارد من البراعة المنهل الأحلى، صاحب الأحاديث التى لا تملّ على كثرة ما تتلى، و المحاسن التى صورها على منصّة التنويه تجلى؛ انتهى.

[من ترجمة لسان الدين بقلمه فى كتابه «الإحاطة، فى أخبار غرناطة»]

و قال لسان الدين فى «الإحاطة» بعد ذكر سلفه رحمهم اللّه تعالى، ما ملخّصه:

و خلفنى- يعنى أباه عبد اللّه- عالى الدرجة، شهير الخطّة، مشمولا بالقبول، مكنوفا بالعناية، فقلّدنى السلطان سرّه، و لمّا يستكمل الشباب و يجتمع السنّ، معزّزة بالقيادة و رسوم الوزارة، و استعملنى فى السّفارة إلى الملوك، و استنابنى بدار ملكه، و رمى إلى يدى بخاتمه و سيفه، و ائتمننى على صوان حضرته، و بيت ماله، و سجوف حرمه، و معقل امتناعه، و لما هلك السلطان ضاعف ولده حظوتى، و أعلى مجلسى، و قصر المشورة على نصحى، إلى أن كانت عليه الكائنة، فاقتدى فىّ أخوه المتغلّب على الأمر به، فسجل الاختصاص، و عقد القلادة، ثم حمله أهل السحناء من أهل أعوان ثورته على القبض علىّ، فكان ذلك، و تقبّض علىّ، و نكث ما أبرم من أمانى، و اعتقلت بحال ترفيه. و بعد أن كبست المنازل و الدّور، و استكثر من الحرس، و ختم على الأغلاق، و أبرد إلى ما ناء، و استوصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر و لا ربّات الأمثال، فى تبحّر الغلّة، و فراهة الحيوان، و غبطة العقار، و نظافة الآلات، و رفعة الثياب، و استجادة العدّة، و وفور الكتب إلى الآنية و الفرش و الماعون و الزجاج و الطّيب و الذخيرة و المضارب و الأبنية، و اكتسحت السائمة و ثيران الحرث و ظهر الحمولة و قوام الفلاحة و الخيل، فأخذ ذلك البيع، و تناهبتها الأسواق، و صاحبها البخس، و رزأتها الخونة، و شمل الخاصّة و الأقارب الطلب، و استخلصت القرى، و أعملت الحيل، و طوّقت الذنوب، و أمدّ اللّه تعالى بالعون، و أنزل السكينة، و انصرف اللسان إلى ذكر اللّه تعالى، و تعلّقت الآمال به و طبقت نكبة مصحفية مطلوبها الذات و سببها المال حسبما قلت عند إقالة العثرة و الخلاص من الهفوة: [الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۶۵

تخلّصت منها نكبة مصحفيّة لفقدانى المنصور من آل عامر

و وصلت الشفاعة فيّ مكتتبة بخطّ ملك المغرب، و جعل خلاصى شرطا فى العقدة و مسالمة الدولة، فانتقلت صحبة سلطانى المكفور الحقّ إلى المغرب، و بالغ ملكه فى برّى منزلا رحبا، و عيشا خفضا، و إقطاعا جما، و جراية ما وراءها مرمّى، و جعلنى بمجلسه صدرا، ثم أسعف قصدى فى تهيؤ الخلوة بمدينة سلا، منوّه الصكوك، مهنّأ القرار، متفقّدا باللّها و الخلع، مخوّل العقار، موفور الحاشية، مخلّى بينى و بين إصلاح معادى، إلى أن ردّ اللّه تعالى على السلطان أمير المسلمين أبى عبد اللّه ابن أمير المسلمين أبى الحجاج ملكه، و صيّر إليه حقّه، فطالبنى بوعد ضربته، و عمل فى القدوم عليه بولده أحكمته، و لم يوسعنى عذرا، و لا فسح فى التّرك مجالا، فقدمت عليه بولده، و قد ساءه بإمساكه رهينة ضدّه، و نغّص مسرّة الفتح بعده، على كلّ حال من التقشّف و الزهد فيما بيده، و عزف عن الطمع فى ملكه و زهد فى رفده، حسبما قلت من بعض المقطوعات: [الكامل]

قالوا لخدمته دعاك محمد فأنفتها و زهدت فى التنويه

فأجبتهم أنا و المهيمن كاره فى خدمة المولى محبّ فيه

عاهدت اللّه تعالى على ذلك، و شرحت صدرى للوفاء به، و جنحت إلى الانفصال لبيت اللّه الحرام نشيدة أملى، و مرمى نيّتى و عملى، فعلق بى، و خرج لى عن الضرورة، و أرانى أنّ مؤازرته أبرّ القرب، و راكننى إلى عهد بخطّه، فسح لعامين أمد الثّواء، و اقتدى بشعيب صلوات اللّه عليه، فى طلب الزيادة على تلك النسبة، و أشهد من حضر من العلية. ثم رمى إليّ بعد ذلك بمقاليد رأيه، و حكم عقلى فى اختيارات عقله، و غطّى من جفائى بحلمه، و حثا فى وجوه شهواته تراب زجرى، و وقف القبول على وعظى، و صرف هواى فى التحول ثانيا و قصدى، و اعترف بقبول نصحى، فاستعنت اللّه تعالى، و عاملت وجهه فيه، من غير تلبس بجراية، و لا تشبّث بولاية، مقتصرا على الكفاية، حذرا من النقد، خامل المركب، معتمدا على المنسأة، مستمتعا بخلق النعل، راضيا بغير النبيه من الثوب، مشفقا من موافقة الغرور،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۶۶

هاجر الزخرف، صادعا بالحقّ فى أسواق الباطل، كافّا عن السّخال براثن السباع. ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية و المدرسة و التربة بكر الحسنات بهذه الخطّة، بل بالجزيرة، فيما سلف من المدة، فتأتى بمنّة اللّه تعالى من صلاح السلطان و عفاف الحاشية و الأمن و روم الثغور و تثمير الجباية و إنصاف الحماة و المقاتلة و مقارعة الملوك المجاورة فى إيثار المصلحة الدينية و الصّدع فوق المنابر ضمانا من السلطان بترياق سم الثورة و إصلاح بواطن الخاصّة و العامّة ما اللّه تعالى المجازى عليه، و المعوض من سهر خلعته على أعطافه، و خطر اقتحمته من أجله، لا للثريد الأعفر، و لا للجرد تمرح فى الأرسان، و لا للبدر تثقل للأكتاد، فهو الذى لا يضيع عمل من عمل ذكر أو أنثى سبحانه و تعالى. و مع ذلك فلم أعدم الاستهداف للشرور، و الاستغراض للمحذور، و النظر الشزر المنبعث من خزر العيون، شيمة من ابتلاه اللّه تعالى بسياسة الدهماء، و رعاية سخطة أرزاق السماء، و قتلة الأنبياء، و عبدة الأهواء، ممّن لا يجعل للّه تعالى إرادة نافذة، و لا مشيئة سابقة، و لا يقبل معذرة، و لا يجمل فى الطلب، و لا يتلبّس مع اللّه بأدب، ربّنا لا تسلّط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا، و الحال إلى هذا العهد- و هو منتصف عام خمسة و ستين و سبعمائة- على ما ذكرته، أداله اللّه بحال السلامة، و بفيئة العافية، و التمتّع بالعبادة، و ربّك يخلق ما يشاء و يختار: [مجزوء الكامل]

و علىّ أن أسعى و لى س علىّ إدراك النجاح

و للّه سبحانه فينا علم غيب نحن صائرون إليه، ألحفنا اللّه بلباس التّقوى، و ختم لنا بالسعادة، و جعلنا فى الآخرة من الفائزين، نفثت عن بثّ، و تأوّهت عن حمّى، ليظهر بعد المنقلب قصدى، و يدلّ مكتتبى على عقدى. انتهى، و جلّه بلفظه.

و كان- رحمه اللّه تعالى!- عارفا بأحوال الملوك، سريع الجواب، حاضر الذهن، حادّ النادرة.

و من حكاياته فى حضور الجواب ما حكاه عن نفسه قال: حضرت يوما بين يدى السلطان أبى عنان فى بعض وفاداتى عليه لغرض الرسالة، و جرى ذكر بعض أعدائه، فقلت ما أعتقده فى إطراء ذلك العدوّ، و ما عرفته من فضله، فأنكر علىّ بعض الحاضرين ممّن لا

يحطب إلّا فى حبل السلطان، فصرفت وجهى و قلت: أيّدكم اللّه! تحقير عدوّ السلطان بين يديه ليس من السياسة فى شىء، بل غير ذلك أحقّ و أولى، فإن كان السلطان غالب عدوّه كان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۶۷

قد غلب غير حقير، و هو الأولى بفخره، و جلالة قدره، و إن غلبه العدو لم يغلبه حقير، فيكون أشدّ للحسرة، و آكد للفضيحة، فوافق- رحمه اللّه تعالى!- على ذلك و استحسنه، و شكر عليه، و خجل المعترض؛ انتهى.

و كان- رحمه اللّه تعالى!- مبتلى بداء الأرق، لا ينام من الليل إلّا النزر اليسير جدّا، و قد قال فى كتابه «الوصول، لحفظ الصحة فى الفصول»: العجب منى- مع تأليفى لهذا الكتاب الذى لم يؤلّف مثله فى الطب، و عملى ذلك- لا أقدر على مداواة داء الأرق الذى بى، أو كما قال، و لذا يقال له «ذو العمرين»؛ لأنّ الناس ينامون فى الليل و هو ساهر فيه، و مؤلفاته ما كان يصنّف غالبها إلّا بالليل، و قد سمعت بالمغرب بعض الرؤساء يقول: لسان الدين ذو الوزارتين، و ذو العمرين، و ذو الميتتين، و ذو القبرين؛ انتهى. و سيأتى ما يعلم منه معنى الأخيرين.

[تعريف لسان الدين بالسلطان أبى الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج، أحد ملوك بنى نصر]

و قد عرّف- رحمه اللّه تعالى!- بالسلطان أبى الحجاج فى «الإحاطة» فقال ما حاصله: يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر، الأنصارى الخزرجى، أمير المسلمين بالأندلس، أبو الحجاج. تولّى الملك بعد أخيه بوادى السقائين من ظاهر الخضراء ضحوة يوم الأربعاء ثالث عشر ذى الحجة عام ثلاثة و ثلاثين و سبعمائة، و سنّه خمسة عشر عاما و ثمانية أشهر. أمّه أمّ ولد و كان له ثلاثة أولاد كبيرهم محمد أمير المسلمين من بعده، و تلوه أخوه إسماعيل محجوره، و ثالثهم قيس شقيق إسماعيل. و ذكر لسان الدين أنه وزر له بعد شيخه ابن الجياب، و تولّى كتابة سرّه مضافة إلى الوزارة فى أخريات شوّال عام تسعة و أربعين و سبعمائة؛ انتهى. و قد علم أنه وزر بعده لابنه محمد كما تقدّم و يأتى، و أما إسماعيل بن أبى الحجاج فهو الذى تغلّب على الأمر، و انتهز الفرصة فى ملك أخيه محمد كما تقدّم، و فيه و فى أخيه قيس حين قتلا يقول لسان الدين: [الوافر]

بإسماعيل ثم أخيه قيس

البيتين.

و قد ذكر أيضا- رحمه اللّه تعالى!- حكاية وفاة السلطان أبى الحجاج ما محصّله أنه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۶۸

هجم عليه رجل من عداد الممرورين، و هو فى الركعة الأخيرة من صلاة عيد الفطر عام خمسة و خمسين و سبعمائة، فطعنه بخنجر، و قبض عليه، و استفهم فتكلّم بكلام مخلّط، و احتمل إلى منزله على فور لم يستقرّ به إلّا و قد قضى، و أخرج قاتله إلى الناس فقتل لحينه، و أحرق بالنار، و دفن عشية اليوم المذكور فى مقبرة قصره، ضجيع والده، و ولى أمره ولده محمد، و رثيته فى غرض ناء عن الجزالة مختار ولده: [الكامل]

[قصيدة للسان الدين فى رثاء السلطان أبى الحجاج]

العمر نوم، و المنى أحلام ما ذا عسى أن يستمرّ مقام

و إذا تحقّقنا لشىء بدأة فله بما تقضى العقول تمام

و النفس تجمح فى مدى آمالها ركضا، و تأبى ذلك الأيام

من لم يصب فى نفسه فمصابه بحبيبه، نفذت بذا الأحكام

بعد الشبيبة كبرة، و وراءها هرم، و من بعد الحياة حمام

و لحكمة ما أشرقت شهب الدّجى و تعاقب الإصباح و الإظلام

دنياك يا هذا محلّة نقلة و مناخ ركب ما لديه مقام

هذا أمير المسلمين و من به وجد السّماح و أعدم الإعدام

سرّ الأمانة و الخلافة يوسف غيث الملوك و ليثها الضّرغام

قصدته عادية الزمان فأقصدت و العزّ سام و الخميس لهام

فجعت به الدنيا و كدّر شربها و شكا العراق مصابه و الشام

أسفا على الخلق الجميل كأنما بدر الدّجنّة قد جلاه تمام

أسفا على العمر الجديد كأنه زهو الحديقة زهره بسّام

أسفا على الخلق الرّضىّ كأنه زهر الرياض هما عليه غمام

أسفا على الوجه الذى مهما بدا طاشت لنور جماله الأفهام

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۶۹

يا ناصر الثّغر الغريب و أهله و الأرض ترجف و السماء قتام

يا صاحب الصدقات فى جنح الدجى و الناس فى فرش النعيم نيام

يا حافظ الحرم الذى بظلاله ستر الأرامل و اكتسى الأيتام

مولاى، هل لك للقصور زيارة بعد انتزاح الدار أو إلمام

مولاى هل لك للعبيد تذكّر حاشاك أن ينسى لديك ذمام

يا واحد الآحاد و العلم الذى خفقت بعزّة نصره الأعلام

و افاك أمر اللّه حين تكاملت فيك النّهى و الجود و الإقدام

و رحلت عنّا الركّب خير خليفة أثنى عليك اللّه و الإسلام

نعم الطريق سلكت كان رفيقه و الزاد فيه تهجّد و صيام

و كسفت يا شمس المحاسن ضحوة فاليوم ليل، و الضياء ظلام

و سقاك عيد الفطر كأس شهادة فيها من الأجل الوحىّ مدام

و ختمت عمرك بالصلاة فحبّذا عمل كريم سعيه و ختام

مولاى، كم هذا الرقاد؟ إلى متى بين الصفائح و التراب تنام

أعد التحيّة و احتسبها قربة إن كان يمكنك الغداة كلام

تبكى عليك مصانع شيّدتها بيض كما تبكى الهديل حمام

تبكى عليك مساجد عمّرتها فالناس فيها سجّد و قيام

تبكى عليك خلائق أمّنتها بالسلم و هى كأنها أنعام

عاملت وجه اللّه فيما رمته منها فلم يبعد عليك مرام

لو كنت تفدى أو تجار من الرّدى بذلت نفوس من لدنك كرام

لو كنت تمنع بالصوارم و القنا ما كان ركنك بالغلاب يرام

لكنه أمر الإله، و ما لنا إلّا رضا بالحكم و استسلام

و اللّه قد كتب الفناء على الورى و قضاؤه جفّت به الأقلام

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۷۰

نم فى جوار اللّه مسرورا بما قدّمت يوم تزلزل الأقدام

و اعلم بأنّ سليل ملكك قد غدا فى مستقرّ علاك و هو إمام

ستر تكنّف منه من خلّفته ظلّ ظليل فهو ليس يضام

كنت الحسام و صرت فى غمد الثرى و لنصر ملكك سلّ منه حسام

خلّفت أمّة أحمد لمحمد فقضت بسعد الأمّة الأحكام

فهو الخليفة للورى فى عهده ترعى العهود و توصل الأرحام

أبقى رسومك كلّها محفوظة لم ينتثر منها عليك نظام

العدل و الشّيم الكريمة و التّقى و الدار و الألقاب و الخدّام

حسبى بأن أغشى ضريحك لاثما و أقول و الدمع السفوح سجام

يا مدفن التقوى و يا مثوى الهدى منّى عليك تحيّة و سلام

أخفيت من حزنى عليك، و فى الحشا نار لها بين الضلوع ضرام

و لو اننى أدّيت حقّك لم يكن لى بعد فقدك فى الوجود مقام

و إذا الفتى أدّى الذى فى وسعه و أتى بجهد، ما عليه ملام

قال لسان الدين: و كتبت فى بعض معاهده: [السريع]

غبت فلا عين و لا مخبر و لا انتظار منك مرقوب

يا يوسف، أنت لنا يوسف و كلّنا فى الحزن يعقوب

انتهى؛ و رحم اللّه تعالى الجميع بمنّه! و قد قدّمنا ما كتبه لسان الدين على لسان سلطانه إلى السلطان أبى عنان فى شأن قتل السلطان أبى الحجاج فى الباب الثامن من القسم الأول.

[ذكر خلع سلطان لسان الدين و قيام أخيه مقامه، عن لسان الدين فى «اللمحة البدرية»]

و قال لسان الدين فى كتابه «اللمحة البدرية، فى الدولة النصرية» فى ذكر ما يتعلّق بخلع سلطانه و قيام أخيه عليه خلال ذلك، ما نصّه: كان السلطان أبو عبد اللّه عند مصير الأمر إليه قد ألزم أخاه إسماعيل قصرا من قصور أبيه بجوار داره مرفّها، متمّمة وظائفه له، و أسكن معه أمّه و أخواته منها، و قد استأثرت يوم وفاة والده بمال جمّ من خزائنه الكائنة فى بيتها، فوجدت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۷۱

السبيل إلى السعى لولدها، فجعلت تواصل زيارة ابنتها التى عقد لها الوالد مع ابن عمه الرئيس أبى عبد اللّه ابن الرئيس أبى الوليد ابن الرئيس أبى عبد اللّه المبايع له بأندرش ابن الرئيس أبى سعيد جدّهم الذى تجمعهم جرثومته. و شمّر الصهر المذكور عن ساعد عزمه و جدّه و هو على ما هو عليه من الإقدام، و مداخلة ذؤبان الرجال، و استعان بمن أسفّته الدولة، و هتفت به الأطماع، فتألّف منهم زهاء مائة قصدوا جهة من جهات القلعة متسنّمين شفى صعب المرتقى، و اتّخذوا آلة تدرك ذروته لقعود بتيّة كانت به عن التمام، و كبسوا حرسيّا بأعلاه بما اقتضى صماته، فاستووا به، و نزلوا إلى القلعة سحر الليلة الثامنة و العشرين من شهر رمضان عام ستين و سبعمائة، فاستظهروا بالمشاعل و الصراخ، و عالجوا دار الحاجب رضوان، ففضوا أغلاقها و دخلوها فقتلوه بين أهله و ولده، و انتهبوا ما اشتملت عليه داره، و أسرعت طائفة مع الرئيس فاستخرجت الأمير المعتقل إسماعيل، و أركبته، و قرعت الطبول، و نودى بدعوته.

و قد كان أخوه السلطان متحوّلا بولده إلى سكنى الجنّة المنسوبة للعريف لصق داره، و هى المثل المضروب فى الظل الممدود، و الماء المسكوب، و النسيم البليل، يفصل بينها و بين معقل الملك السور المنيع و الخندق المصنوع، فما راعه إلّا النداء و العجيج و أصوات الطبول، و هبّ إلى الدخول إلى القلعة فألفاها قد أخذت دونه شعابها كلّها و نقابها، و قذفته الحراب، و رشقته السهام، فرجع أدراجه، و سدده اللّه تعالى فى محلّ الحيرة، و دسّ له عرق الفحول من قومه، فامتطى صهوة فرس كان مرتبطا عنده، و صار لوجهه فأعيا المتّبع، و صبح مدينة وادى آش، و لم يشعر حافظ قصبتها إلّا به، و قد تولج عليها، فالتفت به أهلها و أعطوه صفقتهم بالذبّ عنه، فكان أملك بها، و تجهّزت الحشود إلى منازلته، و قد جدّد أخوه المتغلّب على ملكه عقد السلم مع طاغية قشتالة باحتياجه إلى سلم المسلمين لجرّاء فتنة بينه و بين البر جلونيين من أمته. و اغتبط به أهل المدينة، فذبّوا عنه، و رضوا بهلاك نعمتهم دونه، و استمرّت الحال إلى يوم عيد النحر من عام التاريخ. و وصله رسول صاحب المغرب مستنزلا عنها و مستدعيا إلى حضرته، لما عجز عن إمساكها، و راسل ملك الروم فلم يجد عنده من معوّل، فانصرف ثانى يوم عيد النحر المذكور، و تبعه الجمع الوافر من أهل المدينة خيلا و رجلا إلى مربلّة من ساحل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۷۲

إجازته. و كان وصوله إلى مدينة فاس مصحوبا من البرّ و الكرامة بما لا مزيد عليه فى السادس من شهر محرّم فاتح عام أحد و ستين و سبعمائة. و ركب السلطان للقائه، و نزل إليه عند ما سلّم عليه، و بالغ فى الحفاية به، و كنت قد ألحقت به مفلتا من شرك النكبة التى استأصلت المال، و أو همت سوء الحال، بشفاعة السلطان أبى سالم قدّس اللّه روحه. فقمت بين يديه فى الحفل المشهود يومئذ و أنشدته: [الطويل]

[لسان الدين ينشد بين يدى سلطان فاس و قد التجأ هو و سلطانه إليه]

سلا هل لديها من مخبّرة ذكر و هل أعشب الوادى و نمّ به الزّهر
و هل باكر الوسمىّ دارا على اللّوى عفت آيها إلّا التّوهّم و الذّكر
بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى بأكنافها و العيش فينان مخضرّ
و جوّى الذى ربّى جناجى وكره فها أنا ذا ما لى جناح و لا وكر
نبت بى لا عن جفوة و ملالة و لا نسخ الوصل الهنىء بها هجر
و لكنها الدنيا قليل متاعها و لذاتها دأبا تزور و تزورّ
فمن لى بقرب العهد منها و دوننا مدى طال حتى يومه عندنا شهر
و للّه عينا من رآنا و للأسى ضرام له فى كلّ جانحة جمر
و قد بدّدت درّ الدموع يد النوى و للشوق أشجان يضيق لها الصدر
بكينا على النهر الشّروب عشيّة فعاد أجاجا بعدنا ذلك النهر
أقول لأظعانى و قد غالها السّرى و آنسها الحادى و أوحشها الزجر
رويدك بعد العسر يسر أن ابشرى بإنجاز وعد اللّه، قد ذهب العسر
و للّه فينا سرّ غيب، و ربما أتى النفع من حال أريد بها الضّرّ
و إن تخن الأيام لم تخن النّهى و إن يخذل الأقوام لم يخذل الصبر
و إن عركت منى الخطوب مجرّبا نقابا تساوى عنده الحلو و المرّ
فقد عجمت عودا صليبا على الردى و عزما كما تمضى المهنّدة البتر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۷۳

إذا أنت بالبيضاء قررت منزلى فلا اللحم حلّ ما حييت و لا الظهر

زجرنا بإبراهيم برء همومنا فلمّا رأينا وجهه صدق الزجر

بمنتخب من آل يعقوب كلّما دجا الخطب لم يكذب لعزمته فجر

تناقلت الركبان طيب حديثه فلمّا رأته صدّق الخبر الخبر

ندى لو حواه البحر لذّ مذاقه و لم يتعقّب مدّه أبدا جزر

و بأس غدا يرتاع من خوفه الردى و ترفل فى أثوابه الفتكة البكر

أطاعته حتى العصم فى قنن الرّبى و هشّت إلى تأميله الأنجم الزّهر

قصدناك يا خير الملوك على النوى لتنصفنا ممّا جنى عبدك الدهر

كففنا بك الأيام عن غلوائها و قد رابنا منها التعسّف و الكبر

و عذنا بذاك المجد فانصرم الرّدى و لذنا بذاك العزم فانهزم الذّعر

و لمّا أتينا البحر يرهب موجه ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر

خلافتك العظمى و من لم يدن بها فإيمانه لغو و عرفانه نكر

و وصفك يهدى المدح قصد صوابه إذا ضلّ فى أوصاف من دونك الشعر

دعتك قلوب المؤمنين و أخلصت و قد طاب منها السرّ للّه و الجهر

و مدّت إلى اللّه الأكفّ ضراعة فقال لهنّ اللّه: قد قضى الأمر

و ألبسها النعمى ببيعتك التى لها الطائر الميمون و المحتد الحرّ

فأصبح ثغر الثغر يبسم ضاحكا و قد كان ممّا نابه ليس يفترّ

و أمّنت بالسلم البلاد و أهلها فلا ظبة تعرى و لا روعة تعرو

و قد كان مولانا أبوك مصرّحا بأنك فى أبنائه الولد البرّ

و كنت حقيقا بالخلافة بعده على الفور، لكن كلّ شىء له قدر

و أوحشت من دار الخلافة هالة أقامت زمانا لا يلوح بها البدر

فردّ عليك اللّه حقّك إذ قضى بأن تشمل النّعمى و ينسدل الستر

و قاد إليك الملك رفقا بخلقه و قد عدموا ركن الإمامة و اضطرّوا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۷۴

و زادك بالتمحيص عزّا و رفعة و أجرا، و لو لا السّبك ما عرف التبر

و أنت الذى تدعى إذا دهم الرّدى و أنت الذى ترجى إذا أخلف القطر

و أنت إذا جار الزمان محكّم لك النقض و الإبرام و النّهى و الأمر

و هذا ابن نصر قد أتى و جناحه مهيض، و من علياك يلتمس الجبر

غريب يرجّى منك ما أنت أهله فإن كنت تبغى الفخر قد جاءك الفخر

ففز يا أمير المسلمين ببيعة موثّقة قد حلّ عروتها الغدر

و مثلك من يرعى الدخيل و من دعا بيا لمرين جاءه العزّ و النصر

و خذ يا إمام الحقّ بالحقّ ثأره ففى ضمن ما تأتى به العزّ و الأجر

و أنت لها يا ناصر الحقّ فلتقم بحقّ فما زيد يرجّى و لا عمرو

فإن قيل مال، مالك الدّثر وافر و إن قيل جيش، عندك العسكر المجر

يكفّ بك العادى، و يحيا بك الهدى و يبنى بك الإسلام ما هدم الكفر

أعده إلى أوطانه عنك راضيا و طوّقه نعماك التى ما لها حصر

و عاجل قلوب الناس فيه بجبرها فقد صدّهم عنه التغلّب و القهر

و هم يرقبون الفعل منك و صفقة تحاولها يمناك ما بعدها خسر

مرامك سهل لا يؤودك كلفة سوى عرض ما إن له فى العلا خطر

و ما العمر إلّا زينة مستعارة تردّ، و لكنّ الثناء هو العمر

و من باع ما يفنى بباق مخلّد فقد أنجح المسعى و قد ربح التّجر

و من دون ما تبغيه يا ملك الهدى جياد المذاكى و المحجّلة الغرّ

وراد و شقر واضحات شياتها فأجسامها تبر و أرجلها درّ

و شهب إذا ما ضمّرت يوم غارة مطهّمة غارت بها الأنجم الزّهر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۷۵

و أسد رجال من مرين مخيفة عمائمها بيض و آسالها سمر

عليها من الماذىّ كلّ مفاضة تدافع فى أعطافها اللّجج الخضر

هم القوم إن هبّوا لكشف ملمّة فلا الملتقى صعب و لا المرتقى وعر

إذا سئلوا أعطوا، و إن نوزعوا سطوا و إن و اعدوا وفّوا، و إن عاهدوا برّوا

و إن مدحوا اهتزّوا ارتياحا كأنهم نشاوى تمشّت فى معاطفهم خمر

و إن سمعوا العوراء فروا بأنفس حرام على هاماتها فى الوغى الفرّ

و تبسم ما بين الوشيج ثغورهم و ما بين قضب الدّوح يبتسم الزّهر

أمولاى، غاضت فكرتى، و تبلّدت طباعى، فلا طبع يعين و لا فكر

و لو لا حنان منك داركتنى به و أحييتنى لم تبق عين و لا أثر

فأوجدت منى فائتا أىّ فائت و أنشرت ميتا ضمّ أشلاءه قبر

بدأت بفضل لم أكن لعظيمه بأهل، فجلّ اللطف و انفرج الصدر

و طوّقتنى النعمى المضاعفة التى يقلّ عليها منّى الحمد و الشكر

و أنت بتتميم الصنائع كافل إلى أن يعود الجاه و العزّ و الوفر

جزاك الذى أسنى مقامك عصمة يفكّ بها عان و ينعش مضطرّ

إذا نحن أثنينا عليك بمدحة فهيهات يحصى الرمل أو يحصر القطر

و لكننا نأتى بما نستطيعه و من بذل المجهود حقّ له العذر

فلا تسأل عن امتعاض و إنغاض، و سداد أنحاء فى التأثر لنا و أغراض، و اللّه غالب على أمره.

[من خطاب من إنشاء لسان الدين عن سلطانه إلى سلطان مصر المنصور بن أحمد بن الناصر بن قلاوون]

و فى صبيحة يوم السبت السابع عشر من شهر شوال عام اثنين و ستين و سبعمائة كان انصرافه إلى الأندلس. و قد ألحّ صاحب قشتالة

فى طلبه، و ترجح الرأى على قصده، فقعد السلطان بقبة العرض من جنة المصارة، و برز الناس و قد أسمعهم البريح، و استحضرت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۷۶

البنود و الطبول و الآلة، و ألبس خلعة الملك، و قيّدت له مراكبه، فاستقلّ، و قد التفّ عليه كلّ من جلا عن الأندلس من لدن الكائنة فى جملة كثيفة، و رأى من رقة الناس و إجهاشهم و علوّ أصواتهم بالدعاء ما قدم به العهد، إذ كان مظنّة ذلك سكونا و عفافا و قربا قد ظلّله اللّه برواق الرحمة، و عطف عليه و شائج المحبّة، إلى كونه مظلوم العقد، منتزع الحقّ، فتبعته الخواطر، و حميت عليه الأنفس، و انصرف لوجهته. و هو الآن بربدة مستقلّ بها و بجهاتها، و مقتنع برسم سلطنتها، و قد قام له برسم الوزارة الشيخ القائد أبو الحسن على بن يوسف بن كماشة الحضرمى، و بكتابته الفقيه أبو عبد اللّه بن زمرك، و قد استفاض عنه من الحزم و التدرّب و التيقّظ للأمور و المعرفة بوجوه المصالح ما لا ينكر، كان اللّه لنا و له بفضله! انتهى كلام لسان الدين بن الخطيب فى «اللمحة البدرية».

و قد علمت أنه بعد هذا التاريخ عاد سلطانه إلى حضرة غرناطة، و استبدّ بملك الأندلس، و عاد لسان الدين إليه حسبما أحسن سياق ذلك لسان الدين رحمه اللّه تعالى فى كتاب من إنشائه على لسان سلطانه الغنى بالله، و خاطب به ملك الحرمين و مصر و الشام السلطان المنصور بن أحمد بن الناصر بن قلاوون، و قد ذكرنا منه ما يتعلّق بالأندلس فى الباب الثانى من القسم الأول، و قال بعد ذلك فيما يتعلّق بالخلع المذكور ما نصّه: و لمّا صيّر اللّه إلينا تراثهم الهنى، و أمرهم السنى، و بناءهم العادى، و ملكهم الجهادى، أجرانا- و له الطّول - على سننهم، و رفع أعلامنا فى هضابهم المشرفة و قننهم، و حملنا فيهم خير حمل، و نظم بنا لهم أى شمل، و ألبس أيامنا سلما فسح الدارة، و أحكم الإدارة، و هنأ الإمارة، و مكن العمارة، و أمن فى البحر و البرّ السيارة و العبارة، لو لا ما طرقهم فينا من تمحيص أجلى عن تخصيص، و تمحّض تبره بعد تخليص و مرام عويص، نبّكم بثّه، و نوالى لديكم حثّه، و نجمع منبثّه، فإنّ فى الحوادث ذكرا، و معروف الدهر لا- يؤمن أن يعود نكرا، و شرّ الوجود معاقب بخيره، و السعيد من اتّعظ بغيره، و الحزم أفضل ما إليه ينتسب، و عقل التجربة بالمرانة يكتسب، و هو أنّ بعضا ممّن ينسب إلينا بوشائج الأعراق، لا بمكارم الأخلاق، و يمتّ إلينا بالقرابة البعيدة، لا بالنصبة السعيدة، ممّن كفلناه يتيما، و صنّاه ذميما شئيما، و بوّأناه مبوّأ كريما، بعد أن نشأ حرفوشا دميما، و ملعونا لئيما، و نوّهناه من خموله بالولاية، و نسخنا حكم نسجه بآية العناية، داخل إخاء لنا كنّا ألزمناه الاقتصار على

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۷۷

قصره، و لم نجعل أداة تدل على حصره، و سامحناه فى كثير من أمره، و لم نرتب بزيده و لا عمره، و اغتررنا برماد علا على جمره، فاستدعى له من الصعاليك شيعة، كلّ درب بفكّ الأغلاق، و تسرّب أنفاق النفاق، و خارق للإجماع و الإصفاق، و خبير بمكان الخراب و مذاهب الفسّاق، و تسوّر بهم القلعة من ثلم شرع فى سدّه، بعد هدّه، و لم تكمل الأقدار المميزة فى ليلة آثرنا مبيتنا ببعض البساتين خارج قصورنا، و استنبنا من يضطلع بأمورنا، فاستتم الحيلة التى شرعها، و اقتحم القلعة و افترعها، و جدّل حرس النوبة و صرعها، و كبس محلّ النائب عنّا و جدّله، و لم ينشب أن جدّ له، و استخرج الأخ البائس فنصبه، و شدّ به تاج الولاية و عصبه، و ابتزّ أمرنا و غصبه. و توهّم الناس أنّ الحادثة على ذاتنا قد تمّت، و الدائرة بنا قد ألمت و لقد همت، فخذل الناصر، و انقطعت الأواصر، و أقدم المتقاصر، و اقتحمت الأبهاء و المقاصر، و تفرّقت الأجزاء و تحلّلت العناصر، و فقد من عين الأعيان النور الباصر، فأعطوه طاعة معروفة، و أصبحت الوجوه إليه مصروفة، و ركضنا و سرعان الخيل تقفو أثر منجاتنا و الظلام يخفيها، و تكفى علينا السماء و اللّه يكفيها، إلى أن خلصنا إلى مدينة وادى آش خلوص القمر من السّرار، لا- نملك إلّا نفسا مسلّمة لحكم الأقدار، ملقية للّه مقادة الاختيار، مسلوبة بموجب الاستقرار، و ناصحنا أهل تلك المدينة فعملوا على الحصار، و استبصروا فى الدفاع عنّا أتمّ الاستبصار، و رضوا لبيوتهم المصحرة، و بساتينهم المستبحرة، بفساد الحديد و عياث النار، و لم يرضوا لجوارهم بالإخفار، و لا لنفوسهم بالعار، إلى أن كان الخروج عن الوطن بعد خطوب تسبح فيها الأقلام سبحا طويلا، و توسعها الشجون شرحا و تأويلا، و تلقى القصص منها على الآذان قولا ثقيلا، و جزنا البحر و ضلوع موجه إشفاقا علينا تخفق، و أكفّ رياحه حسرة تصفق، و نزلنا من جناب سلطان بنى مرين على

المثوى الذى رحب بنا ذرعه، و دلّ على كرم الأصول فرعه، و الكريم الذى وهب فأجزل، و نزل لنا عن الصّهوة و تنزّل، و خير و حكم، و ردّ على الدهر الذى تهكم، و استعبر و تبسّم، و آلى و أقسم، و بسمل و قدّم، و استركب لنا و استخدم. و لمّا بدا لمن وراءنا سيئات ما كسبوا، و حقّقوا ما حسبوا، وطفا الغثاء و رسبوا، و لم ينشب الشقى الخزى أن قتل البائس الذى موّه بزيفه، و طوّفة بسيفه، و دل ركب المخافة على خيفه، إذ أمن المضعوف من كيده، و جعل ضرغامه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۷۸

بازيا لصيده، و استقلّ على أريكته، استقلال الظليم على تريكته، حاسر الهامة، متنفقا بالشجاعة و الشهامة، مستظهرا بأول الجهالة و الجهامة، و ساءت فى محاولة عدوّ الدين سيرته، و لمّا حصحص الحقّ انكشفت سريرته، و ارتابت لجبنه المستور جيرته، و فتح عليه طاغية الروم فمه، فالتقمه، و مدّ عليه الصليب ذراعه، فراعه، و شدّ الكفر عليه يده، فما عضده اللّه و لا أيّده، و تخرّمت ثغور الإسلام بعد انتظامها، و شكت إليه باهتضامها، و غصت بأشلاء عباد اللّه و عظامها، ظهور أوضامها، و وكلت السنّة و الجماعة، و انقطعت من النّجح الطّماعة، و اشتدّت المجاعة، و طلعت شمس دعوتنا من المغرب فقامت عليها الساعة، و ركبنا البحر تكاد جهتاه تتقاربان تيسيرا، و رياحه لا تعرف فى غير وجهتنا مسيرا، و كأنّ ماءه ذوب لقى إكسيرا، و نهضنا يتقدّمنا الرعب و يتّقد منّا الدعاء، و تجأجىء بنا الإشارة و يخفرنا الاستدعاء. و أقصر الطاغية عن البلاد بعد أن ترك ثغورها مهتومة، و الإخافة عليها محتومة، و طوابعها مفضوضة و كانت بنا مختومة، و أخذت الخائن الصيحة فاختبل، و ظهر تهوّره الذى عليه جبل، فجمع أوباشه السّفلة و أوشابه، و بهرجه الذى غش به المحض وشابه، و عمد إلى الذخيرة التى صانتها الأغلاق الحريزة، و المعاقل العزيزة، فملأ بها المناطق، و خرج ليلا عن المدينة، و اقتضت آراؤه الفائلة، و نعامته الشائلة، و دولة بغيه الزائلة، أن يقصد طاغية الروم بقضّه و قضيضه، و أوجه و حضيضه، و طويله و عريضه، من غير عهد اقتضى وثيقته، و لا أمر عرف حقيقته، إلّا ما أمل اشتراطه من تبديل الكلمة، و استئصال الأمة المسلمة، فلم يكن إلّا أن تحصّل فى قبضته، و دنا من مضجع ربضته، و استشار نصحاءه فى أمره، و حكم الحيلة فى جناية غدره، و شهره ببلده، و تولّى قتله بيده، و ألحق به جميع من أمدّه فى غيّه، و ظاهره على سوء سعيه، و بعث إلينا برءوسهم فنصبت بمسور غدرها، و قلّدت لبة تلك البنية بشذرها، و أصبحت عبرة للمعتبرين، و آية للمستبصرين، و أحقّ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۷۹

اللّه الحقّ بكلماته و قطع دابر الكافرين. وعدنا إلى أريكة ملكنا كما رجع القمر إلى بيته، بعد كيته و كيته، أو العقد إلى جيده، بعد انتثار فريده، أو الطير إلى وكره، مفلتا من غول الشرك و مكره، ينظر الناس إلينا بعيون لم ترو مذ غبنا من محيّا رحمة، و لا طشّت عليها بعدنا غمامة رحمة، و لا باتت للسياسة فى ذمّة، و لا ركنت لدين و لا همّة، فطوينا بساط العتاب طىّ الكتاب، و عاجلنا سطور المؤاخذة بالاضطراب، و آنسنا نفوس أولى الاقتراف بالاقتراب، و سهّلنا الوصول إلينا، و استغفرنا اللّه لنفسنا و لمن جنى علينا، فلا تسألوا عمّا أثار ذلك من استدراك ندم، و رسوخ قدم، و استمتاع بوجود بعد عدم، فسبحان الذى يمحّص ليثيب، و يأمر بالدعاء ليجيب، و ينبّه من الغفلة و يهيب، و يجتبى إليه من يشاء و يهدى إليه من ينيب. و رأينا أن نطالع علومكم الشريفة بهذا الواقع تسنّيا للمفاتحة المعتمدة، و تمهيدا للموالاة المجدّدة، فأخبار الأقطار ممّا تنفقه الملوك على أسمارها، و ترقم ببدائعه هالات أقمارها، و تستفيد منه حسن السّير، و الأمان من الغير، و تستعين على الدهر بالتجارب، و تستدلّ بالشاهد على الغائب، و بلادكم ينبوع الخير و أهله، و رواق الإسلام الذى يأوى قريبه و بعيده إلى ظلّه، و مطلع نور الرسالة، و أفق الرحمة المنثالة، منه تقدم علينا الكواكب تضرب آباط أفلاكها، و تتخلّل مداريها المذهبة غدائر أحلاكها، و تستعلى البدور، ثم يدعوها إلى المغرب الحدور، و تطلع الشمس متجردة من كمائم ليلها، متهادية فى دركات ميلها، ثم تسحب إلى الغروب فضل ذيلها، و من تلقائكم ورد العلم و العمل، و أرعى الهمل. فنحن نستوهب من مظانّ الإجابة لديكم دعاء يقوم لنا مقام المدد، و يعدل منه الشىء بالمال و العدد، ففى دعاء المؤمن بظهر الغيب ما فيه ممّا ورد، و إياه سبحانه نسأل أن يدفع عنّا و عنكم دواعى الفتن، و غوائل المحن، و يحملنا على سنن السّنن، و يلبسنا من تقواه

أوقى الجنن، و هو سبحانه يصل لأبوّتكم ما تستقلّ لدى قاضى القضاة رسومه، فتكتب حقوقه و تكبت خصومه، و لا تكلفه الأيام و لا تسومه، بفضل اللّه و عزّته، و كرمه و منّته، و السلام

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۶؛ ص ۸۰

غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۸۰

الكريم الطيب المبارك بدءا بعد عود، وجودا إثر جود، و رحمة اللّه تعالى و بركاته؛ انتهى.

و للسان الدين بن الخطيب رحمه اللّه عن سلطانه المذكور كتاب آخر فى هذه الكائنة إلى كبير الموحدين أبى محمد عبد اللّه بن تفراجين، و لعلّنا نذكره إن شاء اللّه تعالى فى الباب الخامس من هذا القسم، عند تعرّضنا لبعض نثر لسان الدين رحمه اللّه تعالى!.

[رواية ابن خلدون فى خلع ابن الأحمر سلطان لسان الدين]

و قد ساق هذه القضية قاضى القضاة الشهير الكبير ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون الحضرمى رحمه اللّه تعالى فى تاريخه الكبير فى ترجمة السلطان الشهير أبى سالم ابن السلطان أبى الحسن المرينى صاحب المغرب ممّا نصّه: الخبر عن خلع ابن الأحمر صاحب غرناطة و مقتل رضوان و مقدمه على السلطان: لمّا هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس و خمسين و سبعمائة و نصّب ابنه محمد للأمر و استبدّ عليه رضوان مولى أبيه، و كان قد رشح ابنه الأصغر إسماعيل بما ألقى عليه و على أمّه من محبّته، فلمّا عدلوا بالأمر عنه حجبوه ببعض قصورهم، و كان له صهر من ابن عمّه محمد بن إسماعيل ابن الرئيس أبى سعيد، فكان يدعوه سرّا إلى القيام بأمره، حتى أمكنته فرصة فى الدولة بخروج السلطان إلى بعض منتزهاته برياضه، فصعد سور الحمراء ليلة سبع و عشرين لرمضان من سنة ستين فى أوشاب جمعهم من الطّغام لثورته، و عمد إلى دار الحاجب رضوان، فاقتحم عليه الدار و قتله بين حرمه و بناته، و قربوا إلى إسماعيل فرسه و ركب، فأدخلوه القصر و أعلنوا ببيعته، و قرعوا طبولهم بسور الحمراء، و فرّ السلطان من مكانه بمنتزهه، فلحق بوادى آش. و غدا الخاصة و العامة على إسماعيل فبايعوه، و استبدّ عليه هذا الرئيس ابن عمّه، فخلعه لأشهر من بيعته، و استقلّ بسلطان الأندلس. و لمّا لحق السلطان أبو عبد اللّه محمد بوادى آش بعد مقتل حاجبه رضوان، و اتّصل الخبر بالمولى السلطان أبى سالم، امتعض لمهلك رضوان و خلع السلطان رعيا لما سلف له فى جوارهم.

و أزعج لحينه أبا القاسم الشريف من أهل مجلسه لاستقدامه، فوصل إلى الأندلس، و عقد مع أهل الدولة على إجازة المخلوع من وادى اش إلى المغرب، و أطلق من اعتقالهم الوزير الكاتب أبا عبد اللّه بن الخطيب، كانوا اعتقلوه لأوّل أمرهم لما كان رديفا للحاجب رضوان و ركنا لدولة المخلوع، فأوصى المولى أبو سالم إليهم بإطلاقه، فأطلقوه و لحق مع الرسول أبى القاسم الشريف بسلطانه المخلوع بوادى آش للإجازة إلى المغرب، و أجاز لذى القعدة من سنته. و قدم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۸۱

على السلطان بفاس، و أجلّ قدومه، و ركب للقائه، و دخل به إلى مجلس ملكه، و قد احتفل ترتيبه، و غصّ بالمشيخة و العلية. و وقف وزيره ابن الخطيب فأنشد السلطان قصيدته الرائية يستصرخه لسلطانه، و يستحثّه لمظاهرته على أمره، و استعطف و استرحم بما أبكى الناس شفقة له و رحمة، ثم سرد ابن خلدون القصيدة، و قد تقدّمت.

ثم قال بعد ما صورته: ثم انفضّ المجلس و انصرف ابن الأحمر إلى نزله، و قد فرشت له القصور، و قربت الجياد بالمراكب الذهبية، و بعث إليه بالكسا الفاخرة، و رتبت الجرايات له و لمواليه من المعلوجى و بطانته من الصنائع، و حفظ عليه رسم سلطانه فى الراكب و الراجل، و لم يفقد من ألقاب ملكه إلّا الآلة أدبا مع السلطان. و استقرّ فى جملته إلى أن كان من لحاقه بالأندلس، و ارتجاع ملكه سنة ثلاث و ستين ما نحن نذكره؛ انتهى المقصود جلبه من كلام ابن خلدون فى هذه الواقعة، و فيه بعض مخالفة لكلام لسان الدين السابق فى اللمحة البدرية، إذ قال فيها: إن الثورة عليهم كانت ليلة ثمان و عشرين من رمضان، و ابن خلدون جعلها ليلة سبع و عشرين منه، و

الخطب سهل، و قال فى «اللمحة» إنّ انصراف السلطان من وادى آش كان ثانى يوم النحر، و قال ابن خلدون فى ذى القعدة: و لعلّه غلط من الكاتب حيث جعل مكان الحجة القعدة. ورائية ابن الخطيب الذى ذكرها هى من حرّ كلامه و غرر شعره، على أنه كله غرر، إذ جمع فيها المطلوب فى ذلك الوقت بأبدع لفظ و أحسن عبارة فى ذلك المحفل العظيم، و لم نزل نسمع فى المذاكرات بالمغرب أنه لمّا انتهى فيها إلى قوله «فقد أنجح المسعى و قد ربح التجر» قال له بعض من حضر و لعلّه أراد الغضّ منه: أحسنت يا وزير فيما قلت، و فى وصف الحال و السلطان، غير أنه بقى عليك شىء، و هو ذكر قرابة السلطان موالينا بنى مرين و هم من هم، و لا ينبغى السكوت عنهم، فارتجل ابن الخطيب حينئذ قوله «و من دون ما تبغيه- إلى آخره» حتى تخلّص لمدح بنى مرين أقارب السلطان بما لا مرمى وراءه، ثم قال بعد ذلك معتذرا «أمولاى غاضت فكرتى- إلى آخره» و هذا إن صحّ أبلغ ممّا وقع لأبى تمام فى سينيته حيث قال «لا- تنكروا ضربى لى- البيتين» لأنّ أبا تمام ارتجل بيتين فقط، و لسان الدين ارتجل تسعة عشر بيتا، مع ما هو عليه من الخروج عن الوطن و ذهاب الجاه و المال، فأين الحال من الحال؟

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۸۲

[رواية أخرى لابن خلدون فى خلع ابن الأحمر تتضمن نشأة لسان الدين و نهايته]

و قد كرر ابن خلدون رحمه اللّه تعالى فى تاريخه قضية اعتقال لسان الدين و خلع سلطانه فى موضع آخر، و لنذكره و إن سبق بعضه لاشتماله على منشإ الوزير لسان الدين، و جملة من أحواله إلى قريب من مهلكه فنقول: قال رحمه اللّه تعالى بعد ذكره عبد اللّه والد لسان الدين أنه انتقل من لوشة إلى غرناطة، و استخدم لملوك بنى الأحمر، و استعمل على مخازن الطعام، ما محصّله: و نشأ ابنه محمد هذا، يعنى لسان الدين بن الخطيب، بغرناطة، و قرأ و تأدّب على مشيختها، و اختصّ بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل، و أخذ عنه العلوم الفلسفية، و برز فى الطب، و انتحل الأدب، و أخذ عن أشياخه، و امتلأ من حول اللسان نظمه و نثره، مع انتقاء الجيد منه، و نبغ فى الشعر و الترسيل بحيث لا يجارى فيهما، و امتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بنى الأحمر لعصره، و ملأ الدنيا بمدائحه، و انتشرت فى الآفاق، فرقّاه السلطان إلى خدمته، و أثبته فى ديوان الكتّاب ببابه مرءوسا بأبى الحسن بن الجياب شيخ العدوتين فى النظم و النثر و سائر العلوم الأدبية، و كاتب السلطان بغرناطة من لدن أيام محمد المخلوع من سلفه عند ما قتل وزيره محمد بن الحكيم المستبدّ عليه، فاستبدّ ابن الخطيب برياسة الكتّاب ببابه مثنّاة بالوزارة و لقبه بها، فاستقلّ بذلك، و صدرت عنه غرائب من الترسيل فى مكاتبات جيرانهم من ملوك العدوة. ثم داخله السلطان فى تولية العمال على يده بالمشارطات، فجمع له بها أموالا، و بلغ به فى المخالصة إلى حيث لم يبلغ بأحد ممّن قبله، و سفر عنه إلى السلطان أبى عنان ملك بنى مرين بالعدوة معزّيا بأبيه السلطان أبى الحسن، فجلّى فى أغراض سفارته. ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس و خمسين و سبعمائة، عدا عليه بعض الزعانف فى سجوده للصلاة، و طعنه فأشواه، و فاظ لوقته، و تعاورت سيوف الموالى المعلوجى هذا القاتل، فمزّقوه أشلاء. و بويع ابنه محمد لوقته، و قام بأمره مولاهم رضوان الراسخ القدم فى قيادة عساكرهم و كفالة الأصاغر من ملوكهم، و استبدّ بالدولة، و أفرد ابن الخطيب بوزارته كما كان لأبيه، و جعل ابن الخطيب رديفا لرضوان فى أمره، و مشاركا فى استبداده معه، فجرت الدولة على أحسن حال و أقوم طريقة. ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيرا إلى السلطان أبى عنان مستمدّين منه على عدوهم الطاغية على عادتهم مع سلفه. فلمّا قدم على

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۸۳

السلطان و مثل بين يديه، تقدم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس و فقهائها و استأذنه فى إنشاد شعر قدمه بين يدى نجواه، فأذن له، و أنشد و هو قائم: [المنسرح]

خليفة اللّه ساعد القدر علاك ما لاح فى الدّجى قمر

و دافعت عنك كفّ قدرته ما ليس يسطيع دفعه البشر

وجهك فى النائبات بدر دجى لنا و فى المحل كفّك المطر

و الناس طرا بأرض أندلس لو لاك ما أوطنوا و لا عمروا

و جملة الأمر أنه وطن فى غير علياك ما له وطر

و من به مذ وصلت حبلهم ما جحدوا نعمة و لا كفروا

و قد أهمّتهم بأنفسهم فوجّهونى إليك و انتظروا

فاهتزّ السلطان لهذه الأبيات، و أذن له فى الجلوس، و قال له قبل أن يجلس: ما ترجع إليهم إلّا بجميع طلباتهم، ثم أثقل كاهلهم بالإحسان، و ردّهم بجميع ما طلبوه. و قال شيخنا القاضى أبو القاسم الشريف، و كان معه فى ذلك الوفد: لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلّم على السلطان إلّا هذا. و مكثت دولتهم هذه بالأندلس خمس سنين. ثم ثار بهم محمد الرئيس ابن عمّ السلطان، شركه فى جدّه الرئيس أبى سعيد، و تحيّن خروج السلطان إلى منتزهه خارج الحمراء، و تسوّر دار الملك المعروفة بالحمراء، و كبس رضوان فى بيته فقتله. و نصب للملك إسماعيل ابن السلطان أبى الحجاج بما كان صهره على شقيقته، و كان معتقلا بالحمراء، فأخرجه، و بايع له، و قام بأمره مستبدّا عليه. و أحسّ السلطان محمد بقرع الطبول و هو بالبستان، فركب ناجيا إلى وادى آش، و ضبطها، و بعث بالخبر إلى السلطان أبى سالم إثر ما استولى على ملك آبائه بالمغرب. و قد كان مثواه أيام أخيه أبى عنان عندهم بالأندلس. و اعتقل الرئيس القائم بالدولة هذا الوزير ابن الخطيب و ضيّق عليه فى محبسه. و كانت بينه و بين الخطيب ابن مرزوق مودّة استحكمت أيام مقامه بالأندلس. و كان غالبا على هوى السلطان أبى سالم، فزيّن له استدعاء هذا السلطان المخلوع من وادى آش يعده زبونا على أهل الأندلس، و يكف به عادية القرابة الموشحين هنالك متى طمحوا إلى ملك المغرب، فقبل ذلك منه.

و خاطب أهل الأندلس فى تسهيل طريقه من وادى آش إليه، و بعث من أهل مجلسه الشريف أبا القاسم التّلمسانى، و حمله مع ذلك الشفاعة فى ابن الخطيب. و حلّ معتقله، فأطلق، و صحب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۸۴

الشريف أبا القاسم إلى وادى آش، و سار فى ركاب سلطانه، و قدموا على السلطان أبى سالم، فاهتزّ لقدوم ابن الأحمر، و ركب فى الموكب لتلقّيه، و أجلسه إزاء كرسيّه. و أنشد ابن الخطيب قصيدته يستصرخ السلطان لنصرته، فوعده، و كان يوما مشهودا، ثم أكرم مثواه، و أرغد نزله، و وفّر أرزاق القادمين مع ركابه، و أرغد عيش ابن الخطيب فى الجراية و الأقطاع. ثم استيأس و استأذن السلطان فى التجوال بجهات مراكش و الوقوف على أعمال الملك بها، فأذن له، و كتب إلى العمّال بإتحافه، فتباروا فى ذلك، و حصل منه على حظّ، و عند ما مرّ بسلا إثر قفوله من سفره دخل مقبرة الملوك بشالة، و وقف على قبر السلطان أبى الحسن، و أنشد قصيدة على روى الراء يرثيه و يستجير به فى استرجاع ضياعه بغرناطة، مطلعها: [الكامل]

إن بان منزله و شطّت داره قامت مقام عيانه أخباره

قسّم زمانك عبرة أو عبرة هذى ثراه و هذه آثاره

فكتب السلطان أبو سالم فى ذلك إلى أهل الأندلس بالشفاعة، فشفّعوه، و استقرّ هو بسلا منتبذا عن سلطانه طول مقامه بالعدوة. ثم عاد السلطان محمد المخلوع إلى ملكه بالأندلس سنة ثلاث و ستين و سبعمائة. و بعث عن مخلّفه بفاس من الأهل و الولد، و القائم بالدولة يومئذ الوزير عمر بن عبد اللّه بن على، فاستقدم ابن الخطيب من سلا، و بعثهم لنظره، فسرّ السلطان لقدومه، و ردّه إلى منزلته كما كان مع رضوان كافله. و كان عثمان بن يحيى بن عمر شيخ الغزاة و ابن أشياخهم، قد لحق بالطاغية ملك النصارى فى ركاب أبيه عند ما أحسّ بالشّرّ من الرئيس صاحب غرناطة. و أجاز يحيى من هنالك إلى العدوة، و أقام عثمان بدار الحرب، فصحب السلطان فى مثوى اغترابه هنالك، و تقلّب فى مذاهب خدمته. و انحرفوا عن الطاغية عند ما يئسوا من الفتح على يده، فتحوّلوا عنه إلى ثغور بلادهم، و خاطبوا الوزير عمر بن عبد اللّه فى أن يمكنهم من بعض الثغور الغربية التى لطاعتهم بالأندلس يرتقبون منها الفتح.

و خاطبنى السلطان المخلوع فى ذلك، و كانت بينى و بين عمر بن عبد اللّه ذمّة مرعيّة، و خاصة متأكّدة، فوفيت للسلطان بذلك من عمر بن عبد اللّه، و حملته على أن يردّ عليه مدينة رندة إذ هى من تراث سلفه، فقبل إشارتى فى ذلك، و تسوّغها السلطان المخلوع، و نزل بها،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۸۵

و عثمان بن يحيى فى جملته، و هو المقدّم فى بطانته. ثم غزوا منها مالقة، فكانت ركابا للفتح، و ملكها السلطان، و استولى بعدها على دار ملكه بغرناطة، و عثمان بن يحيى متقدّم القدم فى الدولة، عريق فى المخالصة، و له على السلطان دالة و استبداد على هواه. فلمّا وصل ابن الخطيب بأهل السلطان و ولده، و أعاده إلى مكانه فى الدولة من علوّ يده، و قبول إشارته، أدركته الغيرة من عثمان، و نكر على السلطان الاستكفاء به، و أراه التخوّف من هؤلاء الأعياص على ملكه، فحذره السلطان، و أخذ فى التدبير عليه، حتى نكبه و أباه و إخوته فى رمضان سنة أربع و ستين و سبعمائة، و أودعهم المطبق، ثم غرّبهم بعد ذلك؛ و خلا لابن الخطيب الجوّ، و غلب على هوى السلطان، و دفع إليه تدبير الدولة، و خلط بنيه بندمائه و أهل خلوته. و انفرد ابن الخطيب بالحلّ و العقد، و انصرفت إليه الوجوه، و علقت به الآمال، و غشى بابه الخاصة و الكافّة، و غصّت به بطانة السلطان و حاشيته، فتفنّنوا فى السعايات فيه، و قد همّ السلطان عن قبولها. و نمى‌الخبر بذلك إلى ابن الخطيب. فشمّر عن ساعده فى التفويض.

و استخدم للسلطان عبد العزيز ابن السلطان أبى الحسن ملك العدوة يومئذ فى القبض على ابن عمّه عبد الرحمن بن أبى يفلوسن ابن السلطان أبى على [ابن السلطان أبى سعيد ابن السلطان يعقوب بن عبد الحق]، كانوا قد نصبوه شيخا على الغزاة بالأندلس، لما أجاز من العدوة، بعد ما جاس خلالها لطلب الملك، و أضرم بها نار الفتنة فى كلّ ناحية، و أحسن دفاعه الوزير عمر بن عبد اللّه، القائم حينئذ بدولة بنى مرين، فاضطرّ إلى الإجازة إلى الأندلس، فأجاز هو و وزيره مسعود بن ماساى، و نزلوا على السلطان المخلوع أعوام سبعة و ستين و سبعمائة، فأكرم نزلهم. و توفى على بن بدر الدين شيخ الغزاة، فقدم عبد الرحمن مكانه. و كان السلطان عبد العزيز قد استبدّ بملكه بعد مقتل الوزير عمر بن عبد اللّه، فغصّ بما فعله السلطان المخلوع من ذلك، و توقّع انتقاض أمره منهم، و وقف على مخاطبات من عبد الرحمن يسرّ بها فى بنى مرين، فجزع لذلك. و داخله ابن الخطيب فى اعتقال ابن أبى يفلوسن و ابن ماساى و إراحة نفسه من شغبهم، على أن يكون له المكان من دولته متى نزع إليه، فأجابه إلى ذلك، و كتب له العهد بخطّه، على يد سفيره إلى الأندلس، و كاتبه أبى يحيى بن أبى مدين. و أغرى ابن الخطيب سلطانه بالقبض على ابن يفلوسن و ابن ماساى، فقبض عليهما و اعتقلهما. و فى خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب لما بلغه عن البطانة من القدح فيه و السعاية، و ربما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۸۶

تخيّل أنّ السلطان مال إلى قبولها، و أنهم قد أحفظوه عليه، فأجمع التحوّل عن الأندلس إلى المغرب. و استأذن السلطان فى تفقّد الثغور، و سار إليها فى لمّة من فرسانه، و كان معه ابنه على الذى كان خالصة للسلطان، و ذهب لطيّته، فلمّا حاذى جبل الفتح فرضة المجاز إلى العدوة مال إليه، و سرح إذنه بين يديه، فخرج قائد الجبل لتلقّيه. و قد كان السلطان عبد العزيز أوعز إليه بذلك، و جهّز له الأسطول من حينه، فأجاز إلى سبتة، و تلقّاه ولاتها بأنواع التكرمة و امتثال المراسم. ثم سار لقصد السلطان، فقدم عليه سنة ثلاث و سبعين و سبعمائة بمقامه من تلمسان، فاهتزّت له الدولة. و أركب السلطان خاصّيته لتلقّيه، و أحلّه من مجلسه بمحلّ الأمن و الغبطة، و من دولته بمكان التنويه و العزّة. و أخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبى مدين سفيرا إلى صاحب الأندلس فى طلب أهله و ولده، فجاء بهم على أكمل حالات الأمن و التكرمة. ثم أكثر المنافسون له فى شأنه، و أغروا سلطانه بتتبّع عثراته، و إبداء ما كان كامنا فى نفسه من سقطاته، و إحصاء معايبه. و شاع على ألسنة أعدائه كلمات منسوبة إلى الزندقة أحصوها عليه و نسبوها.

و رفعت إلى قاضى الحضرة أبى الحسن بن الحسن، فاسترعاها، و سجل عليه بالزندقة. و راجع صاحب الأندلس رأيه فيه، و بعث القاضى ابن الحسن إلى السلطان عبد العزيز فى الانتقام منه بتلك السجلات، و إمضاء حكم اللّه فيه، فصمّ عن ذلك، و أنف لذمّته أن

تخفر، و لجواره أن يردّ، و قال لهم: هلّا انتقمتم منه و هو عندكم و أنتم عالمون بما كان عليه؟ و أمّا أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان فى جوارى. ثم وفّر الجرايهٔ و الإقطاع له و لبنيه و لمن جاء من أهل الأندلس فى جملته. فلمّا هلك السلطان عبد العزيز سنهٔ أربع و سبعين و سبعمائهٔ و رجع بنو مرين إلى المغرب و تركوا تلمسان، سار هو فى ركاب الوزير أبى بكر بن غازى القائم بالدولهٔ، فنزل بفاس، و استكثر من شراء الضياع، و تأنّق فى بناء المساكن و اغتراس الجنان. و حفظ عليه القائم بالدولهٔ الرسوم التى رسمها له السلطان المتوفّى، و اتّصلت حاله على ذلك، إلى أن كان ما نذكره؛ انتهى.

و قال ابن خلدون فى تاريخه ما صورته: كان محمد بن الأحمر المخلوع قد رجع من رندهٔ إلى ملكه بغرناطهٔ فى جمادى من سنهٔ ثلاث و ستين، و قتل له الطاغيهٔ عدوّه الرئيس المنتزى على ملكهم حين هرب من غرناطهٔ إليه وفاء بعهد المخلوع، و استوى على

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۸۷

كرسيه، و استقلّ بملكه، و لحق به كاتبه و كاتب أبيه محمد بن الخطيب، فاستخلصه، و عقد له على وزارته، و فوّض إليه فى القيام بملكه، فاستولى عليه، و ملك هواه. و كانت عينه ممتدّهٔ إلى المغرب و سكناه، إلى أن نزلت به آفهٔ فى رياسته، فكان لذلك يقدم السوابق و الوسائل عند ملوكه. و كان لأبناء السلطان أبى الحسن كلّهم غيرهٔ من ولد عمّهم السلطان أبى على، و يخشونهم على أمرهم. و لمّا لحق الأمير عبد الرحمن بن أبى يفلوسن بالأندلس اصطفاه ابن الخطيب، و استخلصه لنجواه، و رفع فى الدولهٔ رتبته، و أعلى منزلته، و حمل السلطان على أن عقد له على الغزاهٔ المجاهدين من زناتهٔ مكان بنى عمّه من الأعياص، فكانت له آثار فى الاضطلاع بها، و لما استبدّ السلطان عبد العزيز بأمره و استقلّ بملكه، و كان ابن الخطيب ساعيا فى مرضاته عند سلطانه، فدسّ إليه باعتقال عبد الرحمن بن أبى يفلوسن و وزيره مسعود بن ماساى. و أدار ابن الخطيب فى ذلك مكره، و حمل السلطان عليهما، إلى أن سطا بهما [ابن الأحمر]، و اعتقلهما سائر أيام السلطان عبد العزيز. و تغيّر الجوّ بين ابن الأحمر و وزيره ابن الخطيب و أظلم، و تنكّر له، فنزع عنه إلى عبد العزيز سلطان المغرب سنهٔ ثنتين و سبعين و سبعمائهٔ لما قدم من الوسائل، و مهّد من السوابق، فقبله السلطان، و أحلّه من مجلسه محلّ الاصطفاء و القرب. و خاطب ابن الأحمر فى أهله و ولده، فبعثهم إليه، و استقرّ فى جملهٔ السلطان، ثم تأكّدت العداوهٔ بينه و بين ابن الأحمر، فرغّب السلطان عبد العزيز فى ملك الأندلس، و حمله عليه، و تواعدوا لذلك عند رجوعه من تلمسان إلى المغرب. و نمى ذلك إلى ابن الأحمر، فبعث إلى السلطان عبد العزيز بهديهٔ لم يسمع بمثلها، انتقى فيها من متاع الأندلس و ما عونها و بغالها الفارههٔ و معلوجى السبى و جواريه، و أوفد بها رسله يطلب إسلام وزيره ابن الخطيب إليه، فأبى السلطان من ذلك و نكره. و لمّا هلك السلطان و استبدّ الوزير ابن غازى بالأمر تحيّز إليه ابن الخطيب و داخله، و خاطبه ابن الأحمر بمثل ما خاطب به السلطان عبد العزيز، فلجّ و استنكف عن ذلك، و أقبح الردّ. و انصرف رسوله إليه و قد رهب سطوته، فأطلق ابن الأحمر لحينه عبد الرحمن بن أبى يفلوسن و أركبه الأسطول، و قذف به إلى ساحل بطويهٔ و معه الوزير مسعود بن ماساى، و نهض- يعنى ابن الأحمر- إلى جبل الفتح، فنازله بعساكره، و نزل عبد الرحمن ببطويهٔ.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۸۸

ثم ذكر ابن خلدون كلاما كثيرا تركته لطوله، و ملخصه أنّ الوزير أبا بكر بن غازى الذى كان تحيّز إليه ابن الخطيب ولّى ابن عمّه محمد بن عثمان مدينهٔ سبتهٔ خوفا عليها من ابن الأحمر، و نهض هو- أعنى الوزير- إلى منازلهٔ عبد الرحمن بن أبى يفلوسن ببطويهٔ إذ كانوا قد بايعوه، فامتنع عليه، و قاتله أياما ثم رجع إلى تازا، ثم إلى فاس، و استولى عبد الرحمن على تازا، و بينما الوزير أبو بكر بفاس يدبّر الرأى إذ وصله الخبر بأنّ ابن عمه محمد بن عثمان بايع السلطان أحمد بن أبى سالم، و هو المعروف بذى الدولتين، و هذه هى دولته الأولى، و ذلك أنّ ابن عمّ الوزير و هو محمد بن عثمان لما تولّى سبتهٔ كان ابن الأحمر قد طاول حصار جبل الفتح، و أخذ بمخنّقه و تكرّرت المراسلهٔ بينه و بين محمد بن عثمان و العتاب، فاستعتب له، و قبح ما جاء به ابن عمّه الوزير أبو بكر بن غازى من الاستغلاظ له فى شأن ابن الخطيب و غيره، فوجد ابن الأحمر فى ذلك السبيل إلى غرضه، و داخله فى البيعهٔ لابن السلطان أبى سالم

من الأبناء الذين كانوا بطنجة تحت الحوطة و الرقبة، و أن يقيمه للمسلمين سلطانا و لا يتركهم فوضى و هملا تحت ولاية الصبى الذى لم يبلغ و لا تصحّ ولايته شرعا، و هو السعيد بن أبى فارس الذى بايعه الوزير أبو بكر بن غازى بتلمسان حين مات أبوه و استبدّ عليه، و اختصّ ابن الأحمر أحمد بن أبى سالم من بين أولئك الأبناء لما سبق بينه و بين أبيه أبى سالم من الموات، و كان ابن الأحمر اشترط على محمد بن عثمان و حزبه شروطا؛ منها أن ينزلوا له عن جبل الفتح الذى هو محاصر له، و أن يبعثوا إليه جميع أبناء الملوك من بنى مرين؛ ليكونوا تحت حوطته، و أن يبعثوا إليه بالوزير ابن الخطيب متى قدروا عليه، فانعقد أمرهم على ذلك، و تقبّل محمد بن عثمان شروطه، و ركب من سبتة إلى طنجة، و استدعى أبا العباس أحمد من مكان اعتقاله فبايعه، و حمل الناس على طاعته، و استقدم أهل سبتة للبيعة و كتابتها فقدموا و بايعوا، و خاطب أهل جبل الفتح فبايعوا، و أفرج ابن الأحمر عنهم، و بعث إليه محمد بن عثمان عن سلطانه بالنزول له عن جبل الفتح، و خاطب أهله بالرجوع إلى طاعته، فارتحل ابن الأحمر من مالقة إليه، و دخله، و محا دولة بنى مرين ممّا وراء البحر، و أهدى للسلطان أبى العباس و أمدّه بعسكر من غزاة الأندلس، و حمل إليه مالا للإعانة على أمره. و لمّا وصل الخبر بهذا كلّه إلى الوزير أبى بكر بن غازى قامت عليه القيامة، و كان ابن عمّه محمد بن عثمان كتب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۸۹

إليه يموّه بأنّ هذا عن أمره، فتبرأ من ذلك، و لاطف ابن عمّه أن ينقض ذلك الأمر، فاعتلّ له بانعقاد البيعة لأبى العباس، و بينما الوزير أبو بكر ينتظر إجابة ابن عمّه إلى ما رامه منه بلغه الخبر بأنه أشخص الأبناء المعتقلين كلّهم للأندلس، و حصلوا تحت كفالة ابن الأحمر، فوجم و أعرض عن ابن عمّه، و نهض إلى تازا لمحاصرة عبد الرحمن بن أبى يفلوسن، فاهتبل فى غيبته ابن عمّه محمد بن عثمان ملك المغرب و وصله مدد السلطان ابن الأحمر من رجال الأندلس الناشبة نحو ستمائة، و عسكر آخر من الغزاة، و بعث ابن الأحمر رسله إلى الأمير عبد الرحمن باتصال اليد مع ابن عمّه السلطان أحمد و مظاهرته و اجتماعهما على ملك فاس، و عقد بينهما الاتفاق على أن يختصّ عبد الرحمن بملك سلفه، فتراضيا. و زحف محمد بن عثمان و سلطانه إلى فاس، و بلغ الخبر إلى الوزير أبى بكر بمكانه من تازا، فانفضّ معسكره، و رجع إلى فاس، و نزل بكدية العرائس و انتهى السلطان أبو العباس أحمد إلى زرهون، فصمد إليه الوزير بعساكره، فاختلّ مصافه، و رجع على عقبه مفلولا، و انتهب عسكره، و دخل البلد الجديد، و جأجأ بالعرب أولاد حسين فعسكروا بالزيتون ظاهر فاس، فنهض إليهم الأمير عبد الرحمن من تازا بمن كان معه من العرب الأجلاف، و شرّدهم إلى الصحراء، و شارف السلطان أبو العباس أحمد بجموعه من العرب وزناتة، و بعثوا إلى ولى دولتهم و نزمار بن عريف بمكانه من قصره الذى اختطّه بملوية، فجاءهم، و أطلعوه على كامن أسرارهم، فأشار عليهم بالاجتماع و الاتفاق، فاجتمعوا بوادى النجا، و تحالفوا ثم ارتحلوا إلى كدية العرائس فى ذى القعدة من سنة خمس و سبعين و برز إليهم الوزير بعساكره، فانهزمت جموعه، و أحيط به، و خلص إلى البلد الجديد بعد غصّ الريق، و اضطرب معسكر السلطان أبى العباس بكدية العرائس و نزل الأمير عبد الرحمن بإزائه، و ضربوا على البلد الجديد سياجا بالبناء للحصار، و أنزلوا بها أنواع القتال و الإرهاب. و وصلهم مدد السلطان ابن الأحمر، فأحكموا الحصار، و تحكّموا فى ضياع الوزير ابن الخطيب بفاس، فهدموها و عاثوا فيها. و لمّا كان فاتح سنة ست و سبعين داخل محمد بن عثمان ابن عمّه الوزير أبا بكر فى النزول عن البلد الجديد و البيعة للسلطان، لكون الحصار قد اشتدّ به و يئس و أعجزه المال، فأجاب و اشترط عليهم الأمير عبد الرحمن التجافى له عن أعمال مراكش بدل سجلماسة، فعقدوا له على كره، و طووا على المكر، و خرج الوزير أبو بكر إلى السلطان و بايعه، و اقتضى عهده بالأمان و تخلية سبيله من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۹۰

الوزارة، و دخل السلطان أبو العباس إلى البلد الجديد سابع المحرم، و ارتحل الأمير عبد الرحمن يومئذ إلى مراكش، و استولى عليها؛ انتهى.

و قال حفيد السلطان ابن الأحمر فى تاريخه ما صورته: لما لحق الرئيس أبو عبد اللّه بن الخطيب بالمغرب عام اثنين و سبعين و

سبعمائة، و كان من وفاة مجيره و المحامى عنه السلطان عبد العزيز ما ألمعنا بذكره، شدّ الوزير أبو بكر بن غازى يده على ابن الخطيب بانيا على أشدّ الأشياء ألاـ يسلمه لمولانا جدّنا مع توقّع البغضاء، و اقتدى هذا الوزير بالسلطان عبد العزيز فى إعراضه عن العقود الموجهة من الأندلس بالمقذع من موبقات ابن الخطيب، ولج فى الغلواء، و سجل موجبات الوفاء، و البواعث من مولانا جدّنا تتزايد، و الأساطيل تتجهّز، و الآراء بالقصد الخطير ينتقى منها الصواب و يتخيّر، حتى خيّم مولانا جدّنا بظاهر جبل الفتح، و كان إذ ذاك راجعا إلى إيالة المغرب، فأناخ عليه كلكل الجيش، و أهمهم ثقل الوطأة و لم يبال مولانا جدّنا بما أرسلت آناء الليل و أطراف النهار من شآبيب الأنفاط، و الجؤار من باب الشطائين قريب، و الخالصة من الثقات مستريب، و النجاة من تلك الأهوال من الأمر الغريب، و لم يبق بغرناطة من له خلوص، و لاـ من تترامى به همّة إلّا و أعمل السير الحثيث و لحق بمولانا جدّنا لحاق المحبّ بالحبيب، حتى أهل العلم، و الرجاحة و الحلم، و لا كالسيد الإمام الأستاذ أبى سعيد قطب الجملة، و عميد الملّة، و هو الذى بلغنا نظمه فى هذه الوجهة، و عند ما ألقى عصا التسيار فى الجهة القريبة من أولى العداوة، و من ذلك قصيدته المشهورة التى أولها: [الطويل]

أيا جبل الفتح استملت نفوسنا فلا قلب إلّا نحو مغناك قد سبق

فأرسلت إذ جئناك فينا صواعقا تخال بها جوّ السماء قد انطبق

و قوله فى إجابة السفهاء من الهاتفين بالسور موطئا معجبا رحمة اللّه تعالى عليه: [الطويل]

و ذمّوا و ما يعنون إلّا مذمّما و أنت- بحمد اللّه- تدعى محمدا

و قول حامل اللواء الآتى ذكره فى تضاعيف الأسماء: [الكامل]

أمّا مرامك فى عراض البيد فمبلّغ ما شئت من مقصود

و الهجر إن ألفته ألسنة العدا يأباه فضل مقامك المحمود

سحقا لهم سفهاء كلّ قبيلة شذّت مقالتهم عن المعهود

قد ضلّت الأحلام منهم رشدها هذا، و منك الحلم غير بعيد

مع عزمة لو شئت هدّت كلّ ما قد أحكموا من معلم و مشيد

إلى أن قال: الخبر عن اجتماع الأميرين أبى العباس و أبى زيد متصاحبين و مترافقين على استخلاص مدينة فاس من يد الوزير أبى بكر بن غازى بن الكاس: و كتب الرئيس أبو عبد اللّه بن زمرك فى ملخص هذه الكائنة حثّ الوزير محمد بن عثمان السير فى وسط عام خمسة و سبعين و سبعمائة، و تلاقى بسلطانه أبى العباس مع الأمير أبى زيد عبد الرحمن، و استقلا بالطائلة، و حصلا من التضييق على السعيد الطفل الصغير و على وزيره أبى بكر بن غازى فى متّسع الخطّة و رحيب ذرع الخلافة، و تصالحا عن رضا و تسليم منهما و من أشياعهما على تسليم السعيد إلى اللحاق بمن كان فى طنجة من الأمراء، و اتّصل السلطان عبد الرحمن بمراكش، فكان ملكها، و جابى أموالها، و تملّك السلطان أبو العباس مدينة فاس و ما والى البلاد الساحلة و سواها ممّا يحتوى عليه ملك المدينة البيضاء برّا و بحرا.

و عبّر كاتب الدولة عن المدينة و عن الطفل متملّكها بقوله: و إلى هذا فقد ارتفع الالتباس، و اطّرد القياس، و غير خفىّ عن ذى عقل سليم، و ذى تفويض للحقّ و تسليم، أن دار الملك المرينى كمامة بلا زهر، و رياض بلا نهر، إن لم يقتعد كرسيها، من يزيّن جيدها و يجيد حليها، و آن أوان البشرى لمن يمتعض للدين، و الآن قلادة التقوى منوطة بقلم أعلام الملوك المهتدين، ثم ذكر ما يطول من فصول، و ربما اشتملت على فضول، و ملخّصه مثل ما ذكر ابن خلدون.

[ابن خلدون يتحدث عن مقتل لسان الدين]

ثم ساق قاضى القضاة ابن خلدون- بعد ما تقدّم جلبه من تاريخه- الكلام على محنة لسان الدين بن الخطيب و وفاته مقتولا رحمه اللّه

تعالى فقال ما صورته: و لما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه فاتح ستّ و سبعين استقلّ بسلطانه، و الوزير محمد بن عثمان مستبدّ عليه، و سليمان بن داود بن أعراب كبير بنى عسكر رديفه، و قد كان الشرط وقع بينه و بين السلطان ابن الأحمر- عند ما بويع بطنجة- على نكبة الوزير ابن الخطيب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۹۲

و إسلامه إليه، لما نمى إليه عنه أنه كان يغرى السلطان عبد العزيز بملك الأندلس. فلمّا زحف السلطان أبو العباس من طنجة و لقيه أبو بكر بن غازى بساحة البلد الجديد، فهزمه السلطان، و لازمه بالحصار، أوى معه ابن الخطيب إلى البلد الجديد خوفا على نفسه. فلمّا استولى السلطان على البلد أقام أياما، ثم أغره سليمان بن داود بالقبض على ابن الخطيب، فقبضوا عليه، و أودعوه السجن، و طيّروا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر. و كان سليمان بن داود شديد العداوة لابن الخطيب لما كان سليمان قد بايعه السلطان ابن الأحمر على مشيخة الغزاة بالأندلس متى أعاده اللّه تعالى إلى ملكه، فلمّا استقرّ إليه سلطانه أجاز إليه سليمان سفيرا عن الوزير عمر بن عبد اللّه و مقتضيا عهده من السلطان، فصدّه الوزير ابن الخطيب عن ذلك، محتجّا بأنّ تلك الرياسة إنما هى لأعياص الملك من بنى عبد الحق؛ لأنهم يعسوب زناتة، فرجع سليمان، و أثار حقد ذلك لابن الخطيب. ثم جاوز الأندلس لمحلّ إمارته من جبل الفتح، فكانت تقع بينه و بين ابن الخطيب مكاتبات ينفث كلّ واحد منهما لصاحبه بما يحفظه ممّا كمن فى صدورهما. و حين بلغ خبر القبض على ابن الخطيب إلى السلطان ابن الأحمر بعث كاتبه و وزيره بعد ابن الخطيب، و هو أبو عبد اللّه بن زمرك، فقدم على السلطان أبى العباس، و أحضر ابن الخطيب بالمشور فى مجلس الخاصة، و عرض عليه بعض كلمات وقعت له فى كتابه فى المحبة، فعظم النكير فيها، فوبخ و نكل، و امتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملأ، ثم نقل إلى محبسه. و اشتوروا فى قتله بمقتضى تلك المقالات المسجّلة عليه، و أفتى بعض الفقهاء فيه، و دسّ سليمان بن داود لبعض الأوغاد من حاشيته بقتله، فطرقوا السجن ليلا، و معهم زعانفة جاؤوا فى لفيف الخدم مع سفراء السلطان ابن الأحمر، و قتلوه خنقا فى محبسه، و أخرج شلوه من الغد، فدفن بمقبرة باب المحروق. ثم أصبح من الغد على مسافة قبره طريحا، و قد جمعت له أعواد، و أضرمت عليه نار، فاحترق شعره، و اسودّ بشره، فأعيد إلى حفرته، و كان فى ذلك انتهاء محنته. و عجب الناس من هذه الشنعاء التى جاء بها سليمان، و اعتدّوها من هناته، و عظم النكير فيها عليه و على قومه و أهل دولته، و اللّه الفعال لما يريد.

[أبيات للسان الدين قالها و هو سجين]

و كان- عفا اللّه تعالى عنه!- أيام امتحانه بالسجن يتوقّع مصيبة الموت فتجهش هواتفه بالشعر يبكى نفسه. و ممّا قال فى ذلك رحمه اللّه تعالى: [المتقارب]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۹۳

بعدنا و إن جاورتنا البيوت و جئنا بوعظ و نحن صموت

و أنفاسنا سكنت دفعة كجهر الصلاة تلاه القنوت

و كنّا عظاما فصرنا عظاما و كنّا نقوت فها نحن قوت

و كنّا شموس سماء العلا غربنا فناحت علينا السّموت

فكم جدّلت ذا الحسام الظّبا و ذو البخت كم جدّلته البخوت

و كم سيق للقبر فى خرقة متى ملئت من كساه التّخوت

فقل للعدا ذهب ابن الخطيب وفات، و من ذا الذى لا يفوت

و من كان يفرح منهم له فقل: يفرح اليوم من لا يموت

انتهى كلام ابن خلدون فى «ديوان العبر».

[حديث للحافظ ابن حجر عن مقتل لسان الدين]

و قال الحافظ ابن حجر فى «أنباء الغمر» بعد أن ذكر ما قدمناه على سبيل الاختصار، ما نصّه: و اشتهر أنه- يعنى لسان الدين- نظم حين قدّم للقتل الأبيات المشهورة التى يقول فيها:

[المتقارب]

و قل للعداة مضى ابن الخطيب وفات فسبحان من لا يفوت

فمن كان يشمت منكم به فقل: يشمت اليوم من لا يموت

و الصحيح فى ذلك ما ذكره صديقه شيخنا ولى الدين ابن خلدون أنه نظم الأبيات المذكورة و هو فى السجن، لما كان يستشعر من التشديد؛ انتهى.

ثم حكى ابن حجر عن بعض الأعيان أنّ ابن الأحمر وجّهه إلى ملك الإفرنج فى رسالة، فلمّا أراد الرجوع أخرج له رسالة لابن الخطيب تشتمل على نظم و نثر، فلمّا قرأها قال له: مثل هذا كان ينبغى أن لا يقتل، ثم بكى حتى بلّ ثيابه؛ انتهى كلام الحافظ، و بعضه بالمعنى.

فانظر- سدّدك اللّه تعالى- بكاء العدوّ الكافر على هذا العلّامة، و قتل إخوانه فى الإسلام له على حظّ نفسانى، و لا حول و لا قوّة إلّا بالله العلى العظيم، لا ربّ غيره.

[تخميس بعض بنى الصباغ لأبيات لسان الدين التى قالها و هو فى السجن]

قلت: و رأيت بحضرة فاس- حاطها اللّه تعالى!- تخميسا لهذه الأبيات بديعا منسوبا إلى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۹۴

بعض بنى الصباغ، وزاد فى الأصل بعض أبيات على ما ذكره ابن خلدون من هذه القطعة، و المزيد يشبه نفس لسان الدين بن الخطيب، فلعلّ ابن خلدون اختصر منها، أو لم يقف على الزائد، و لنثبت جملته تتميما للمقصود، فنقول: قال رحمه اللّه تعالى:

[المتقارب]

أيا جاهلا غرّه ما يفوت و ألهاه حال قليل الثبوت

تأمّل لمن بعد أنس يقوت بعدنا و إن جاورتنا البيوت

و جئنا بوعظ و نحن صموت

لقد نلت من دهرنا رفعة تقضّت كبرق مضى سرعة

فهيهات نرجو لها رجعة و أصواتنا سكنت دفعة

كجهر الصلاة تلاه القنوت

بدا لى من العزّ وجه شباب يؤمّل سيبى و بأسى يهاب

فسرعان مزّق ذاك الإهاب و مدّت و قد أنكرتنا الثياب

علينا نسائجها العنكبوت

فآها لعزّ تقضّى مناما منحنا به الجاه قوما كراما

و كنّا نسوس أمورا عظاما و كنّا عظاما فصرنا عظاما

و كنّا نقوت فها نحن قوت

و كنّا لدى الملك حلى الطّلى فآها عليه زمانا خلا

نعوّض من جدّة بالبلى و كنّا شموس سماء العلا

غربنا فناحت علينا السّموت

تعوّدت بالرغم صرف الليالى و حمّلت نفسى فوق احتمالى

و أيقنت أن سوف يأتى ارتحالى و من كان منتظرا للزوال

فكيف يؤمّل منه الثبوت

هو الموت يا ما له من نبا يجوز الحجاب إلى من أبى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۹۵

و يألف أخذ سنىّ الحبا فكم أسلمت ذا الحسام الظّبا

و ذا البخت كم جدّلته البخوت

هو الموت أفصح عن عجمة و أيقظ بالوعظ من خفقة

و سلّى عن الحزن ذا حرقة و كم سيق للقبر فى خرقة

فتى ملئت من كساه التخوت

تقضّى زمانى بعيش خصيب و عندى لذنبى انكسار المنيب

وها الموت قد صبت منه نصيبى فقل للعدا ذهب ابن الخطيب

وفات و من ذا الذى لا يفوت

مضى ابن الخطيب كمن قبله و من بعده يقتفى سبله

و هذا الردى ناثر شمله فمن كان يفرح منهم له

فقل: يفرح اليوم من لا يموت

هو الموت عمّ فما للعدا يسرّون بى حين ذقت الردى

و من فاته اليوم يأتى غدا سيبلى الجديد إذا ما المدى

تتابع آحاده و السّبوت

أخىّ توخّ طريق النجاة و قدّم لنفسك قبل الممات

و شمّر بجدّ لما هو آت و لا تغترر بسراب الحياة

فإنك عمّا قريب تموت

[أبيات لبعض الشاميين فى معنى بعض أبيات لسان الدين]

و قد ذكرنى قوله رحمه اللّه تعالى «فمن كان يفرح منهم له- إلى آخره» قول بعض العلماء الشاميين: [الكامل]

يا ضاحكا بمن استقلّ غباره سيثور عن قدميك ذاك العثير

لا فارس بجنودها منعت حمى كسرى، و لا للروم خلّد قيصر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۹۶

جدد مضت عاد عليه و جرهم و تلاه كهلان و عقّب حمير

وسطا بغسّان الملوك و كندة فلها دماء عنده لا تثأر

لعبت بهم فكأنهم لم يخلقوا و نسوا بها فكأنهم لم يذكروا

[كلام لأبى الخطاب بن دحية فى التسلى عن كوارث الزمان]

و ما أحسن قول أبى الخطاب بن دحيّة الحافظ بعد كلام ما صورته: و أخذت من طريق خوزستان إلى طريق حلوان، و قاسيت من الغربة أصناف الألوان، و مررت على مدائن كسرى أنوشروان، وزرت بها قبر صاحب النبىّ، صلّى اللّه عليه و سلّم، الزاهد العابد المعمّر سلمان، و أعملت منها السير و الإغذاذ، إلى مدينة بغذاذ، فنظرت إليها معالم و ربوعا، و أقمت بها مرة عاما و مرة أسبوعا و أسبوعا، و أنا أبدى فى ندائهم و أعيد، و الترب قد علا على منازلهم و الصعيد، و أسأل عن الخلفاء الماضين و أنشد، و لسان الحال يجاوبنى و ينشد: [مخلع البسيط]

يا سائل الدار عن أناس ليس لهم نحوها معاد

مرّت كما مرّت الليالى أين جديس و أين عاد

بل أين أبو البشر آدم الذى خلقه بيده الكبير المتعال؟ أين الأنبياء من ولده و الأرسال؟

أهل النبوّة و الرسالة، و الوحى من اللّه ذى الجلالة؟ أين سيدهم محمد الذى فضّله عليهم ذو العزّة و الجلال، و جعله شفيعهم مع أمّته و الناس فى شدائد الأهوال؟ أين القرون الماضية و الأجيال؟ أين التبابعة و الأقيال؟ أين ملوك همدان؟ أين أولو الأبرق الفرد أو غمدان؟ أين أولو التيجان و الأكاليل؟ أين الصّيد و البهاليل؟ بل أين النمارذة و أكبرهم نمروذ إبراهيم الخليل؟

أين الفراعنة و من هو بالسحر عليم، الذين منهم فرعون موسى الكليم؟ أين ملك الهدنانية هدد بن بدد الكردى، الذى لم يكن غدره بمفيد له و لا مجدى؟ و قد أخبر الحقّ جلّ جلاله عنه أنه كان يأخذ كل سفينة غصبا، و زعم المؤرخون أنه كان أيضا يملأ القلوب رعبا، و يسوم أصحابه قتلا و صلبا، مع الطمع فى المال، و عدم النظر فى عقبى المآل. أين الفرس و ملوكها،

و عدلها و عدولها؟ أين دارا بن دارا بن بهمان؟ أين إسكندر بن فلبس اليونانى الذى غلبه و ملك بلاده فى ذلك الزمان؟ و إطاعه جميع ملوك الأقاليم، و قدر اللّه به امتحان الخلق ذلك تقدير العزيز العليم؟ أين كسرى و قيصر؟ غلبهما من الموت الأسد القسور، بعد أن أخرجهما من بلادهما أمير المؤمنين أبو حفص عمر، لما ظهرت الملّة الحنيفية كما ظهرت الشمس و بدا القمر، أين أولاد جفنة و ملوك غسّان؟ أين مماديح زياد و حسّان؟ أين هرم بن سنان؟ أين الملاعب بالسّنان؟ أين أولاد مضر بن نزار بن معد بن عدنان؟ أين بنو عبد المدان؟ أين أرباب العواصم؟ أين قيس بن عاصم؟ أين العرب العرباء الأمّة الفاضلة، و الجماعة المناضلة؟

أين أولو الباس و الحفاظ، و ذوو الحميّة و الإحفاظ؟ حيث الوفاء و العهد، و الحباء و الرّفد، إلى علوّ الهمم، و الوفاء بالذّمم، و العطاء الجزل، و الضيف و النزل، و هبة الأقال و البزل، و إنها لا تدين عزّا و لا تقاد، و لا ترام أنفة و لا تفاد، أين قريش المغرورة فى الجاهلية بالحى اللقاح، و الشعب الوقاح؟ أين الماضون من ملوك بنى أمية ذوو الألسن الذلق، و الأوجه الطلق؟ و الحميّة؟ أين خلفاء بنى العباس بن عبد المطلب، الذين شرفهم بالأصالة و ليس إليهم بالمنجلب؟ ذوو الشرف الشامخ، و الفخر الباذخ، و الخلافة السنيّة الرضية، و المملكة العامة المرضية. بلغتنا و اللّه وفاتهم، و لم يبق إلّا ذكرهم و صفاتهم، قبض ملك الموت أرواحهم قبضا، و لم يترك لهم حراكا و لا نبضا، و مزّق الدود لحومهم قددا، و وجدوا ما عملوا حاضرا و لا يظلم ربّك أحدا، إلّا ما كان من أجساد الأنبياء عليهم أفضل الصلاة و التسليم، فإنّ اللّه تعالى حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، و قد تكلمت على هذا الحديث و أثبتّ أنه من الصحيح لا السقيم، و خرجت طرقه فى كتابى «العلم المشهور» بعون من العزيز الرحيم، فما أبعد المرء عن رشده و ما أقصاه، كم وعظه الدهر و كم وصاه، يخلط الحقيقة بالآل، و العاطل بالحال، و لا توبة حتى يشيب الغراب، و يألف الدم التراب، فيا لهفى لبعد الدار، و

انقضاض الجدار، و أنت هامة ليل أو نهار، و قاعد من عمرك على شفا جرف هار، تقرأ العلم و تدّعيه، و لا تفهمه و لا تعيه، فهو عليك لا لك، فأولى لك ثم أولى لك، أما آن لليل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۹۸

الغى أن تنجلى أحلاكه، و لنظم البغى أن تنتثر أسلاكه، و أن يستفظع الجانى جناه، و يأسف على ما اقترفه و جناه، و أن يلبس عهاده بتّا، و يطلّق الدنيا بتّا و يفرّ منها فرار الأسد، و يتيقّن أنه لا بدّ من مفارقة الروح الجسد، نبهنا اللّه تعالى من سنات غفلاتنا، و حسن ما ساء من صنائعنا الذميمة و سلاتنا، و جعل التقوى أحصن عددنا و أوثق آلاتنا، اللهمّ إليك المآب، و بيدك المتاب، قد واقعنا الخطايا، و ركبنا الأجرام رواحل و مطايا، فتب علينا أجمعين، و أدخلنا برحمتك فى عبادك الصالحين الطائعين، و صلّى اللّه على سيد ولد آدم محمد شفيعنا يوم القيامة، و صاحب الحوض المورود و المقام المحمود و الكرامة، و على آله الطاهرين، و أصحابه أهل الرضوان المنتخبين، و سلام اللّه عليه و عليهم إلى يوم الدين؛ انتهى و هو آخر كتابه «النبراس، فى تاريخ بنى العباس» و ذكرته بطوله لمناسبته.

قلت: و قد سلكت هذا المنحى نظما فى خطبة هذا الكتاب كما مرّ، و للسان الدين رحمه اللّه تعالى كلام قريب من هذا سيأتى إن شاء اللّه تعالى.

[أبيات فى الاعتبار- و ذكر الموت]

و أقول: إنى قد تذكّرت هنا قول القائل: [البسيط]

نطوى سبوتا و آحادا و ننشرها و نحن فى الطّىّ بين السبت و الأحد

فعد ما ت من سبت و من أحد لا بدّ أن يدخل المطوىّ فى العدد

قول الآخر: [الطويل]

أ لم تر أن الدهر يوم و ليلة يكرّن من سبت عليك إلى سبت

فقل لجديد العيش لا بدّ من بلى و قل لاجتماع الشمل لا بدّ من شتّ

و اعلم أنّ لسان الدين كانت الأيام له مسالمة، لم يقدر أحد أن يواجهه بما يدنّس معاليه أو يطمس معلمه، فلمّا قلبت الأيام له ظهر مجنّها، و عاملته بمنعها بعد منحها و منّها، أكثر أعداؤه فى شأنه الكلام، و نسبوه إلى الزندقة و الانحلال من ربقة الإسلام، بتنقّص النبىّ عليه أفضل الصلاة و السلام، و القول بالحلول و الاتحاد، و الانخراط فى سلك أهل الإلحاد، و سلوك مذاهب الفلاسفة فى الاعتقاد، و غير ذلك ممّا أثاره الحقد و العداوة و الانتقاد، مقالات

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۹۹

سبوها إليه خارجة عن السنن السوىّ، و كلمات كدروا بها منهل علمه الرّوىّ، و لا يدين بها و يفوه إلّا الضالّ الغوىّ، و الظنّ أنّ مقامه رحمه اللّه تعالى من لبسها برى، و جنابه سامحه اللّه تعالى عن لبسها عرى. و كان الذى تولّى كبر محنته و قتله، تلميذه أبو عبد اللّه بن زمرك الذى لم يزل مضمرا لختله، فلقد وقفت على خطّ ابن لسان الدين على أنه تسبّب فى قتل لسان الدين أبيه، و سيأتى الإلماع و الإلمام بابن زمرك المذكور فى تلامذة لسان الدين، مع أنه- أعنى لسان الدين- حلاه فى الإحاطة أحسن الحلى، و صدقه فيما انتحله من أوصاف العلا، و قد سبق فى كلام ولى الدين ابن خلدون أنه قدم على السلطان أبى العباس أحمد المرينى فى شأن الوزير ابن الخطيب، و أخرج إلى مجلس الخاصة، و امتحن و المجالس بالأعيان غاصّة، و لا حول و لا قوّة إلّا باللّه.

[من أعداء لسان الدين القاضى أبو الحسن النباهى، و ما يتصل بذلك]

و من أعدائه الذين باينوه بعد أن كانوا يسعون فى مرضاته سعى العبيد، القاضى أبو الحسن بن الحسن النباهى، فكم قبل يده، ثم

جاهره بعد انتقال الحال، و جدّ فى أمره مع ابن زمرك حتى قتل لسان الدين، و انقضت دولته، فسبحان من لا يتحوّل ملكه و لا يبيد.

و قد سبق فيما جلبناه من كلام ابن خلدون أن القاضى ابن الحسن قدم على السلطان عبد العزيز فى شأن لسان الدين و الانتقام منه بسبب تلك السجلات و إمضاء حكم اللّه فيه بمقتضاها، فأبى السلطان من ذلك، و قال: هلّا فعلتم أنتم ذلك حين كان عندكم؟ و امتنع لذمته أن يخفره، فلمّا أراد اللّه بنفوذ الأمر، و عدم نفع زيد و عمرو، توفى السلطان عبد العزيز، و اختلّت الأحوال، و اضطربت بالمغرب نيران الأهوال، فقدم فى شأنه الوزير الكاتب ابن زمرك خادمه الذى رباه و صنيعته، فكان ما كان ممّا سبق به الإلمام.

و قد ذكرنا فى الباب الأول قول لسان الدين رحمه اللّه تعالى فى قصيدته النونية: [الطويل]

تلوّن إخوانى علىّ و قد جنت علىّ خطوب جمّة ذات ألوان

و ما كنت أدرى قبل أن يتنكّروا بأن خوانى كان مجمع خوّانى

و كانت قد حمّ القضاء صنائعى علىّ بما لا أرتضى شرّ أعوان

و لقد صدق رحمه اللّه تعالى، على أنه قال هذه القصيدة فى النكبة الأولى التى انتقل فيها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۰۰

مع سلطانه إلى المغرب، كما مرّ مفصّلا، و كأنه عبّر عن هذه المحنة الأخيرة التى ذهبت فيها نفسه على يد صنائعه الكاتب ابن زمرك و القاضى ابن الحسن، سامح اللّه الجميع!.

و يرحم اللّه أبا إسحاق التلمسانى صاحب الرجز فى الفرائض حيث يقول: [المنسرح]

الغدر فى الناس شيمة سلفت قد طال بين الورى تصرّفها

ما كلّ من قد سرت له نعم منك يرى قدرها و يعرفها

بل ربما أعقب الجزاء بها مضرة عزّ عنك مصرفها

أما ترى الشمس كيف تعطف بالنو ر على البدر و هو يكسفها

[حكاية للسان الدين مع رسول ملك النصارى تدل على علو همته]

و قال لسان الدين، بعد ذكره أنّ ملك النصارى دون جانحه بن دون ألفنش استنصر على أبيه بالسلطان المجاهد أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى، و لاذبه، و رهن عنده تاجه ذخيرة النصارى، و لقيه بصخرة عباد من أحواز رندة، فسلّم عليه، و يقال: إن أمير المسلمين لمّا فرغ من ذلك طلب بلسان زناتة الماء ليغسل يده به من قبلة ألفنش أو مصافحته، ما نصّه: و الشىء بالشىء يذكر، فأثبت حكاية اتفقت لى بسبب ذلك، أستدعى بها الدعاء ممّن يحسن عنده موقعها، و هى أنّ اليهودىّ الحكيم ابن زرزار، على عهد ملك النصارى حفيد هذا الفنش المذكور، وصل إلينا بغرناطة فى بعض حوائجه، و دخل إلىّ بدار سكناى مجاور القصر السلطانى بحمراء غرناطة، و عندى القاضى اليوم بغرناطة و غيره من أهل الدولة، و بيده كتاب من سلطان المغرب محمد بن أبى عبد الرحمن ابن السلطان الكبير المولى أبى الحسن، و كان محمد هذا قد فرّ إلى صاحب قشتالة، و استدعى من قبله إلى الملك، فسهّل له ذلك، و شرط عليه ما شاء، و ربّما وصله خطابه بما لم يقنعه فى إطرائه، فقال لى: «مولاى السلطان دن بطره يسلّم عليك، و يقول لك: انظر مخاطبة هذا الشخص، و كان بالأمس كلبا من كلاب بابه، حتى ترى خسارة الكرامة فيه». فأخذت الكتاب من يده و قرأته، و قلت له: «أبلغه عنّى أنّ هذا الكلام ما جرّك إليه إلّا خلوّ بابك من الشيوخ الذين يعرّفونك بالكلاب و بالأسود، و بمن تغسل الأيدى منهم إذا قبّلوها، فتعلم من الكلب الذى تغسل اليد منه و من لا. و إنّ جدّ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۰۱

هذا الولد هو الذى قبّل جدّك يده و استدعى الماء لغسل يده منه بمحضر النصارى و المسلمين، و نسبة الجدّ إلى الجدّ كنسبة الحفيد

للحفيد، و كونه لجأ إلى بلادك ليس بعار عليه، و أنت معرّض إلى اللّجإ إليه فيكافئك بأضعاف ما عاملته به». فقام أبو الحسن المستقضى يبكى، و يقبّل يدى، و يصفنى بوليّ اللّه، و كذلك من حضرنى. و توجّه إلى المغرب رسولا، فقصّ على بنى مرين خبر ما شاهده منى و سمعه، و بالحضرة اليوم ممّن تلقّى منه ذلك كثير، جعل اللّه تعالى ذلك خالصا لوجهه! انتهى.

[مدح لسان الدين للقاضى النباهى و ذم لسان الدين للقاضى النباهى بعد أن أظهر له العداوة]

و قد أثنى لسان الدين فى «الإحاطة» على القاضى ابن الحسن المذكور كما سيأتى، و قال فى ترجمة السلطان ابن الأحمر ما نصّه: ثم قدّم للقضاء الفقيه الحسيب أبا الحسن، و هو عين الأعيان بمالقة، المخصوص برسم التجلّة و القيام بالعقد و الحلّ، فسدّد و قارب، و حمل الكلّ، و أحسن مصاحبة الخطبة و الخطة، و أكرم المشيخة مع النزاهة، و لم يقف فى حسن التأنى على غاية، فاتّفق على رجاحته، و لم يقف فى النصح عند غاية؛ انتهى.

و حين أظلم الجوّ بينه و بين لسان الدين ذكره فى «الكتيبة الكامنة»، بما يباين ما سبق، و لقّبه بالجعسوس، و لم يقنعه ذلك حتى ألّف فيه «خلع الرسن فى وصف القاضى ابن الحسن».

[خطاب تقريع من القاضى النباهى إلى لسان الدين]

و قد وقفت بفاس المحروسة على كتاب مطوّل كتبه ابن الحسن للسان الدين بعد تحوّله عن الأندلس، و نص ما تعلّق به الغرض هنا: «فشرعتم فى الشراء، و تشييد البناء، و تركتم الاستعداد لهاذم اللذات، هيهات هيهات، تبنون ما لا تسكنون، و تدّخرون ما لا تأكلون، و تؤملون ما لا تدركون؟ أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ [النساء: ۷۸] فأين المهرب ممّا هو كائن، و نحن إنما نتقلّب فى قدرة الطالب، شرقتم أو غربتم، و الأيام تتقاضى الدّين، و تنادى بالنفس الفرّارة إلى أين إلى أين، و نترك الكلام مع الناقد فيما ارتكبه من تزكية نفسه، و عدّ ما جلبه من مناقبه، ما عدا ما هدّد به من حديد لسانه، خشية اندراجه فى نمط من قال فيه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «إنّ من شرّ الناس من تركه الناس اتّقاء فحشه» و لا غيبة فيمن ألقى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۰۲

جلباب الحياء عن وجهه، و زخمه على ما أبداه أو أهداه من العيوب التى نسبها لأخيه، و استراح على قوله بها فيه، و نذكره على طريقة نصيحة الدين بالحديث الثابت فى الصحيح عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و هو قوله «أ تدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له و لا متاع، فقال: إنّ المفلس من أمّتى من يأتى يوم القيامة بصلاة و صيام و زكاة، و يأتى قد شتم هذا، و قذف هذا، و أكل مال هذا، و سفك دم هذا، فيعطى هذا من حسناته، و هذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح فى النار».

و يعلم اللّه أنّ معنى هذا الحديث الثابت عن النذير الصادق، هو الذى حملنى على نصحكم، و مراجعتكم فى كثير من الأمور: منها الإشارة عليكم بإذهاب عين ما كتبتم به فى التاريخ و أمثاله، فإنكم نفعتم بما وقعتم فيه من الغيبة المحرمة أحياء و أمواتا لغير شىء حصل بيدكم و ضررتم نفسكم بما رتبتم لهم من المطالبات بنصّ الكتاب و السّنّة قبلكم، و الرضا بهذه الصفة الخاسرة أمر بعيد من الدين و العقل. و قد قلت لكم غير مرة عن أطراسكم المسوّدة بما دعوتم إليه من البدعة و التلاعب بالشريعة إنّ حقّها التخريق و التحريق، و إنّ من أطراها لكم فقد خدع نفسه و خدعكم، و اللّه الشهيد بأنى نصحتكم و ما غششتكم، و ليس هذا القول و إن كان ثقيلا عليكم بمخالف كلّ المخالفة لما زننتم به من تقدّم المواجهة بالملاطفة و المعاملة بالمكارمة، فليست المداراة بقادحة فى الدين، بل هى محمودة فى بعض الأحوال، مستحسنة على ما بيّنه العلماء، إذ هى مقاربة فى الكلام أو مجاملة بأسباب الدنيا لصلاحها أو إصلاح الدين، و إنما المذموم المداهنة، و هى بذل الدين لمجرد الدنيا، و المصانعة به لتحصيلها، و من خالط للضرورة مثلكم، و زايله

بأخلاقه و نصحه مخاطبة و مكاتبة، و استدلّ له بكتاب اللّه تعالى و سنّة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، على صحّة مقالته، فقد سلم و الحمد للّه من مداهنته، و قام للّه تعالى بما يجب عليه فى حقكم من التحذير و الإنكار مع الإشفاق و الوجل. و أكثرتم فى كتابكم من المنّ بما ذكرتم أنكم صنعتم. و على تقدير الموافقة لكم ليتكم ما فعلتم، فسلمنا من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۰۳

المعرة و سلمتم، و جلّ القائل سبحانه: قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ [البقرة: ۲۶۳] و قلّما شاركتم أنتم فى شىء إلّا بأغراض حاصلة فى يدكم، و لأغراض دنيوية خاصة بكم، فالملام إذن فى الحقيقة إنما هو متوجّه إليكم، و أمّا ما أظهرتم بمقتضى حركاتكم و كلامكم من التندّم على فراق محلّكم، و التّعلّل بأخبار قطركم و أهلكم، فتناقض منكم و إن كنتم فيه بغدركم: [الطويل]

أتبكى على ليلى و أنت تركتها فكنت كآت غيّه و هو طائع

و ما كلّ ما منّتك نفسك مخليا تلاقى، و لا كلّ له أنت تابع

فلا تبكين فى إثر شىء ندامة إذا نزعته من يديك النوازع

و على أن تأسفكم لما وقعتم فيه من الغدر لسلطانكم، و الخروج لا لضرورة غالبة عن أوطانكم، من الواجب بكلّ اعتبار عليكم، سيما و قد مددتم إلى التمتّع بغيرها عينيكم، و لو لم يكن بهذه الجزيرة الفريدة من الفضيلة إلّا ما خصّت به من بركة الرباط و رحمة الجهاد لكفاها فخرا على ما يجاورها من سائر البلاد، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «رباط يوم فى سبيل اللّه خير من ألف يوم فيما سواه»، و قال عليه الصلاة و السلام «الرّوحة يروحها العبد فى سبيل اللّه و الغدوة خير من الدنيا و ما فيها» و على كلّ تقدير فإذا لم يكن يا أخى فراركم من الأندلس إلى اللّه وحده بالتوبة المكملة، و الاستغفار مع الانقطاع فى أحد المواطن المكرمة المعظمة بالإجماع، و هى طيبة أو مكة أو بيت المقدس، فقد خسرتم صفقة رحلتكم، و تبين أن لغير وجه اللّه العظيم كانت نيّة هجرتكم، اللهمّ إلّا إن كنتم قد لاحظتم مسألة الرجل الذى قتل مائة نفس، و سأل أعلم أهل الأرض فأشار عليه بعد إزماع التوبة بمفارقة المواطن التى ارتكب فيها الذنوب، و اكتسب بها العيوب، فأمر آخر، مع أنّ كلام العلماء فى هذا الحديث معروف.

و يقال لكم من الجواب الخاص بكم: فعليكم إذا بترك القيل و القال، و كسر حربة الجدال و القتال، و قصر ما بقى من مدة العمر على الاشتغال بصالح الأعمال. و وقعت فى مكتوبكم كلمات أوردها النقد فى قالب الاستهزاء و الازدراء، و الجهالة بمقادير الأشياء، و منها «ريح صرصر» و هو لغة القرآن، و «قاع قرقر» و هو لفظ سيد العرب و العجم محمد صلّى اللّه عليه و سلم، ثبت فى الصحيح فى باب التغليظ فيمن لا يؤدى زكاة ماله. قيل: يا رسول اللّه، و البقر و الغنم؟ قال «و لا صاحب بقر و لا غنم لا يؤدى منها حقّها إلّا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۰۴

منها شيئا، تنطحه بقرونها، و تطؤه بأظلافها» - الحديث الشهير. قال صاحب المعلم: بطح لها بقاع قرقر: أى ألقى على وجهه، و القاع: المستوى من الأرض، و القرقر: كذلك، هذا ما حضر من الجواب، و بقى فى مكتوبكم حشو كثير من كلام إقذاع و فحش بعيد من الحشمة و الحياء رأيت من الصواب الإعراض عن ذكره، و صون اليد عن الاستعمال فيه، و الظاهر أنه إنما صدر منكم و أنتم بحال مرض، فلا حرج فيه عليكم، أنسأ اللّه تعالى أجلكم، و مكّن أمنكم، و سكن وجلكم، و منه جلّ اسمه نسأل لى و لكم حسن الخاتمة، و الفوز بالسعادة الدائمة، و السلام الأتم يعتمدكم، و الرحمات و البركات من كاتبه على بن عبد اللّه بن الحسن و فّقه اللّه، و ذلك بتاريخ أخريات جمادى الأولى من عام ثلاثة و سبعين و سبعمائة.

و قيّد رحمه اللّه تعالى فى مدرج طى هذا الكتاب ما نصّه: «يا أخى- أصلحنى اللّه و إياكم!. بقى من الحديث شىء الصواب الخروج عنه لكم، إذ هذا أوانه، و تأخير البيان عن وقت الحاجة فيه ما فيه، و ليكون البناء بعد أن كان على أصل صحيح بحول اللّه، و حاصله

أنكم عددتم ما شاركتكم فيه بحسب الأوقات، و قطعتم بنسبة الأمور كلّها إلى أنفسكم، و أنها إنما صدرت عن أمركم و بإذنكم، من غير مشارك فى شىء منها لكم، ثم مننتم بها المنّ القبيح المبطل لعمل برّكم على تقدير التسليم فى فعله لكم، و رميتم غيركم بالتقصير فى حاله كلّه، طريقة من يبصر القذى فى عين أخيه و يدع الجذع فى عينه، و أقصى ما تسنّى للمحبّ أيام كونكم بالأندلس تقلّد كلفة قضاء الجماعة، و ما كان إلّا أن وليتها بقضاء اللّه و قدره، فقد تبيّن لكلّ ذى عقل سليم أنه لا موجد إلّا اللّه، و أنه إذا كان كذلك كان الخير و الشّرّ و الطاعة و المعصية حاصلا بإيجاده سبحانه و تخليقه و تكوينه من غير عاضد له على تحصيل مراده و لا معين، و لكنه جلّت قدرته وعد فاعل الخير بالثواب فضلا منه، و أوعد فاعل الشّرّ بالعقاب عدلا منه، و كأنى بكم تضحكون من تقرير هذه المقدمة، و ما أحوجكم إلى تأمّلها بعين اليقين، فكابدت أيام تلك الولاية النكدة من النكاية باستحقاركم للقضايا الشرعية، و تهاونكم بالأمور

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۰۵

الدينية، ما يعظم اللّه به الأجر، و ذلك فى جملة مسائل: منها مسألة ابن الزبير المقتول على الزندقة بعد تقضى موجباته على كره منكم، و منها مسألة ابن أبى العيش المثقف فى السجن على آرائه المضلّة التى كان منها دخوله على زوجه إثر تطليقه إياها بالثلاث، و زعمه أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، أمره مشافهة بالاستمتاع بها، فحمّلتم أحد ناسكم تناول إخراجه من الثقاف من غير مبالاة بأحد، و منها أنّ أحد الفتيان المتعلقين بكم توجّهت عليه المطالبة بدم قتيل، و سيق المدعى عليه للذبح بغير سكين، فما وسعنى بمقتضى الدين إلّا حبسه على ما أحكمته السّنّة، فأنفتم لذلك، و سجنتم الطالب وليّ الدم، و سرحتم الفتى المطلوب على الفور، إلى غير ذلك ممّا لا يسع الوقت شرحه، و لا يجمل بى و لا بكم ذكره. و المسألة الأخرى أنتم توليتم كبرها حتى جرى فيها القدر بما جرى به من الانفصال، و الحمد للّه على كلّ حال، و أمّا الرمى بكذا و كذا ممّا لا علم لنا بسببه، و لا عذر لكم من الحقّ فى التكلّم به، فشىء قلّما يقع مثله من البهتان ممّن كان يرجو لقاء ربّه، و كلامكم فى المدح و الهجو، هو عندى من قبيل اللغو، الذى نمرّ به كراما و الحمد للّه، فكثّروا أو قلّلوا من أى نوع شئتم، أنتم و ما ترضونه لنفسكم، و ما فهت لكم بما فهت من الكلام، إلّا على جهة الإعلام، لا على جهة الانفعال، لما صدر أو يصدر عنكم من الأقوال و الأفعال، فمذهبى غير مذهبكم، و عندى ما ليس عندكم. و كذلك رأيتكم تكثرون فى مخاطباتكم من لفظ الرّقية فى معرض الإنكار لوجود نفعها، و الرمى بالمنقصة و الحمق لمستعملها، و لو كنتم قد نظرتم فى شىء من كتب السّنّة و سير الأمّة المسلمة نظر مصدق لما وسعكم إنكار ما أنكرتم، و كتبه بخطّ يدكم، فهو قادح كبير فى عقيدة دينكم، فقد ثبت بالإجماع فى سورة الفلق أنها خطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلم، و أنه المراد بها هو و آحاد أمّته، و فى أمهات الإسلام الخمس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «كان إذا اشتكى رقاه جبريل، فقال: بسم اللّه يبريك، و من كلّ داء يشفيك، و من شرّ حاسد إذا حسد، و من شرّ كلّ ذى عين». و فى الصحيح أيضا أنّ ناسا من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، كانوا فى سفر، فمرّوا بحى من أحياء العرب، فاستضافوهم، فلم يضيفوهم، فقالوا: هل فيكم راق فإنّ سيد الحى لديغ، أو مصاب؟ فقال رجل من القوم: نعم، فأتاه فرقاه بفاتحة الكتاب، فبرىء الرجل، فأعطى قطيعا من غنم- الحديث الشهير، قال أهل العلم: فيه دليل على جواز أخذ الأجرة على الرقية و الطب و تعليم القرآن، و هو قول مالك و أحمد و الشافعى و أبى ثور و جماعة من السلف، و فيه جواز

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۰۶

المقارضة، و إن كان ضدّ ذلك أحسن، و فى هذا القدر كفاية. و ما رقيت قطّ أحدا على الوجه الذى ذكرتم، و لا استرقيت و الحمد للّه، و ما حملنى على تبيين ما بيّنته الآن لكم فى المسألة إلّا إرادة الخير التام لجهتكم، و الطمع فى إصلاح باطنكم و ظاهركم، فإنى أخاف عليكم من الإفصاح بالطعن فى الشريعة، و رمى علمائها بالمنقصة على عادتكم و عادة المستخف ابن هذيل شيخكم منكر علم الجزئيات، القائل بعدم قدرة الربّ جلّ اسمه على جميع الممكنات. و أنتم قد انتقلتم إلى جوار أناس أعلام قلّما تجوز عليهم- حفظهم اللّه!- المغالطات، فتأسركم شهادة العدول التى لا مدفع لكم فيها، و تقع الفضيحة، و الدين النصيحة، أعاذنا اللّه من درك الشقاء، و

شماتة الأعداء، و جهد البلاء. و كذلك أحذّركم من الوقوع بما لا ينبغى فى الجناب الرفيع، جناب سيد المرسلين، و قائد الغرّ المحجّلين، صلوات اللّه و سلامه عليه، فإنه نقل عنكم فى هذا الباب أشياء منكرة، يكبر فى النفوس التكلّم بها، أنتم تعلمونها، و هى التى زرعت فى القلوب ما زرعت من بغضكم، و إيثار بعدكم، مع استشعار الشفقة و الوجل من وجه آخر عليكم، و لو لا أنكم سافرتم قبل تقلّص ظلّ السلطنة عنكم لكانت الأمّة المسلمة امتعاضا لدينها و دنياها، قد برزت بهذه الجهات لطلب الحقّ منكم، فليس يعلم أنه صدر عن مثلكم من خدام الدّول ما صدر عنكم من العيث فى الأبشار و الأموال، و هتك الأعراض، و إفشاء الأسرار، و كشف الأستار، و استعمال المكر، و الحيل و الغدر، فى غالب الأحوال للشريف و المشروف، و الخادم و المخدوم، و لو لم يكن فى الوجود من الدلائل على صحة ما رضيتم به لنفسكم من الاتّسام بسوء العهد و التجاوز المحض و كفران النعم و الركون إلى ما تحصّل من الحطام الزائل إلّا عملكم مع سلطانكم مولاكم و ابن مولاكم أيّده اللّه بنصره و ما ثبت من مقالاتكم السيئة فيه و فى الكثير من أهل قطره لكفاكم وصمة لا يغسل دنسها البحر، و لا ينسى عارها الدهر، فإنكم تركتموه أولا بالمغرب عند تلوّن الزمان، و ذهبتم للكدية و الأخذ بمقتضى المقامة الساسانية إلى أن استدعاه الملك، و تخلّصت له بعد الجهد الأندلس، فسقطتم عليه سقوط الذباب على الحلواء، و ضربتم وجوه رجاله بعضا ببعض، حتى فلا لكم الجوّ، و تمكّن الأمر و النهى، فهمزتم و لمزتم، و جمعتم من المال ما جمعتم. ثم وريتم بتفقّد ثغر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۰۷

الجزيرة الخضراء، مكرا منكم، فلمّا بلغتم أرض الجبل انحرفتم عن الجادة، و هربتم بأثقالكم الهروب الذى أنكره عليكم من بلغه حديثكم أو يبلغه إلى آخر الدهر فى العدوتين من مؤمن و كافر و برّ و فاجر، فكيف يستقيم لكم بعد المعرفة بتصرّفاتكم حازم، أو يثق بكم فى قول أو فعل صالح أو طالح؟ و لو كان قد بقى لكم من العقل ما تتفكّرون به فى الكيفية التى ختمتم بها عملكم بالأندلس من الزيادة فى المغرم و غير ذلك مما لكم وزره و وزر من عمل به بعدكم إلى يوم القيامة حسبما ثبت فى الصحيح لحملكم على مواصلة الحزن، و ملازمة الأسف و الندم على ما أوقعتم فيه نفسكم الأمّارة من التورّط و التنشّب فى أشطان الآمال و دسائس الشيطان، و نعوذ باللّه من شرور الأنفس و سيئات الأعمال.

و أمّا قولكم عن فلان «إنه كان حشرة فى قلوب اللوز» و «إنّ فلانا كان برغوثا فى تراب الخمول» فكلام سفساف، يقال لكم من الجواب عليه: و أنتم يا هذا، أين كنتم منذ خمسين سنة مثلا؟ خلق اللّه الخلق لا استظهارا بهم و لا استكثارا، و أنشأهم كما قدّر أحوالا و أطوارا، و استخلفهم فى الأرض بعد أمّة أمما و بعد عصر أعصارا، و كلفهم شرائعه و أحكامه و لم يتركهم هملا، و أمرهم و نهاهم ليبلوهم أيهم أحسن عملا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ [الحجرات: ۱۳] و بكل اعتبار فلا نعلم فى نمط الطلبة تدريجا كان أسمج من تدريجكم، و نبدأ من كذا فإنه كان كذا و أكثر أهل زمانه تحمّلا و تقلّلا فى نفسه بالنسبة إلى منصبه كان الشيخ أبو الحسن بن الجياب، و لكنه حين علم رحمه اللّه تعالى من نشأتكم و حالتكم ما علم نبذ مصاهرتكم و صرف عليكم صداقكم، و كذلك فعلت بنت جزىّ زوج الرهيصى معكم، حسبما هو مشهور فى بلدكم، و ذكرتم أنكم ما زلتم من أهل الغنى حيث نقرتم بذكر العرض- و هو بفتح العين و الراء، حطام الدنيا على ما حكى أبو عبيد، و قال أبو زيد: هو بسكون الراء، المال الذى لا ذهب فيه و لا فضّة- و أىّ مال خالص يعلم لكم أو لأبيكم بعد الخروج من الثقاف على ما كان قد تبقّى عنده من مجبى قرية مترايل؟ ثم من العدد الذى برز قبلكم أيام كانت أشغال الطعام بيدكم على ما شهد به الجمهور من أصحابكم. و أمّا الفلاحة التى أشرتم إليها فلا حقّ لكم فيها إذ هى فى الحقيقة لبيت مال المسلمين، مع ما بيدكم على ما تقرّر فى الفقهيات، و المعدوم شرعا كالمعدوم حسّا، و لو قبل من أهل المعرفة بكم بعض ما لديهم من سقطاتكم فى القال و القيل، و لم يصرف إلى دفع معرّتها عنكم وجه التأويل، لكانت مسألتكم ثانية لمسألة أبى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۰۸

الخير، بل أبى الشرّ، الحادثة أيام خلافة الحكم، المسطورة فى نوازل أبى الأصبغ بن سهل، فاعلموا ذلك، و لا تهملوا إشارتى عليكم

قديما و حديثا بلزوم الصلوات، و حضور الجماعات، و فعل الخيرات، و العمل على التخلّص من التبعات إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ [لقمان: ۳۳]

و قلتم فى كتابكم «أين الخطط المتوارثة عن الآباء و الأجداد؟» و قد أذهب اللّه عنّا ببركة الملّة المحمدية عيبة الجاهلية فى التفاخر بالآباء، و لكنى أقول لكم على جهة المقابلة لكلامكم: إن كانت الإشارة إلى المجيب بهذا فمن المعلوم المتحقّق عند أفاضل الناس أنه من حيث الأصالة أحد أماثل قطره، قال القاضى أبو عبد اللّه بن عسكر و قد ذكر فى كتابه من سلفى فلان بن فلان، ما نصّه: و بيته بيت قضاء و علم و جلالة لم يزالوا يرثون ذلك كابرا عن كابر، استقضى جدّه المنصور بن أبى عامر، و قاله غيره و غيره، و بيدى من عهود الخلفاء و صكوك الأمراء المكتتبة بخطوط أيديهم من لدن فتح جزيرة الأندلس إلى هذا العهد القريب ما تقوم به الحجّة القاطعة للسان الحاسد و الجاحد، و المنّة للّه وحده. و إن كانت الإشارة للغير من الأصحاب فى الوقت حفظهم اللّه فكلّ واحد منهم إذا نظر إليه بعين الحقّ وجد أقرب منكم نسبا للخطط المعتبرة، و أولى بميراثها بالفرض و التعصيب أو مساويا على فرض المسامحة لكم. قال رسول اللّه، صلّى اللّه عليه و سلم: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه و لا يخذله و لا يحقره، حرام دمه و ماله و عرضه».

و نرجع إلى طريقة أخرى فنقول: من كان يا فلان من قومكم فى عمود نسبكم نبيها مشهورا، أو كاتبا قبلكم معروفا، أو شاعرا مطبوعا، أو رجلا- نبيها مذكورا؟ و لو كان يا لوشى و كان، لكان من الواجب الرجوع إلى التناصف و التواصل و التواضع، و ترك التحاسد و التباغض و التقاطع: «إنّ اللّه لا ينظر إلى صوركم و أبدانكم، و لكن ينظر إلى قلوبكم و أعمالكم». و كذلك العجب كلّ العجب، من تسميتكم الخربات التى شرعتم فى بنائها بدار السلام، و هيهات هيهات، المعروف من الدنيا أنها دار بلاء و جلاء و عناء و فناء، و لو لم يكن من الموعظة الواقعة بتلك

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۰۹

الدار فى الوقت إلّا موت سعيدكم عند دخولها، لأغناكم عن العلم اليقين بمآلها.

و أظهرتم سرورا كثيرا بما قلتم إنكم نلتم، حيث أنتم، من الشهوات التى ذكرتم أنّ منها الإكثار من الأكل و الخرق و القعود بإزاء جارية الماء على نطع الجلد، و الإمساك أولى بالجواب على هذا الفصل، فلا خفاء بما فيه من الخسة و الخبائث و الخبث، و بالجملة فسرور العاقل إنما ينبغى أن يكون بما يجمل تقدّمه من زاد التقوى للدار الباقية، فما العيش- كما قال رسول اللّه، صلّى اللّه عليه و سلم: إلّا عيش الآخرة، فقدموا إن قبلتم وصاة الحبيب أو البغيض بعضا عسى أن يكون لكم، و لا تخلفوا كلّا يكون عليكم، هذا الذى قلته لكم، و إن كان لدى من يقف عليه من نمطه الكثير، فهو باعتبار المكان و ما مرّ من الزمان فى حيز اليسير، و هو فى نفسه قول حقّ و صدق، و مستند أكثره كتاب اللّه و سنّة محمد رسول اللّه، صلّى اللّه عليه و سلم، و على سائر أنبيائه.

فاحمدوا اللّه العلىّ العظيم على تذكيركم به إذ هو جار مجرى النصيحة الصريحة، يسّرنى اللّه و إياكم لليسرى، و جعلنا ممّن ذكر فانتفع بالذكرى، و السلام». انتهى كلام القاضى ابن الحسن النباهى فى كتابه الذى خاطب به لسان الدين رحمه اللّه تعالى.

[صورة مرسوم من إنشاء لسان الدين بتولى القاضى أبى الحسن النباهى القضاء، و فيه من الثناء على القاضى ما يدل على أنه لم يشكر النعمة]

و أين هذا الكلام الذى صدر من ابن الحسن فى حقّه من إنشاء لسان الدين رحمه اللّه تعالى فى تولى ابن الحسن المذكور القضاء، و هو: «هذا ظهير كريم أنتج مطلوب الاختيار قياسه، و دلّ على ما يرضى اللّه عزّ و جلّ التماسه، و أطلع نور العناية الذى يجلو الظلام نبراسه، و اعتمد بمثابة العدل من عرف باقتراع هضبتها ناسه، و ألقى بيد المعتمد به زمام الاعتقاد الجميل تروق أنواعه و أجناسه، و شيّد مبنى العزّ الرفيع، فى قبّة الحسب المنيع، و كيف لا- و اللّه بانيه، و المجد أساسه، أمر به و أمضى العمل بمقتضاه و حسبه أمير المسلمين عبد اللّه محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبى الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر- أيّد اللّه أوامره، و خلّد مفاخره!- لقاضى حضرته العلية، و خطيب حمرائه السنيّة، المخصوص لديه بترفيع المزيّة، المصروف إليه خطاب

القضاة بإيالته النصرية، قاضى الجماعة، و مصرّف الأحكام الشرعية المطاعة، الشيخ الكذا أبى الحسن ابن الشيخ الكذا أبى محمد بن الحسن- وصل اللّه سعادته، و حرس مجادته، و سنّى من فضله إرادته!- عصب منه جبين المجد بتاج الولاية، و أجال قداح الاختيار حتى بلغ الغاية و تجاوز النهاية، ما ألقى منه بيمين عرابة الراية، و أحلّه منه محلّ اللفظ من المعنى و الإعجاز من الآية، و حشر إلى مدعاة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۱۰

ترفيعه وجوه البرّ و أعيان العناية، و أنطق بتبجيله، ألسن أهل جيله، بين الإفصاح و الكناية، و لما كان له الحسب الأصيل الذى شهدت به ورقات الدواوين، و الأصالة التى قامت عليها صحاح البراهين، و الآباء الذين اعتدّ بمضاء قضاتهم الدين، و طبّق مفاصل الحكم بسيوفهم الحقّ المبين، وازدان بمجالسة وزرائهم السلاطين، فمن فارس حكم أو حكيم تدبير، وقاض فى الأمور الشرعية و وزير، أو جامع بينهما جمع سلامة لا جمع تكسير، تعدّد ذلك و اطّرد، و وجد مشرع المجد عذبا فورد، و قصرت النظراء عن مداه فانفرد، و فرى الفرىّ فى يد الشرع فأشبه السيف البرد، و جاء فى أعقابهم محييا لما درس، بما حقّق و درس، جانيا لما بذر السلف المبارك و اغترس، طاهر النشأة وقورها، محمود السجية مشكورها، متحلّيا بالسكينة، حالّا من النزاهة بالمكانة المكينة، ساحبا أذيال الصّون، بعيدا عن الاتصاف بالفساد من لدن الكون، فخطبته الخطط العليّة، و اغتبطت به المجادة الأوّلية، و استعملته دولته التى ترتاد أهل الفضائل للرتب، و استظهرت على المناصب بأبناء التّقى و الحسب، و الفضل و المجد و الأدب، ممّن يجمع بين الطارف و التالد و الإرث و المكتسب، فكان معدودا من عدول قضاتها، و صدور نبهائها، و أعيان وزرائها، و أولى آرائها، فلمّا زان اللّه تعالى خلافته بالتمحيص المتحلى من التخصيص، و خلص ملكه الأصيل كالذهب الإبريز بعد التخليص، كان ممّن صحب ركابه الطالب للحقّ بسيف الحقّ، و سلك فى مظاهرته أوضح الطرق، و جادل من حادّه بأمضى من الحداد الذّلق، و اشتهر خبر وفائه فى الغرب و الشرق، و صلّى به صلاة السفر و الحضر، و الأمن و الحذر، و خطب به فى الأماكن التى بعد بذكر اللّه عهدها، و خاطب عنه- أيّده اللّه تعالى!- المخاطبات التى حمد قصدها، حتى استقلّ ملكه فوق سريره، و ابتهج منه الإسلام بأميره و ابن أميره، و نزل الستر على العباد و البلاد ببركة إيالته و يمن تدبيره، و كان الجليس المقرب المحلّ، و الحظىّ المشاور فى العقد و الحلّ، و الرسول المؤتمن على الأسرار، و الأمين على الوظائف الكبار، مزين المجلس السلطانى بالوقار، و متحف الملك بغريب الأخبار، و خطيب منبره العالى فى الجمعات، و قارىء الحديث لديه فى المجتمعات. ثم رأى، أيّده اللّه تعالى، أن يشرك رعيّته فى نفعه، و يصرف عوامل الحظوة على مزيد رفعه، و يجلسه مجلس الشارع صلوات اللّه عليه لإيضاح شرعه، و أصله الوثيق و فرعه، و قدمه أعلى اللّه تعالى قدمه، و شكر آلاءه و نعمه، قاضيا فى الأمور الشرعية، و فاصلا فى القضايا الدينية، بحضرة غرناطة العليّة، تقديم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۱۱

الاختيار و الانتقاء، و أبقى له فخر السلف على الخلف و اللّه سبحانه يمتعه بطول البقاء، فليتولّ ذلك عادلا فى الحكم، مهتديا بنور العلم، مسويا بين الخصوم حتى فى لحظه و التفاته، متّصفا من الحلم بأفضل صفاته، مهيبا فى الدين، رؤوفا بالمؤمنين. جزلا فى الأحكام، مجتهدا فى الفصل بأمضى حسام، مراقبا للّه، عزّوجلّ، فى النقض و الإبرام. و أوصاه بالمشورة التى تقدح زناد التوفيق، و التثبت حتى ينتج قياس التحقيق، بارّا بمشيخة أهل التوثيق، عادلا إلى سعة الأقوال عند المضيق، سائرا من مشورة المذهب على أهدى طريق، وصيّة أصدرها له مصدر الذكرى التى تنفع، و يعلى اللّه بها الدرجات و يرفع، و إلّا فهو عن الوصاة غنى، و قصده قصد سنى، و اللّه عزّوجلّ وليّ إعانته، و الحارس من التبعات أكناف ديانته، و الكفيل بحفظه من الشبهات و صيانته. و أمر أيّده اللّه تعالى أن ينظر فى الأحباس على اختلافها، و الأوقاف على شتى أصنافها، و اليتامى التى انسدلت كفالة القضاة على إضعافها، فيذود عنها طوارق الخلل، و يجرى أمورها بما يتكفّل لها بالأمل، و ليعلم أنّ اللّه عزّوجلّ يراه، و أنّ فلتات الحكم تعاوده المراجعة فى أخراه، فيدّرع جنّة تقواه، و سبحان من يقول: إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ. فعلى من يقف عليه أن يعرف أمر هذا الإجلال، صائنا منصبه من الإخلال، مبادرا أمره

الواجب بالامتثال، بحول اللّه، و كتب فى الثالث من شهر اللّه المحرم، فاتح عام أربعة و ستين و سبعمائة، عرف اللّه سبحانه فيه هذا المقام العلى عوارف النصر المبين و الفتح القريب بمنّه و كرمه فهو المستعان لا ربّ غيره»؛ انتهى.

[مرسوم من إنشاء لسان الدين أيضا بتولى ابن زمرک كتابة السر]

و نظير هذا ما أنشأه لسان الدين على لسان سلطانه للكاتب أبى عبد اللّه بن زمرک حين تولّى كتابة السّرّ، و نصّه: «هذا ظهير كريم نصب المعتمد به للأمانة الكبرى ببابه فرفعه، و أفرد له متلو العزّ و جمعه، و أوتره و شفعه، و قربه فى بساط الملك تقريبا فتح له باب السعادة و شرعه، و أعطاه لواء القلم الأعلى فوجب على من دون رتبته من أولى صنعته أن يتبعه، ورعى له وسيلة السابقة عند استخلاص الملک لما ابتزّه اللّه من يد الغاصب و انتزعه، و حسبک من زمام لا يحتاج إلى شىء معه، أمر به أمير المسلمين محمد للكذا الكذا فلان، وصل اللّه سعادته، و حرس مجادته، أطلع اللّه تعالى له وجه العناية أبهى من الصبح الوسيم، و أقطعه جناب الإنعام الجسيم، و أنشقه آراج الحظوة عاطرة النسيم، و نقله من كرسى التدريس و التعليم، إلى مرقى التنويه و التكريم، و الرتبة التى لا يلقّاها إلّا ذو حظّ عظيم، و جعل أقلامه جيادا لإجالة أمره العلى، و خطابه السنى، فى ميدان الأقاليم، و وضع فى يده أمانة القلم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۱۲

الأعلى، جاريا من الطريقة المثلى، على المنهج القويم، و اختصّه بمزية التفوّق على كتاب بابه و التقديم، لما كان ناهض الفكر فى طلبة حضرته زمن البداية، و لم تزل تظهر عليه لأولى التمييز مخايل هذه العناية، فإن حضر فى حلق العلم جلّى فى حلبة الحفاظ إلى الغاية، و إن نظم أو نثر أتى بالقصائد المصقولة، و المخاطبات المنقولة، فاشتهر فى بلده و غير بلده، و صارت أزمّة العناية طوع يده، بما أوجب له المزية فى يومه و غده. و حين ردّ اللّه عليه ملكه الذى جبر به جناح الإسلام، و زيّن وجوه الليالى و الأيام، و أدال الضياء من الظلام، كان ممّن وسمه الوفاء و شهره، و عجم الملک عود خلوصه و خبره، فحمد أثره، و شكر ظاهره و مضمره، و استصحب على ركابه الذى صحب اليمن سفره، و أخلصت الحقيقة نفره، و كفل اللّه ورده و صدره، ميمون النقيبة، حسن الضريبة، صادقا فى الأحوال المريبة، ناطقا عن مقامه بالمخاطبات العجيبة، واصلا إلى المعانى البعيدة بالعبارة القريبة، مبرزا فى الخدم الغريبة، حتى استقام العماد، و نطق بصدق الطاعة الحى و الجماد، و دخلت فى دين اللّه أفواجا العباد و البلاد، للّه الحمد على نعمه الثّرّة العهاد، و آلائه المتوالية الترداد، رعى له أيّده اللّه هذه الوسائل و هو أحقّ من يرعاها، و شكر له الخدم المشكور مسعاها، فنص عليه الرتبة الشمّاء التى خطبها بوفائه، و ألبسه أثواب اعتنائه، و فسح له مجال آلائه، و قدّمه، أعلى اللّه قدمه، كاتب السرّ، و أمين النهى و الأمر، تقديم الاختيار بعد الاختبار، و الاغتباط بخدمته الحسنة الآثار، و تيمّن باستخدامه قبل الحلول بدار الملک و الاستقرار، و غير ذلک من موجبات الإكبار. فليتولّ ذلک عارفا بمقداره، مقتفيا لآثاره، مستعينا بالكتم لأسراره، و الاضطلاع بما يحمد من أمانته و عفافه و وقاره، معطيا هذا الرسم حقّه من الرياسة، عارفا بأنه أكبر أركان السياسة، حتى يتأكّد الاغتباط بتقريبه و إدنائه، و تتوفّر أسباب الزيادة فى إعلائه، و هو إن شاء اللّه غنى عن الوصاة فهما ثاقبا يهتدى بضيائه، و هو يعمل فى ذلک أقصى العمل، المتكفّل ببلوغ الأمل. و على من يقف عليه من حملة الأقلام، و الكتّاب الأعلام، و غيرهم من الكافة و الخدّام، أن يعرفوا قدر هذه العناية الواضحة الأحكام، و التقديم الراسخ الأقدام، و يوجبوا ما أوجب من البرّ و الإكرام، و الإجلال و الإعظام، بحول اللّه. و كتب فى كذا». انتهى.

[مقارنة من المؤلف بين خلق لسان الدين و خلق القاضى النباهى و الكاتب ابن زمرک]

فانظر، صاننى اللّه و إياک من الأغيار، و كفانا شرّ من كفر الصنيعة التى هى على النقص

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۱۳

عنوان و معيار، إلى حال الوزير لسان الدين بن الخطيب مع هذين الرجلين، القاضى ابن الحسن و الوزير ابن زمرک اللذين تسبّبا فى

هلاكه حتى صار أثرا بعد عين، مع تنويهه بهما فى هذا الإنشاء و غيره، و تفيئهما- كما هو معلوم- ظلال خيره، فقابلاه بالغدر، و أظهرا عند الإمكان حقد القلب و غلّ الصدر، و سدّدا لقتله سهاما و قسيّا، و صيّرا سبيل الوفاء نسيّا منسيّا، و لا حول و لا قوة إلّا بالله.

و من إنشاء لسان الدين فى حقّ القاضى ابن الحسن أيضا- حين أضيفت إليه الخطابة إلى القضاء- على لسان سلطانه:

«هذا ظهير كريم أعلى رتبة الاحتفاء اختيارا و اختبارا، و أظهر معانى الكرامة و التخصيص انتقاء و اصطفاء و إيثارا، و رفع لواء الجلالة على من اشتمل عليه حقيقة و اعتبارا، ورقى فى درجات العزّ من طاولها على بهر أنوارا، و دينا كرم فى الصالحات آثارا، و زكا فى الأصالة نجارا، و خلوصا إلى هذا المقام العلى السعيد الذى راق إظهارا و إضمارا، أمر به و أمضاه، و أنفذ حكمه و مقتضاه، أمير المسلمين عبد اللّه محمد، إلى آخره، للشيخ الكذا القاضى العدل الأرضى قاضى الجماعة، و خطيب الحضرة العلية، المخصوص لدى المقام العلى بالحظوة السنيّة، و المكانة الحفيّة، الموقر الفاضل، الحافل الكامل، المبرور أبى الحسن، ابن الشيخ الفقيه الوزير الأجلّ، الأعزّ الماجد الأسنى المرفع الأحفل، الأصلح المبارك الأكمل، الموقّر المبرور المرحوم أبى محمد بن الحسن،- وصل اللّه عزّته! و والى رفعته و مبرّته! و وهب له من صلة العناية الربانية أمله و بغيته!- لما أصبح فى صدور القضاة العلماء مشارا إلى جلاله، مستندا إلى معرفته المخصوصة بكماله، مطرزا على الإفادة العلمية و الأدبية بمحاسنه البديعة و خصاله، محفوفا معقد الحكم النبوى ببركة عدالته و فضل خلاله، و حل فى هذه الحضرة العليّة المحلّ الذى لا يرقاه إلّا عين الأعيان، و لا يثوى مهاده إلّا مثله من أبناء المجد الثابت الأركان، و موئل العلم الواضح البرهان، و المبرزين بالمآثر العلية فى الحسن و الإحسان، و تصدر لقضاء الجماعة فصدرت عنه الأحكام الراجحة الميزان، و الأنظار الحسنة الأثر و العيان، و المقاصد التى وفت بالغاية التى لا تستطاع فى هذا الميدان- فكم من قضية جلا بمعارفه مشكلها، و نازلة مبهمة فتح بإدراكه مقفلها، و مسألة عرف نكرتها و قرّر مهملها، حتى قرّت بعدالته و جزالته العيون، و صدقت فيه الآمال الناجحة و الظنون، و كان فى تصديره لهذه الولاية العظمى من الخير و الخيرة ما عسى أن يكون، كان أحقّ بالتشفيع لولاياته

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۱۴

و أولى، و أجدر بمضاعفة النعم التى لا تزال تترادف على قدره الأعلى، فلذلك أصدر له أيّده اللّه هذا الظهير الكريم مشيدا بالترفيع و التنويه، و مؤكدا للاحتفاء الوجيه، و قدّمه، أعلى اللّه قدمه، و شكر نعمه! خطيبا بالجامع الأعظم من حضرته، مضافا ذلك إلى ولايته و رفيع منزلته، مرافقا لمن بالجامع الأعظم- عمره اللّه بذكره- من عليّة الخطباء، و كبار العلماء، و خيار النبهاء الصلحاء. فليتداول ذلك فى جمعاته، مظهرا فى الخطة أثر بركاته و حسناته، عاملا على ما يقرّبه عند اللّه من مرضاته، و يظفره بجزيل مثوباته، بحول اللّه و قوّته». انتهى.

[مرسوم من إنشاء لسان الدين أيضا بتولى القاضى النباهى الخطابة مع القضاء]

فهذا ثناء لسان الدين المرحوم على القاضى ابن الحسن، و إشادته بذكره، و بإشارته و تدبيره ولى قضاء القضاة و خطابة الجامع الأعظم بغرناطة، و هذان المنصبان لم يكن فى الأندلس فى ذلك الزمان من المناصب الدينية أجلّ منهما. و لمّا حصل للسان الدين، رحمه اللّه تعالى، ما حصل من النفرة عن الأندلس، و إعمال الحيلة فى الانفصال عنها؛ لعلمه أنّ سعايات ابن زمرك و ابن الحسن و من يعضدهما تمكّنت فيه عند سلطانه، خلص منها على الوجه الذى قدّمناه، و شمّر القاضى ابن الحسن عن ساعد إذايته، و التسجيل عليه بما يوجب الزندقة، كما سبق جميعه مفصّلا، فحينئذ أطلق لسان الدين عنان قلمه فى سبّ المذكور و ثلبه، و أورد فى كتابه «الكتيبة الكامنة، فى أبناء المائة الثامنة» من مثالبه ما أنسى ما سطّره صاحب القلائد فى ابن باجة المعروف بابن الصائغ- حسبما نقلنا ذلك، أعنى كلام الفتح، فى غير هذا الموضع- و لم يقتنع بذلك حتى ألّف الكتاب الذى سماه ب «خلع الرّسن» كما ألمعنا به فيما سبق، و

اللّه سبحانه يتجاوز عن الجميع بمنّه و كرمه!.

[من هجو لسان الدين فى الوزير إبراهيم بن أبى الفتح الأصلع الغوى و فى ابن عمه محمد بن إبراهيم العقرب الردى]

و اعلم أنّ للسان الدين بن الخطيب، رحمه اللّه تعالى، الغاية فى المدح و القدح، فتارة على طريق الترسّل، و طورا على غيرها، و قد أقذع و بالغ رحمه اللّه تعالى فى هجو أعدائه بما لا تحتمله الجبال، و هو أشدّ من وقع النبال، و منه ما وصف به الوزير، الذى كان استوزره السلطان إسماعيل بن الأحمر الثائر على سلطان ابن الخطيب، حسبما سبق الإلمام بذلك، و الوزير هو إبراهيم بن أبى الفتح الأصلع الغوى، إذ قال فى المذكور و فى ابن عمّه محمد بن إبراهيم بن أبى الفتح العقرب الردى، بعد كلام، ما صورته: «و ما ظنك برجل مجهول الجدّ، موصوم الأبوّة؟ إلى أن قال: تنور خبز، و بركة مرقة، و ثعبان حلواء، و فاكهة مغى فى شح النفس، متهالك فى مسترذل الطبع عليه العذيوط الغبى ابن عمّه بسذاجة، زعموا، مع كونه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۱۵

قبيح الشكل، بشيع الطلعة، إلى أن قال: و فى العشر الأول من رمضان عام واحد و ستين و سبعمائة تقبّض على الوزير المشؤوم، و ابن عمّه الغوى الغشوم، و ولد الغوى مرسل الظفيرة أبعد الناس فى مهوى الاغترار يختال فى السّرق و الحلية، سم من سم القوارير، و ابتلاء من اللّه لذوى الغيرة، يروح نشوان العشيات، يرقص بين يديه و من خلفه عدد من الأخلاف، يعاقرون النبيذ فى السكك الغاصّة، و ولد العقرب الردى بضده قماءة و تقطّبا، تنبو عنهما العيون، و يبكى منهما الخز، كأنهما صمتا عند المحاورة و أظلما عند اللألاء، من أذلاء بنى النضير، و مهتضمى خيبر، فثقفا مليّا، و بودر بهما إلى ساحل المنكّب. قال المخبر: فما رأيت منكوبين أقبح شكلا، و لا أفقد صبرا، من ذينك التيسين الحبقين، صلع الرءوس، ضخام الكروش، مبهورى الأنفاس، متلجلجى الألسنة، قد ربت بمحل السيف من عنق كل جبّار منهما شحمة أترجية كأنها سنام الحوار، لا يثيرون دمعا، و لا يستنزلون رحمة، و لا يمهدون عذرا، و لا يتزوّدون من كتاب اللّه آية، قد طبع اللّه على قلوبهم، و أخذهم ببغيهم، و عجل لهم سوء سعيهم. و للحين أركبوهم و جراءهم - يعنى أولادهم- فى جفن غزوى تحفّ بهم المساعير من الرجال، و اقتفى بهم أثر قرقورة تحمل حاجا إلى الإسكندرية توريّة بالقصد، فلمّا لججوا قذف بهم فى لجّة بعد استخلاص ما ضبثوا به، و تلكأ الأصلع الغوى فأثبت بجراحة أشعر بها هديه، و اختلط العقرب الردى فنال من جناب اللّه سخطا و ضيقا، تعالى اللّه عن نكيره، فكان فرعون هذا الزمان جبروتا و عتوّا و ميتة، عجّل اللّه لهم العذاب، و أغرقهم فى اليم. فانظر كيف كان عاقبة الظالمين، فسبحان من لا تضيع الحقوق مع عدله، و لا تنفسخ الآماد مع منازعة رداء كبريائه، مرغم الأنوف، و قاطع دابر الكافرين، و فى ذلك أقول مستريحا، و إن لم يكن- علم اللّه تعالى- شأنى، و لا تكرّر فى ديوانى: [الطويل]

و ما كنت ممّن يدخل العشق قلبه و لكنّ من يبصر جفونك يعشق

و من أمثالهم «من استغضب فلم يغضب فهو حمار» و اللّه سبحانه يقول و من أصدق من اللّه قيلا وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها [الشورى: ۴۰] و العفو أقرب للتقوى، و القرب و البعد بيده

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۱۶

سبحانه. و صدرت هذه الكلمة لحين تعرّف إجلائهم فى الجفن إلى الإسكندرية، و بعد ذلك صحّ هلاكهم: [المنسرح]

كن من صروف الردى على حذر لا يقبل الدهر عذر معتذر

و لا تعوّل فيه على دعة فأنت فى قلعة و فى سفر

فكلّ ريّ يفضى إلى ظمإ و كلّ أمن يدعو إلى غرر

كم شامخ الأنف ينثنى فرحا بال عليه زمانه و خرى

قل للوزير البليد قد ركضت فى ربعك اليوم غارة الغير

يا ابن أبى الفتح نسبة عكست فلا بفتح أتت و لا ظفر

وزارة لم يجد مقلّدها عن شؤمها فى الوجود من وزر

فى طالع النحس حزت رتبتها و كلّ شىء فى قبضة القدر

أىّ اختبار لم نبال نصبته فى جسد للنحوس أو نظر

بات له المشترى على غير و أحرقت فيه قرصة القمر

يا طللا ما عليه من عمل يا شجرا ما لديه من ثمر

يا مفرط الجهل و الغباوة لا يحسب إلّا من جملة البقر

يا دائم الحقد و الفظاظة لا يفرق ما بين ظالم و برى

يا كمد اللون ينطفى كمدا من حسد يستطير بالشّرر

يا عدل سرج يا دنّ مقتعد ملآن من ريبة و من قذر

يا واصلا للجشاء ناشئة اللى ل و ربّ الضّراط فى السّحر

من غير لبّ و لا مراقبة للّه فى مورد و لا صدر

يا خاملا جاهه الفروج يرى صهر أولى الجاه فخر مفتخر

كانوا نبيطا فى الأصل أو حبشا ما عنده عبرة بمعتبر

يا ناقص الدين و المروءة و العق ل و مجرى اللسان بالهذر

يا ولد السّحق غير مكتتم حديثه، يا ابن فاسد الدبر

يا بغل طاحونة يدور بها مجتهد السير مغمض البصر

فى أشهر عشرة طحنتهم فيا رحى الشؤم و البوار در

و اللّه ما كنت يا مشوم و لا أنت سوى عرّة من العرر

و من أبو الفتح فى الكلاب وهل لجاهل فى الأنام من خطر

قد ستر الدهر منك عورته و كان لليوم غير مستتر

حانوت بزّ يمشى على فرش و ثور عرس يختال فى حبر

لا منّة تتّقى لمعترك و لا لسان يبين عن خبر

و لا يد تنتمى إلى كرم و لا صفاء يريح من كدر

عهدى بذاك الجبين قد ملئت غضونه الغبر بالدم الهدر

عهدى بذاك القفا الغليظ و قد مد لوقع المهند الذكر

أهدتك للبحر كفّ منتقم ألقتك للحوت كفّ مقتدر

يا يتم أولادك الصغار و يا حيرتهم بعد ذاك فى الكبر

يا ثكل تلك الصماء أمهم و ظاعن الموت غير منتظر

و اللّه لا نال من تخلّفه من أمل بعدها و لا وطر

و اللّه لا سخفان لا انتقلت رجلك منها إلّا إلى سقر

ألحفك اللّه بالهوان و لا رعاك فيمن تركت من عرر

ما عوقب الليل بالصباح و ما تقدّم البرق عارض المطر

انتهى. و قال مورّيا بدم الأخوين، فى شأن سلطان تلك الدولة الذى أضحى أثرا بعد عين: [الوافر]

بإسماعيل ثم أخيه قيس تأذّن ليل همّى بانبلاج

دم الأخوين داوى جرح قلبى و عالجنى، و حسبك من علاج

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۱۸

و هذه تورية بديعة؛ لأنّ الأطباء يقولون: إنّ من خاصية دم الأخوين النفع من الجراح.

[من هجوه فى قاض من قضاة دولة السلطان إسماعيل بن الأحمر]

و قال رحمه اللّه تعالى: قلت فى رأس الغادر بالدولة حين عرض علىّ: [السريع]

فى غير حفظ اللّه من هامة هام بها الشيطان فى كلّ واد

ما تركت حمدا و لا رحمة فى فم إنسان و لا فى فؤاد

و قال أيضا فى تلك الدولة بعد كلام، ما نصّه: «و انتدب قاضيهم الشيخ المتراخى الدين و الفكّ المنحل العصب و العقدة، المعرق فى العمومية، المشهور بقبول الرشوة، أبو فلان بن فلان، الغريب الاسم و الولاية، و مفتيهم معدن الرياء و الهوادة، و البعد عن التخصّص و الحشمة، و المثل فى العماء، و الطرف فى التهالك على الحطام، فلان البنّاء، المسخر فى بناء الحفيرة، المستخدم فى دار ابنه أجيرا، مختضبا بالطين، مضايقا فى رمق العيشة، و حبسك به دليلا على الحياء و فضل البنوّة، فلفقوا من خيوط العناكب شبهات تقلّدوا بها حلّ العقد الموثق، ديدنهم فى معارضة صلب الملّة بالآراء الخبيثة، يتحكّم الوقاح منهم فى الحكم الذى نزل به شديد القوى على الذى لا ينطق عن الهوى، بحسب شهوته، تحكمه فى غزل أمه إيثارا للعاجل، و استرابة بالوعيد، ففسخوا النكاح، و حللوا محرم البضع للدائل، و قد تأذن اللّه بفسخه، و أجرى دمه نقدا قبل دفع فقده، سبحانه حكم الحكام، و قاهر الظّلّام، و باء مشيخة السوء بلعنة اللّه و سوء الأحدوثة، و من يلعن اللّه فلن تجد له نصيرا»؛ انتهى.

[من هجوه فى وزير المغرب محمد بن على بن مسعود]

و من كلامه فى «نفاضة الجراب»، و قد ذكر وزير المغرب محمد بن على بن مسعود ما ملخّصه: «و أنه مجنون، أحول العين، وحش النظرة، يظنّ به الغضب فى حال الرضا، يهيج به المرار فيكمن زمانا خلف كلّة مرقده، يدخل إليه وعاء الحاجتين خوفا من إصحاره إلى فضاء منزله، و توحّشه من أهله و ولده، إلى أن تضعف سورة المرّة فيخفّ أمره، قد باين زوجه مع انسحاب رواق الشبيبة، و توفّر داعية الغبطة، لحلف جرّه الوسواس السوداوى، نستدفع بالله شرّ بلائه. فاستعان مستوزره منه برأى الفضل بن سهل و يحيى بن خالد و أمثالهما، تداركك اللّه رمق الإسلام بلطفه»! انتهى.

[كتاب عتاب من لسان الدين بعث به إلى قاضى مكناسة الزيتون و قد تأخر عن لقائه يوم قدومه عليهم]

و لمّا دخل لسان الدين رحمه اللّه تعالى مدينة مكناسة الزيتون تأخّر قاضيها الشيخ الفقيه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۱۹

أبو عبد اللّه محمد بن على بن أبى رمانة عن لقائه يوم وصوله، فكتب إليه بما نصّه: [الطويل]

جفا ابن أبى رمّانة وجه مقدمى و نكّب عنّى معرضا و تحامانى

و حجّب عنى حبّه غير جاهل بأنى ضعيف و المبرّة من شانى

و لكن رآنى مغربيّا محققا و أنّ طعامى لم يكن حبّ رمّان

زيارة القاضى أصلحه اللّه لمثلى ممّن لا- يخافه و لا يرجوه، تجب من وجوه: أولها كونى ضيفا، ممّن لا يعدّ على الاختبار زيفا، و لا تجرّ مؤانسته حيفا، فضلا عن أن تشرع رمحا أو تسلّ سيفا، و ثانيها أنى أمتّ إليه من الطلب بنسب، بين موروث و مكتسب، و قاعدة الفضل قد قرّرها الحقّ و أصّلها، و الرحم كما علم تدعو لمن وصلها، و ثالثها المبدأ فى هذا الغرض، و لكن الواو لا ترتب إلّا بالعرض، و هو اقتفاء سنن المولى أيّده اللّه فى تأنيسى، و وصفه إياى بمقربى و جليسى، و رابعها- و هو عدّة كيسى، و هزبر خيسى، و قافية تجنيسى، و مقام تلوينى و تلبيسى- مودة رئيس هذا الصنف العلمى و رئيسى، فليت شعرى ما الذى عارض هذه الأصول الأربعة، و رجح مذاهبها المتّبعة، إلّا أن يكون عمل أهل المدينة ينافيها، فهذا بحسب النفس و يكفيها، و إن تعذر لقاء أو استدعاء، و عدم طعام أو وعاء، و لم يقع نكاح و لا استرعاء، فلم يتعذّر عذر يقتضيه الكرم، و المنصب المحترم، فالجلّة إلى التماس الحمد ذات استباق، و العرف بين اللّه و الناس باق، و الغيرة على لسان مثله مفروضة، و الأعمال معروضة، و اللّه لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة، و إن كان لدى القاضى فى ذلك عذر فليفده، و أولى الأعذار به أنه لم يقصده، و السلام»؛ انتهى.

و يعنى بالمولى السلطان أبا سالم ابن السلطان أبى الحسن المرينى، و برئيس هذا الصنف العلامة الخطيب أبا عبد اللّه بن مرزوق، رحم اللّه الجميع!.

[رسالة للسان الدين فى أحوال خدمة الدولة، و مصايرهم، و ما يجب عليهم، و كتب بها إلى ابن مرزوق]

و من كلام لسان الدين- رحمه اللّه تعالى!- رسالة فى أحوال خدمة الدولة و مصائرهم، و تنبيههم على النظر فى عواقب الرياسة بعيون بصائرهم، عبر فيها عن ذوق و وجدان، و ليس الخبر كالعيان، و خاطب بها الإمام الخطيب عين الأعيان، سيدى أنا عبد اللّه بن مرزوق،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۲۰

و كأنه- أعنى لسان الدين- أشار ببعض فصولها إلى نفسه، و نطق بالغيب فى نكبته التى قادته إلى رمسه، و كان ذلك منه عند ما أراد التخلّى عن خدمة الملوك، و التحلى بزينة أهل التصوّف و السلوك، فلم يرد اللّه أن تكون مهجته نائية عن ساحة الظلمة خارجة، و أراد سامحه اللّه و غفر له عمرا و أراد اللّه خارجة، و صورة ما قال رحمه اللّه تعالى:

«و أحسست منه- يعنى ابن مرزوق- فى بعض كتبه الواردة إلىّ صاغية إلى الدنيا و حنينا لما بلاه من غرورها، فحملنى الطور الذى ارتكبته فى هذه الأيام، بتوفيق اللّه، على أن أخاطبه بهذه الرسالة، و حقّها أن يجعلها خدمة الملوك ممّن ينسب إلى نبل، و يلمّ بمعرفة، مصحفا يدرسه، و شعارا يلتزمه، و هى: سيدى الذى يده البيضاء لم تذهب بشهرتها المكافات، و لم تختلف فى مدحها الأفعال و لا تغايرت الصفات، و لا- تزال تعترف بها العظام الرّفات، أطلقك اللّه من أسر كلّ الكون كما أطلقك من أسر بعضه، و زهّدك فى سمائه الفانية و فى أرضه، و حقر الحظّ فى عين بصيرتك بما يحملك على رفضه، اتصل بى الخبر السارّ من تركك لشأنك، و إجناء اللّه تعالى إياك ثمرة إحسانك، و انجياب ظلام الشدّة الحالك، عن أفق حالك، فكبرت، و فى الفرج من بعد الشدّة اعتبرت، لا بسوى ذلك من رضا مخلوق يؤمر فيأتمر، و يدعوه القضاء فيبتدر، إنما هو فىء، و ظلّ ليس له من الأمر شىء، و نسأل اللّه جلّ و علا أن يجعلها آخر عهدك بالدنيا و بنيها، و أول معارج نفسك التى تقربها من الحقّ و تدنيها، و كأنى و اللّه أحسّ بثقل هذه الدعوة على سمعك، و مضادتها و لا حول و لا قوة إلّا بالله لطبعك، و أنا أنافرك إلى العقل الذى هو قسطاس اللّه تعالى فى عالم الإنسان، و الآلة لبثّ العدل و الإحسان، و الملك الذى يبين عنه ترجمان اللسان، فأقول: ليت شعرى ما الذى غبط سيدى بالدنيا، و إن بلغ من زبرجدها الرتبة العليا، و نفرض المثال بحال إقبالها، و وصل حبالها، و خشوع جبالها، و ضراعة سبالها، التوقّع المكروه صباحا و مساء، و ارتقاب الحوالة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۲۱

التى تـديل من النعيم البأساء، و لزوم المنافسة التى تعادى الأشـراف و الرؤساء؟ أ لترتّب العتب على التقصـير فى الكتب، و ضـغينة جار الجنـب، و ولـوع الصـديق بإحصـاء الـذنب؟ أ لنسـبة وقـائع الدولـة إليـك و أنـت برىء، و تطويقـك الموبقـات و أنـت منهـا عرى؟ أ لاسـتهدافك للمضار التى تنتجها غيرة الفروج، و الأحقاد التى تضـبطها ركبة السروج، و سرحة المروج، و نجوم السماء ذات البروج؟ أ لتقليدك التقصـير فيما ضاقت عنه طاقتك، و صـحت إليه فاقتك، من حاجة لا يقتضـى قضاءها الوجود، و لا يكفيها الركوع للملك و السـجود؟ أ لقطع الزمان بين سـلطان يعبد، و سهام للغيوب تكبد، و عجاجة شرّ تلبّد، و أقبوحة تخلّد و تؤبّد؟ ألوزير يصانع و يدارى، و ذى حجّـة صـحيحة يجـادل فى مرضـاة السـلطان و يمـارى، و عـورة لاـ توارى؟ أ لمبـاكرة كـلّ قرن حاسـد، و عـدوّ مستأسد، و سوق للإنصاف و الشـفقة كاسـد، و حال فاسـد؟ ألوفود تتزاحم بسـدّتك مكلفـة لك غير ما فى طوقك، فإن لم يقع الإسـعاف قلبت عليك السـماء من فوقك؟ أ لجلساء ببابك، لا يقطعون زمان رجوعك و إيابك؟ إلّا بقبيح اغتيابك، فالتصـرّفات تمقت، و القواطع توقت، و الألاقى تبثّ، و السـعايات تحثّ، و المساجـد يشـتكى فى حلقها البثّ، يعتقدون أنّ السـلطان فى يدك بمنزلة الحمار المدبور، و اليتيم المحجور، و الأسير المأمور، ليس له شهوة و لا غضب، و لا أمل فى الملك و لا أرب، و لا موجدة لأحد كامنة، و للشرّ ضامنة، و ليس فى نفسه عن رأى نفرة، و لا بإزاء ما لا يقبله نزوة و لا طفرة، إنما هو جارحـة لصـيدك، و عان فى قيـدك، و آلـة لتصـرف كيدك، و أنك علّة حيفه، و مسلّط سـيفه: الشّـرار يسـملون عيون الناس باسـمك، ثم يمزقون بالغيبة مزق جسمك، قد تنخّلهم الوجود أخبث ما فيه، و اختـارهم السـفيه فالسـفيه، إذ الخير يستره اللّه تعـالى عن الـدول و يخفيه، و يقنعه بالقليـل فيكفيه، فهم يمتاحون بك و يولونك الملامـة، و يفتحون عليـك القول و يسـدّون طرق السـلامة، و ليس لـك فى أثنـاء هـذه إلّـا ما لا يعوزك مع ارتفاعه، و لا يفوتك مع انقشاعه، و ذهاب صداعه، من غذاء يشبع، وثوب يقنع، و فراش ينيم، و خديم يقعد و يقيم، و ما الفائدة فى فرش تحتها جمر الغضا، و مال من ورائه سوء القضا، و جاه يحلق عليه سيف منتضى؟ و إذا بلغت النفس إلى الالتذاذ بما لا تملك، و اللجاج حول المسقط الذى تعلم أنها فيه تهلك، فكيف تنسب إلى نبل، أو تسير من السـعادة فى سبل؟ و إن وجدت فى الجلوس بمجلس التحية، بعض الأريحية، فليت شعرى أى شىء زادها، أو معنى أفادها؟ إلّا مباكرة وجه الحاسد، و ذى القلب الفاسد، و مواجهة العدوّ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۲۲

المسـتأسد، أو شعرت ببعض الإيناس، فى الركوب بين الناس، ما التذّت إلّا بحلم كاذب، أو جذبها غير الغرور جاذب، إنما راكبك من يحـدّق إلى الحليـة و البزّة، و يسـتطيل مدة العزّة، و يرتاب إذا حدثت بخبرك، و يتتبع بالنقد و التجسّـس مواقع نظرك، و يمنعك من مسايرة أنيسك، و يحتال على فراغ كيسك، و يضمر الشرّ لك و لرئيسك، و أى راحة لمن لا يباشر قصده، و يمشى إذا شاء وحده؟

«و لو صـحّ فى هـذه الحال للّه تعالى حظّ وهبه زهيدا، أو عين الرشد عملا حميدا، لساغ الصّاب، و خفّت الأوصاب، و سـهل المصاب، لكن الوقت أشـغل، و الفكر أوغل، و الزمن قـد عمرته الحصـص الوهمية، و اسـتنفدت منه الكمية، أما ليله ففكر أو نوم، و عتب بحراء الضـرائر و لوم، و أمّـا يومه فتـدبير، و قبيـل و دبير، و أمور يعيـا بهـا ثبير، و بلاء مبير، و لغط لا يـدخل فيه حكم كبير، و أنا بمثل ذلك خبير، و اللّه يا سـيدى و من فلق الحبّ، و أخرج الأبّ، و ذرأ من مشـى و من دبّ، و سـمّى نفسه الربّ، لو تعلّق المال الـذى يجرّه هذا القدح، و يورى سـقيطه هذا القدح، بأذيال الكواكب، و زاحمت البدر بدره بالمناكب، لما ورثه عقب، و لا خلص به محتقب، و لا فاز به سافر و لا منتقب، و الشاهـد الـدول، و المشائيم الأول: فأين الرباع المقتناة؟ و أين الـديار المبتناة؟ و أين الحوائط المغترسات؟ و أين الـذخائر المختلسـات؟ و أين الودائع المؤمّلـة؟ و أين الأمانـات المحمّلـة؟ تـأذّن اللّه بتتبيرهـا، و إدنـاء نار التّبار من دنانيرها، فقلّما تلقى أعقـابهم إلّـا أعراء الظهور، مترمقين لجريـات الشـهور، متعلّلين بالهبـاء المنثور، يطردون من الأبـواب التى حجب عنها آباؤهم، و عرف منهـا إبـاؤهم، وشم من مقاصـيرها عنبرهم و كبـاؤهم، و لم تسـامحهم الأيام إلّا فى إرث محرّر، أو حلال مقرّر، و ربما محقه الحرام، و تعـذّر منه المرام. هـذه- أعزّك اللّه!- حال قبولها مع الترفيه، و مالها المرغوب فيه، و على فرض أن يسـتوفى العمر فى العزّ مسـتوفيه، و أمّا ضدّه من عدوّ يتحكّم و ينتقم،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۲۳

و حوت بغى يبتلع و يلتقم، و مطبق يحجب الهواء، و يطيل فى التراب الثّواء، و ثعبان قيد يعضّ الساق، و شؤبوب عذاب يمزق الأبشار الرّقاق، و غيلة يهديها الواقب الغاسق، و يجرعها العدوّ الفاسق، فصرف السوق، و سلعته المعتادة الطروق، مع الأفول و الشروق، فهل فى شىء من هذا مغتبط لنفس حرّة، أو ما يساوى جرعة حال مرّة؟ وا حسرتا للأحلام ضلّت، و للأقدام زلّت، و يا لها مصيبة جلّت. و لسيدى أن يقول: حكمت باستثقال الموعظة و استجفائها، و مراودة الدنيا بين خلّانها و أكفائها، و تناسى عدم وفائها، فأقول: الطبيب بالعلل أدرى، و الشفيق بسوء الظنّ مغرى، و كيف لا و أنا أقف على السحاءات بخطّ يد سيدى من مطارح الاعتقال، و مثاقف النّوب الثقال، و خطوات الاستعداد، للقاء الخطوب الشداد، و نوش الأسنّة الحداد، و حيث يجمل بمثله أن لا يصرف فى غير الخضوع للّه تعالى بنانا، و لا يثنى لمخلوق عنانا، و أتعرّف أنها قد ملأت الجوّ و الدوّ، و قصدت الجماد و البوّ، تقتحم أكفّ أولى الشّمات، و حفظة المذمّات، و أعوان النّوب الملمّات، زيادة فى الشقاء، و قصدا بريّا من الاختيار و الانتقاء، مشتملة من التجاوز على أغرب من العنقاء، و من النفاق على أشهر من البلقاء، فهذا يوصف بالإمامة، و هذا يجعل من أهل الكرامة، و هذا يكلف الدعاء و ليس من أهله، و هذا يطلب منه لقاء الصالحين و ليسوا من شكله، إلى ما أحفظنى و اللّه من البحث عن السموم، و كتب النجوم، و المذموم من العلوم، هلّا كان من ينظر فى ذلك قد قوطع بتاتا، و أعتقد أنّ اللّه قد جعل لزمان الخير و الشرّ ميقاتا، و أنّا لا نملك موتا و لا نشورا و لا حياة، و أنّ اللوح قد حصر الأشياء محوا و إثباتا، فكيف نرجو لما منع منالا أو نستطيع ممّا قدر إفلاتا؟

أفيدونا ما يرجح العقيدة المتقرّرة فنتحوّل إليه، و بينوا لنا الحقّ نعوّل عليه. اللّه اللّه يا سيدى فى النفس المرشحة، و الذات المحلاة بالفضائل الموشّحة، و السلف الشهير الخير، و العمر المشرف على الرحلة بعد حثّ السير؛ ودع الدنيا لبنيها فما أوكس حظوظهم! و أخسّ لحوظهم! و أقلّ متاعهم! و أعجل إسراعهم! و أكثر عناءهم! و أقصر آناءهم! [مجزوء الكامل]

ما ثمّ إلّا ما رأى ت و ربّما، تعيى السلامه

و الناس إمّا جائر أو حائر يشكو ظلامه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۲۴

و إذا أردت العزّ لا ترزأ بنى الدنيا قلامه

و اللّه ما احتقب الحرى ص سوى الذنوب أو الملامه

هل ثمّ شكّ فى المعا د الحقّ أو يوم القيامه

قولوا لنا ما عندكم أهل الخطابة و الإمامه

«و إن رميت بأحجارى، و أوجرت المرّ من أشجارى، فو اللّه ما تلبست اليوم منها بشىء قديم و لا حديث، و لا استأثرت بطيّب فضلا عن خبيث، و ما أنا إلّا عابر سبيل، و هاجر مرعى وبيل، و مرتقب وعدا قدر فيه الإنجاز، و عاكف على حقيقة لا تعرف المجاز، قد فررت من الدنيا كما يفرّ من الأسد، و حاولت المقاطعة حتى بين روحى و الجسد، و غسل اللّه قلبى، و للّه الحمد، من الطمع و الحسد، فلم أبق عادة إلّا قطعتها، و لا جنّة للصبر إلّا ادّرعتها، أما اللباس فالصوف، و أما الزهد فيما بأيدى الخلق فمعروف، و أمّا المال الغبيط فعلى الصدقة مصروف، و و اللّه لو علمت أنّ حالى هذه تتصل، و أن عراها لا تنفصل، و أن ترتيبى هذا يدوم، و لا يحيرنى الوعد المحتوم، و الوقت المعلوم، لمتّ أسفا، و حسبى اللّه و كفى. و مع هذا يا سيدى فالموعظة تتلقّى من لسان الوجود، و الحكمة ضالة المؤمن يطلبها ببذل المجهود، و يأخذها من غير اعتبار بمحلّها المذموم و لا المحمود. و لقد أعملت نظرى فيما يكافىء عنى بعض يدك، أو ينتهى فى الفضل إلى أمدك، فلم أر لك الدنيا كفاء هذا لو كنت صاحب دنيا، و ألفيت بذل النفس قليلا لك من غير شرط و لا ثنيا، فلمّا ألهمنى اللّه لمخاطبتك بهذه النصيحة المفرغة فى قالب الجفا، لمن يثبت عين الصفا، و لا يشيم بارقه الوفا، و لا يعرف قاذورة الدنيا معرفة مثلى من المتدنّسين بها المنهمكين، و ينظروا عوّارها القارح بعين اليقين، و يعلم أنها المومسة التى حسنها

زور، و عاشقها مغرور، و سرورها شرور، تبين لى أننى قد كافأت صنيعتك المتقدمة، و خرجت عن عهدتك الملتزمة، و أمحضت لك النصح الذى يعزّ بعز اللّه ذاتك، و يطيب حياتك، و يحيى مواتك، و يريح جوارحك من الوصب،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۲۵

و قلبك من النّصب، و يحقر الدنيا و أهلها فى عينك إذا اغتبرت، و يلاشى عظائمها لديك إذا اختبرت. كلّ من تقع عينك عليه فهو حقير قليل، و فقير ذليل، لا يفضلك بشىء إلّا باقتفاء رشد أو ترك غى، أثوابه النبيهة يجرّدها الغاسل، و عروة عزّه يقصلها القاصل، و ماله الحاضر الحاصل، يعبث فيه الحسام الفاصل، و اللّه ما تعين للخلف إلّا ما تعين للسلف، و لا مصير المجموع إلّا إلى التلف، و لا صحّ من الهياط و المياط، و الصياح و العياط، و جمع القيراط إلى القيراط، و الاستظهار بالوزعة و الأشراط، و الخبط و الخباط، و الاستكثار و الاغتباط، و الغلو و الإشطاط، و بناء الصّرح و عمل السّاباط، و رفع العمد و إدارة الفسطاط، إلّا أمل يذهب القوّة، و ينسى الآمال المرجوّة، ثم نفس يصعد، و سكرات تتردّد، و حسرات لفراق الدنيا تتجدّد، و لسان يثقل، و عين تبصر الفراق و تمقل قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ [ص:

۶۷، ۶۸] ثم القبر و ما بعده، و اللّه منجز وعيده و وعده، فالإضراب الإضراب، و التراب التراب.

و إن اعتذر سيدى بقلّة الجلد، لكثرة الولد، فهو ابن مرزوق لا ابن رزاق، و بيده من التسبّب ما يتكفّل بإمساك الأرماق، أين النّسخ الذى يتبلغ الإنسان بأجرته، فى كن حجرته؟ لا بل السؤال الذى لا عار عند الحاجة بمعرته. السؤال و اللّه أقوم طريقا، و أكرم رفيقا، من يد تمتدّ إلى حرام، لا يقوم بمرام، و لا يؤمن من ضرام، أحرقت فيه الحلل، و قلبت الأديان و الملل، و ضربت الأبشار، و نحرت العشار، و لم يصل منه على يدى واسطة السوء المعشار، ثم طلب عند الشدّة ففضح، و بان شؤمه و وضح، اللهمّ طهّر منها أيدينا و قلوبنا، و بلّغنا من الانصراف إليك مطلوبنا و عرّفنا بمن لا يعرف غيرك، و لا يسترفد إلّا خيرك، يا اللّه.

«و حقيق على الفضلاء إن جنح سيدى منها إلى إشارة، أو أعمل فى اجتلابها إضبارة، أو لبس منها شارة، أو تشوّف لخدمة إمارة، أن لا يحسنوا ظنونهم بعدها بابن ناس، و لا يغتروا بسمة و لا خلق و لا لباس، فما عدا عمّا بدا؟ تقضّى العمر فى سجن و قيد، و عمرو و زيد، و ضرّ و كيد، و طراد صيد، و سعد و سعيد، و عبد و عبيد، فمتى تظهر الأفكار، و يقرّ القرار، و تلازم الأذكار، و تشام الأنوار، و تستجلى الأسرار؟ ثم يقع الشهود الذى يذهب معه الإخبار، ثم يحقّ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۲۶

الوصول الذى إليه من كلّ ما سواه الفرار، و عليه المدار. و حقّ الحقّ الذى ما سواه فباطل، و الفيض الرحمانى الذى ربابه الأبد هاطل، ما شابت مخاطبتى لك شائبة تريب، و لقد محضت لك ما يمحضه الحبيب للحبيب، فتحمّل جفائى الذى حملت عليه الغيرة، و لا تظنّ بى غيره، و إن لم تعذرنى مكاشفة سيادتك بهذا النّثّ، فى الأسلوب الرثّ، فالحقّ أقدم، و بناؤه لا يهدم، و شأنى معروف فى مواجهة الجبابرة على حين يدى إلى رفدهم ممدودة، و نفسى فى النفوس المتهافتة عليهم معدودة، و شبابى فاحم، و على الشهوات مزاحم، فكيف بى اليوم مع الشيب، و نصح الجيب، و استكشاف العيب؟ إنما أنا اليوم على كلّ من عرفنى كلّ ثقيل، و سيف العدل فى كفى صقيل، أعذل أهل الهوى، و ليست النفوس فى القبول سوا، و لا لكلّ مرض دوا، و قد شفيت صدرى، و إن جهلت قدرى، فاحملنى- حملك اللّه تعالى!- على الجادة الواضحة، و سحب عليك ستر الأبوّة الصالحة، و السلام». انتهت الرسالة البديعة فى بابها، الآتية من الموعظة بلبابها، ذات النصيحة الصريحة التى يتعيّن على كلّ عاقل خصوصا من يريد خدمة الملوك التمسّك بأسبابها.

[تعليق لابن مرزوق على بعض ما جاء فى رسالة لسان الدين]

قلت: و قد رأيت بخطّ الإمام العلامة الخطيب ابن مرزوق على هامش قول لسان الدين أوّل الكلام «و أحسست منه فى بعض كتبه إلى آخره» ما صورته: توهّم ما لا يقع، بل لما تجلّت عنى سحب النكبة و الامتحان جزمت بالرحلة، و عزمت على النقلة، و نفرت عن خدمة

السلطان، و ملازمة الأوطان، قال ابن مرزوق: و العجب كلّ العجب أنّ جميع ما خاطبنى به- أبقاه اللّه تعالى!- تحلّى به أجمع، و ابتلى بما منه حذّر، فكأنه خاطب نفسه و أنذرها مما وقع له، فاللّه تعالى يحسن له الخاتمة و الخلاص؛ انتهى.

[تعليق لابن لسان الدين على تعليق ابن مرزوق]

و كتب تحت كلام ابن مرزوق هذا بخطّه ابن لسان الدين علىّ، ما صورته: صدق و اللّه سيدى أبو عبد اللّه بن مرزوق، كان اللّه تعالى له! قاله ولده ابن المؤلف؛.

[تعليق للمؤلف على كلام ابن مرزوق]

قلت: و هذا الذى قاله ابن مرزوق كان فى حياة ابن الخطيب، و لذلك دعا له بالبقاء، و بحسن الخاتمة و الخلاص، و قد أسفر الغيب عن محنته، ثم قتله على الوجه الذى وصفه أثناء هذه الرسالة، إذ قال: و أمّا ضدّه من عدوّ يتحكّم و ينتقم، و حوت بغى يبتلع و يلتقم، و مطبق يحجب الهواء، و يطيل فى التراب الثواء، و ثعبان قيد يعضّ الساق، و شؤبوب عذاب يمزّق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۲۷

الأبشار الرقاق، و غيلة يهديها الواقب الغاسق، و يجرعها العدو الفاسق، فصرف السوق، و سلعته المعتادة الطروق، مع الأفول و الشروق، فإنه رحمه اللّه تعالى حصل له ما ذكر، ثم اغتاله ليلا و خنقه فى محبسه عدوه الفاسق سليمان بن داود، كما تقدّمت الإشارة إلى ذلك، فاللّه تعالى يثيبه بهذه الشهادة!.

[مرثية من شعر ابن صابر المنجنيقى]

و قد تذكّرت هنا مرثية ابن صابر المنجنيقى، و هى: [الخفيف]

هل لمن يرتجى البقاء خلود و سوى اللّه كلّ شىء يبيد

و الذى كان من تراب و إن عا ش طويلا إلى التراب يعود

فمصير الأنام طرّا لما صا ر إليه آباؤهم و الجدود

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۶؛ ص۱۲۷

ين آدم إذ فا تهما الملك و الثّوا و الخلود

أين هابيل أين قابيل؟ إذ ه ذا لهذا معاند و حسود

أين نوح و من نجا معه بال فلك و العالمون طرّا فقيد

أسلمته الأيام كالطفل للمو ت و لم يغن عمره الممدود

أين عاد بل أين جنّة عاد إرم، أين صالح و ثمود

أين إبراهيم الذى شاد بيت ال لّه فهو المعظّم المقصود

أين إسحاق أين يعقوب أم أى ن بنوه و عدّهم و العديد

حسدوا يوسفا أخاهم فكادو ه و مات الحسّاد و المحسود

و سليمان فى النبوّة و المل ك قضى مثلما قضى داود

ذهبا بعد ما أطاع لذا الخل ق و هذا له ألين الحديد

و ابن عمران بعد آياته التس ع و شق الخضمّ فهو صعيد

و المسيح ابن مريم و هو روح اللّه كادت تقضى عليه اليهود

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۲۸

و قضى سيد النبيين و الها دى إلى الحقّ أحمد المحمود

و بنوه و آله الطاهرون ال زهر صلّى عليهم المعبود

و نجوم السماء منتثرات بعد حين و للهواء ركود

و لنار الدنيا التى توقد الصخ ر خمود و للمياه جمود

و كذا للثرى غداة يقوم ال ناس منها تزلزل و همود

هذه الأمهات نار و ترب و هواء رطب و ماء برود

سوف تفنى كما فنينا فلا يب قى من الخلق والد و وليد

لا الشقىّ الغوىّ من نوب الأيا م ينجو و لا السعيد الرشيد

و متى سلّت المنايا سيوفا فالموالى حصيدها و العبيد

[إشارة و نماذج من مراث أخرى]

و أما قصيدة ابن عبدون الأندلسى التى رثى بها ابن الأفطس و ذكر فيها كثيرا من الملوك الذين أبادهم الدهر و طحنهم برحاه و صيّرهم أثرا بعد عين ففيها ما يوقظ النوّام، و أولها:

[البسيط]

الدّهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح و الصّور

و بالجملة فالأمر كما قال ابن الهبّارية: [مجزوء الرجز]

الموت لا يبقى أحد لا والدا و لا ولد

مات لبيد و لبد و خلّد الفرد الصّمد

كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ [الرحمن: ۲۶، ۲۷] اللهمّ اختم لنا بالحسنى، و ردّنا إليك ردّا جميلا.

و تذكّرت هنا أيضا مرثية على روى مرثية المنجنيقى السابقة منها: [الخفيف]

أين أهل الديار من قوم نوح ثم عاد من بعدهم و ثمود

بينما هم على الأسرّة و الأن ماط أفضت إلى التراب الخدود

ثم لم ينقض الحديث و لكن بعد ذا الوعد كلّه و الوعيد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۲۹

و أطبّاء بعدهم لحقوهم ضلّ عنهم سعوطهم و اللّدود

و صحيح أضحى يعود مريضا و هو أدنى للموت ممّن يعود

و ما أحكم قول السلطان أبى على ابن السلطان أبى سعيد المرينى يخاطب أخاه السلطان أبا الحسن و قد حصره بسجلماسة حتى أخذه قسرا: [البسيط]

فلا يغرّنّك الدهر الخؤون فكم أباد من كان قبلى يا أبا الحسن

الدهر مذ كان لا يبقى على صفة لا بدّ من فرح فيه و من حزن

أين الملوك التى كانت تهابهم أسد العرين ثووا فى اللحد و الكفن

بعد الأسرّة و التيجان قد محيت رسومها و عفت عن كلّ ذى حسن

فاعمل لأخرى و كن باللّه مؤتمرا و استغن باللّه فى سرّ و فى علن

و اختر لنفسك أمرا أنت آمره كأننى لم أكن يوما و لم تكن

و دخل السلطان أبو الحسن سجلماسة عنوة على أخيه السلطان أبى على عمر سنة ۷۳۴، و جاء به فى الكبل لفاس، ثم قتله بالفصد و الخنق فى ربيع الأول من السنة، و كان القبض عليه فى المحرم، رحمه اللّه تعالى!.

و ممّا وجد مكتوبا على قصر بعض السلاطين: [البسيط]

قد كان صاحب هذا القصر مغتبطا فى ظلّ عيش يخاف الناس من باسه

فبينما هو مسرور بلذّته فى مجلس اللهو مغبوط بجلّاسه

إذ جاءه بغتة ما لا مردّ له فخرّ ميتا و زال التاج عن راسه

[زيارة المؤلف لقبر لسان الدين]

رجع إلى أخبار لسان الدين بن الخطيب- رحمه اللّه تعالى- قلت: و قد زرت قبره مرارا رحمه اللّه تعالى بفاس المحروسة فوق باب المدينة الذى يقال له باب الشريعة، و هو يسمّى الآن باب المحروق، و شاهدت موضع دفنه غير مستو مع الأرض، بل ينزل إليه بانحدار كثير، و يزعم الجلّ من عوام فاس أنّ الباب المذكور إنما سمى بباب المحروق لأجل ما وقع من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۳۰

حرق لسان الدين به حين أخرجه بعض أعدائه من حفرته كما مرّ، و ليس كذلك، و إنما سمى باب المحروق من دولة الموحدين، قبل أن يوجد لسان الدين و لا أبوه، بسبب ثائر ثار على الدولة، فأمسك و أحرق فى ذلك المحلّ، و اللّه غالب على أمره. و حصل لى من الخشوع و الحزن عند زيارة قبره- رحمه اللّه تعالى!- ما لا مزيد عليه، جعل اللّه له تلك المحن كفّارة و طهرة، فإنه كان آية اللّه علما و جلالة و حكمة و شهرة.

[رسالة لبعض أهالى المغرب فى العزاء بأبى جعفر بن جبير]

و قد تذكّرت عند كتبى هذا المحلّ رسالة كتبها بعض أئمة المغرب فى عزاء الوزير الشهير أبى جعفر بن جبير الأندلسى رحمه اللّه تعالى إلى بنيه، و هى ممّا يصلح أن يوصف بمثلها لسان الدين رحمه اللّه تعالى، و فيها عزاء بمن مضى، و نصّها: «عزاء يا كواكب الهدى، فى بدركم الذى تحيّفه الردى، و فجع به الفضل و الندى، فقل للشّهب أن تنكدر على فراقه، و للصبح أن يخبو نور إشراقه، و للريح أن تمزّق صدارا، و للأهلّة أن لا تعرف إبدارا، و لليل أن يشتمل خميصة الحزن، و للسماء أن تبكيه بأدمع المزن، و للرعد أن ينتحب لوفاته، و للبرق أن يحكى برجفاته أفئدة عفاته، و للثريّا أن ينفصم سوارها، و للشمس أن تنكسف أنوارها، و للنثرة أن تنثر كواكبها، و للجوزاء أن تنفض مناكبها، و للنيّرات أن ترفضّ مواكبها، و للرامح أن يبيت أعزلا، و للبدر أن لا يألف منزلا، و للمجرّة أن يفيض دمعا نهرها، و للغميصاء أن يطّرد بكاؤها و سهرها، و للروض أن يفارق إمراعه، و للأورق أن يهتف بما راعه، و للغصون أن تنهصر لهتفه، و تتقصف أسفا على حتفه. و لكن هو الحمام يختل و يختر، و لا يحفل بمن يتر، يعدم ما أوجده الكون، و يذيل من أكنفه الصون، و أين بنا عن مكافح لا نقاتله، و رام أرواحنا مقاتله، لا يدبه ناصرة، و عزمته قاصرة للقياصرة، و يمينه كاسرة للأكاسرة، لم يبق من رسم، لطسم، و لا من إحسان، لغسان، و لا من أياد، لإياد، و لا من سلطان، لقحطان، و لا من نجيب، لتجيب، و لا شرف ضخم، للخم، لم يكن له عن اليمنيين إقصار، و منهم الأنصار، و هم أسماع للنبىّ و أبصار، و عمد إلى المصابيح من مضر يطفيها، و هذا و الوحى يتنزل فيها، و لم يصخ فى الصديق، إلى التصديق، و أصمى الفاروق برداه، و حكم فيه أبا لؤلؤة و مداه، و أمكن صرف

الأقدار، من شهيد الدار، و لم يرع من علىّ بالبسالة، و الذّبّل العسّالة، و لا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۳۱

أبقى سبطيه و قد تفقّأت عنهما بيضة الرسالة، و أذهب الزبير حوارى الرسول، و حنظلة و هو بأيدى الملائكة مغسول، و أفات ابن معاذ و لم يحفل بفوته، على أنه اهتزّ العرش لموته، و أودى بحمزة و مقعده من النبوّة، مقعد الأبوّة، و شفى من عمّار صدور الأسل، و أردى مالكا بشربة من عسل، و لم يعبأ بمضاء عمرو، و لا بحلم معاوية و دهاء عمرو. فيا له من خطب، مود بكلّ يابس و رطب، يشرب ماء الأعمار، و يجعل الأجداث منازل الأقمار، و يلوك السوقة و الأملاك، و لا يبالى أية لاك، و لا يقبل شفيعا، و لا يغادر منحطّا و لا رفيعا،ها هو اعتمد نور علا فكسفه، و طود حلم فنسفه، و أعلق المجد فى حباله، و أقصد الفضل بنباله، و فجع كنانة، بسهم لم ينثل مثله من كنانة، فيا طارق الأعين لقد بؤت بأنفس الأعلاق، و يا ناعيه لقد نعيت باسق الأخلاق، رويدا أسائلك، عمّن لم تضع لديه و سائلك، أين سماحته و طلاقته؟ أين كلفه بالحمد و علاقته؟ ما الذى ثنى عطفه عن الارتياح؟ أم أين عافيه من ذلك الامتياح؟ أم من يؤلف أمنية كما ألفت السحب أيدى الرياح؟ فيا هبة الحمد، اطوى عرفك فما تنشق، و يا ربّة المجد، أقصرى طرفك فما تعشق، و يا معشر عفاته، كيف حييتم و قد علمتم بوفاته؟ و يا زمر أمّاله، صفرت أيديكم من إجماله، و يا أخاير صحابه، أين مواقع سحابه؟ و يا بنى ولائه، من يتبوّأ مقام علائه؟ و يا منافسى شيمه، من يجود بمثل ديمه؟ و يا منازعى كرمه، من يطيف المعتفين بمثل حرمه؟ و يا حاسدى هممه، من له كحفاظه و ذممه؟ سيدى لقد أضاءت مساعيك و أشرقت، و أغصّت الحاسدين طرّا و أشرقت، و حسبهم أن لم ينتبهوا إلّا إذا نمت، و لا نطقوا إلّا حين مت، وليهن ملأك و صحبك، أن أحيتك صنائعك و قد قضيت نحبك، و إن حمّ فناؤك، فقد أبقى الحياة الخالدة ثناؤك: [الكامل]

ردّت صنائعه عليه حياته فكأنه من نشرها منشور

و الناس مأتمهم عليه واحد فى كلّ دار أنّة و زفير

«سيدى، أما تجيب صرخة لهفان، أم عداك عن الجواب أنك فان؟ سيدى من لآملك، ببسط أنا ملك؟ من للمرملات الضّرائك، بإرشادك و آرائك؟ من لقربائك، بصلتك

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۳۲

و حبائك؟ من لأخيك، بمواثق أو اخيك؟ من لأبنائك، بلطف إحنائك؟ انفضّ شملهم و كان جميعا، و نادوك لو نادوا منك سميعا، هذا كبيرهم يدعوك فلا تجيبه، و قد فتّ الأضلاع و جيبه، يبكى عند تلك الرّجام، بأدمع سجام، و قد ألهبت الزفرات حشاه، و ألح الدمع بجفنه حتى أعشاه، و الأصاغر ما لهم بعدك مفزع، و رضيعهم تسلب به الأنفس رحمة و تنزع، لا يدرى ما جزع عليك فيجزع، لشدّ ما أذابتهم و قدة الأوار، حين عدموا منك كرم النجوى و الجوار، أفّ لدهر رماهم بالأجوار، و تركهم أنجما مسلوبة الأنوار، لا- جرم أن يحزنوا عليك و يكترثوا، فلقد تسلّوا عنك ببعض ما ورثوا، و ما ورثتهم غير الحزن و البثّ، و أمل فى الحياة كالهباء المنبثّ، كما تتلى محاسنك فاسمع، طفقت عليك شؤون عينى تدمع، أيا ضريحه، كيف وجدت ريحه؟ لقد أرج بك ذلك المعفر، حتى ما ينافحه المسك الأذفر، و كما ظفرت بوجوده، فجد كلّ قبر بجوده، ففيه سماء ثرّة و غمام، و نور انضمّ عليه منك كمام، و لو علمت بمن بين جنبيك راقد، لعلوت حتى تلوح فى ذراك الفراقد، و يا دافنيه كيف هلتم عليه الرّغام؟ أو لم تنكروا على الشمس أن تغام؟ هيهات لقد سمحتم بإقبار، عفّ الشمائل طيب الأخبار، و إلحاد، من لا نزاع فى فضله و لا إلحاد، أى نفس اتخذتم له التراب مستودعا، فأضحى عرنين المكارم مجدّعا: [الطويل]

[مقطوعات فى الزهد]

فتى مثل نصل السيف من حيث جئته لنائبة نابتك فهو مضارب

فتى همّه حمد على النأى رابح و إن بات عنه ماله و هو عازب

«أما و إن ازدحمت بمهلكه الأوصاب، و فدح الرزء و جلّ المصاب، حتى لا نألف الناسا، فلقد سر الموت من حيث ساء، فلقد خلفنا بدهر ما فيه غير مصائب، و لا يبالى من أقصد سهمه الصائب، فيا فقيد الندى ما كان أجدرك بالخلود و أخلقك، و يا جواد عمره ما كان أقصر طلقك، ثوى، حين استوى، و توارى، إذ ملأ الأفق أنوارا، و كسف حين بلغ الكمال، فكان كالغصن عند ما اعتدل مال، أو كالشهاب عند ما استقام حار [الكامل]

و كذاك عمر كواكب الأسحار

هذه اليراعة التحفت بعده الضنى، و الصحف تطوى على جهالة و تحنى، و عهدى به إن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۳۳

امتطى راحته اليراع، راع، أو دبّج الأوراق، راق، أو استدرّ طبعه السلسال، سال، و أى روض أراد، راد، و متى أراغ الإنشاء، أحسن إن شاء، فحقّ للفؤاد أن يستعر بوقده، و للمدامع أن تسيل دما على فقده، بيد أنه الموت لا بدّ أن نردّ مشرعه، و نسيغ على شرق به جرعه، فإنّا زرع يحصده الذى ازدرعه. و صبرا يا ذوى أرحامه و بنيه، و من مرّ فى غلواء الوجد فالسلوان يثنيه، و شحّا على أجركم لا يذهب به الجزع و يفنيه، و اللّه يزلف الفقيد من رحمته و يدنيه، و يقطفه زهر رضوانه و يجنيه، و ييسّر لكم العزاء الأجمل برحمته و يسنّيه، و السلام». انتهت.

و يرحم اللّه القائل: [الخفيف]

كلّ جمع إلى الشتات يصير أىّ صفو ما شابه تكدير

أنت فى اللهو و الأمانى مقيم و المنايا فى كلّ وقت تسير

و الذى غرّه بلوغ الأمانى بسراب و خلّب مغرور

ويك يا نفس أخلصى إنّ ربىّ بالذى أخفت الصدور بصير

و لا خفاء على ذوى الأحلام، من الأعلام، أنّ الدنيا أضغاث أحلام: [الرمل]

يندم المرء على ما فاته من لبانات إذا لم يقضها

و تراه فرحا مستبشرا بالتى أمضى كأن لم يمضها

إنها عندى كأحلام الكرى لقريب بعضها من بعضها

و قال أبو منصور أسعد النحوى: [الخفيف]

يجمع المرء ثم يترك ما يج مع من كسبه لغير شكور

ليس يحظى إلّا بذكر جميل أو بعلم من بعده مأثور

[من شعر ابن الجوزى فى المعنى]

و قال الإمام الشهير أبو الفرج بن الجوزى: [مجزوء الكامل]

يا ساكن الدنيا تأه ب و انتظر يوم الفراق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۳۴

و أعدّ زادا للرحى ل فسوف يحدى بالرفاق

وابك الذنوب بأدمع تنهلّ من سحب المآق

يا من أضاع زمانه أرضيت ما يفنى بباق

و كان ابن الجوزى المذكور آية اللّه فى كثرة التأليف و الكتابة و الوعظ و الحفظ، و أقلّ من

[كلمة عن أبى الفرج بن الجوزى و مجالس وعظه، عن الذهبى و غيره]

كان يحضر مجلسه عشرة آلاف، و ربما حضر عنده مائة ألف، و قال فى آخر عمره على المنبر:

كتبت بأصبعىّ هاتين ألفى مجلّدة، و تاب على يدى مائة ألف، و أسلم على يدى عشرون ألف يهودى و نصرانى، و أسمع رحمه اللّه تعالى الناس أكثر من أربعين سنة، و حدّث بمصنّفاته مرارا.

و قال الحافظ الذهبى فى حقّه: الحافظ الكبير، الواعظ، المفتن، صاحب التصانيف الكثيرة الشهيرة فى العلوم المتعدّدة، وعظ من صغره، وفاق فيه الأقران و نظم الشعر المليح، و كتب بخطّه ما لا يوصف، و رأى من القبول و الاحترام ما لا مزيد عليه، و حزر مجلسه غير مرة بمائة ألف، و حضر مجلسه المستضىء مرارا من وراء الستر؛ انتهى.

و من كلامه فى بعض مجالسه: و اللّه ما اجتمع لأحد أمله، إلّا و سعى فى تفريقه أجله، و عقارب المنايا تلسع الناس، و خدران جسم الأمل يمنع الإحساس.

و قال فى قوله صلّى اللّه عليه و سلّم «أعمار أمّتى من الستين إلى السبعين» إنما طالت أعمار القدماء لطول البادية، فلمّا شارف الركب بلد الإقامة قيل: حثّوا المطى.

و قال فى الذين عبدوا العجل: لو أنّ اللّه خار لهم، ما خار لهم.

و قال يوما و قد طرب أهل المجلس: فهمتم فهمتم.

و قال فى خلافة أبى بكر، رضى اللّه عنه، بعد أن ذكر أحاديث تدلّ على خلافته كقوله صلّى اللّه عليه و سلّم «مروا أبا بكر فليصلّ بالناس» و غيره، ما صورته: فهذه أحاديث تجرى مجرى النصّ، فهمها الخصوص، غير أنّ الرافضة فى إخفائها كاللصوص، فقال السائل: لما قال «أقيلونى» ما سمعنا مثل جواب على رضى اللّه عنه «و اللّه لا أقلناك» فقال: لمّا غاب على عن البيعة فى الأول، أخلف ما فات بالمدح فى المستقبل، ليعلم السامع و الرائى أنّ بيعة أبى بكر و إن كانت من ورائى، فهى رائى، و مثل ذلك الصّدر لا يرائى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۳۵

و قال فى قول فرعون أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ [الزخرف: ۵۱] يفتخر بما أجراه، ما أجراه.

و تواجد رجل فى مجلسه فقال: عجبا! كلنا فى إنشاد الضالة سوا، فلم وجدت وحدك ألم الجوى؟ و أنشد: [الرمل]

قد كتمت الحبّ حتى شنفنى و إذا ما كتم الداء قتل

بين عينيك علالات الكرى فدع النوم لربّات الحجل

و نظر يوما إلى أقوام يبكون فى مجلسه و يتواجدون فأنشد: [الطويل]

و لو لم يهجنى الظاعنون لهاجنى حمائم ورق فى الديار وقوع

تداعين فاستبكين من كان ذا هوى نوائح لم تقطر لهنّ دموع

و كيف أطيق العاذلين و ذكرهم يؤرّقنى و العاذلون هجوع

و قام رجل و تواجد فأنشد: [الطويل]

و ما زال يشكو الشوق حتى كأنما تنفّس من أحشائه و تكلّما

و يبكى فأبكى رحمة لبكائه إذا ما بكى دمعا بكيت له دما

و أعجبه يوما كلامه فأنشد: [الرجز]

تزدحم الألفاظ و المعانى على فؤادى و على لسانى

تجرى بى الأفكار فى ميدان أزاحم النّجم على مكان

و وعظ المستضىء يوما فقال: يا أمير المؤمنين، إن تكلّمت خفت منك، و إن سكتّ خفت عليك، فأنا أقدم خوفى عليك، على خوفى منك، لمحبتى لدوام أيامك، إنّ قول القائل «اتّق اللّه» خير من قول القائل: أنتم أهل بيت مغفور لكم. و قال الحسن البصرى: لأن تصحب أقواما يخوّفونك حتى تبلغ المأمن خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى تبلغ المخاوف. و كان عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه يقول: إذا بلغنى عن عامل ظالم أنه قد ظلم الرعيّة و لم أغيره فأنا الظالم. يا أمير المؤمنين، كان يوسف عليه السلام، لا يشبع فى زمان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۳۶

القحط؛ لئلّا ينسى الجياع، و كان عمر، رضى اللّه عنه، يصرّ بطنه عام الرّمادة فيقول: قرقرى إن شئت أو لا تقرقرى، فو اللّه لا شبعت و المسلمون جياع. فتصدّق الخليفة المستضىء بصدقات كثيرة، و أطلق من فى السجن.

و قال رحمه اللّه تعالى لبعض الولاة: اذكر عدل اللّه فيك، و عند العقوبة قدرة اللّه عليك، و إياك أن تشفى غيظك بسقم دينك.

و قال: الطاعة تبسط اللسان، و المعاصى تذلّ الإنسان.

و قال له قائل: ما نمت البارحة من شوقى إلى المجلس، فقال: نعم؛ لأنك تريد أن تتفرّج، و إنما ينبغى أن لا تنام الليلة لأجل ما سمعت فيه.

و قيل له: إنّ فلانا أوصى عند الموت، فقال: طيّن سطوحه فى كانون.

و قال له قائل: أسبّح أم أستغفر؟ فقال: الثياب الوسخة أحوج إلى الصابون من البخور.

و سأله سائل: ما الذى وقر فى قلب أبى بكر، رضى اللّه عنه؟ فقال: قوله ليلة المعراج «إن كان قال فلقد صدق» فله السبق.

و لمّا قال له بعضهم «سيف علىّ نزل من السماء فسعفة أبى بكر أين؟» أجابه بقوله: إنّ سعفة هزّت يوم الردّة فأثمرت سيبا جاء منه مثل ابن الحنفية لأمضى من سيوف الهند، ثم قال:

يا عجبا للروافض، إذا مات لهم ميت تركوا معه سعفة، من أين ذا المصطلح؟.

و سئل عن معنى قوله صلّى اللّه عليه و سلّم «من أراد أن ينظر إلى ميت يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى أبى بكر» فقال: الميت يقسم ماله و يكفن، و أبو بكر أخرج ماله كلّه و تخلّل بالعباء.

و قال فى قوله تعالى وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً [الحجر: ۴۷] قال على: إنى و اللّه لأرجو أن أكون أنا و عثمان و طلحة و الزبير منهم، ثم قال أبو الفرج: إذا اصطلح أهل الحرب فما بال النظارة؟.

و قال: قال جبريل لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: سلّم على عائشة، و لم يواجهها بالخطاب احتراما لزوجها، و واجه مريم لأنها لم يكن لها زوج، فمن يحترمها جبريل كيف يجوز فى حقّها الأباطيل؟

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۳۷

قال أبو شامة: و كان ابن الجوزى- رحمه اللّه تعالى!- مبتلى بالكلام فى مثل هذه الأشياء، لكثرة الروافض ببغداد و تعنتهم بالسؤالات فيها، فكان بصيرا بالخروج منها لحسن إشارته.

و انقطع القراء يوما عن مجلسه فأنشد: [الطويل]

و ما الحلى إلّا زينة لنقيصة يتمّم من حسن إذا الحسن قصّرا

و أمّا إذا كان الجمال موفّرا كحسنك لم يحتج إلى أن يزوّرا

و قيل له: لم تعلّل موسى عليه السلام بسوف ترانى؟ فأنشد: [الكامل]

إن لم يكن وصل لديك لنا يشفى الصبابة فليكن وعد

و لما ذكر أنّ بلالا- رضى اللّه عنه!- لما منع الطواف بالبيت كان يقف من بعيد و ينظر إليه و يبكى أنشد: [الوافر]

أمرّ على منازلهم و إنى بمن أضحى بها صبّ مشوق

و أومى بالتحيّة من بعيد كما يومى بأصبعه الغريق

و من شعر أبى الفرج رحمه اللّه تعالى: [المتقارب]

لعبت و مثلك لا يلعب و قد ذهب الأطيب الأطيب

و قد كنت فى ظلمات الشباب فلمّا أضاء انجلى الغيهب

ألا أين أقرانك الراحلون؟ لقد لاح، إذ ذهبوا، المذهب

[رجع إلى أخبار لسان الدين]

و لنقتصر على هذا المقدار، و نرجع إلى أحوال لسان الدين، رحمه اللّه تعالى، و ارتحاله، و الاعتبار بحاله، فنقول:

و ممّا يناسب أن نذكره فى هذا المحلّ و نثبته فيه ما حكاه العالم العلامة بلدينا سيدى أبو الفضل ابن الإمام التلمسانى رحمه اللّه تعالى عن جدّى الإمام قاضى القضاة سيدى أبى عبد اللّه المقرّى التلمسانى رحمه اللّه تعالى، و هو أحد أشياخ لسان الدين كما يأتى إن شاء اللّه ذلك فى محلّه، قال: كنت مع ذى الوزارتين أبى عبد اللّه بن الخطيب فى جامع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۳۸

إلبيرة من الأندلس إذ مرّ بنا الاعتبار، فى تلك الآثار، فأنشد ابن الخطيب ارتجالا: [الوافر]

أقمنا برهة ثم ارتحلنا كذاك الدهر حال بعد حال

و كلّ بداية فإلى انتهاء و كلّ إقامة فإلى ارتحال

و من سام الزمان دوام حال فقد وقف الرجاء على المحال

[من شعر لسان الدين و أخباره]

و حكى لسان الدين فى «الإحاطة» عن نفسه أنه خطّط هذه الأبيات فى مرحلة نزلها رحمه اللّه تعالى حسبما يأتى ذلك فى شعره.

و ما أحسن قوله رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

لبسنا فلم نبل الزمان و أبلانا يتابع أخرانا على الغىّ أولانا

و نغترّ بالآمال و العمر ينقضى فما كان بالرّجعى إلى اللّه أولانا

و ما ذا عسى أن ينظر الدهر من عسا فما انقاد للزجر الحثيث و لا لانا

جزينا صنيع اللّه شرّ جزائه فلم نرع ما من سابق الفضل أولانا

فيا ربّ عاملنا بما أنت أهله من العفو و اجبر صدعنا أنت مولانا

و قد حكى غير واحد أنه رحمه اللّه تعالى رىء بعد موته فى المنام، فقال له الرائى: ما فعل اللّه بك؟ فقال: غفر لى ببيتين قلتهما، و هما: [الكامل]

يا مصطفى من قبل نشأة آدم و الكون لم تفتح له أغلاق

أ يروم مخلوق ثناءك بعد ما أثنى على أخلاقك الخلاق

و قد كرر، رحمه اللّه تعالى، هذا المعنى فى قصيدة فى حقّه صلّى اللّه عليه و سلم، و شرف و كرم، و مجد و عظم، و بارك و أنعم، و هو قوله: [الكامل]

مدحتك آيات الكتاب فما عسى يثنى على علياك نظم مديحى

و إذا كتاب اللّه أثنى مفصحا كان القصور قصار كلّ فصيح

و ستأتى هذه القصيدة فى نظمه إن شاء اللّه تعالى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۳۹

و قد رأيت بالمغرب تخميسا للبيتين الأوّلين منسوبا للأديب الشهير الذكر بالمغرب أبى عبد اللّه محمد بن جابر الغسانى المكناسى، رحمه اللّه تعالى، و لا بأس أن نورده هنا، و هو قوله رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

يا سائلا لضريح خير العالم ينهى إليه مقام صبّ هائم

باللّه ناد و قل مقالة عالم يا مصطفى من قبل نشأة آدم

و الكون لم تفتح له أغلاق

بثناك قد شهدت ملائكة السما و اللّه قد صلّى عليك و سلّما

يا مجتبى و معظّما و مكرّما أ يروم مخلوق ثناءك بعد ما

أثنى على أخلاقك الخلاق

و ما أحسن قول لسان الدين- رحمه اللّه تعالى!- بعد ما عرّف بنفسه و سلفه: و كأن بالحى ممّن ذكر قد التحق بالميت، و بالقبر قد استبدل بالبيت.

و قال رحمه اللّه تعالى بعد إيراد جملة من نظمه ما صورته: و قلت و البقاء للّه وحده، و به يختم الهذر: [مجزوء الرمل]

عدّ عن كيت و كيت ما عليها غير ميت

كيف ترجى حالة البق يا لمصباح و زيت

و سيأتى ذلك.

و لقد صدق، رحمه اللّه تعالى، و رقى درجته فى الجنّة!.

و أما البيتان الشائعان على ألسنة أهل المشرق و المغرب و أنهما قيلا فى لسان الدين رحمه اللّه تعالى، و بعضهم ينسبهما له نفسه، فالصحيح خلاف ذلك كما سيأتى، و هما: [السريع]

قف كى ترى مغرب شمس الضّحى بين صلاة العصر و المغرب

و استرحم اللّه قتيلا بها كان إمام العصر فى المغرب

و شرح بعضهم البيتين فقال: إن قوله «قتيلا بها» من باب الاستخدام: أى قتيلا بشمس الضحى التى هى المتغزل فيها.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۴۰

و قد رأيت و أنا بالمغرب بخطّ الشيخ الأغصاوى أنهما لم يعن بهما قائلهما لسان الدين بن الخطيب، و إنما هما مقولان فى غيره، و نسبهما، و نسيت الآن ذلك لطول العهد، و اللّه أعلم.

[تحقيق فى شأن بيتين يقال إنهما قيلا فى لسان الدين]

و يدلّ على ذلك أنه- رحمه اللّه تعالى!- لم يقتل بين صلاة العصر و المغرب و إنما قتل فى جوف الليل كما علم فى محلّه، على أنه يمكن بتكلّف تأويل ذلك بأنه قامت لقائلهما قرينة على أنه بصدد الموت فى ذلك الوقت، و هذا لو ثبت أنهما قيلا فيه، و قد علمت أنّ الأغصاوى نفى ذلك، فاللّه أعلم بحقيقة الأمر فى ذلك.

ثم رأيت فى كتاب إسماعيل بن الأحمر فى ترجمة بعض العلماء ما نصّه: فمن قوله يرثى الأمراء بالمغرب، و قد حلّ رمسه بين صلاة

العصر و المغرب: [السريع]

قف كى ترى مغرب شمس العلا بين صلاة العصر و المغرب

و استرحم اللّه دفينا به كان مليك العصر فى المغرب

و هذا ممّا يبعد أنهما فى لسان الدين من وجوه لا تخفى على المتأمّل: منها قوله «كان مليك العصر» فإنّ لسان الدين لم يكن كذلك، و قد تقدّم آنفا «كان إمام العصر فى المغرب» و هو أحسن؛ لما فيه من التورية البديعة، و اللّه أعلم.

[عود إلى أخبار لسان الدين]

رجع إلى أخبار لسان الدين بن الخطيب رحمه اللّه تعالى- و قد عرض عدوّه الرئيس ابن زمرك فى بعض قصائده التى مدح بها سلطانه الغنى بالله أبا عبد اللّه بن نصر بما تسنّى له من الظفر بابن الخطيب، و من حماه منه، و هو الوزير ابن الكاسى، على يد من عيّنه لملك الغرب، و أعانه بجنده و عضده، كما تقدّم، و هو السلطان أحمد المرينى، فقال من قصيدة عيدية: [البسيط]

[من قصيدة لابن زمرك يعرض فيها بلسان الدين]

يهنى زمانك أعياد مجدّدة من الفتوح مع الأيام تغشاه

غضبت للدين و الدنيا بحقّهما يا حبّذا غضب فى اللّه أرضاه

فوّقت للغرب سهما راشه قدر و سدّد اللّه للأعداء مرماه

«سهم أصاب و راميه بذى سلم» لقد رمى الغرض الأقصى فأصماه

من كان بندك يا مولاى يقدمه فليس يخلفه فتح ترجّاه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۴۱

من كان جندك جند اللّه ينصره أناله اللّه ما يرجو و سنّاه

ملّكت غربا به خلّدت من ملك للشرق و الغرب منه ما تمنّاه

و سام أعداءك الأشقين ما كسبوا و من تردّى رداء الغدر أرداه

قل للذى رمدت جهلا بصيرته فلم تر الشمس، شمس الهدى، عيناه

غطّى الهوى عقله حتى إذا ظهرت له المراشد أعشاه و أعماه

هل عنده و ذنوب الغدر توبقه أنّ الذى قد كساه العزّ أعراه

لو كان يشكر ما أوليت من نعم ما زلت ملجأه الأحمى و منجاه

سلّ السعود و خلّ البيض مغمدة فالسيف مهما مضى فالسعد أقصاه

و اشرع من البرق نصلا راع مصلته و ارفع من الصبح بندا راق مجلاه

فالعدوتان لنا قد ضمّ ملكهما أنصار ملكك، صان اللّه علياه

لا أوحش اللّه قطرا أنت مالكه و آنس اللّه بالألطاف مغناه

لا أظلم اللّه أفقا أنت نيّره لا أهمل اللّه سرحا أنت ترعاه

و اهنأ بشهر صيام جاء زائره مستنزلا من إله العرش رحماه

أهلّ بالسعد فانهلّت به منن و أوسع الصنع إجمالا و وفّاه

أما ترى بركات الأرض شاملة و أنعم اللّه قد عمّت برايا

و عادك العيد تستحلى موارده و يجزل الأجر و الرحمى مصلّاه

جهّزت جيش دعاء فيه ترفعه لذى المعارج و الإخلاص رقّاه

أفضت فيه من النعماء أجزلها و أشرف البرّ بالإحسان زكّاه

و اليت للخلق ما أوليت من نعم والى لكك اللّه ما أولى و والاه

و أول هذه القصيدة:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۴۲

هذى العوالم لفظ أنت معناه كلّ يقول إذا استنطقته اللّه

بحر الوجود و فلك الكون جاريهٔ و باسمك اللّه مجراه و مرساه

من نور وجهك ضاء الكون أجمعه حتى تشيّد بالأفلاك مبناه

عرش و فرش و أملاك مسخّرهٔ و كلّها ساجد للّه مولاه

سبحان من أوجد الأشياء من عدم و أوسع الكون قبل الكون نعماه

من ينسب النور للأفلاك قلت له: من أين أطلعت الأنوار لولاه

مولاى مولاى بحر الجود أغرقنى و الخلق أجمع فى ذا البحر قد تاهوا

فالفلك تجرى كما الأفلاك جاريهٔ بحر السماء و بحر الأرض أشباه

و كلّهم نعم للخلق جاريهٔ تباركك اللّه لا تحصى عطاياه

يا فاتق الرّتق من هذا الوجود كما فى سابق العلم قد خطّت قضاياه

كن لى كما كنت لى إذ كنت لا عمل أرجو، و لا ذنب قد أذنبت أخشاه

و أنت فى حضرات القدس تنقلنى حتى استقرّ بهذا الكون مثواه

ما أقبح العبد أن ينسى و تذكره و أنت باللطف و الإحسان ترعاه

غفرانك اللّه من جهل بليت به فمن أفاد وجودى كيف أنساه

منّى علىّ حجاب لست أرفعه إلّا بتوفيق هدى منك ترضاه

فعد علىّ بما عوّدت من كرم فأنت أكرم من أمّلت رحماه

ثم الصلاهٔ صلاهٔ اللّه دائمهٔ على الذى باسمه فى الذكر سمّاه

المجتبى و زناد النور ما قدحت و لا ذكا من نسيم الروض مسراه

و المصطفى و كمام الكون ما فتقت عن زهر زهر يروق العين مرآه

و لا تفجّر نهر للنهار على درّ الدرارى فغطّاه و أخفاه

يا فاتح الرّسل أو يا ختمها شرفا و اللّه قدّس فى الحالين معناه

لم أدخر غير حبّ فيك أرفعه وسيلهٔ لكريم يوم ألقاه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۴۳

صلّى عليك إله أنت صفوته ما طيبت بلذيذ الذكر أفواه

و عمّ بالرّوح و الرّيحان صحبته و جاءهم من نمير العفو أصفاه

و خصّ أنصاره الأعلين صفوته و أسكنوا من جوار اللّه أعلاه

أنصار ملته أعلام بيعته مناقب شرفت أثنى بها اللّه

و أيّد اللّه من أحيا جهادهم و واصل الفخر أخراه بأولاه
المنتقى من صميم الفخر جوهره ما بين نصر و أنصار تهاداه
العلم و الحلم و الإفضال شيمته و البأس و الجود بعض من سجاياه
و هى طويلة، و لنقتصر منها على ما ذكر.

[قصيدة أخرى لابن زمرك يهنئ فيها سلطانه الغنى باللّه بفتح بلاد المغرب و ظفره بابن كاس مجير لسان الدين]

و قد صرّح ابن زمرك المذكور فى قصيدة أخرى مدح بها سلطانه الغنى باللّه، و هنّاه بفتح المغرب على يد السلطان أحمد، و ذكر فيها ظفره بالوزير ابن الكاس، و هو- أعنى ابن الكاس- كان القائم بنصرة لسان الدين، و المانع له، و المجير له منهم حين طلبوه منه، فلمّا لم يخفر ذمّته تمكّنت- كما سبق- أسباب العداوة، و جرّ ذلك أن أغرى السلطان أحمد على تملّك فاس، و اشترطوا عليه كما مرّ القبض على لسان الدين و إرساله إليهم، و قد نقلت هذه القصيدة من تأليف لحفيد السلطان الغنى باللّه و نصّ محلّ الحاجة منه: و من ذلك أيضا قوله- يعنى ابن زمرك- هناء لمولانا الجدّ رحمه اللّه تعالى بالفتح المغربى للسلطان أبى العباس ابن السلطان أبى سالم المرينى: [الكامل]

هى نفحة هبّت من الأنصار أهدتك فتح ممالك الأمصار
فى بشرها و بشارة الدنيا بها مستمتع الأسماع و الأبصار
هبّت على قطر الجياد فروّضت أرجاءه بالنفحة المعطار
و سرت و أمر اللّه طىّ برودها يهدى البرية صنع لطف البارى
مرّت بأدواح المنابر فانبرت خطباؤها مفتنّة الأطيار
حنّت معارجها إلى أعشارها لمّا سمعن بها حنين عشار
لو أنصفتك لكلّلت أدواحها تلك البشائر يانع الأزهار
فتح الفتوح أتاك فى حلل الرضا بعجائب الأزمان و الأعصار
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۴۴
فتح الفتوح جنيت من أفنانه ما شئت من نصر و من أنصار
كم آية لك فى السعود جليّة خلّدت منها عبرة استبصار
كم حكمة لك فى النفوس خفيّة خفيت مداركها عن الأفكار
كم من أمير أمّ بابك فانثنى يدعى الخليفة دعوة الإكبار
أعطيت أحمد راية منصورة بركاتها تروى عن الأنصار
أركبته فى المنشآت كأنما جهّزته فى وجهة لمزار
من كلّ خافقة الشّراع مصفق منها الجناح تطير كلّ مطار
ألقت بأيدى الريح فضل عنانها فتكاد تسبق لمحة الأبصار
مثل الجياد تدافعت و تسابقت من طافح الأمواج فى مضمار
للّه منها فى المجاز سوابح وقفت عليك الفخر و هى جوارى
لمّا قصدت بها مراسى سبتة عطفت على الأسوار عطف سوار
لمّا رأت من صبح عزمك غرّة محفوفة بأشعّة الأنوار

و رأت جبينا دونه شمس الضحى لبّتك بالإجلال و الإكبار

فأفضت فيها من نداك مواهبا حسنت مواقعها على التكرار

و أريت أهل الغرب عزم مغرّب قد ساعدته غرائب الأقدار

و خطبت من فاس الجديد عقيلة لبّتك طوع تسرّع و بدار

ما صدّقوا متن الحديث بفتحها حتى رأوه فى متون شفار

و تسمّعوا الأخبار باستفتاحها و الخبر قد يغنى عن الأخبار

قولوا لقرد فى الوزارة غرّه حلم مننت به على مقدار

أسكنته من فاس جنّة ملكها متنعما منها بدار قرار

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۴۵

حتى إذا كفر الصنيعة و ازدرى بحقوقها ألحقته بالنار

جرّعت نجل الكاس كأسا مرّة دسّت إليه الحتف فى الإسكار

كفر الذى أوليته من نعمة لا تأنس النعماء بالكفّار

فطرحته طرح النواة فلم يفز من عزّ مغربه بغير فرار

لم يتّفق لخليفة مثل الذى أعطى الإله خليفة الأنصار

لم أدر و الأيام ذات عجائب ترددها يحلو على التذكار

ألواء صبح فى ثنيّة مشرق أم راية فى جحفل جرّار

و شهاب أفق أم سنان لامع ينقضّ نجما فى سماء غبار

و مناقب المولى الإمام محمد قد أشرقت أم هنّ زهر درارى

فاق الملوك بهمّة علوية من دونها نجم السماء السارى

لو صافح الكفّ الخضيب بكفّه فخرت بنهر للمجرّة جارى

و الشّهب تطمع فى مطالع أفقها لو أحرزت منه منيع جوار

سل بالمشارق صبحها عن وجهه يفترّ منه عن جبين نهار

سل بالغمائم صوبها عن كفّه تنبيك عن بحر بها زخّار

سل بالبروق صفاحها عن عزمه تخبرك عن أمضى شبا و غرار

قد أحرز الشيم الخطيرة عند ما أمطى العزائم صهوة الأخطار

إن يلق ذو الأجرام صفحة صفحه فسح القبول له خطا الأعمار

يا من إذا هبّت نواسم حمده أزرت بعرف الروضة المعطار

يا من إذا افترّت مباسم بشره وهب النفوس و عاث فى الإقتار

يا من إذا طلعت شموس سعوده تعشى أشعّتها قوى الأبصار

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۴۶

قسما بوجهك فى الضياء فإنه شمس تمدّ الشمس بالأنوار

قسما بعزمك فى المضاء فإنه سيف تجرّده يد الأقدار

لسماح كفّك كلّما استوهبته يزرى بغيث الديمة المدرار

للّه حضرتک العلیّة لم تزل یلقی الغریب بها عصا التسیار

کم من طرید نازح قذفت به أیدی النوی فی القفر رهن سفار

بلّغته ما شاء من آماله فسلا عن الأوطان بالأوطار

صیّرت بالإحسان دارک داره متّعت بالحسنی و عقبی الدار

و الخلق تعلم أنک الغوث الذی یضفی علیها وافی الأستار

کم دعوة لک فی المحول مجابة أغرت جفون المزن باستعبار

جادت مجاری الدمع من قطر الندی فرعی الربیع لها حقوق الجار

فأعاد وجه الأرض طلقا مشرقا متضاحکا بمباسم النّوّار

یا من مآثره و فضل جهاده تحدی القطار بها إلی الأقطار

حطت البلاد و من حوته ثغورها و کفی بسعدک حامیا لذمار

فلربّ بکر للفتوح خطبتها بالمشرفیة و القنا الخطّار

و عقیلة للکفر لمّا رعتها أخرست من ناقوسها المهذار

أذهبت من صفح الوجود کیانها و محوتها إلّا من التذکار

عمروا بها جنّات عدن زخرفت ثم انثنوا عنها دیار بوار

صبّحت منها روضة مطلولة فأعدتها للحین موقد نار

و اسودّ وجه الکفر من خزی متی ما احمرّ وجه الأبیض البتّار

و لربّ روض للغنی متأوّد ناب الصهیل به عن الأطیار

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۶، ص: ۱۴۷

مهما حکت زهر الأسنّة زهره حکت السیوف معاطف الأنهار

متوقّد لهب الحدید بجوّه تصلی به الأعداء لفح أوار

فبکلّ ملتفت صقال مشهر قدّاح زند للحفیظة واری

فی کفّ أروع فوق نهد سابح متموّج الأعطاف فی الإحضار

من کلّ منخفر بلمحة بارق حمل السلاح به علی طیّار

من أشهب کالصبح یطلع غرّة فی مستهلّ العسکر الجرّار

أو أدهم کاللیل إلّا أنه لم یرض بالجوزاء حلی عذار

أو أحمر کالجمر یذکی شعلة و قد ارتمی من بأسه بشرار

أو أشقر حلّی الجمال أدیمه و کساه من زهو جلال نضار

أو أشعل راق العیون کأنه غلس یخالط سدفة بنهار

شهب و شقر فی الطّراد کأنها روض تفتّح عن شقیق بهار

عوّدتها أن لیس تقرب منهلا حتی یخالط بالدم الموّار

یا أیها الملک الذی أیامه غرر تلوح بأوجه الأعصار

یهنی لواءک أنّ جدّک زاحف بلواء خیر الخلق للکفّار

لا غرو أن فقت الملوک سیادة إذ کان جدّک سیّد الأنصار

السابقون الأوّلون إلى الهدى و المصطفون لنصرة المختار
متهلّلون إذا النزيل عراهم سفروا له عن أوجه الأقمار
من كلّ وضّاح الجبين إذا احتبى تلقاه معصوبا بتاج فخار
قد لاث صبحا فوق بدر بعدما لبس المكارم و ارتدى بوقار
فاسأل ببدر عن مواقف بأسهم فهم تلافوا أمره ببدار
لهم العوالى عن معالى فخرها نقل الرواة عوالى الأخبار
و إذا كتاب اللّه يتلو حمدهم أودى القصور بمنّة الأشعار
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۴۸
يا ابن الذين إذا تذوكر فخرهم فخروا بطيب أرومة و نجار
حقّا لقد أوضحت من آثارهم لما أخذت لدينهم بالثار
أصبحت وارث مجدهم و فخارهم و مشرّف الأعصار و الأمصار
يا صادرا فى الفتح عن ورد المنى رد ناجح الإيراد و الإصدار
و اهنأ بفتح جاء يشتمل الرضا جذلان يرفل فى حلى استبشار
و إليكها ملء العيون و سامة حيّتك بالأبكار من أفكارى
تجرى حداة العيس طيب حديثها يتعلّلون به على الأكوار
إن مسّهم لفح الهجير أبلّهم منه نسيم ثنائك المعطار
و تميل من أصغى لها فكأننى عاطيته منها كؤوس عقار
قذفت بحور الفكر منها جوهرا لمّا وصفت أناملا ببحار
لا زلت للإسلام سترا كلّما أمّ الحجيج البيت ذا الأستار
و بقيت يا بدر الهدى تجرى بما شاءت علاك سوابق الأقدار
انتهت.

[قصيدة ثالثة لابن زمرک يهنئ بها سلطانه، قالها بعد مقتل لسان الدين]

و لابن زمرک السابق قصيدة أخرى قالها بعد موت لسان الدين بن الخطيب و خلع السلطان أبى العباس أحمد بن أبى سالم الذى قتل ابن الخطيب فى دولته، و كان سلطان الأندلس موئلا للسلطان أحمد المذكور، و لذلك امتعض لردّه لملكه، فقال ابن زمرک وزير صاحب الأندلس بعد ابن الخطيب هذه القصيدة يمدح بها سلطانه أثناء وجهته لتجديد الدولة الأحمدية المذكورة صدر عام تسعة و ثمانين و سبعمائة: [الكامل]
هبّ النسيم على الرياض مع السّحر فاستيقظت فى الدّوح أجفان الزّهر
ورمى القضيب دراهما من نوره فاعتاض من طلّ الغمام بها درر
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۴۹
نثر الأزاهر بعدما نظم النّدى يا حسن ما نظم النسيم و ما نثر
قم هاتها و الجوّ أزهر باسم شمسا تحلّ من الزجاجة فى قمر
إن شجّها بالماء كفّ مديرها ترميه من شهب الحباب بها شرر

ناريۀ نوريۀ من ضوئها قدح السراج لنا إذا الليل اعتكر

لم يبق منها الدهر إلّا صبغۀ قد أرعشت فى الكأس من ضعف الكبر

من عهد كسرى لم يفضّ ختامها إذ كان يدخر كنزها فيما دخر

كانت مذاب التبر فيما قد مضى فأحالها ذوب اللجين لمن نظر

جدّد بها عرس الصّبوح فإنها بكر تحببها الكرام مع البكر

و ابلل بها رمق الأصيل عشيّۀ و الشمس من وعد الغروب على خطر

محمّرۀ مصفرّۀ قد أظهرت خجل المريب يشوبه وجل الحذر

من كفّ شفّاف تجسّد نوره من جوهر لألاء بهجته بهر

تهوى البدور كماله و تودّ أن لو أوتيت منه المحاسن و الغرر

قد خطّ نور عذاره فى خدّه قلمان من آس هناك و من شعر

والى عليك بها الكؤوس، و ربما يسقيك من كأس الفتور إذا فتر

سكر الندامى من يديه و لحظه متعاقب مهما سقى و إذا نظر

حيث الهديل مع الهدير تناغيا فالطير تشدو فى الغصون بلا وتر

و القضب مالت للعناق كأنها و فد الأحبّۀ قادمين من السفر

متلاعبات فى الحلىّ ينوب فى وجناتهنّ الورد حسنا عن خفر

و النرجس المطلول يرنو نحوها بلواحظ دمع الندى منها انهمر

و النهر مصقول الحسام متى يرد درع الغدير مصفقا فيه صدر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۵۰

يجرى على الحصباء و هى جواهر متكسرا من فوقها مهما عثر

هل هذه أم روضۀ البشرى التى فيها لأرباب البصائر معتبر

لم أدر من شغف بها و بهذه من منهما فتن القلوب و من سحر

جاءت بها الأجفان ملء ضلوعها ملء الخواطر و المسامع و البصر

و مسافر فى البحر ملء عنانه وافى مع الفتح المبين على قدر

قادته نحوك بالخطام كأنه جمل يساق إلى القياد و قد نفر

و أراه دين اللّه عزّۀ أهله بك يا أعفّ القادرين إذا قدر

يا فخر أندلس و عصمۀ أهلها للناس سرّ فى اختصاصك قد ظهر

كم معضل من دائها عالجته فشفيت منه بالبدار و بالبدر

ما ذا عسى يصف البليغ خليفۀ و اللّه ما أيامه إلّا غرر

ورّثت هذا الفخر يا ملك الهدى من كلّ من آوى النبىّ و من نصر

من شاء يعرف فخرهم و كمالهم فليتل وحى اللّه فيهم و السّير

أبناؤهم أبناء نصر بعدهم بسيوفهم دين الإله قد انتصر

مولاى سعدك و الصباح تشابها و كلاهما فى الخافقين قد اشتهر

هذا وزير الغرب عبد آبق لم يلف غيرك فى الشدائد من وزر

كفر الذى أوليته من نعمة و اللّه قد حتم العذاب لمن كفر

إن لم يمت بالسيف مات بغيظه و صلى سعيرا للتأسّف و الفكر

ركب الفرار مطيّة ينجو بها فجرت به حتى استقرّ على سقر

و كذا أبوه و كان منه حمامه قد حمّ و هو من الحياة على غرر

بلّغته و اللّه أكبر شاهد ما شاء من وطن يعزّ و من وطر

حتى إذا جحد الذى أوليته لم تبق منه الحادثات و لم تذر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۵۱

فى حاله و اللّه أعظم عبرة للّه عبد فى القضاء قد اعتبر

فاصبر تنل أمثالها فى مثله إنّ العواقب فى الأمور لمن صبر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۶؛ ص۱۵۱

وّغا ورد المنى فاللّه حسبك فى الورود و فى الصّدر

لا زلت محروسا بعين كلاءة ما دام عين الشمس تعشى من نظر

و منها و قد أضاف إليه من التغزّل طوع بداره، و حجّة اقتداره، فقال:

و العود فى كفّ النديم بسرّ ما تلقى لنا منه الأنامل قد جهر

غنّى عليه الطير و هو بدوحه و الآن غنّى فوقه ظبى أغر

عود ثوى حجر القضيب، رعى له أيام كانا فى الرياض مع الشجر

لا سيّما لمّا رأى من ثغره زهرا، و أين الزهر من تلك الدرر

و يظنّ أنّ عذاره من آسه و يظنّ تفاح الخدود من الثمر

يسبى القلوب بلفظه و بلحظه و افتنتى بين التكلّم و النظر

قد قيّدته لأنسنا أوتاره كالظبى قيّد فى الكناس إذا نفر

لم يبل قلبى قبل سمع غنائه بمعذّر سلب العقول و ما اعتذر

جسّ القلوب بجسّه أوتاره حتى كأنّ قلوبنا بين الوتر

نمّت لنا ألحانه بجميع ما قد أودعت فيه القلوب من الفكر

يا صامتا و العود تحت بنانه يغنيك نطق الخبر فيه عن الخبر

أغنى غناؤك عن مدامك، يا ترى هل من لحاظك أم بنانك ذا السّكر

باحت أناملك اللدان بكلّ ما كان المتيّم فى هواه قد ستر

و مقاتل ما سلّ غير لحاظه و الرمح هزّ من القوام إذا خطر

دانت له منّا القلوب بطاعة و السيف يملك ربّه مهما قهر

و سنلمّ إن شاء اللّه تعالى بترجمة ابن زمرك هذا فى باب التلامذة، و نشير هناك إلى كثير من أحواله، و كيفية قتله، مع أولاده و خدمه بمرأى و مسمع من أهله، فكان الجزاء من جنس العمل، و خاب منه الأمل، إذ لسان الدين قتل غيلة بليل غاسق، على يد مختلس فى السجن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۵۲

فاسق، و أمّا ابن زمرك فقتل بالسيف جهارا، و تناوشته سيوف مخدومه بين بناته إبداء للتشفّى و إظهارا، و قتل معه من وجد من خدمه

و ابناه، و أبعده الدهر و طالما أدناه. و هكذا الحال فى خدّام الدول و ذوى الملك، أنهم أقرب شىء من الهلك، و يرحم اللّه من قال: إياك و خدمة الملوك فإنهم يستقلّون فى العقاب، ضرب الرقاب، و يستكثرون فى الثواب، ردّ الجواب؛.

[رجع إلى أخبار لسان الدين]

رجع إلى ما كنّا فيه من أحوال لسان الدين بن الخطيب: و كان رحمه اللّه تعالى قبيل موته- لمّا توفى السلطان أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان أبى الحسن المرينى بتلمسان و تغلّب على الأمر الوزير أبو بكر بن غازى بن الكاس مبايعا لابن صغير السنّ من أولاد السلطان عبد العزيز- ألّف كتابه المسمّى ب «أعمال الأعلام، بمن بويع من ملوك الإسلام قبل الاحتلام» و مراده بذلك تثبيت دولة الوزير الذى أبى أن يخفر عهده و ذمّته، و امتنع أن يمكّن منه أهل الأندلس، فأكثروا القالة فى الوزير بسبب مبايعته للصبى، و بنوا ظاهر الأمر على أنّ ذلك لا يجوز بالشرع، و أبدؤوا و أعادوا فى ذلك، و أسرّوا ما كان من أمرهم حسوا فى ارتغاء. و من جملة كلام لسان الدين بن الخطيب فى ذلك الكتاب قوله: فمتى نبس أهل الأندلس بإنكار بيعة صبى صغير، أو نيابة صاحب أو وزير، فقد عموا و صمّوا، و خطروا بربع الإنصاف فأعرضوا و ما ألمّوا، و بما سنوه لغيرهم ذمّوا؛ انتهى.

و كان رحمه اللّه تعالى ألّف للسلطان عبد العزيز حين انحيازه إليه «المباخر الطيبية، فى المفاخر الخطيبية»: يذكر فيه نباهة سلفه، و ما لهم من المجد، و قصده الردّ على أهل الأندلس المجاهرين له بالعداوة، القادحين فى فخر سلفه. ثم ألف للسلطان المذكور كتاب «خلع الرسن، فى التعريف بأحوال ابن الحسن» لكونه تولّى كبر الحطّ منه، و السعى فى هلاكه كما مرّ، و قال فى حقّ هذا الكتاب: إنه لا شىء فوقه فى الظرف و الاستطراف، يسلى الثّكالى، و نستغفر اللّه تعالى؛ انتهى.

و مع هذا كلّه لما أنشبت المنيّة أظفارها لم تنفعه ممّا كتب تميمة، و نال ما أمّله فيه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۵۳

أهل السعاية و النميمة، و سجّلوا عليه المقالات الذميمة، و قد صار الجميع إلى حكم عدل قادر يحيى من العظم رميمه، و ينصف المظلوم من الظالم، و يجازى الجاهل و العالم، و يساوى بين المأمور و الآمر، و الشريف و المشروف، و العزيز و الحقير، و المنكر و المعروف، و عفوه سبحانه مؤمل بعد، و هو لا- يخلف الوعد، و من سبقت له العناية، لم تضره الجناية. و قد كان لسان الدين بن الخطيب- رحمه اللّه تعالى!- محبا فى العفو حتى إنه كان إذا جرى لديه ذكر عقوبة الملوك لأتباعهم تشمئز نفسه من ذلك و يقول ما معناه: ما ضرهم لو عفو، و رأيت له- رحمه اللّه تعالى!-

[استعطاف الوزير أبى بكر بن عمار إلى المعتمد بن عباد حين قبض عليه]

فى بعض مؤلّفاته قد أجرى ذكر استعطاف ذى الوزارتين أبى بكر بن عمار للسلطان المعتمد بن عباد حين قبض عليه بقوله: [الطويل]

سجاياك إن عافيت أندى و أسمح و عذرك إن عاقبت أولى و أوضح

و إن كان بين الخطّتين مزيّة فأنت من الأدنى إلى اللّه أجنح

و ما ذا عسى الأعداء أن يتزايدوا سوى أنّ ذنبى ثابت و مصحّح

و إنّ رجائى أنّ عندك غير ما يخوض عدوّى اليوم فيه و يمرح

أقلنى بما بينى و بينك من رضا له نحو روح اللّه باب مفتّح

و لا تلتفت قول الوشاة وزورهم فكلّ إناء بالذى فيه يرشح

و قالوا: سيجزيه فلان بذنبه فقلت: و قد يعفو فلان و يصفح

ألا إنّ بطشا للمؤيد يرتمى و لكنّ حلما للمؤيّد يرجح

و بين ضلوعى من هواه تميمة ستشفع لو أنّ الحمام يجلّح

سلام عليه كيف دار به الهوى إلىّ فيدنو أو علىّ فينزح

و يهنيه إن رمت السلوّ فإننى أموت ولى شوق إليه مبرّح

ما نصه: و لابن عمار كلمات شهيرة تعالج بمراهمها جراح القلوب، و تعفّى على هضبات الذنوب، لو لا ما فرغ عنه من القدر المكتوب، و الأجل المحسوب، إلى أن قال: و ما كان أجمل بالمعتمد أن يبقى على جان من عبيده، قد مكّنه اللّه منن عنقه، لا يؤمّل الحصول على أمره، و لا يحذر تعصّب قبيله، و لا يزيده العفو عنه إلّا ترفّعا و عزّة و جلالة و همّة، و ذكرا جميلا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۵۴

و أجرا جزيلا، فلا شىء أمحى للسيئة من الحسنة، و لا أقتل للشّرّ من الخير، و رحم اللّه الشاعر إذ يقول: [الكامل]

و طعنتهم بالمكرمات و باللّها فى حيث لو طعن القنا لتكسّرا

و قد تذكرت هنا قول الأديب أبى عبد اللّه محمد بن أحمد التجانى رحمه اللّه تعالى و رضى عنه: [الطويل]

أتعجب أن حطّت يد الدهر فاضلا عن الرتبة العليا فأصبح تحتها

أما هذه الأشجار تحمل أكلها و تسقط منه كلّ ما طاب و انتهى

[نكبة عبد المؤمن بن على للوزير أبى جعفر بن عطية]

و حكى غير واحد من مؤرخى الأندلس أنّ الكاتب الشهير الوزير أبا جعفر بن عطية القضاعى لمّا تغيّر له عبد المؤمن و تذاكر مع بعض من أهل العلم أبيات ابن عمار السابقة، قال:

ما كان المعتمد إلّا قاسى القلب حيث لم تعطفه هذه الأبيات إلى العفو، و وقع لابن عطية المذكور مثل قضية ابن عمار، و استعطف فما نفع ذلك و قتل رحمه اللّه تعالى، و لنلمّ بذلك فنقول:

كان أبو جعفر هذا من أهل مراكش، و أصله القديم من طرطوشة، ثم بعد من دانية و هو ممّن كتب عن على بن يوسف بن تاشفين أمير لمتونة، و عن ابنيه تاشفين و إسحاق، ثم استخلصه لنفسه سالب ملكهم عبد المؤمن بن على، و أسند إليه وزارته، فنهض بأعبائها، و تحبب إلى الناس بإجمال السعى و الإحسان، فعمت صنائعه، و فشا معروفه، و كان محمود السيرة، مبخّت المحاولات، ناجح المساعى، سعيد المآخذ، ميسّر المآرب، و كانت وزارته زينا للوقت، و كمالا للدولة. و فى أيام توجّهه للأندلس وجد حسّاده السبيل إلى التدبير عليه و السعى به، حتى أوغروا صدر الخليفة عبد المؤمن عليه، فاستوزر عبد السلام بن محمد الكومى، و انبرى لمطالبة ابن عطية، و جدّ فى التماس عوراته، و تشنيع سقطاته، و طرحت بمجلس السلطان أبيات منها: [البسيط]

قل للإمام أطال اللّه مدّته قولا تبين لذى لبّ حقائقه

إنّ الزراجين قوم قد وترتهم و طالب الثأر لم تؤمن بوائقه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۵۵

و للوزير إلى آرائهم ميل لذاك ما كثرت فيهم علائقه

فبادر الحزم فى إطفاء نارهم فربما عاق عن أمر عوائقه

هم العدوّ و من والاهم كهم فاحذر عدوّك واحذر من يصادقه

اللّه يعلم أنى ناصح لكم و الحقّ أبلج لا تخفى طرائقه

[من اعتذارات ابن عطية لعبد المؤمن بن على]

قالوا: و لما وقف عبد المؤمن على هذه الأبيات البليغة فى معناها وغر صدره على وزيره أبى جعفر، و أسرّ له فى نفسه تغيّرا، فكان من أقوى أسباب نكبته.

و قيل: أفضى إليه بسرّ فأفشاه، و انتهى ذلك كلّه إلى أبى جعفر و هو بالأندلس، فقلق و عجّل الانصراف إلى مراكش، فحجب عند قدومه، ثم قيد إلى المسجد فى اليوم بعده حاسر العمامة، و استحضر الناس على طبقاتهم، و قرروا على ما يعلمون من أمره، و ما صار إليه منهم، فأجاب كلّ بما اقتضاه هواه، و أمر بسجنه، و لفّ معه أخوه أبو عقيل عطية، و توجّه فى إثر ذلك عبد المؤمن إلى زيارة تربة المهدى محمد بن تومرت، فاستصحبهما منكوبين بحال ثقاف. و صدرت عن أبى جعفر فى هذه الحركة، من لطائف الأدب، نظما و نثرا فى سبيل التوسّل بتربة إمامهم المهدى عجائب لم تجد شيئا مع نفوذ قدر اللّه تعالى فيه. و لما انصرف من وجهته أعادهما معه، قافلا إلى مراكش، فلمّا حاذى تاقمرت، أنفذ الأمر بقتلهما بالشّعراء المتّصلة بالحصن على مقربة من الملاحة هنالك، فمضيا لسبيلهما، رحمهما اللّه تعالى!.

و ممّا خاطب به الخليفة عبد المؤمن مستعطفا له من رسالة تغالى فيه فغالته المنيّة، و لم ينل الأمنية، و هذه سنّة اللّه تعالى فيمن لم يحترم جناب الألوهية، و لم يحرس لسانه من الوقوع فيما يخدش فى وجه فضل الأنبياء على غيرهم و عصمتهم، قوله سامحه اللّه: تاللّه لو أحاطت بى كلّ خطيئة، و لم تنفكّ نفسى عن الخيرات بطيئة، حق سخرت بمن فى الوجود، و أنفت لآدم من السجود، و قلت: إنّ اللّه تعالى لم يوح، فى الفلك لنوح، و بريت لقدار ثمود نبلا، و أبرمت لحطب نار الخليل حبلا، و حططت عن يونس شجرة اليقطين، و أوقدت مع هامان على الطين، و قبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها، و افتريت على العذراء البتول فقذفتها، و كتبت صحيفة القطيعة بدار النّدوة، و ظاهرت الأحزاب بالقصوى من العدوة، و ذممت كلّ قرشى، و أكرمت لأجل وحشى كلّ حبشى، و قلت: إنّ بيعة السقيفة، لا توجب إمامة الخليفة،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۵۶

و شحذت شفرة غلام المغيرة بن شعبة، و اعتلقت من حصار الدار و قتل أشمطها بشعبة، و قلت: تقاتلوا رغبة فى الأبيض و الأصفر، و سفكوا الدماء على الثريد الأعفر، و غادرت الوجه من الهامة خضيبا، و ناولت من قرع سنّ الحسين قضيبا، ثم أتيت حضرة المعلوم لائذا، و بقبر الإمام المهدىّ عائذا، لقد آن لمقالتى أن تسمع، و تغفر لى هذه الخطيئات أجمع، [مع أنى مقترف، و بالذنب معترف]: [الطويل]

فعفوا أمير المؤمنين فمن لنا بردّ قلوب هدّها الخفقان

و كتب مع ابن له صغير آخرة: [البسيط]

عطفا علينا أمير المؤمنين، فقد بان العزاء لفرط البثّ و الحزن

قد أغرقتنا ذنوب كلّها لجج و عطفة منكم أنجى من السفن

و صادفتنا سهام كلّها غرض و رحمة منكم أوقى من الجنن

هيهات للخطب أن تسطو حوادثه بمن أجارته رحماكم من المحن

من جاء عندكم يسعى على ثقة بنصره لم يخف بطشا من الزمن

فالثوب يطهر عند الغسل من درن و الطّرف ينهض بعد الركض فى سنن

أنتم بذلتم حياة الخلق كلّهم من دون منّ عليهم لا و لا ثمن

و نحن من بعض من أحيت مكارمكم كلتا الحياتين من نفس و من بدن

و صبية كفراخ الورق من صغر لم يألفوا النّوح فى فرع و لا فنن

قد أوجدتهم أياد منك سابقة و الكلّ لو لاك لم يوجد و لم يكن

فوقّع عبد المؤمن على هذه القصيدة آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ [يونس: ۹۱]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۵۷

و ممّا كتب به من السجن: [الطويل]

أنوح على نفسى أم انتظر الصفحا؟ فقد آن أن تنسى الذنوب و أن تمحى

فها أنا فى ليل من السخط حائر و لا أهتدى حتى أرى للرضا صبحا

[ذكر بعض الأدباء من آل عطية و إجازة بين عبد المؤمن بن على و وزيره أبى جعفر بن عطية]

و امتحن عبد المؤمن الشعراء بهجو ابن عطية، فلمّا أسمعوه ما قالوا، أعرض عنهم، و قال: ذهب ابن عطية، و ذهب الأدب معه.

و كان لأبى جعفر أخ اسمه عطية قتل معه، و لعطية هذا ابن أديب كاتب، و هو أبو طالب عقيل بن عطية، و من نظمه فى رجل تعشّق قينة كانت ورثت من مولاها مالا فكانت تنفق عليه منه، فلمّا فرغ المال ملّها: [السريع]

لا تلحه أن ملّ من حبّها فلم يكن ذلك من ودّ

لمّا رآها قد صفا مالها قال: صفا الوجه مع الوجد

و كان أبو جعفر بن عطية من أبلغ أهل زمانه، و قد حكى أنه مرّ مع الخليفة عبد المؤمن ببعض طرق مراكش، فأطلت من شباك جارية بارعة الجمال، فقال عبد المؤمن: [البسيط]

قدّت فؤادى من الشّبّاك إذ نظرت

فقال الوزير ابن عطية مجيزا له:

حوراء ترنو إلى العشّاق بالمقل

فقال عبد المؤمن:

كأنما لحظها فى قلب عاشقها

فقال ابن عطية:

سيف المؤيّد عبد المؤمن بن على

و لا خفاء أنّ هذه طبقة عالية.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۵۸

[من رسالة لأبى جعفر بن عطية كانت السبب فى ظهور تفوقه]

و من فصول رسالته التى كتب بها عن أبى حفص، و هى التى أورثته الرتبة العليّة السنيّة، و الوزارة الموحّديّة المؤمنية، قوله: «كتابنا هذا من وادى ماسة بعد ما تجدّد من أمر اللّه الكريم، و نصر اللّه تعالى المعهود المعلوم وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ [آل عمران: ۱۲۶] فتح بهر الأنوار إشراقا، و أحدق بنفوس المؤمنين إحداقا، و نبّه للأمانى النائمة جفونا و أحداقا، و استغرق غاية الشكر استغراقا، فلا تطيق الألسن لكنه وصفه إدراكا و لا لحاقا، جمع أشتات الطلب و الأرب، و تقلّب فى النعم أكرم منقلب، و ملأ دلاء الأمل إلى عقد الكرب: [البسيط]

فتح تفتّح أبواب السماء له و تبرز الأرض فى أثوابها القشب

و تقدّمت بشارتنا به جملة، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة، كان أولئك الضالون المرتدّون قد بطروا عدوانا و ظلما، و اقتطعوا الكفر معنى و اسما، و أملى لهم اللّه تعالى ليزدادوا إثما، و كان مقدّمهم الشقى قد استمال النفوس بخز عبلاته، و استهوى القلوب بمهولاته،

و نصب له الشيطان من حبالاته، فأتته المخاطبات من بعد و كثب، و نسلت إليه الرسل من كلّ حدب، و اعتقدته الخواطر أعجب عجب، و كان الذى قادهم إلى ذلك، و أوردهم تلك المهالك، وصول من كان بتلك السواحل، ممّن ارتسم برسم الانقطاع عن الناس فيما سلف من الأعوام، و اشتغل على زعمه بالقيام و الصيام، آناء الليالى و الأيام، لبسوا الناموس أثوابا، و تدرّعوا الرياء جلبابا، فلم يفتح اللّه تعالى لهم للتوفيق بابا».

و منها فى ذكر صاحبهم الماسى المدّعى للهداية: «فصرع بحمد اللّه تعالى لحينه، و بادرت إليه بوادر منونه، و أتته وافدات الخطيئات عن يساره و يمينه، و قد كان يدّعى أنه بشّر بأنّ المتيّئة فى هذه الأعوام لا تصيبه، و النوائب لا تنوبه، و يقول فى سواه قولا كثيرا، و يختلق على اللّه تعالى إفكا وزورا، فلمّا رأوا هيئة اضطجاعه، و ما خطته الأسنّة فى أعضائه و أضلاعه، و نفذ فيه من أمر اللّه تعالى ما لم يقدروا على استرجاعه، هزم من كان لهم من الأحزاب، و تساقطوا على وجوههم تساقط الذباب، و أعطوا عن بكرة أبيهم صفحات الرقاب، و لم تقطر كلومهم إلّا على الأعقاب، فامتلأت تلك الجهات بأجسادهم، و آذنت الآجال

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۵۹

بانقراض آمادهم، و أخذهم اللّه تعالى بكفرهم و فسادهم، فلم يعاين منهم إلّا من خرّ صريعا، و سقى الأرض نجيعا، و لقى من أمر الهنديات فظيعا، ودعت الضرورة باقيهم إلى الترامى فى الوادى، ممن كان يؤمل الفرار و يرتجيه، و يسبح طامعا فى الخروج إلى ما ينجيه، اختطفته الأسنّة اختطافا، و أذاقته موتا ذعافا، و من لجّ فى الترامى على لججه، ورام البقاء فى ثبجه، قضى عليه شرقه، و ألوى بذقنه غرقه. و دخل الموحّدون إلى البقية الكائنة فيه يتناولون قتالهم طعنا و ضربا، و يلقونهم بأمر اللّه تعالى هو لا عظيما و كربا، حتى انبسطت مراقات الداء، على صفحات الماء، و حكت حمرتها على زرقته حمرة الشفق على زرقة السماء، و جرت العبرة للمعتبر، فى جرى ذلك الدم جرى الأبحر».

و بالجملة، فالرجل كان نسيج وحده رحمه اللّه تعالى و سامحه، و قصة لسان الدين تشبه قصته، و كلاهما قد ذاق من الذلّ بعد العزّ غصّته، و بدّل الدهر نصيبه من الوزارة و حصّته، بعد أن اقتعد ذروة الأمر و منصّته، رحم اللّه تعالى الجميع، إنه مجيب سميع!.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۶۰

الباب الثالث فى ذكر مشايخ لسان الدين الجلة هداة الناس و نجوم الملة

اشارة

فى ذكر مشايخه الجلّة، هداة الناس و نجوم الملّة، و ما يتعلّق بذلك من الأخبار الشافية من العلّة، و المواعظ المنجية من الأهواء المضلّة، و المناسبات الواضحة البراهين و الأدلّة.

أقول: لا خفاء أنّ الشيخ لسان الدين، رحمه اللّه تعالى، أخذ عن جماعة من أهل العدوة و الأندلس عدة فنون، و حدّث عنهم بما يصدق الأقوال و يحقّق الظنون.

[محمد بن أحمد، الحسين، السبتى، قاضى الجماعة]

فمن أشياخه، رحمه اللّه تعالى، الفقيه الجليل الشريف النبيه الشهير، رئيس العلوم اللسانية بالأندلس، قاضى الجماعة أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسنى السّبتى، رحمه اللّه تعالى! كان هذا الشريف آية اللّه الباهرة فى العربية و البيان و الأدب، و يكفيه فضلا أنه شرح الخزرجية، و افترع هضاب مشكلاتها بفهمه، من غير أن يسبقه أحد إلى استخراج كنوزها، و إيضاح رموزها، و شرح مقصورة أديب المغرب الإمام أبى الحسن حازم بن محمد القر طاجنّى الأندلسى التى مدح بها أمير المؤمنين المستنصر باللّه أبا عبد اللّه محمدا

الحفصى، و سمّى هذا الشرح ب «رفع الحجب المستورة، عن محاسن المقصورة» و هذا الشرح فى مجلّدين كبيرين، و فيه من الفوائد ما لا مزيد عليه، رأيته بالمغرب، و استفدت منه كثيرا.

و من فوائد الشريف المذكور أنه قال فيما جاء من الحديث فى صفة وضوء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «فأقبل بهما و أدبر» إنّ أحسن الوجوه فى تأويله أن يكون قدّم الإقبال تفاؤلا، ثم فسّر بعد ذلك على معنى أدبر و أقبل، قال: و العرب تقدّم فى كلامها على ألفاظ أخرى، و تلتزمه فى بعض المواضع، كقولهم: قام و قعد، و لا تقول: قعد و قام، و كذلك أكل و شرب، و دخل و خرج، و على هذا النمط كلام العرب، فتكون هذه المسألة من هذا، قال: و يؤيد ما قلناه- و هو موضع النكتة- تفسيره لأقبل و أدبر فى باقى الحديث على معنى أدبر ثم أقبل، و لو كان اللفظ على ظاهره لم يحتج إلى تفسير؛ انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۶۱

و حدّث، رحمه اللّه تعالى، عن جدّه لأمّه قال: كنت بالمشرق، فدخلت على بعض القرائين، فألفيت الطلبة يعربون عليه قول امرئ القيس: [الطويل]

كأنّ أبانا فى أفانين ودقه كبير أناس فى بجاد مزمّل

فأنشد و لا أدرى هل هى له أو لغيره: [الطويل]

إذا ما الليالى جاورتك بساقط و قدرك مرفوع فعنه ترحّل

أ لم تر ما لاقاه فى جنب جاره (كبير أناس فى بجاد مزمّل)

و كان بعض الناس ينشد فى هذا المقصد قول الآخر: [الطويل]

عليك بأرباب الصدور، فمن غدا مضافا لأرباب الصدور تصدّرا

و إياك أن ترضى بصحبة ساقط فتنحطّ قدرا من علاك و تحقرا

فرفع أبو من ثم خفض مزمّل يبيّن قولى مغريا و محذّرا

و هذا معنى قول الشاعر: [الطويل]

إذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم و لا تصحب الأردى فتردى مع الردى

و ما أحسن قول أبى بحر صفوان بن إدريس المرسى رحمه اللّه تعالى: [مخلع البسيط]

إنّا إلى اللّه من أناس قد خلعوا لبسة الوقار

جاورتهم فانخفضت هونا يا ربّ خفض على الجوار

و من نظم الشريف رحمه اللّه تعالى: [الوافر]

و أحور زان خدّيه عذار سبى الألباب منظره العجاب

أقول لهم و قد عابوا غرامى به إذ لاح للدمع انسكاب

أبعد كتاب عارضه يرجّى خلاص لى و قد سبق الكتاب

و من الغريب فى توارد الخواطر ما وجد بخطّ الأديب البارع المحدّث الكاتب أبى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۶۲

عبد اللّه محمد ابن الشيخ الكبير أبى القاسم بن جزى الكلبى، رحمهما اللّه تعالى- و سيأتيان- ما معناه: قلت هذه القطعة: [الوافر]

و معسول اللّمى عادت عذابا على قلبى ثناياه العذاب

و قد كتب العذار بوجنتيه كتابا حظّ قارئه اكتئاب

و قالوا لو سلوت فقلت خيرا و أنّى لى و قد سبق الكتاب

ثم عرضتها على شيخنا القاضى أبى القاسم الشريف بعد نظمها بمدة يسيرة فقال لى: قد نظمت هذا المعنى بالعروض و القافية فى هذه الأيام اليسيرة، و أنشدنى:

و أحور زان خديه عذار

الأبيات السابقة.

و هذا يقع كثيرا، و منه ما وقع لابن الرقام حيث قال: من شعر عمى قوله:

جل فى البلاد تنل عزّا و تكرمة فى أى أرض فكن تبلغ مناك بها

جلّ الفوائد بالأسفار مكتسب و اللّه قد قال فَامْشُوا فِي مَناكِبِها

فقال له الفقيه ابن حذلم: مثل هذا وقع لأبى حيان إذ قال: [البسيط]

يا نفس ما لك تهوين الإقامة فى أرض تعذّر كلّ من مناك بها

أما تلوت و عجز المرء منقصة فى محكم الوحى فَامْشُوا فِي مَناكِبِها

فحصل العجب من هذا الاتفاق الغريب.

و نقلت ممّن نقل من خطّ الفقيه محمد بن على بن الصباغ العقيلى ما صورته: كان الشريف الغرناطى- رحمه اللّه تعالى!- آية زمانه، و أزمّة البيان طوع بنانه، له شرح المقصورة القرطاجنية أغرب ما تتحلى به الآذان، و أبدع ما ينشرح له الجنان، إلى العقل الذى لا يدرك، و الفضل الذى حمد منه المسلك. حدّثنى بنادرة جرت بينه و بين مولاى الوالد من أثق به من طلبة الأندلس و أعلامها، قال دخل والدك يوما لأداء الشهادة عنده، فوجد بين يديه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۶۳

جماعة من الغزاة يؤدّون شهادة، فسمع القاضى منهم، و قال لهم: هل ثمّ من يعرفكم؟ فقالوا:

نعم، يعرفنا على الصباغ، فقال القاضى: أتعرفهم يا أبا الحسن؟ فقال له: نعم يا سيدى، معرفة محمد بن يزيد، فما أنكر عليه شيئا بل قال لهم: عرف الفقيه أبو الحسن ما عنده، فانظروا من يعرف معه رسم حالكم، فانصرفوا راضين، و لم يرتهن والدى فى شىء من حالهم، و لا كشف القاضى لهم ستر القضية.

قال محمد بن على بن الصباغ: أمّا قول والدى «معرفة محمد بن يزيد» فإشارة إلى قول الشاعر: [الوافر]

أسائل عن ثمالة كلّ حىّ فكلّهم يقول و ما ثماله

فقلت محمد بن يزيد منهم فقالوا الآن زدت بهم جهاله

فتفطّن القاضى، رحمه اللّه تعالى، لجودة ذكائه إلى أنه لم يرتهن فى شىء من معرفتهم، ممتنعا من إظهار ذلك بلفظه الصريح، فكنى و اكتفى بذكاء القاضى الصحيح، رحمهما اللّه تعالى! انتهى.

و من فوائد الشريف ما حكاه عنه تلميذه الإمام النّظّار أبو إسحاق الشاطبى رحمه اللّه تعالى! و نصّه: قال لى الشيخ القاضى الكبير الشهير أبو القاسم الحسنى يوما و قد جرى ذكر «حتى» التى للابتداء، و أنّ معناها التى يقع بعدها الكلام سواء كان ذلك متعلّقا بما قبلها لم يتمّ دونه أو لا، بل لا يكون الأمر إلّا كذلك، قال: و قد حدّثنى بعض الأصحاب أنه سمع رجلا يصلى أشفاع رمضان، فقرأ من سورة الكهف إلى قوله تعالى ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً [الكهف: ۹۲] فوقف هنالك، و ركع و سجد، قال: فظننت أنه نسى ما بعد، ثمّ ركع و سجد حتى يتذكّر بعد ذلك و يعيد أول الكلام، فلمّا قام من السجود ابتدأ القراءة بقوله حَتَّى إِذا بَلَغَ [الكهف: ۹۰] فلما أتمّ الصلاة قلت له فى ذلك، فقال: أليست حتى الابتدائية؟ قال القاضى الشريف المذكور: فيجب أن يفهم أنّ الاصطلاح فى «حتى» و فى غيرها من حروف الابتداء ما ذكر؛ انتهى.

و قال الشاطبى: أنشدنى أبو محمد بن حذلم لنفسه: [البسيط]

شأن المحبين فى أشجانهم عجب و حالتى بينهم فى الحبّ أعجبها

قد كنت أبعث من ريح الصّبا رسلا تأتى فتطفىء أشواقى فتذهبها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۶۴

و الآن أرسل دمعى إثرها ديما فتلتظى نار وجدى حين أسكبها

فاعجب لنار اشتياق فى الحشا وقفت الريح يذهبها و الماء يلهبها

ثم قال الشاطبى ما نصّه: أخذ هذا المعنى فتمّمه، من قطعة أنشدناها شيخنا القاضى أبو القاسم الشريف، رحمه اللّه تعالى، عليه! أذكر الآن آخر بيت منها و هو: [البسيط]

يا من رأى النار إن تطفأ مخالفة فبالرياح، و إن توقد فبالماء

[مرثية الوزير ابن زمرك لشيخه قاضى الجماعة الحسنى، المذكور]

و أخذ عن الشريف المذكور، رحمه اللّه تعالى، جماعة غير لسان الدين، من أشهرهم العلّامة النظّار أبو إسحاق الشاطبى، و الوزير الكاتب أبو عبد اللّه بن زمرك. قال حفيد السلطان الغنى بالله ابن الأحمر، رحمه اللّه تعالى، فى حقّ ابن زمرك: إنه كان يتردّد الأعوام العديدة إلى قاضى الجماعة أبى القاسم الشريف، فأحسن الإصغاء، و بذّ الأئمّة البلغاء، بما أوجب أن رثاه عند الوقوف على قبره بالقصيدة الفريدة التى أولها: [الكامل]

أغرى سراة الحىّ بالإطراق

و قال فى موضع آخر: و ممّا بذّ به- يعنى ابن زمرك- سبقا و تبريزا، و عرضه على نقدة البيان، فرأت منه كلّ مذهبة خلصت إبريزا، مرثيته للقاضى المعظم الشريف أبى القاسم الحسنى من شيوخه، و هى: [الكامل].

أغرى سراة الحىّ بالإطراق نبأ أصمّ مسامع الآفاق

أمسى به ليل الحوادث داجيا و الصبح أصبح كاسف الإشراق

فجع الجميع بواحد جمعت له شتّى العلا و مكارم الأخلاق

هبّوا لحكمكم الرصين فإنه صرف القضاء فما له من واق

نقش الزمان بصرفه فى صفحة كلّ اجتماع مؤذن بفراق

ما ذا ترجّى من زمانك بعد ما علق الفناء بأنفس الأعلاق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۶۵

من تحسد السبع الطباق علاءه عالوا عليه من الثرى بطباق

إنّ المنايا للبرايا غاية سبق الكرام لخصلها بسباق

لمّا حسبنا أن تحوّل أبؤسا كشفت عوان حروبها عن ساق

ما كان إلّا البدر طال سراره حتى رمته يد الردى بمحاق

أنف المقام مع الفناء نزاهة فنوى الرحيل إلى مقام باق

عدم الموافق فى مرافقه الدنا فنضى الركاب إلى الرفيق الباقى

أسفا على ذاك الجلال تقلّصت أفياؤه و عهدن خير رواق

يا آمرى بالصبر، عيل تصبّرى دعنى عدتك لواعج الأشواق

و ذر اليراع تشى بدمع مدادها وشى القريض يروق فى الأوراق

وا حسرتا للعلم أقفر ربعه و العدل جرّد أجمل الأطواق

ركدت رياح المعلوات لفقدها كسدت به الآداب بعد نفاق

كم من غوامض قد صدعت بفهمها خفيت مداركها على الحذّاق

كم قاعد فى البيد بعد قعوده قعدت به الآمال دون لحاق

لمن الركائب بعد بعدك تنتضى ما بين شام ترتمى و عراق

تفلى الفلا بمناسم مفلولة تسم الحصى بنجيعها الرقراق

كانت إذا اشتكت الوجى و توقّفت يهفو نسيم ثنائك الخفّاق

فإذا تنسّمت الثناء أمامها مدّت لها الأعناق فى الإعناق

يا مزجى البدن القلاص خوافقا رفقا بها فالسعى فى إخفاق

مات الذى ورث العلا عن معشر ورثوا تراث المجد باستحقاق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۶۶

رفعت لهم رايات كلّ جلالة فتميّزوا فى حلبة السّبّاق

علم الهداة و قطب أعلام النّهى حرم العفاة المجتنى الأرزاق

رقّت سجاياه و راقت مجتلى كالشمس فى بعد و فى إشراق

كالزّهر فى لألائه، و البدر فى عليائه، و الزّهر فى الإبراق

مهما مدحت سواه قيّد وصفه و صفاته حمد على الإطلاق

يا وارثا نسب النبوّة جامعا فى العلم و الأخلاق و الأعراق

يا ابن الرسول و إنها لوسيلة يرقى بها أوج المصاعد راقى

ورد الكتاب بفضلكم و كمالكم و كفى ثناء الواحد الخلّاق

مولاى إنى فى علاك مقصّر قد ضاق عن حصر النجوم نطاقى

و من الذى يحصى مناقب مجدكم عدّ الحصى و الرمل غير مطاق

يهنى قبورا زرتها فلقد ثوت منّا مصون جوانح و حداق

خطّ الردى منها سطورا نصّها: لا بدّ أنك للفناء ملاق

و لحقت ترجمة الكتاب و صدره و فوائد المكتوب فى الإلحاق

كم من سراة فى القبور كأنهم فى بطنها درّ ثوى بحقاق

قل للسحاب اسحب ذيولك نحوه و العب بصارم برقك الخفّاق

أودى الذى غيث العباد بكفّه يزرى بواكف غيثك الغيداق

إن كان صوبك بالمياه فدرّها درّ يروّض ماحل الإملاق

بشر كثير قد نعوا لمّا نعى قاضى القضاة و غاب فى الأطباق

ألبستهم ثوب الكرامة ضافيا و أرحت من كدّ و من إرهاق

يتفيّؤون ظلال جاهك كلّما لفحت سموم الخطب بالإحراق

عدموا المرافق فى فراقك و انطوى عنهم بساط الرفق و الإرفاق

رفعوا سريرك خافضين رؤوسهم ما منهم إلّا حليف سياق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۶۷

لكن مصيرك للنعيم مخلّدا كان الذى أبقى على الأرماق

و من العجائب أن يرى بحر الندى طود الهدى يسرى على الأعناق

إن يحملوك على الكواهل طالما قد كنت محمولا على الأحداق

أو يرفعوك على العواتق طالما رفّعت ظهر منابر و عتاق

و لئن رحلت إلى الجنان فإننا نصلى بنار الوجد و الأشواق

لو كنت تشهد حزن من خلّفته لثنى عنانك كثرة الإشفاق

إن جنّ ليل جنّ من فرط الأسى و سوى كلامك ما له من راق

فابعث خيالك فى الكرى يبعث به ميت السرور لثاكل مشتاق

أغليت يا رزء التصبّر مثل ما أرخصت درّ الدمع فى الآماق

إن يخلف الأرض الغمام فإننى أسقى الضريح بدمعى المهراق

و كانت وفاة الشريف المذكور سنة إحدى و ستين و سبعمائة.

قال ابن الخطيب القسمطينى فى وفياته: و فى هذه السنة- يعنى سنة ۷۶۱- توفى شيخنا قاضى الجماعة بغرناطة، حرسها اللّه تعالى، أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسنى، و كتب لى بالإجازة العامة بعد التمتّع بمجلسه، و له شعر مدوّن سمّاه «جهد المقلّ» و له الشرح على الخزرجية فى العروض، و أقدم عليها بعد أن عجز الناس عن فكّها، و كان إماما فى الحديث و الفقه و النحو، و هو على الجملة ممّن يحصل الفخر بلقائه، و لم يكن أحد بعده مثله بالأندلس؛ انتهى.

و قال فى «الإحاطة» إنّ مولد الشريف كان سنة سبع و تسعين و ستمائة، و إنّ وفاته سنة ستين و سبعمائة. و فى وفاته مخالفة لما تقدّم، و اللّه أعلم.

و ما أحسن قول الشريف أبى القاسم المترجم به: [الوافر]

حدائق أنبتت فيها الغوادى ضروب النّور رائقة البهاء

فما يبدو بها النّعمان إلّا نسبناه إلى ماء السماء

[أبناء القاضى الحسين المذكور]

و كان للشريف أبى القاسم المذكور ابنان نجيبان: أحدهما قاضى الجماعة أبو المعالى،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۶۸

و الآخر أبو العباس أحمد، قال الراعى فى كتابه «الفتح المنير، فى بعض ما يحتاج إليه الفقير» ما نصّه: حكاية تتعلّق بالانقطاع، نسأل اللّه تعالى العافية: وقع للسيد الشريف قاضى الجماعة بغرناطة أبى المعالى ابن السيد الشريف أبى القاسم الحسنى شارح الخزرجية و مقصورة حازم نفع اللّه تعالى بسلفهم الكريم، و كانت أم السيد أبى المعالى حسينية، فكان شريفا من الجهتين، أنه كان قد ترك كبار الوظائف و الرياسات، و تجرّد للعبادة، و لبس المرقّعة، و سلك طريق القوم، و كان من الدين و العلم و التعظيم فى قلوب أهل الدنيا و أهل الآخرة على جانب عظيم، يشار إليه بالأصابع، و كان أخوه شيخى و أستاذى أبو العباس أحمد قاضيا بشرقى الأندلس فكان أخوه أبو المعالى المذكور لا يأكل فى بيت شقيقه شيئا لأجل ذلك، و لعيشه من خدم السلطان، و كان إذا احتاج إلى الطعام و هو فى بيت أخيه أعطانى درهما من عنده أشترى له به ما يأكل، و أقام على هذه الحالة الحسنة سنين كثيرة، ثم إنه دخل يوما على الفقراء بزاوية المحروق من ظاهر غرناطة، و كان شيخ الفقراء بها فى ذلك الوقت الشيخ أبا جعفر أحمد المحدود، فقال لهم: يا سادتى، إنه كان

معى قنديل أستضىء به، ففقدته فى هذه الأيام، و ما بقيت أبصر شيئا، فقال له شيخهم المذكور: يا شريف، أول رجل يدخل علينا فى هذا المجلس يجيبك عن مسألتك، فدخل عليهم رجل من خيارهم من أهل البادية، فسلّم و جلس، فقال له الشيخ: إنّ الشريف يسأل الجماعة، فقلت له: أول رجل يدخل علينا يجيبك، فوفقت أنت، فأجبه عن مسألته، فقال له: ما سؤالك يا شريف؟ فقال: إنه كان لى قنديل أستضىء به ففقدته، و ما بقيت أبصر شيئا، فقال له الفقير: هذا لا يصدر إلّا عن سوء أدب، أخبرنا بما وقع منك، فقال له الشريف: ما أعلم أنه وقع منى شىء، غير أنّ المباشر فلانا طلبه السلطان للمصادرة، فاستخفى منه، فمررت ببابه يوما، فنادانى من شقّة الباب: يا سيدى، اجعل خاطرك معى للّه تعالى، فقلت له: اذكر الذكر الفلانى، قلت: و أنا أظنّ أنه أمره بذكر اسمه تعالى اللطيف فإنه سريع الإجابة فى تفريج الشدائد و الكرب، نصّ عليه البونى فى منتخبه، و هو مجرّب فى ذلك، و قد رواه لى عن بعض مشايخه السيد الشريف أحمد أخوه، فقال له الفقير: هل كان أذن لك فى تلقينه؟ قال: لا، قال له الفقير: لا يعود إليك نورك أبدا؛ لأنك قد أسأت الأدب، فكان كما قال، فانقطع و ولى بعده قضاء الجماعة، و عزل عن سخط، و خدم الملوك، و أكل طعامهم، و حالته أوّلا و آخرا معروفة بغرناطة، نسأل اللّه تعالى أن لا يجعلنا من المطرودين عن باب رحمته بمنّه و كرمه! انتهى كلام الراعى رحمه اللّه تعالى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۶۹

رجع إلى مشايخ لسان الدين، رحمه اللّه تعالى و رضى عنه و سامحه! فنقول:

[من شيوخ لسان الدين أبو عبد اللّه محمد بن جابر الوادى آشى]

و من مشايخ لسان الدين الإمام الرحال شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن جابر الوادى آشى؛ ولد بتونس، و هو محمد ابن الإمام المحدّث معين الدين جابر بن محمد بن قاسم بن أحمد القيسى، شيخ ممتع نبيل رحّال متقن.

قال الخطيب ابن مرزوق: و عاشرته كثيرا سفرا و حضرا، و سمعت بقراءته، و سمع بقراءتى، و قرأت عليه الكثير، و قيّدت من فوائده، و أنشدنى الكثير، فأول ما قرأت عليه بالقاهرة، و قرأت عليه بمدينة فاس، و بظاهر قسنطينة، و بمدينة بجاية، و بظاهر المهدية، و بمنزلى من تلمسان، و قرأت عليه أحاديث عوالى من تخريج الدمياطى، و فيها الحديث المسلسل بالأوّلية، و سلسلته عنه من غير رواية الدمياطى بشرطه، ثم قرأت عليه أكثر كتاب «الموطأ» رواية يحيى، و أعجله السفر فأتممته عليه فى غير القاهرة، و حدّثنى به عن جماعة، و معوله على الشيخين قاضى القضاة أبى العباس بن الغماز الخزرجى و هو أحمد بن محمد بن حسن و الشيخ أبى محمد بن هارون و هو عبد اللّه بن محمد القرطبى الطائى الكاتب المعمّر الأديب، بحقّ سماعه لأكثره على الأول و قراءته بأجمعه على الثانى، قال الأول: أخبرنا أبو الربيع بن سالم بجميع طرقه فيه منها عن ابن مرزوق و أبى عبد اللّه بن أبى عبد اللّه الخولانى عن أبى عمرو عثمان بن أحمد المغافرى عن أبى عيسى بسنده، و قال الثانى: أخبرنا أبو القاسم بن بقى بقرطبة، أخبرنا أبو عبد اللّه محمد بن عبد الحقّ عن محمد بن فرج مولى الطلاع عن يونس بتمام سنده.

قال شيخنا: و فى هذا السّند غريبتان: إحداهما أنه ليس فيه إجازة، و الثانية أنّ شيوخه كلّهم قرطبيون.

قال ابن مرزوق: قلت و لا غرابة فى اتصال سماع الموطإ و قراءته، فقد وقع لى على قلّة التحصيل متصلا من طرق و للّه الحمد، و قد رويته عن قرطبى، و هو أبو العباس بن العشاء. ثم قرأت عليه كتاب «الشفاء» لعياض، و حدّثنى به عن أبى القاسم عن أبى عبد اللّه بن أبى القاسم الأنصارى المالقى نزيل سبتة و يعرف بها بابن حكم و بابن أخت أبى صالح، عن أبى زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الخزرجى، عن أبى جعفر أحمد بن حكم، عن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۷۰

المؤلف، و حدّثنى به أيضا عن قاضى الجماعة ابن أبى الربيع بن سالم عن أبى جعفر بن حكم.

ثم قال ابن مرزوق بعد كلام ما صورته: و رويت عنه و أنشدنى لأبى محمد بن هارون:

[الكامل]

لا تطمعن فى نفع آلك إنه ضرر، و قلّ النفع عند الآل

أقصر، رويدك إنّ ما أعلقته بالآل من أهل كمثل الآل

و لابن هارون المذكور: [مجزوء الوافر]

أقلّ زيارة الأحبا ب تزدد عندهم قربا

فإنّ المصطفى قد قا ل «زر غبّا تزد حبّا»

و لابن هارون أيضا: [مجزوء الوافر]

رمانى بالنوى زمنى فشمل الأنس مفترق

و ليلى كلّه فكر فقلبى منه محترق

و للآداب أبناء ببحر الفقر قد غرقوا

و كلّ منهم وجل بما يلقاه أو فرق

يغصّ بريقه منه و فىّ النطق أو شرق

و قد صفرت أكفّهم فلا ورق و لا ورق

و لطف اللّه مرتقب به العادات تنخرق

قال ابن مرزوق: و شعره الفائق لا يحصر، و هو عندى فى مجلّد كبير، و ولد ابن جابر سنة ۶۹۸، و سمع بمصر على جماعة، و كتب بخطّه كثيرا، و له معرفة بالحديث و النحو و اللغة و الشعر، و له نظم حسن، و توفى بتونس سنة ۷۷۹، و أخذ القراءات عن ابن الزيات و غيره، و ترجمة الحافظ ابن جابر، رحمه اللّه تعالى، واسعة مشهورة، و قد ذكرناه فى غير هذا الكتاب بما جمعناه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۷۱

[بعض ما أنشده لسان الدين من شعر شيوخه، و لم يسمهم]

و ممّا أنشده لسان الدين، رحمه اللّه تعالى، لبعض المتصوفة من شيوخه و لم يسمّه قوله: [الكامل]

هل تعلمون مصارع العشّاق عند الوداع بلوعة الأشواق

و البين يكتب من نجيع دمائهم إنّ الشهيد لمن توى بفراق

لو كنت شاهد حالهم يوم النوى لرأيت ما يلقون غير مطاق

منهم كئيب لا يملّ بكاءه قد أحرقته مدامع الآماق

و محرّق الأحشاء أشعل نارها طول الوجيب بقلبه الخفّاق

و مولّه لا يستطيع كلامه ممّا يقاسى فى الهوى و يلاقى

خرس اللسان فما يطيق عبارة ألم ألمّ و ما له من راق

ما للمحبّ من المنون وقاية إن لم يجد محبوبه بتلاق

مولاى، عبدك ذاهب بغرامه أدرك بفضلك من ذماه الباقى

إنى إليك بذلّتى متوسّل فاعطف بلطف منك أو إشفاق

و هذه الأبيات أوردها، رحمه اللّه تعالى، فى «الروضة» فى العشق، بعد أن حدّه و تكلّم عليه، ثم أورد عدة مقطوعات، ثم ذكر بعدها هذه الأبيات كما ذكر.

و أنشد لسان الدين، رحمه اللّه تعالى، لبعض أشياخه، و سمّاه، و أنسيته أنا الآن:

[الكامل]

بما بيننا من خلوة معنوية أرقّ من النجوى و أحلى من السّلوى

قفى ساعة فى ساحة الدار و انظرى إلى عاشق لا يستفيق من البلوى

و كم قد سألت الريح شوقا إليكم فما حنّ مسراها علىّ و لا ألوى

و قوله: [الوافر]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۷۲

أنست بوحدتى حتى لو انى أتانى الأنس لاستوحشت منه

و لم تدع التجارب لى صديقا أميل إليه إلّا ملت عنه

و قوله رحمه اللّه تعالى: [السريع]

عليك بالعزلة إنّ الفتى من طاب بالقلّة فى العزلة

لا يرتجى عزلة وال، و لا يخشى من الذلّة فى العزلة

[من شيوخ لسان الدين قاضى قضاة فاس أبو عبد اللّه المقرى جد المؤلف (ترجمة مستفيضة)]

و من أكابر شيوخ ابن الخطيب، رحمه اللّه تعالى، جدى الإمام العلامة قاضى القضاة بحضرة الخلافة فاس المحروسة أبو عبد اللّه.

قال فى «الإحاطة»: محمد بن محمد بن أحمد بن أبى بكر بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبى بكر بن على القرشى المقرى، يكنى أبا عبد اللّه، قاضى الجماعة بفاس، تلمسانى.

أوليّته- نقلت من خطّه قال: و كان الذى اتّخذها من سلفنا قرارا، بعد أن كانت لمن قبله مزارا، عبد الرحمن بن أبى بكر بن على المقرى، صاحب الشيخ أبى مدين، الذى دعا له و لذرّيته بما ظهر فيهم قبوله و تبيّن. و هو أبى الخامس فأنا محمد بن محمد بن أحمد بن أبى بكر بن يحيى بن عبد الرحمن، و كان هذا الشيخ عروى الصلاة، حتى أنه ربما امتحن بغير شىء فلم يؤنس منه التفات، و لا استشعر منه شعور. و يقال: إنّ هذا الحضور ممّا أدركه من مقامات شيخه أبى مدين؛ انتهى.

و كتب بعض المغاربة على هامش هذا المحلّ من «الإحاطة» ما صورته: القرشى وهم؛ انتهى.

فكتب تحته الشيخ الإمام أبو الفضل ابن الإمام التلمسانى، رحمه اللّه تعالى، ما نصّه:

بل صحيح، نطقت به الألسن و المكاتبات و الإجازات، و أعربت عنه الخلال الكريمة، إلّا أنّ البلدية يا سيدى أبا عبد اللّه و المنافسة تجعل القرشية فى إمام المغرب أبى عبد اللّه المقرى و هما، و الحمد للّه؛ انتهى.

قلت: و ممّن صرّح بالقرشية فى حقّ الجدّ المذكور ابن خلدون فى تاريخه، و ابن الأحمر فى «نثر الجمان» و فى شرح البردة عند قوله: [البسيط]

لعلّ رحمة ربى حين ينشرها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۷۳

و الشيخ ابن غازى، و الولى الصالح سيدى أحمد زروق، و الشيخ علامة زمانه سيدى أحمد الوانشريسى، و غير واحد، و كفى بلسان الدين شاهدا مزكّى.

و قد ألّف عالم الدنيا ابن مرزوق تأليفا استوفى فيه التعريف بمولاى الجدّ سمّاه «النّور البدرى، فى التعريف بالفقيه المقرى» و هذا بناء منه على مذهبه أنه- بفتح الميم و سكون القاف- كما صرّح بذلك فى شرح الألفية عند قوله: [الرجز]

و وضعوا لبعض الأجناس علم

و ضبطه غيره، و هم الأكثرون، بفتح الميم و تشديد القاف، و على ذلك عوّل أكثر المتأخرين، و هما لغتان فى البلدة التى نسب إليها، و هى مقّرة من قرى زاب إفريقية، و انتقل منها جدّه إلى تلمسان صحبة شيخه ولى اللّه سيدى أبى مدين رضى اللّه عنه!.

رجع إلى تكملة كلام مولاى الجدّ فى حقّ أوّليّته:

قال رحمه تعالى، بعد الكلام السابق فى حقّ جدّه عبد الرحمن، ما صورته: ثم اشتهرت ذرّيّته على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة، فمهّدوا طريق الصحراء بحفر الآبار و تأمين التّجّار، و اتّخذوا طبلا للرحيل، و راية تقدم عند المسير. و كان ولد يحيى الذين أحدهم أبو بكر خمسة رجال، فعقدوا الشركة بينهم فى جميع ما ملكوه أو يملكونه على السواء بينهم و الاعتدال، فكان أبو بكر و محمد و هما أرومتا نسبى من جميع جهات أمى و أبى بتلمسان، و عبد الرحمن و هو شقيقهما الأكبر بسجلماسة، و عبد الواحد و على و هما شقيقاهم الصغيران بإيوالاتن، فاتخذوا بهذه الأقطار الحوائط و الديار، و تزوّجوا النساء، و استولدوا الإماء. و كان التلمسانى يبعث إلى الصحراوى بما يرسم له من السلع، و يبعث إليه الصحراوى بالجلد و العاج و الجوز و التّبر، و السّجلماسى كلسان الميزان يعرّفهما بقدر الخسران و الرجحان، و يكاتبهما بأحوال التّجار، و أخبار البلدان، حتى اتّسعت أموالهم، و ارتفعت فى الضخامة أحوالهم، و لما افتتح التّكرور كورة إيوالاتن و أعمالها أصيبت أموالهم فيما أصيب من أموالها، بعد أن جمع من كان فيها منهم إلى نفسه الرجال، و نصب دونها و دون مالهم القتال. ثم اتصل بملكهم فأكرم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۷۴

مثواه، و مكّنه من التجارة بجميع بلاده، و خاطبه بالصديق الأحبّ، و الخلاصة الأقرب. ثم صار يكاتب من بتلمسان، يستقضى منهم مآربه، فيخاطبه بمثل تلك المخاطبة، و عندى من كتبه و كتب ملوك المغرب ما ينبئ عن ذلك، فلمّا استوثقوا من الملوك، تذلّلت لهم الأرض للسلوك، فخرجت أموالهم عن الحدّ، و كادت تفوت الحصر و العدّ: لأنّ بلاد الصحراء، قبل أن يدخلها أهل مصر، كان يجلب إليها من المغرب ما لا بال له من السلع، فتعاوض عنه بما له بال من الثمن- أىّ مدبّر دنيا ضمّ جنبا أبى حمو و شمل ثوباه، كان يقول: لو لا الشناعة لم أزل فى بلادى تاجرا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السّلع، و يأتون بالتّبر الذى كلّ أمر الدنيا له تبع، و من سواهم يحمل منها الذهب، و يأتى إليها بما يضمحل عن قريب و يذهب، و منه ما يغيّر من العوائد، و يجرّ السفهاء إلى المفاسد- و لمّا درج هؤلاء الأشياخ جعل أبناؤهم ينفقون ممّا تركوا لهم، و لم يقوموا بأمر التثمير قيامهم، و صادفوا توالى الفتن، و لم يسلموا من جور السلاطين، فلم يزل حالهم فى نقصان إلى هذا الزمن، فها أنا ذا لم أدرك من ذلك إلّا أثر نعمة اتخذنا فصوله عيشا، و أصوله حرمة. و من جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب، و أسباب كثيرة تعين على الطلب، فتفرّغت بحول اللّه، عزّ و جلّ، للقراءة، فاستوعبت أهل البلد لقاء، و أخذت عن بعضهم عرضا و إلقاء، سواء المقيم القاطن، و الوارد و الظاعن. انتهى كلامه فى أوليته، و قد نقله لسان الدين فى «الإحاطة».

و قال مولاى الجدّ، رحمه اللّه تعالى: كان مولدى بتلمسان أيام أبى حمّو موسى بن عثمان بن يغمر اسن بن زيان. و قد وقفت على تاريخ ذلك، و لكنى رأيت الصفح عنه؛ لأنّ أبا الحسن بن مؤمن سأل أبا طاهر السّلفى عن سنّه فقال: أقبل على شانك، فإنى سألت أبا الفتح بن زيان عن سنّه فقال: أقبل على شانك، فإنى سألت على بن محمد اللبان عن سنّه فقال: أقبل على شانك، فإنى سألت حمزة بن يوسف السهمى عن سنّه فقال: أقبل على شانك، فإنى سألت أبا بكر محمد بن عدى المنقرى عن سنّه فقال: أقبل على شانك، فإنى سألت أبا إسماعيل الترمذى عن سنّه فقال: أقبل على شانك، فإنى سألت بعض أصحاب الشافعى عن سنّه فقال: أقبل على شانك، فإنى سألت الشافعى عن سنّه فقال: أقبل على شانك، فإنى سألت مالك بن أنس عن سنّه فقال: أقبل على شانك، ليس من المروءة للرجل أن يخبر بسنّه، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۷۵

قلت: و لمّا تذاكرت مع مولاى العمّ الإمام- صبّ اللّه تعالى على مضجعه من الرحمة الغمام- هذا المعنى الذى ساقه مولاى الجدّ رحمه اللّه تعالى أنشدنى لبعضهم: [الكامل]

احفظ لسانك لا تبح بثلاثة سنّ و مال ما استطعت و مذهب

فعلى الثلاثة تبتلى بثلاثة بمكفّر و بحاسد و مكذّب

قال الونشريسى فى حقّ الجدّ ما نصّه: القاضى الشهير الإمام العالم أبو عبد اللّه محمد بن محمد المقرى، التلمسانى المولد و المنشأ، الفاسى المسكن، كان رحمه اللّه تعالى عالما عاملا ظريفا نبيها ذكيّا نبيلا فهما متيقّظا جزلا محصّلا؛ انتهى.

و قد وقفت له بالمغرب على مؤلّف عرّف فيه بمولاى الجد، و ذكر جملة من أحواله، و ذلك أنه طلبه بعض أهل عصره فى تأليف أخبار الجدّ، فألّف فيه ما ذكر.

و قال فى «الإحاطة» فى ترجمة مولاى الجدّ بعد ذكره أوليته ما صورته: - حال هذا الرجل مشار إليه بالعدوة الغربية اجتهادا و دؤوبا و حفظا و عناية و اطلاعا و نقلا و نزاهة؛ سليم الصدر، قريب الغور، صادق القول، مسلوب التصنّع، كثير الهشّة، مفرط الخفّة، طاهر السذاجة، ذاهب أقصى مذاهب التخلّق، محافظ على العمل، مثابر على الانقطاع، حريص على العبادة، مضايق فى العقد و التوجّه، يكابد من تحصيل النيّة بالوجه و اليدين مشقّة، ثم يغافص الوقت فيها و يوقعها دفعة متبعا إياها زعقة التكبير برجفة ينبو عنها سمع من لم تؤنسه بها العادة، بما هو دليل على حسن المعاملة، و إرسال السجيّة، قديم النعمة، متّصل الخيريّة، مكبّ على النظر و الدرس و القراءة، معلوم الصّيانة و العدالة، منصف فى المذاكرة، حاسر للذراع عند المباحثة، راحب عن الصدر فى و طيس المناقشة، غير مختار للقرن، و لا ضانّ بالفائدة، كثير الالتفات، متقلّب الحدقة، جهير بالحجّة، بعيد عن المراء و المباهتة، قائل بفضل أولى الفضل من الطلبة، يقوم أتمّ القيام على العربية و الفقه و التفسير، و يحفظ الحديث، و يتهجّر بحفظ التاريخ و الأخبار و الآداب، و يشارك مشاركة فاضلة فى الأصلين و الجدل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۷۶

و المنطق، و يكتب و يشعر مصيبا غرض الإجادة، و يتكلّم فى طريقة الصوفية كلام أرباب المقال، و يعتنى بالتدوين فيها. شرّق و حجّ و لقى جلّة، و اضطبن رحلة مفيدة، ثم عاد إلى بلده فأقرأ به، و انقطع إلى خدمة العلم. فلمّا ولى ملك المغرب السلطان، محالف الضّنع و نشيدة الملك و أثير اللّه من بين القرابة و الأخوة أمير المؤمنين أبو عنان اجتذبه، و خلطه بنفسه، و اشتمل عليه، و ولّاه قضاء الجماعة بمدينة فاس، فاستقلّ بذلك أعظم الاستقلال، و أنفذ الحق، و ألان الكلمة، و آثر التسديد، و حمل الكلّ، و خفض الجناح، فحسنت عنه القالة، و أحبّته الخاصّة و العامة. حضرت بعض مجالسه للحكم، فرأيت من صبره على اللّدد و تأنّيه للحجج و رفقه بالخصوم ما قضيت منه العجب.

دخوله غرناطة- ثم لمّا أخّر عن القضاء استعمل بعد لأى فى الرسالة، فوصل الأندلس أوائل جمادى الثانية من عام سبعة و خمسين و سبعمائة. فلمّا قضى غرض رسالته، و أبرم عقد وجهته، و احتلّ مالقة فى منصرفه، بدا له فى نبذ الكلفة، و اطّراح وظيفة الخدمة، و حلّ التقيّد، إلى ملازمه الإمرة، فتقاعد، و شهر غرضه و بتّ فى الانتقال، طمع من كان صحبته، و أقبل على شأنه، فخلّى بينه و بين همّه. و ترك و ما انتحله من الانقطاع إلى ربّه، و طار الخبر إلى مرسله، فأنف من تخصيص إيالته بالهجرة و العدول عنها بقصد التخلّى و العبادة، و أنكر ما حقه الإنكار من إبطال عمل الرسالة، و الانقباض قبل الخروج عن العهدة، فوغر صدره على صاحب الأمر، و لم يبعد حمله على الظنة و المواطأة على النفرة، و تجهّزت جملة من الخدّام المجلّين فى مأزق الشبهة المضطلعين بإقامة الحجة، مولين خطّة الملام، مخيرين بين سحائب عاد من الإسلام، مظنة إعلاق النقمة، و إيقاع العقوبة، أو الإشادة بسبب إجارته بالقطيعة و المنابذة. و قد كان المترجم به لحق بغرناطة فتذمّم بمسجدها، و جأر بالانقطاع إلى اللّه، و توعّد من يجبره بنكير من يجير و لا يجار عليه سبحانه، فأهمّ أمره، و شغلت القلوب آبدته، و أمسك الرسل بخلال ما صدرت شفاعة اقتضى له فيها رفع التّبعة و تركه إلى تلك الوجهة. و لمّا

تحصّل ما تيسّر من ذلك انصرف محفوفا بعالمى القطر قاضى الجماعة أبى القاسم الحسنى المذكور قبله، و الشيخ الخطيب أبى البركات بن الحاج، مسلمين لوروده، مشافهين بالشفاعة فى غرضه، فانقشعت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۷۷

الغمّة، و تنفّست الكربة. و استصحبا من المخاطبة السلطانية فى أمره من إملائى ما يذكر حسبما ثبت فى الكتاب المسمى ب «كناسة الدكان، بعد انتقال السكان» المجموع بسلا ما صورته:

المقام الذى يحبّ الشفاعة و يرعى الوسيلة، و ينجز العدة و يتمّم الفضيلة، و يضفى مجده المنن الجزيلة، و يعيى حمده الممادح العريضة الطويلة، مقام محلّ والدنا الذى كرم مجده، و وضح سعده، و صحّ فى اللّه تعالى عقده، و خلص فى الأعمال الصالحة قصده، و أعجز الألسنة حمده، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا، أبقاه اللّه سبحانه لوسيلة يرعاها، و شفاعة يكرم مسعاها، و أخلاق جميلة تجيب دعوة الطّبع الكريم إذا دعاها، معظّم سلطانه الكبير، و ممجّد مقامه الشهير، المتشيّع لأبوّته الرفيعة قولا باللسان و اعتقادا بالضمير، المعتمد منه بعد اللّه على الملجإ الأحمى و الولى النصير، فلان.

سلام كريم، طيب برّ عميم، يخصّ مقامكم الأعلى، و أبوّتكم الفضلى، و رحمة اللّه و بركاته.

«أما بعد حمد اللّه الذى جعل الخلق الحميدة دليلا على عنايته بمن حلّاه حلاها، و ميّز بها النفوس النفيسة التى اختصّها بكرامتها و تولّاها، حمدا يكون كفؤا للنعم التى أولاها، و أعادها و والاها، و الصلاة على سيدنا و مولانا محمد عبده و رسوله المترقّى من درجات الاختصاص أرفعها و أعلاها، الممتاز من أنوار الهداية بأوضحها و أجلاها، مطلع آيات السعادة يروق مجتلاها، و الرضا عن آله و صحبه الذين خبر صدق ضمائرهم لمّا ابتلاها، و عسل ذكرهم فى الأفواه فما أعذب أوصافهم على الألسن و أحلاها، و الدعاء لمقام أبوّتكم حرس اللّه تعالى علاها، بالسعادة التى يقول الفتح أنا طلّاع الثنايا و ابن جلاها، و الصنائع التى تخترق المفاوز بركائبها المبشّرات فتفلى فلاها، فإنا كتبنا إليكم- كتب اللّه تعالى لكم عزّة مشيّدة البناء، و حشد على أعلام صنائعكم الكرام جيوش الثناء، و قلّدكم من قلائد مكارم الأخلاق ما يشهد لذاتكم منه بسابقة الاعتناء!- من حمراء غرناطة حرسها اللّه و الودّ باهر السنا، ظاهر السناء، مجدّد على الآناء، و التشيّع رحب الدسيعة و الفناء و إلى هذا- وصل اللّه تعالى سعدكم، و حرس مجدكم!- فإننا خاطبنا مقامكم الكريم فى شأن الشيخ الفقيه الحافظ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۷۸

الصالح أبى عبد اللّه المقرى خار اللّه تعالى لنا و له، و بلغ الجميع من فضله العميم أمله، جوابا عمّا صدر عن مثابتكم فيه من الإشارة الممتثلة، و المآرب المعملة، و القضايا غير المهملة، نصادركم بالشفاعة التى مثلها بأبوابكم لا يردّ، و ظمآها عن منهل قبولكم لا تحلّا و لا تصدّ، حسبما سنّه الأب الكريم و الجدّ، و القبيل الذى وضح منه فى المكارم الرسم و الحدّ. و لم نصدر الخطاب حتى ظهر لنا من أحواله صدق المخيّلة، و تبلّج صبح الزهادة و الفضيلة، و جود النفس الشحيحة- بالعرض الأدنى- البخيلة، و ظهر تخلّيه عن هذه الدار، و اختلاطه باللفيف و الغمار، و إقباله على ما يعنى مثله من صلة الأوراد و مداومة الاستغفار. و كنّا لما تعرّفنا إقامته بمالقة لهذا الغرض الذى شهره، و الفضل الذى أبرزه للعيان و أظهره، أمرنا أن يعتنى بأحواله، ويعان على فراغ باله، و يجرى عليه سيب من ديوان الأعشار الشرعية و صريح ماله، و قلنا أما أتاك من غير مسألة مستند صحيح لاستدلاله، ففرّ من مالقة على ما تعرّفنا لهذا السبب، و قعد بحضرتنا مستور المنتمى و المنتسب، و سكن بالمدرسة بعض الأماكن المعدّة لسكنى المتّسمين بالخير و المحترفين ببضاعة الطلب، بحيث لم يتعرّف وروده و وصوله إلّا ممّن لا يؤبه بتعريفه، و لم تتحقّق زوائده و أصوله لقلّة تصريفه. ثم تلاحق إرسالكم الجلّة فوجبت حينئذ الشفاعة، و عرضت على سوق الحلم و الفضل من الاستلطاف و الاستعطاف البضاعة، و قررنا ما تحقّقناه من أمره، و انقباضه عن زيد الخلق و عمره، و استقباله الوجهة التى من ولّى وجهه شطرها فقد آثر أثيرا، و من ابتاعها بمتاع الدنيا فقد نال فضلا كبيرا و خيرا كثيرا، و سألنا منكم أن تبيحوه ذلك الغرض الذى رماه بعزمه، و قصر عليه أقصى همّه، فما أخلق مقامكم أن يفوز منه طالب الدنيا بسهمه، و

يحصل منه طالب الآخرة على حظّه الباقى و قسمه، و يتوسّل الزاهد بزهده و العالم بعلمه، و يعوّل البرىء على فضله و يثق المذنب بحلمه. فوصل الجواب الكريم بمجرّد الأمان و هو أرب من آراب، و فائدة من جراب، و وجه من وجوه إعراب، فرأينا أن المطل بعد جفاء، و الإعادة ليس يثقلها خفاء، و لمجدكم بما ضمّنا عنه وفاء، و بادرنا الآن إلى العزم عليه فى ارتحاله، و أن يكون الانتقال عن رضا منه من صفة حاله، و أن يقتضى له ثمرة المقصد، و يبلغ طيّة الإسعاف فى الطريق إن قصد، إذ كان الأمان لمثله ممّن تعلّق بجناب اللّه من مثلكم حاصلا، و الدين المتين بين نفسه و بين المخافة فاصلا، و طالب كيمياء السعادة بإعانتكم واصلا. و لمّا مدّت اليد فى تسويغ حالة هديكم عليها أبدا يحرّض، و علمكم يصرّح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۷۹

بمزيتها و لا يعرّض، فكمّلوا أبقاكم اللّه ما لم تسعنا فيه مشاحة الكتاب، و ألحقوا بالأصل حديث هذه الإباحة فهو أصحّ حديث فى الباب، و وفّوا غرضنا من مجدكم، و خلّوا بينه و بين مراده من ترك الأسباب، و قصد غافر الذنوب و قابل التّوب بإخلاص المتاب، و التشمير ليوم العرض، و موقف الحساب، و أظهروا عليه عناية الجناب، الذى تعلّق به أعلق اللّه به يدكم من جناب، و معاذ اللّه أن تعود شفاعتنا من لدنكم غير مكملة الآراب. و قد بعثنا من ينوب عنّا فى مشافهتكم بها أحمد المناب، و يقتضى خلاصها بالرغبة لا بالغلاب، و هما فلان و فلان. و لو لا الأعذار لكان فى هذا الغرض إعمال الرّكاب، يسبق أعلام الكتاب، و أنتم تولون هذا القصد من مكارمكم ما يوفّر الثناء الجميل، و يربى على التأميل، و يكتب على الودّ الصريح العقد وثيقة التسجيل. و هو سبحانه يبقيكم لتأييد المجد الأثيل، و إنالة الرّفد الجزيل. و السلام الكريم يخصّ مقامكم الأعلى، و مثابتكم الفضلى، و رحمة اللّه تعالى و بركاته. فى الحادى و العشرين لجمادى الآخرة من عام سبعة و خمسين و سبعمائة». انتهى كلام ابن الخطيب فى «الإحاطة».

و ذكر فى الريحانة أنه كتب فى هذا الغرض ما نصّه: «و إلى هذا فإننا وقفنا على كتابكم الكريم فى شأن الشيخ الصالح الفقيه الفاضل أبى عبد اللّه المقرى- وفقنا اللّه و إياه لما يزلف لديه، و هدانا لما يقرب إليه- و ما بلغكم بتقاعده بمالقة، و ما أشرتم به فى أمره، فاستوفينا جميع ما قررتم، و استوعبنا ما أجملتم فى ذلك و فسّرتم، و اعلموا يا محلّ والدنا- أمتعنا اللّه ببقائكم الذى فى ضمنه اتّصال السعادة، و تعرّف النعم المعادة!- أننا لمّا انصرف عن بابنا هو و من رافقه عن انشراح صدور و تكييف جذل بما تفضلتم به و سرور، تعرّفنا أنه تقاعد بمالقة عن صحبه، و أظهر الاشتغال بما يخلصه عند ربّه، و صرف الوجه إلى التخلّى مشفقا من ذنبه، و احتجّ بأنّ قصده ليس له سبب، و لا تعين له فى الدنيا أرب، و أنه عرض عليكم أن تسمحوا له فيما ذهب إليه، و تقرّوه عليه، فيعجل البدار، و يمهّد تحت إيالتكم القرار، فلمّا بلغنا هذا الخبر، لم يخلق اللّه عندنا به مبالاة تعتبر، و لا أعددناه فيما يذكر، فكيف فيما ينكر، و قطعنا أنّ الأمر فيه هين، و أنّ مثل هذا الغرض لا تلتفت إليه عين، فإنّ بابكم غنىّ من طبقات أولى الكمال، ملىّ بتسويغ الآمال، موفور الرجال، معمور بالفقهاء العارفين بأحكام الحرام و الحلال، و الصلحاء أولى المقامات و الأحوال، و الأدباء فرسان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۸۰

الرّويّة و الارتجال، و لم ينقص بفقدان الحصى أعداد الرمال، و لا يستكثر بالقطرة جيش العارض المنثال، مع ما علم من إعانتكم على مثل هذه الأعمال، و استمساككم بإسعاف غرض من صرف وجهه إلى ذى الجلال، و لو علمنا أنّ شيئا يهجس فى الخاطر من أمر مقامه، لقابلناه بعلاج سقامه. ثم لم ينشب أن تلاحق بحضرتنا بارزا فى طور التقلّل و التخفيف، خالطا نفسه باللفيف، قد صار نكرة بعد العلمية و التعريف، و سكن بعض مواضع المدرسة منقبضا عن الناس لا يظهر إلّا لصلاة يشهد جماعتها، و دعوة للعباد يخاف إضاعتها، ثم تلاحق إرسالكم الجلّة، الذين تحقّ لمثلهم التّجلّة، فحضروا لدينا، و أدّوا المخاطبة الكريمة كما ذكر إلينا، و تكلّمنا معهم فى القضية، و تنحّلنا فى الوجوه المرضية، فلم نجد وجها أخلص من هذا الغرض، و لا علاجا يتكفّل ببرء المرض، من أن كلفناهم الإقامة التى يتبرّك بيمن جوارها، و يعمل على إيثارها، بخلاف ما نخاطب مقامكم بهذا الكتاب الذى مضمونه شفاعة يضمن حباؤكم احتسابها، و يرعى انتماءها إلى الخلوص و انتسابها، و يعيدها قد أعملت الحظوة أثوابها، و نقصدكم و مثلكم من يقصد فى المهمّة،

فأنتم المثل الذائع فى عموم الحلم و علّو الهمة، فى أن تصدّروا له مكتوبا مكمل الفصول، مقرّر الأصول، يذهب الوجل، و يرفع الخجل، و يسوّغ من مآربه لديكم الأمل، و يخلص النيّة و يرتّب العمل، حتى يظهر ما لنا عند أبوّتكم من تكميل المقاصد، جريا على ما بذلتم من جميل العوائد، و إذا تحصّل ذلك كان بفضل اللّه إيابه، و أناخت بعقوة وعدكم الوفى ركابه، و يحصل لمقامكم عزّه و مجده و ثوابه، و أنتم ممّن يرعى أمور المجد حقّ الرعاية، و يجرى فى معاملة اللّه تعالى على ما أسس من فضل البداية، و تحقّق الظنون فيما لديه من المدافعة عن حوزة الإسلام و الحماية، هذا ما عندنا أعجلنا به الإعلام، و أعملنا فيه الأقلام، بعد أن أجهدنا الاختيار و تنخّلنا الكلام، و جوابكم بالخير كفيل، و نظركم لنا و للمسلمين جميل، و اللّه تعالى يصل سعدكم، و يحرس مجدكم، و السلام». انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۸۱

قلت: هذه آفة مخالطة الملوك، فإنّ مولاى الجدّ المذكور كان نزل عن القضاء و غيره، فلمّا أراد التخلّى إلى ربّه لم يتركه السلطان أبو عنان كما رأيت.

و قد ذكر لسان الدين رحمه اللّه تعالى فى «الإحاطة» شيوخ مولانا الجدّ، فلنذكرهم فى جزء الجدّ الذى سمّاه «نظم اللآلى، فى سلوك الأمالى» و منه اختصر لسان الدين ما فى «الإحاطة» فى ترجمة مشيخته فنقول: قال مولاى الجدّ رحمه اللّه تعالى: فممن أخذت عنه، و استفدت منه، علماها- يعنى تلمسان- الشامخان، و عالماها الراسخان: أبو زيد عبد الرحمن، و أبو موسى عيسى، ابنا محمد بن عبد اللّه ابن الإمام، و كانا قد رحلا فى شبابهما من بلدهما برشك إلى تونس فأخذا بها عن ابن جماعة و ابن العطار و اليفرنى و تلك الحلبة، و أدركا المرجانىّ و طبقته من أعجاز المائة السابعة، ثم وردا فى أوّل المائة الثامنة تلمسان على أمير المسلمين أبى يعقوب و هو محاصر لها، و فقيه حضرته يومئذ أبو الحسن على بن يخلف التنسى، و كان قد خرج إليه برسالة من صاحب تلمسان المحصورة فلم يعد، و ارتفع شأنه عند أبى يعقوب، حتى أنه شهد جنازته، و لم يشهد جنازة أحد قبله، و قام على قبره، و قال: نعم الصاحب فقدنا اليوم، حدّثنى الحاج الشيخ بعباد تلمسان أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن مرزوق العجيسى أنّ أبا يعقوب طلع إلى جنازة التنسى فى الخيل حوالى روضة الشيخ أبى مدين فقال: كيف تتركون الخيل تصل إلى ضريح الشيخ؟ هلّا عرضتم هنا لك- و أشار إلى حيث المعراض الآن- خشية- ففعلنا، فلما قتل أبو يعقوب و خرج المحصوران أنكرا ذلك، فأخبرتهما، فأما أبو زيان- و كان السلطان يومئذ- فنزل و طأطأ رأسه و دخل، و أما أبو حمّو- و كان أميرا- فوثب و خلّفها، و لمّا رجع الملك إلى هذين الرجلين اختصّا ابنى الإمام، و كان أبو حمّو أشدّ اعتناء بهما، ثم بعده ابنه أبو تاشفين، ثم زادت حظوتهما عند أمير المسلمين أبى الحسن، إلى أن توفى أبو زيد فى العشر الأوسط من رمضان عام أحد و أربعين و سبعمائة بعد وقعة طريف بأشهر، فزادت مرتبة أبى موسى عند السلطان، إلى أن كان من أمر السلطان بإفريقية ما كان فى أوّل عام تسعة و أربعين، و كان أبو موسى قد صدر عنه قبل الوقعة، فتوجّه صحبة ابنه أمير المسلمين أبى عنان إلى فاس، ثم ردّه إلى تلمسان، و قد استولى عليها عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيّان، فكان عنده إلى أن مات الفقيه عقب الطاعون العام. قال لى خطيب الحضرة الفاسية أبو إسحاق إبراهيم بن عبد اللّه بن مالك بن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۸۲

عبد اللّه الرندى: لما أزمع الفقيه و من أطلق معه على القفول إلى تلمسان بتّ على تشييعهم، فرأيتنى كأنى نظمت هذا البيت فى المنام: [الطويل]

و عند وداع القوم ودّعت سلوتى و قلت لها بينى فأنت المودّع

فانتبهت و هو فى فىّ، فحاولت قريحتى بالزيادة عليه فلم يتيسّر لى مثله. و لمّا استحكم ملك أبى تاشفين و استوثق رحل الفقيهان إلى المشرق فى حدود العشرين و سبعمائة فلقيا علاء الدين القونوى، و كان بحيث إنى لمّا رحلت فلقيت أبا على حسين بن حسين ببجاية قال لى: إن قدرت أن لا يفوتك شىء من كلام القونوى حتى تكتب جميعه فافعل، فإنه لا نظير له، و لقيا أيضا جلال الدين القزوينى

صاحب البيان، و سمعا صحيح البخارى على الحجار، و قد سمعته أنا عليهما، و ناظرا تقى الدين بن تيمية، و ظهرا عليه، و كان ذلك من أسباب محنته، و كانت له مقالات فيما يذكر و كان شديد الإنكار على الإمام فخر الدين، حدّثنى شيخى العلّامة أبو عبد اللّه الأبلى أنّ عبد اللّه بن إبراهيم الزمورى أخبره أنه سمع ابن تيمية ينشد لنفسه:

[البسيط]

محصّل فى أصول الدين حاصله من بعد تحصيله علم بلا دين

أصل الضلالة و الإفك المبين، فما فيه فأكثره وحى الشياطين

قال: و كان فى يده قضيب، فقال: و اللّه لو رأيته لضربته بهذا القضيب هكذا، ثم رفعه و وضعه. و بحسبك ممّا طار لهذين الرجلين من الصيت بالمشرق أنى لمّا حللت بيت المقدس و عرف به مكانى من الطلب، و ذلك أنى قصدت قاضيه شمس الدين بن سالم ليضع لى يده على رسم أستوجب به هنالك حقّا، فلمّا أطللت عليه عرّفه بى بعض من معه، فقام إلىّ حتى جلست، ثم سألنى بعض الطلبة بحضرته فقال لى: إنكم معشر المالكية تبيحون للشامىّ يمرّ بالمدينة أن يتعدّى ميقاتها إلى الجحفة، و قد قال رسول اللّه، صلّى اللّه عليه و سلم، بعد أن عيّن المواقيت لأهل الآفاق «هنّ لهن، و لمن مرّ عليهن من غير أهلهن» و هذا قد مرّ على ذى الحليفة و ليس من أهله فيكون له، فقلت له: إنّ النبىّ، صلّى اللّه عليه و سلم، قال «من غير أهلهن» أى من غير أهل المواقيت، و هذا سلب كلّى، و إنه غير صادق على هذا الفرد، ضرورة صدق نقيضه و هو الإيجاب الجزئى عليه؛ لأنه من بعض أهل المواقيت قطعا، فلمّا لم يتناوله النصّ رجعنا إلى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۸۳

القياس، و لا شكّ أنه لا يلزم أحدا أن يحرم قبل ميقاته و هو يمرّ به، لكن من ليس من أهل الجحفة لا يمرّ بميقاته إذا مرّ بالمدينة، فوجب عليه الإحرام من ميقاتها، بخلاف أهل الجحفة، فإنها بين أيديهم، و هم يمرّون عليها، فوقعت من نفوس أهل البلد بسبب ذلك، فلمّا عرفت أتانى آت من أهل المغرب فقال لى: تعلم أنّ مكانك فى نفوس أهل هذا البلد مكين، و قدرك عندهم رفيع، و أنا أعلم انقباضك عن ابنى الإمام، فإن سئلت فانتسب لهما، فقد سمعت منهما، و أخذت عنهما، و لا تظهر العدول عنهما إلى غيرهما فتضع من قدرك، فإنما أنت عند هؤلاء الناس خليفتهما و وارث علمهما و أن لا أحد فوقهما: [الطويل]

و ليس لما تبنى يد اللّه هادم

و شهدت مجلسا بين يدى السلطان أبى تاشفين عبد الرحمن بن أبى حم ذكر فيه أبو زيد ابن الإمام أنّ ابن القاسم مقلّد مقيّد النظر بأصول مالك، و نازعه أبو موسى عمران بن موسى المشدّالى، و ادّعى أنه مطلق الاجتهاد، و احتج له بمخالفته لبعض ما يرويه و يبلغه عنه لما ليس من قوله، و أتى من ذلك بنظائر كثيرة، قال: فلو تقيد بمذهبه لم يخالفه لغيره، فاستظهر أبو زيد بنصّ لشرف الدين التلمسانى مثّل فيه الاجتهاد المخصوص باجتهاد ابن القاسم بالنظر إلى مذهب مالك و المزنى إلى الشافعى، فقال عمران: هذا مثال، و المثال لا تلزم صحته، فصاح به أبو موسى ابن الإمام و قال لأبى عبد اللّه بن أبى عمرو: تكلّم، فقال: لا أعرف ما قال هذا الفقيه، الذى أذكره من كلام أهل العلم أنه لا يلزم من فساد المثال فساد الممثّل، فقال أبو موسى للسلطان: هذا كلام أصولى محقق، فقلت لهما و أنا يومئذ حديث السنّ: ما أنصفتما الرجل، فإن المثل كما تؤخذ على جهة التحقيق كذلك تؤخذ على جهة التقريب، و من ثمّ جاء ما قاله هذا الشيخ، أعنى ابن أبى عمرو، و كيف لا و هذا سيبويه يقول: و هذا مثال و لا يتكلّم به، فإذا صحّ أنّ المثال قد يكون تقريبا فلا يلزم صحة المثال و لا فساد الممثّل لفساده، فهذان القولان من أصل واحد.

و شهدت مجلسا آخر عند هذا السلطان قرىء فيه على أبى زيد ابن الإمام حديث «لقّنوا موتاكم لا إله إلّا اللّه» فى صحيح مسلم، فقال له الأستاذ أبو إسحاق بن حكم السلوى: هذا الملقّن محتضر حقيقة ميت مجازا، فما وجه ترك محتضريكم إلى موتاكم، و الأصل الحقيقة؟

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۸۴

فأجابه أبو زيد بجواب لم يقنعه، و كنت قد قرأت على الأستاذ بعض «التنقيح» فقلت: زعم القرافى أنّ المشتقّ إنما يكون حقيقة فى الحال، مجازا فى الاستقبال، مختلفا فيه فى الماضى، إذا كان محكوما به، أمّا إذا كان متعلّق الحكم كما هنا فهو حقيقة مطلقا إجماعا، و على هذا التقرير لا مجاز، فلا سؤال، لا يقال: إنه احتجّ على ذلك بما فيه نظر؛ لأنّا نقول: إنه نقل الإجماع، و هو أحد الأربعة التى لا يطالب مدّعيها بالدليل، كما ذكر أيضا، بل نقول: إنه أساء حيث احتجّ فى موضع الوفاق، كما أساء اللخمى و غيره فى الاحتجاج على وجوب الطهارة و نحوها، بل هذا أشنع، لكونه ممّا علم من الدين بالضرورة، ثم إنّا لو سلّمنا نفى الإجماع فلنا أن نقول: إنّ ذلك إشارة إلى ظهور العلامات التى يعقبها الموت عادة؛ لأنّ تلقينه قبل ذلك إن لم يدهش فقد يوحش، فهو تنبيه على وقت التلقين: أى لقّنوا من تحكمون بأنه ميت، أو نقول: إنما عدل عن الاحتضار لما فيه من الإبهام، ألا ترى اختلافهم فيه: هل أخذ من حضور الملائكة، أو حضور الأجل، أو حضور الجلّاس، و لا شكّ أنّ هذه حالة خفيّة يحتاج فى نصبها دليلا على الحكم إلى وصف ظاهر يضبطها، و هو ما ذكرناه، أو من حضور الموت، و هو أيضا ممّا لا يعرف بنفسه، بل بالعلامات، فلمّا وجب اعتبارها وجب كون تلك التسمية إشارة إليها، و اللّه تعالى أعلم.

كان أبو زيد يقول فيما جاء من الأحاديث من معنى قول ابن أبى زيد «و إذا سلّم الإمام فلا يثبت بعد سلامه و لينصرف»: إن ذلك بعد أن ينتظر بقدر ما يسلّم من خلفه، لئلّا يمر بين يدى أحد، و قد ارتفع عنه حكمه، فيكون كالداخل مع المسبوق، جمعا بين الأدلة، قلت: و هذا من ملح الفقيه.

اعترض عند أبى زيد قول ابن الحاجب «و لبن الآدمى و المباح طاهر» بأنه إنما يقال فى الآدمى لبان، فأجاب بالمنع، و احتجّ بقول النبى، صلّى اللّه عليه و سلم، «اللبن للفحل» و أجيب بأنّ قوله ذلك لتشريكه المباح معه فى الحكم؛ لأنّ اللبان خاصّ به، و ليس موضع تغليب؛ لأنّ اللبان ليس بعاقل، و لا حجة على تغليب ما يختصّ بالعاقل.

تكلّم أبو زيد يوما فى مجلس تدريسه فى الجلوس على الحرير، فاحتجّ إبراهيم السلوى للمنع بقول أنس: «فقمت إلى حصير لنا قد اسودّ من طول ما لبس» فمنع أبو زيد أن يكون إنما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۸۵

أراد باللباس الافتراش فحسب؛ لاحتمال أن يكون إنما أراد التغطية معه أو وحدها، و ذكر حديثا فيه تغطية الحصير، فقلت: كلا الأمرين يسمّى لباسا، قال اللّه عزّ و جلّ هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَ [البقرة: ۱۸۷] و فيه بحث.

كان أبو زيد يصحف قول الخونجى فى الجمل و المقارنات التى يمكن اجتماعه معها فيقول «و المفارقات» و لعلّه فى هذا كما قال أبو عمرو بن العلاء للأصمعى لمّا قرأ عليه: [مجزوء الكامل]

و غررتنى و زعمت أنك لابن بالصيف تامر

فقال: [مجزوء الكامل]

و غررتنى و زعمت أنك لابن بالضيف تامر

فقال: أنت فى تصحيفك أشعر من الحطيئة، أو كما حكى عمّن صلّى بالخليفة فى رمضان و لم يكن يومئذ يحفظ القرآن، فكان ينظر فى المصحف، فصحف آيات: صنعة اللّه، أصيب بها من أساء، إنما المشركون نحس، وعدها أباه، تقية اللّه خير لكم، هذا أن دعوا للرحمن ولدا، لكلّ امرئ منهم يومئذ شأن يعنيه.

سمعت أبا زيد يقول: إنّ أبا العباس الغمارى التونسى أول من أدخل «معالم» الإمام فخر الدين للمغرب، و بسبب ما قفل به من الفوائد رحل أبو القاسم بن زيتون.

و سمعته يقول: إنّ ابن الحاجب ألّف كتابه الفقهى من ستين ديوانا و حفظت من وجادة أنه ذكر عند أبى عبد اللّه بن قطرال المراكشى

أنّ ابن الحاجب اختصر «الجواهر» فقال: ذكر هذا لأبى عمرو حين فرغ منه فقال: بل ابن شاس اختصر كتابى، قال ابن قطرال: و هو أعلم بصناعة التأليف من ابن شاس، و الإنصاف أنه لا يخرج عنه و عن ابن بشير إلّا فى الشىء اليسير، فهما أصلاه و معتمداه، و لا شكّ أنّ له زيادات و تصرفات تنبىء عن رسوخ قدمه و بعد مداه.

و كان أبو زيد من العلماء الذين يخشون اللّه؛ حدّثنى أمير المؤمنين المتوكل ابن عنان أنّ والده أمير المسلمين أبا الحسن ندب الناس إلى الإعانة بأموالهم على الجهاد، فقال له أبو

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۸۶

زيد: لا يصحّ لك هذا حتى تكنس بيت المال، و تصلّى ركعتين كما فعل على بن أبى طالب، و سأله أبو الفضل بن أبى مدين الكاتب ذات يوم عن حاله، و هو قاعد ينتظر خروج السلطان، فقال له: أما الآن فأنا مشرك، فقال: أعيذك من ذلك، فقال: لم أرد الشرك فى التوحيد، لكن فى التعظيم و المراقبة، و إلّا فأى شىء جلوسى ههنا؟

و الشىء بالشىء يذكر، قمت ذات يوم على باب السلطان بمراكش فيمن ينتظر خروجه، فقام إلى جانبى شيخ من الطلبة، و أنشدنى لأبى بكر بن خطاب رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

أبصرت أبواب الملوك تغصّ بال راجين إدراك العلا و الجاه

مترقّبين لها فمهما فتّحت خرّوا لأذقان لهم و جباه

فأنفت من ذاك الزحام و أشفقت نفسى على إنضاء جسمى الواهى

و رأيت باب اللّه ليس عليه من متزاحم، فقصدت باب اللّه

و جعلته من دونهم لى عدّة و أنفت من غيّى و طول سفاهى

يقول جامع هذا المؤلّف: رأيت بخطّ عالم الدنيا ابن مرزوق على هذا المحلّ من كلام مولاى الجدّ مقابل قوله «و رأيت باب اللّه» ما صورته: قلت ذلك: لسعته أو لقلّة أهله: [البسيط]

إنّ الكرام كثير فى البلاد، و إن قلّوا، كما غيرهم قلّ و إن كثروا

قُلْ لا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَ الطَّيِّبُ [المائدة: ۱۰۰]- الآية انتهى.

رجع إلى كلام مولاى الجدّ- قال رحمه اللّه تعالى و رضى عنه: و حدّثنى شيخ من أهل تلمسان أنه كان عند أبى زيد مرة، فذكر القيامة و أهوالها، فبكى، فقلت: لا بأس علينا و أنتم أمامنا، فصاح صيحة، و اسودّ وجهه، و كاد يتفجّر دما، فلمّا سرّى عنه رفع يديه و طرفه إلى السماء، و قال: اللهمّ لا تفضحنا مع هذا الرجل، و أخباره كثيرة.

و أمّا شقيقه أبو موسى فسمعت عليه كتاب مسلم، و استفدت منه كثيرا، فممّا سألته عنه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۸۷

قول ابن الحاجب فى الاستلحاق «و إذا استلحق مجهول النسب» إلى قوله «أو الشرع بشهرة نسبه» كيف يصحّ هذا القسم مع فرضه مجهول النسب؟ فقال: يمكن أن يكون مجهول النسب فى حال الاستلحاق، ثم يشتهر بعد ذلك، فيبطل الاستلحاق، فكأنه يقول: ألحقه ابتداء و دواما، ما لم يكذبه أحد، هذه هى إحدى الحالتين، إلّا أنّ هذا إنما يتصوّر فى الدوام فقط.

و ممّا سألته عنه أنّ الموثقين يكتبون الصحة و الجواز و الطوع على ما يوهم القطع، و كثيرا ما ينكشف الأمر بخلافه، و لو كتبوا مثلا ظاهر الصحة و الجواز و الطوع لبرئوا من ذلك، فقال لى:

لما كان مبنى الشهادة و أصلها العلم لم يجمل ذكر الظنّ و لا ما فى معناه احتمال، فإذا أمكن العلم بمضمونها لم يجز أن يحمل على غيره، فإذا تعذّر كما هنا بنى باطن أمرها على غاية ما يسعه فيه الإمكان عادة، و أجرى ظاهره على ما ينافى أصلها، صيانة لرونقها، و رعاية لما كان ينبغى أن تكون عليه لو لا الضرورة. قلت: و لذلك عقد ابن فتوح و غيره عقود الجوائح على ما يوهم العلم بالتقدير، مع

أنّ ذلك إنما يدرك بما غايته الظنّ فى الحزر و التخمين، و كانا معا يذهبان إلى الاختيار و ترك التقليد.

[ترجمة أبى موسى عمران بن موسى بن يوسف المشدالى (من شيوخ المقرى الكبير)]

و ممّن أخذت عنه أيضا حافظها و مدرّسها و مفتيها أبو موسى عمران بن موسى بن يوسف المشدّالى؛ صهر شيخ المدرسين أبى على ناصر الدين على ابنته، و كان قد فرّ من حصار بجاية، فنزل الجزائر، فبعث فيه أبو تاشفين، و أنزله من التقريب و الإحسان بالمحلّ المكين، فدرّس بتلمسان الحديث و الفقه و الأصلين و النحو و المنطق و الجدل و الفرائض، و كان كثير الاتّساع فى الفقه و الجدل، مديد الباع فيما سواها ممّا ذكر، سألته عن قول ابن الحاجب فى السهو «فإن أخال الإعراض فمبطل عمده» فقال: معناه فإن أخال غيره أنه معرض، فحذف المفعول لجوازه، و أقام المصدر مقام المفعولين كما يقوم مقامه ما فى معناه من أنّ و أن، قال اللّه العظيم الم أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا [العنكبوت: ۱، ۲] قلت: و أقوى من هذا أن يكون المصدر هو المفعول الثانى، و حذف الثالث اختصارا لدلالة المعنى عليه: أى فإن أخال الإعراض كائنا، كما قالوا: خلت ذلك، و قد أعربت الآية بالوجهين، و هذا عندى أقرب، و من هذا الباب ما يكتب به القضاة من قولهم «أعلم باستقلاله فلان» أى أعلم فلان من يقف عليه بأن الرسم مستقلّ، فحذفوا الأول، و صاغوا ما بعده المصدر.

سئل عمران و أنا عنده عمّا صبغ من الثياب بالدم فكانت حمرته منه، فقال: يغسل، فإن

لم يخرج شىء من ذلك فى الماء فهو طاهر؛ لأنّ المتعلّق به على هذا التقدير ليس إلّا لون النجاسة، و إذا عسر قلعه بالماء فهو عفو، و إلّا وجب غسله إلى أن لا يخرج منه شىء، قلت:

فى البخارى قال معمر: رأيت الزهرى يصلّى فيما صبغ بالبول من ثياب اليمن، و تفسيره على ما ذكره عمران. و كان قد صاهر لقاضى الجماعة أبى عبد اللّه بن هربة على ابنته فلم تزل عنده إلى أن توفى عنها.

[ترجمة أبى إسحاق إبراهيم بن حكم السلوى]

و منهم مشكاة الأنوار، الذى يكاد زيته يضىء و لو لم تمسسه نار، الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن حكم السّلوى، رحمه اللّه تعالى!. ورد تلمسان بعد العشرين، ثم لم يزل بها إلى أن قتل يوم دخلت على بنى عبد الواد، و ذلك فى الثامن و العشرين من شهر رمضان عام سبعة و ثلاثين و سبعمائة.

قال لى الشيخ ابن مرزوق: ابتدأ أمر بنى عبد الواد بقتلهم لأبى الحسن السعيد، و كان أسمر لأمّ ولد تسمّى العنبر، و ختم بقتل أبى الحسن بن عثمان إياهم، و هو بصفته المذكورة حذوك النعل بالنعل، فسبحان من دقّت حكمته فى كل شىء!.

و لما وقف الرفيقان أبو عبد اللّه محمد بن عمر بن رشيد الفهرى و محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم الرندى فى رحلتهما على قبر السعيد بعباد تلمسان تناول ابن الحكيم فحمة ثم كتب بها على جدار هناك: [البسيط]

انظر ففىّ إليك اليوم معتبر إن كنت ممّن بعين الفكر قد لحظا

بالأمس أدعى سعيدا، و الورى خولى و اليوم يدعى سعيدا من بى اتّعظا

قال ابن حكم: كان أول اتصالى بالأستاذ أبى عبد اللّه بن آجروم أنى دخلت عليه و قد حفظت بعض كتاب «المفصل» فوجدت الطلبة يعربون بين يديه هذا البيت: [الكامل]

عهدى به الحىّ الجميع و فيهم قبل التفرّق ميسر و ندام

و قد عمّى عليهم خبر «عهدى» فقلت له: قد سدت الحال- و هى الجملة بعده- مسدّه،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۸۹

فقال لى بعض الطلبة: و هل يكون هذا فى الجملة كما كان فى قولك «ضربى زيدا قائما»؟

فقلت له: نعم، قال رسول اللّه، صلّى اللّه عليه و سلم «أقرب ما يكون العبد من ربّه و هو ساجد».

ذكر أبو زيد ابن الإمام يوما فى مجلسه أنه سئل بالمشرق عن هاتين الشرطيتين وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ [الأنفال: ۲۳] فإنهما يستلزمان بحكم الإنتاج لو علم اللّه فيهم خيرا لتولّوا، و هو محال، ثم أراد أن يرى ما عند الحاضرين، فقال ابن حكم: قال الخونجى: و الإهمال بإطلاق لفظ لو و إن فى المتصلة، فهاتان القضيّتان على هذا مهملتان، و المهملة فى قوة الجزئية، و لا قياس عن جزئيتين. فلمّا اجتمعت ببجاية بأبى على حسين بن حسين و أخبرته بهذا، و بما أجاب به الزمخشرى و غيره، ممّا يرجع إلى انتفاء تكرر الوسط، قال لى: الجوابان فى المعنى سواء؛ لأنّ القياس على الجزئيتين إنما امتنع لانتفاء أمر تكرر الوسط، فأخبرت بذلك شيخنا الأبلى، فقال: إنما يقوم القياس على الوسط، ثم يشترط فيه بعد ذلك أن لا يكون من جزئيتين، و لا سالبتين، إلى سائر ما يشترط، فقلت: ما المانع من كون هذه الشروط تفصيلا لمجمل ما ينبنى عليه من الوسط و غيره، و إلّا فلا مانع غير ما قاله ابن حسين، قال الأبلى: و قد أجبت بجواب السلوى، ثم رجعت إلى ما قاله الناس لوجوب كون مهملات القرآن كلية؛ لأنّ الشرطية لا تنتج جزئية، فقلت: هذا فيما يساق منها للحجة، مثل لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا [الأنبياء: ۲۲] أما فى مثل هذا فلا.

و لما ورد تلمسان الشيخ الأديب أبو الحسن بن فرحون نزيل طيبة على تربتها السلام سأل ابن حكم عن معنى هذين البيتين: [الوافر]

رأت قمر السماء فأذكرتنى ليالى وصلها بالرقمتين

كلانا ناظر قمرا و لكن رأيت بعينها و رأت بعينى

ففكّر ثم قال: لعلّ هذا الرجل كان ينظر إليها، و هى تنظر إلى قمر السماء، فهى تنظر إلى القمر حقيقة، و هو لإفراط الاستحسان يرى أنها الحقيقة، فقد رأى بعينها لأنها ناظرة الحقيقة، و أيضا فهو ينظر إلى قمر مجازا، و هو لإفراط الاستحسان لها يرى أنّ قمر السماء هو المجاز، فقد رأت بعينه؛ لأنها ناظرة المجاز.

قلت: و من ههنا تعلم وجه الفاء فى قوله «فأذكرتنى» لأنه لمّا صارت رؤيتها رؤيته،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۹۰

و صار القمر حقيقة إياها، كان قوله «رأت قمر السماء فأذكرتنى» بمثابة قولك أذكرتنى، فتأمّله فإنّ بعض من لا يفهم كلام الأستاذ حقّ الفهم ينشده «و أذكرتنى» فالفاء فى البيت الأوّل مبنية على معنى البيت الثانى؛ لأنها مبنية عليه، و هذا النحو يسمّى الإيذان فى علم البيان.

و لمّا اجتمعنا بأبى الوليد بن هانىء مقدمه علينا من غرناطة سأل ابن حكم عن تكرار من فى قوله تعالى سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ [الرعد: ۱۰] دون ما بعدها، فقال:

لو لا تكرّرها أوّلا لتوهم التضاد بتوهّم اتحاد الزمان، فارتفع بتكرار الموضوع، أمّا الآخر فقد تكرّر الزمان، فارتفع توهّم التضادّ، فلم يحتج إلى زائد على ذلك، فقلت: فهلّا اكتفى بسواء عن تكرار الموضوع؛ لأنّ التسوية لا تقع إلّا بين أمرين، و إنما الجواب عندى أنها تكرّرت أوّلا على الأصل لأنهما صنفان يستدعيها كلّ واحد منهما أن تقع عليه، ثم اختصرت ثانيا لفهم المراد من التفصيل بالأوّل مع أمن اللبس، و قد أجاب الزمخشرى بغير هذين فانظره.

سألنى ابن حكم المذكور عن نسب المجيب فى هذا البيت: [الكامل]

و مهفهف الأعطاف قلت له انتسب فأجاب ما قتل المحبّ حرام

ففكّرت ثم قلت: أراه تميميّا؛ لإلغائه «ما» النافية، فاستحسنه منى لصغر سنّى يومئذ.

تذاكرت يوما مع ابن حكم فى تكملة البدر بن محمد بن مالك «شرح التسهيل» لأبيه، ففضلت عليه كلام أبيه، و نازعنى الأستاذ،

فقلت: [الطويل]

عهود من الآبا توارثها الأبنا

فما رأيت بأسرع من أن قال: [الطويل]

بنوا مجدها لكن بنوهم لها أبنى

فبهتّ من العجب.

و توفى الشيخ ابن مالك سنة اثنتين و سبعين و ستمائة، و فيها ولد شيخنا عبد المهيمن الحضرمى، فقيل: مات فيها إمام نحو، و ولد فيها إمام نحو.

سألت ابن حكم عن قول فخر الدين فى أوّل المحصل «و عندى أنّ شيئا منها غير مكتسب» بمعنى لا شىء و لا واحد، هل له أصل فى العربية أو هو كما قيل من بقايا عجمته؟

فقال لى: بل له أصل، و قد حكى ابن مالك مثله عن العرب، فلم يتّفق أن أستوقفه عليه، ثم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۹۱

لم أزل أستكشف عنه كلّ من أظنّ أنّ لديه شيئا منه، فلم أجد من عنده أثارة منه، حتى مرّ بى فى باب الأفعال الداخلة على المبتدإ و الخبر الداخل عليها «كان» من «شرح التسهيل» قوله «فإن تقدّم على الاستفهام أحد المفعولين نحو «علمت زيدا أبو من هو» اختير نصبه؛ لأنّ الفعل مسلّط عليه بلا مانع، و يجوز رفعه؛ لأنه و الذى بعد الاستفهام شىء واحد فى المعنى فكأنه فى حيز الاستفهام، و الاستفهام مشتمل عليه، و هو نظير قوله: إن أحد إلّا يقول ذلك، و أحد هذا لا يقع إلّا بعد نفى، و لكن لمّا كان هنا و الضمير المرفوع بالقول شيئا واحدا فى المعنى تنزل منزلة واقع بعد نفى»، فعلمت أنه نحا إلى هذا؛ لأنّ شيئا ههنا و الضمير المرفوع بمكتسب المنفى فى المعنى شىء واحد، فكان شيئا كأنه وقع بعد غير: أى بعد النفى.

سأل ابن فرحون ابن حكم: هل تجد فى التنزيل ست فاءات مرتبة ترتيبها فى هذا البيت:

[البسيط]

رأى فحبّ فرام الوصل فامتنعت فسام صبرا فأعيا نيله فقضى

ففكر ثم قال: نعم فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نائِمُونَ [القلم: ۱۹]- إلى آخره فمنعت له البناء فى (فتنادوا) فقال لابن فرحون: فهل عندك غيره؟ فقال: نعم «فقال لهم رسول اللّه» إلى آخر السورة فمنع له بناء الآخرة لقراءة الواو، فقلت له: امنع و لا تسند فيقال لك: إنّ المعانى قد تختلف باختلاف الحروف، و إن كان السند لا يسمع الكلام عليه، و أكثر ما وجدت الفاء تنتهى فى كلامهم إلى هذا العدد، سواء بهذا الشرط و بدونه، كقول نوح عليه السلام:

فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ [يونس: ۷۱] و كقول امرئ القيس [الطويل]:

غشيت ديار الحىّ بالبكرات

البيتين.

لا يقال: فالجبّ سابع؛ لأنّا نقول: إنه عطف على «عاقل» المجرّد منها، و لعلّ حكمة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۹۲

الستة أنها أوّل الأعداد التامة، كما قيل فى حكمة خلق السماوات و الأرض فيها، و شأن اللسان عجيب.

و قوله فى هذا البيت «فحبّ» لغة قليلة جرى عليها محبوب كثيرا، حتى استغنى به عن محبّ، فلا تكاد تجده إلّا فى قول عنترة: [الكامل]

و لقد نزلت فلا تظنّى غيره منّى بمنزلة المحبّ المكرم

و نظيره محسوس من حسّ و الأكثر أحسّ و لا تكاد تجد محسّا، و هذا التوجيه أحسن من قول القرافى فى «شرح التنقيح»: إنّهم أجروا

محسوسات مجرى معلومات؛ لأنّ الحسّ أحد طرق العلم.

سمعت ابن حكم يقول: بعث بعض أدباء فاس إلى صاحب له: [المجتث]

ابعث إليّ بشيء مدار فاس عليه

و ليس عندك شيء ممّا أشير إليه

فبعث إليه ببطة من مرّى، يشير بذلك إلى الرياء.

و حدّثت أنّ قاضيها أبا محمد عبد اللّه بن أحمد بن الملجوم حضر وليمة، و كان كثير البلغم، فوضع بين يديه صهره أبو العباس بن الأشقر غضارا من اللون المطبوخ بالمرّى لمناسبته لمزاجه، فخاف أن يكون قد عرض له بالرياء.

و كان ابن الأشقر يذكر بالوقوع فى الناس، فناوله القاضى غضار المقروض، فاستحسن الحاضرون فطنته.

[ترجمة أبى محمد عبد اللّه بن عبد الواحد بن إبراهيم بن الناصر، المجاصى]

و منهم عالم الصلحاء، و صالح العلماء، و جليس النزيل، و حليف البكاء و العويل، أبو محمد عبد اللّه بن عبد الواحد بن إبراهيم بن الناصر المجاصى؛ خطيب جامع القصر الجديد، و جامع خطتى التحديث و التجويد، و يسمّيه أهل مكة البكّاء، و لما قدم أبو الحسن على بن موسى البحيرى سأل عنه، فقيل له: لو علم بك أتاك، فقال: أنا آتى من سمعت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۹۳

سيدى أبا زيد الهزميرى يقول له لأول ما رآه و لم يكن يعرفه قبل ذلك: مرحبا بالفتى الخاشع، أسمعنا من قراءتك الحسنة.

دخلت عليه بالفقيه أبى عبد اللّه السطى فى أيام عيد، فقدم لنا طعاما، فقلت: لو أكلت معنا، فرجونا بذلك ما يرفع من حديث «من أكل مع مغفور له غفر له» فتبسّم و قال لى: دخلت على سيدى أبى عبد اللّه الفاسى بالإسكندرية، فقدم طعاما، فسألته عن هذا الحديث، فقال:

وقع فى نفسى منه شيء، فرأيت النبىّ، صلّى اللّه عليه و سلم، فى المنام، فسألته عنه، فقال لى: لم أقله، و أرجو أن يكون كذلك.

و صافحته بمصافحته الشيخ أبا عبد اللّه زيان بمصافحته أبا سعيد عثمان بن عطية الصعيدى بمصافحته أبا العباس أحمد الملثم بمصافحته المعمر بمصافحته رسول اللّه، صلّى اللّه عليه و سلم.

و سمعته يحدّث عن شيخه أبى محمد الدلاصى أنه كان للملك العادل مملوك اسمه محمد، فكان يخصّه لدينه و عقله بالنداء باسمه، و إنما كان ينعق بمماليكه: يا ساقى، يا طباخ، يا مزين، فنادى به ذات يوم: يا فرّاش، فظنّ ذلك لموجدة عليه، فلمّا لم ير أثر ذلك، و تصورت له به خلوة، سأله عن مخالفته لعادته معه، فقال: لا عليك، كنت حينئذ جنبا، فكرهت ذكر رسول اللّه، صلّى اللّه عليه و سلم، فى تلك الحالة.

و ممّا نقلته من خطّ المجاصى ثم قرأته عليه فحدّثنى به قال: حدّثنى القاضى أبو زكريا يحيى بن محمد بن يحيى بن أبى بكر بن عصفور قال: حدّثنى جدّى يحيى المذكور، أخبرنا محمد بن عبد الرحمن التجيبى المقرئ بتلمسان، حدّثنا الحافظ أبو محمد- يعنى و اللّه أعلم عبد الحق الإشبيلى- أخبرنا أبو غالب أحمد بن الحسن المستعمل، أخبرنا أبو الفتوح عبد الغافر بن الحسين بن أبى الحسن بن خلف الألمعى، أخبرنا أبو نصر أحمد بن إسحاق النيسابورى، أملى علينا أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابونى، أخبرنا محمد بن على بن الحسين العلوى، أخبرنا عبد اللّه بن إسحاق اللغوى و أنا سألته، أخبرنا إبراهيم بن الهيثم البلدى، أخبرنا عبد اللّه بن نافع بن عيسى بن يونس عن الأعمش عن أبى وائل عن عبد اللّه بن مسعود، قال: قال رسول اللّه، صلّى اللّه عليه و سلم: قال لى جبريل: ألا أعلمك الكلمات التى قالهنّ موسى حين انفلق له البحر؟ قلت: بلى، قال قل: اللهمّ لك الحمد، و إليك المشتكى، و بك المستغاث، و أنت المستعان، و لا حول و لا قوة إلّا باللّه، قال ابن مسعود: فما تركتهنّ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۹۴

منذ سمعتهنّ من رسول اللّه، صلّى اللّه عليه و سلم، ثم تسلسل الحديث على ذلك، كل أحد من رجاله يقول:

ما تركتهنّ منذ سمعتهنّ من فلان، لشيخه، و قد سمعت المجاصى يكرّرها كثيرا، و ما تركتهنّ منذ سمعتهنّ منه.

و أنشدنى المجاصى قال: أنشدنى نجم الدين الواسطى، أنشدنى شرف الدين الدمياطى، أنشدنى تاج الدين الأرموى مؤلف «الحاصل»، قال: أنشدنى الإمام فخر الدين لنفسه: [الطويل]

نهاية إقدام العقول عقال و أكثر سعى العالمين ضلال

و أرواحنا فى وحشة من جسومنا و حاصل دنيانا أذى و وبال

و لم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل و قالوا

و كم من رجال قد رأينا و دولة فبادوا جميعا مسرعين و زالوا

و كم من جبال قد علت شرفاتها رجال فماتوا و الجبال جبال

و توفى المجاصى فى العشر الأخير من شهر ربيع الأول، عام أحد و أربعين و ستمائة.

[ترجمة الشريف القاضى أبى على حسن بن يوسف بن يحيى، الحسينى السبتى]

و منهم الشيخ الشريف القاضى الرحلة المعمر أبو على حسن بن يوسف بن يحيى الحسينى السبتى.

أدرك أبا الحسين بن أبى الربيع و أبا القاسم الغرقى، و اختصّ بابن عبيدة و ابن الشاط، ثم رحل إلى المشرق فلقى ابن دقيق العيد و حلبته، ثم قفل فاستوطن تلمسان إلى أن مات بها سنة أربع و خمسين، أو ثلاث و خمسين و سبعمائة، قرأ علينا حديث الرحمة و هو أول حديث سمعته منه، حدّثنا الحسن بن على بن عيسى بن الحسن اللخمى، و هو أول حديث سمعته منه، أخبرنا على بن المظفر بن القاسم الدمشقى، و هو أول حديث سمعته منه، أخبرنا أبو الفرج محمد بن عبد الرحمن بن أبى العز الواسطى، و هو أول حديث سمعته منه، أخبرنا أبو العز عبد المغيث بن زهير، و هو أول حديث سمعته منه، أخبرنا زاهر بن طاهر بن محمد الشحامى، و هو أول حديث سمعته منه (ح). قال الحسن بن على: و حدّثنا أيضا عاليا الحسن بن محمد البكرى، و هو أول حديث سمعته منه، أخبرنا أبو الفتوح محمد بن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۹۵

محمد بن محمد بن الجنيد الصوفى، و هو أول حديث سمعته منه، أخبرنا زاهر بن طاهر، و هو أول حديث سمعته منه، أخبرنا أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى الفضائل عبد الوهاب بن صالح، عرف بابن المغرم إمام جامع همذان بها، و هو أول حديث سمعته منه، أخبرنا أبو منصور عبد الكريم بن محمد بن حامد المعروف بابن الخيام، و هو أول حديث سمعته منه، أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك، و هو أول حديث سمعته منه، حفظا، أخبرنا أبو الطاهر محمد بن محمد بن مخمش الزيادى، و هو أول حديث سمعته منه، أخبرنا أبو حامد أحمد بن محمد بن يحيى بن هلال البزار، و هو أول حديث سمعته منه، أخبرنا عبد الرحمن بن بشر بن الحكم، و هو أول حديث سمعته منه، أخبرنا سفيان بن عيينة، و هو أول حديث سمعته منه، عن عمرو بن دينار، عن أبى قابوس مولى لعبد اللّه بن عمرو بن العاص، عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص، أنّ رسول اللّه، صلّى اللّه عليه و سلم، قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء».

(ح) و حدثنى الشريف أيضا كذلك بطريقه عن السّلفى بأحاديثه المشهورة فيه، و هذا الحديث أخرجه الترمذى و قال: حديث حسن صحيح. قال لى الشريف: قال لى القاضى أبو العباس الرندى: لمّا قدم أبو العباس بن الغماز من بلنسية نزل بجاية، فجلس بها فى الشهود مع عبد الحق بن ربيع، فجاء عبد الحق يوما و عليه برنس أبيض، و قد حسنت شارته و كملت هيئته، فلمّا نظر إليه ابن الغماز

أنشده: [الخفيف]

لبس البرنس الفقيه فباهى و رأى أنه المليح فتاها

لو زليخا رأته حين تبدّى لتمنّته أن يكون فتاها

و به أنّ ابن الغماز جلس لارتقاب الهلال بجامع الزيتونة، فنزل الشهود من المئذنة و أخبروا أنهم لم يهلّوه، و جاء حفيد له صغير، فأخبره أنه أهلّه، فردّهم معه، فأراهم إياه، فقال: ما أشبه الليلة بالبارحة.

وقع لنا مثل هذا مع أبى الربيع بن سالم، فأنشدنا فيه: [الطويل]

توارى هلال الأفق عن أعين الورى و أرخى حجاب الغيم دون محيّاه

فلمّا تصدّى لارتقاب شقيقه تبدّى له دون الأنام فحيّاه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۹۶

سمعت الشريف يقول: أول زجل عمل فى الدنيا:

بالله يا طير مدلّل مرّ بى وسط القفار

إياك تجدّد لعاده ترمى حجيرة فى دارى

[ترجمة قاضى الجماعة أبى عبد اللّه محمد بن منصور بن على بن هدية، القرشى]

و منهم قاضى جماعتها، و كاتب خلافتها، و خطيب جامعها، أبو عبد اللّه محمد بن منصور بن على بن هدية القرشى؛ من ولد عقبة بن نافع الفهرى، نزلها سلفه قديما، و خلفه بها إلى الآن، توفى فى أواسط سنة خمس و ثلاثين و سبعمائة، و شهد جنازته سلطانها يومئذ أبو تاشفين، و ولى ابنه أبا على منصورا مكانه يومئذ، و لمّ ثقل لسانه دعا ابنه هذا فقال له: اكتب هذين البيتين فإنى نظمتهما على هذه الحالة، فكتب: [الطويل]

إلهى مضت للعمر سبعون حجّة جنيت بها لمّا جنيت الدواهيا

و عبدك قد أمسى عليل ذنوبه فجد لى برحمى منك، نعم الدّواهيا

و لمّا ورد الأديب أبو عبد اللّه محمد بن محمد المكودى من المغرب رفع إليه قصيدة أولها: [الطويل]

سرت و الدجى لم يبق إلّا يسيرها نسيم صبا يحيى القلوب مسيرها

و فيها الأبيات العجاب التى سارت سير الأمثال، و هى قوله:

و فى الكلّة الحمراء حمراء لو بدت لثكلى لولّى ثكلها و ثبورها

فما يستوى مثوى لها من سوى القنا خيام، و من بيض الصفاح ستورها

و ما بسوى صدق الغرام أرومها و لا بسوى زور الخيال أزورها

فأحسن إليه، و كلّم السلطان حتى أرسل جرايته عليه، و قد شهدت المكودى و هذه القصيدة تقرأ عليه.

[ترجمة لأبى عبد اللّه محمد بن أحمد بن على التميمى]

و منهم القاضى أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن على بن أبى عمرو التميمى؛ أدرك ابن زيتون، و أخذ عن أبى الطاهر بن سرور و حلبته، و عنه أخذت شرح المعالم له، و ولى القضاء بتلمسان مرات، فلم تستفزّه الدنيا، و لا باع الفقر بالغنى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۹۷

[ترجمة لأبى عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن عبد النور]

و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن عبد النور؛ قاضى الجماعة بعد ابن أبى عمرو، و كانت له رحلة إلى المشرق، لقى بها جلال الدين القزوينى و حلبته، و توفى بتونس فى الوباء العام فى حدود الخمسين و سبعمائة.

[ترجمة لأبى عبد اللّه محمد بن الحسين البرونى]

و منهم الشيخ أبو عبد اللّه محمد بن الحسين البرّونى؛ قدم عليها من الأندلس، فأقام إلى أن مات. سمعته يقول: البقر العدوية كالإبل المهملة فى الصحراء، لا يجوز أن تباع بالنظر إليها، لكن بعد أن تمسك و يستولى عليها.

[ترجمة لأبى عمران موسى المصمودى الشهير بالبخارى]

و منهم أبو عمران موسى المصمودى، الشهير بالبخارى؛ سمعت البرّونى يقول: كان الشيخ أبو عمران يدرّس صحيح البخارى، و رفيق له يدرّس صحيح مسلم، فكانا يعرفان بالبخارى و مسلم، فشهدا عند قاض، فطلب المشهود عليه الإعذار فيهما، فقال له أبو عمران: أتمكّنه من الإعذار فى الصحيحين؟ فضحك القاضى، و أصلح بين الخصمين.

سألته عمّا ضربه ابن هدية عليه من إباحة الاستياك فى رمضان بقشر الجوز، فقال لى:

نعم، و يبلع ريقه، تأول رحمه اللّه تعالى، أنّ الخصال المذكورة فى السواك إنما تجتمع فى الجوز، فكان يحمل كلّ ما روى فيه عليه، و هذا غلط فاحش؛ لأنّ العرب لا تكاد تعرفه، و نظر إلى ما فى البخارى من قوله بعد أن ذكر جواز السواك للصائم «و لا بأس أن يبتلع ريقه» يعنى الصائم فى الجملة، فحمله على المستاك بالجوز، و كان رحمه اللّه تعالى قليل الإصابة فى الفتيا، كثير المصائب عليها.

[ترجمة لأبى عبد اللّه محمد بن يحيى بن على بن النجار]

و منهم نادرة الأعصار: أبو عبد اللّه محمد بن يحيى بن على بن النجار؛ قال لى العلامة الأبلى: ما قرأ أحد علىّ حتى قلت له: لم أبق عندى ما أقول لك غير ابن النجار.

سمعت ابن النجار يقول: مر عمل الموقّتين على تساوى فضلتى ما بين المغرب و العشاء و الفجر و الشمس، فيؤذنون بالعشاء لذهاب ثمانى عشرة درجة، و بالفجر لبقائها، و الجارى على مذهب مالك أن الشفق الحمرة، و أن تكون فضلة ما بين العشاءين أقصر؛ لأنّ الحمرة ثانية الغوارب و الطوالع، فتزيد فضلة الفجر بمقدار ما بين ابتداء طلوع الحمرة و الشمس، فعرضت كلامه هذا على المزوار أبى عبد الرحمن بن سليمان اللجائى، فصوّبه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۹۸

و ذكرت يوما حكاية ابن رشد الاتفاق فى الخمر إذا تخلّلت بنفسها أنها تطهر، و اعترضته بما فى «الإكمال» عن ابن وضاح أنها لا تطهر، فقال لى: لا معتبر بقول ابن وضاح هذا؛ لأنه يلزم عليه تحريم الخلّ؛ لأن العنب لا يصير خلّا حتى يكون خمرا، و فيه بحث.

و ذكرت يوما قول ابن الحاجب فيما يحرم من النساء بالقرابة «و هى أصول و فصول، و فصول أول أصوله، و أول فصل من كلّ أصل و إن علا» فقال: إن تركّب لفظ التسمية العرفية من الطرفين حلّت، و إلّا حرمت، فتأمّلته فوجدته كما قال؛ لأنّ أقسام هذا الضابط أربعة: التركب من الطرفين كابن العم و ابنة العم مقابله كالأب و البنت، التركب من قبل الرجل كابنة الأخ و العمّ مقابله كابن الأخت و الخالة.

و أنشدت يوما عنده على زيادة اللام: [الرجز]

باعد أمّ العمر من أسيرها

البيت. فقال لى: و ما يدريك أنه أراد العمر الذى أراده المعرى بقوله: [البسيط]

و عمر هند كأنّ اللّه صوّره عمرو بن هند يعنّى الناس تعنيتا

و أضاف اللاـم إليه كما قالوا: أم الحليس، قلت: و لا يندفع هذا بثبوت كون المغنية تكنى أم عمرو؛ لأنّ ذلك لا يمنع إرادة المعنى الآخر، فتكون: أم عمرو، و أم العمر.

قال ابن النجار: بعثت بهذه الأبيات من نظمى إلى القاضى أبى عبد اللّه بن هدية فأخرج لغزها: [المنسرح]

إنّ حروف اسم من كلفت به خفّت على كلّ ناطق بفم

سائغة سهلة مخارجها من أجل هذا تزداد فى الكلم

صحّفه ثم اقلبن مصحّفه فعل ذكىّ مهذّب فهم

و اطلبه فى الشعر جدّ مطلبه تجده كالصبح لاح فى الظّلم

فإن تأمّلت بتّ منه على علم، و إلّا فأنت عنه عمى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۱۹۹

و اللغز «سلمان» و موضعه تأمّلت بت، و توفى رحمه اللّه تعالى بتونس أيام الوباء العام.

[ترجمة لأبى الحسن على بن أبى بكر بن سبع بن مزاحم، المكناسى]

و منهم الأستاذ المقرئ الراوية الرحلة أبو الحسن على بن أبى بكر بن سبع بن مزاحم المكناسى؛ ورد علينا من المشرق، فأقام معنا أعواما، ثم رحل إلى فاس، فتوفى بها فى الوباء العام، جمعت عليه السبع، و قرأت عليه البخارى و الشاطبيتين و غير ذلك، فأمّا البخارى فحدّثنى به قراءة منه على أحمد بن الشحنة الحجار سنة ثلاثين و سبعمائة، و كان الحجار قد سمعه على ابن الزبيدى سنة ثلاثين و ستمائة، و هذا ما لا يعرف له نظير فى الإسلام، و قد قال عبد الغنى الحافظ: لا نعرف فى الإسلام من وازاه عبد اللّه بن محمد البغوى فى قدم السماع، فإنه توفى سنة سبع عشرة و ثلاثمائة، قال ابن خلاد: سمعناه يقول: أخبرنا إسحاق بن إسماعيل الطالقانى سنة خمس و عشرين و مائتين، و سمعه ابن الزبيدى على أبى الوقت بسنده، قال لى ابن مزاحم: هذا طريق كلّه سماع. و أمّا الشاطبيتان فحدّثنى بهما قراءة عليه لجميعهما عن بدر الدين بن جماعة، بقراءتهما عليه عن أبى الفضل هبة اللّه بن الأزرق، بقراءتهما عليه عن المؤلّف كذلك، و حدّثنى بتسهيل الفوائد عن ابن جماعة عن المؤلف ابن مالك، و غير ذلك.

[ترجمة لأبى عبد اللّه محمد بن حسين، القرشى، الزبيدى، التونسى]

و ممّن ورد عليها لا يريد الإقامة بها شيخى و بركتى و قدوتى أبو عبد اللّه محمد بن حسين القرشى الزبيدى التونسى.

حدّثنى بالصحيحين قراءة لبعضهما و مناولة لجميعهما، عن أبى اليمن بن عساكر، لقيه بمكة سنة إحدى و ثمانين و ستمائة بسنده المشهور، و حدّثنى أيضا أنّ أبا منصور العجمى حدّثه بمحضر الشيخين والده حسين و عمّه حسن و أثنى عليه دينا و فضلا، أنه أدخل ببعض بلاد المشرق على المعمّر، أدخله عليه بعض ولد ولده، فألفاه ملفوفا فى قطن، و سمع له دويّا كدوىّ النحل، فقيل له: ألقيت رسول اللّه، صلّى اللّه عليه و سلم، و رأيته؟ قال: نعم، قلت: ليس فى هذا ما يستراب منه إلّا الشيخ المعمّر، فإنّا لا نعرف حاله، فإن صحّ فحديثنا عنه ثلاثى، و قد تركت سنة خمس و أربعين بمصر رجلا يسمّى بعثمان معه تسعون حديثا يزعم أنه سمعها من المعمّر و قد أخذت عنه، و كتبت منه، فهذا ثنائى، و أمر المعمّر غريب، و النفس أميل إلى نفيه.

[ترجمة لإمام أهل الحديث فى عصره أبى محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمى]

و منهم إمام الحديث و العربية، و كاتب الخلافة العثمانية و العلوية، أبو محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمى السبتى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۰۰

جمع فأوعى، و استوهب أكثر المشاهير و ما سعى، فهو المقيم الظاعن، الضارب القاطن، سألنى عن الفرق بين علم الجنس و اسم الجنس، فقلت له: زعم الخسروشاهى أنه ليس بالديار المصرية من يعرفه غيره، و أنا أقول: ليس فى الدنيا عالم إلّا و هو يعلمه غيره؛ لأنه حكم لفظى أوجب تقديره المحافظة على ضبط القوانين كعدل عمر و نحوه، فاستحسن ذلك.

و كان ينكر إضافة الحول إلى اللّه عزّ و جلّ، فلا يجيز أن يقال «بحول اللّه و قوته» قال:

لأنه لم يرد إطلاقه، و المعنى يقتضى امتناعه؛ لأنّ الحول كالحيلة أو قريب منها.

و توفى بتونس أيام الوباء العام.

[ترجمة أبى عبد اللّه محمد بن سليمان السطى]

و منهم الفقيه المحق الفرضى المدقق أبو عبد اللّه محمد بن سليمان بن على السطى.

قرأت عليه كتاب الحوفى علما و عملا، قال لى فى قول ابن الحاجب «و الثمن و الثلث و السدس من أربعة و عشرين»: هذا لا يصحّ؛ إذ لا يجتمع الثلث و الثمن فى فريضة، و قد سبقه إلى هذا الوهم صاحب المقدمات، و سألت عنه ابن الأبار فقال لى: إنما أراد المقام؛ لأنه يجتمع مع الثلثين، و الإنصاف أنه لا يحسن التعبير بما لا تصحّ إرادة نفسه عن غيره، فكان الوجه أن يقول: و الثلثان، أو و مقام الثلث، أو نحو ذلك؛ لأنّ الثلث إنما يدخل هنا تقديرا لا تحقيقا كما فى الجواهر، و انظر باب المدبر من كتاب الحوفى، فإنّ فيه موافقة السبعة لعدد لا توافقه فهو من باب الفرض، و عليه ينبغى أن يحمل كلام ابن الحاجب.

و منهم الأستاذ أبو عبد اللّه الرندى، و القاضى أبو عبد اللّه محمد بن على بن عبد الرزاق الجزولى، و القاضى أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبى يحيى، فى كثير من الخلق، فلنضرب عن هذا.

[ترجمة أبى عثمان سعيد بن إبراهيم بن على الخياط]

و من شيوخى الصلحاء الذين لقيت بها خطيبها الشيخ أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن على الخياط، أدرك أبا إسحاق الطيار، و قد صافحته و أنا صغير؛ لأنه توفى سنة تسع و عشرين، بمصافحته أباه، بمصافحته الشيخ أبا تميم، بمصافحته أبا مدين، بمصافحته أبا الحسن بن حرزهم، بمصافحته ابن العربى، بمصافحته الغزالى، بمصافحته أبا المعالى، بمصافحته أبا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۰۱

طالب المكى، بمصافحته أبا محمد الجريرى، بمصافحته الجنيد، بمصافحته سريّا، بمصافحته معروفا، بمصافحته داود الطائى، بمصافحته حبيبا العجمى، بمصافحته الحسن البصرى، بمصافحته على بن أبى طالب، بمصافحته رسول اللّه، صلّى اللّه عليه و سلم.

[ترجمة أبى عبد اللّه محمد بن على بن الجمال و ابنا أبى عبد اللّه محمد بن مرزوق العجيسى، و هما أبو عبد اللّه محمد، و أبو العباس أحمد]

و منهم خطيبها المصقع أبو عبد اللّه محمد بن على بن الجمال، أدرك محمد بن رشيد البغدادى صاحب الزهر و الوتريات على حروف المعجم و المذهبة و غيرها، حدثنى عنه أنه تاب بين يديه لأول مجلس جلسه بتلمسان سبعون رجلا.

و منهم الشقيقان الحاجّان الفاضلان أبو عبد اللّه محمد، و أبو العباس أحمد، ابنا ولى اللّه أبى عبد اللّه محمد بن محمد بن أبى بكر بن

مرزوق العجيسى.

كسانى محمد خرقة التصوّف بيده، كما كساه إيّاها الشيخ بلال بن عبد اللّه الحبشى خادم الشيخ أبى مدين، كما كساه أبو مدين؛ قال محمد بن مرزوق: و كان مولد بلال سنة تسع و خمسين و خمسمائة، و خدم أبا مدين نحوا من خمسة عشر عاما، إلى أن توفى فى عام تسعين و خمسمائة، ثم عاش بعده أكثر من مائة سنة، و لبس أبو مدين من يد ابن حرزهم، و لبس ابن حرزهم من يد ابن العربى، و اتصل اللباس اتصال المصافحة.

[أبو زيد عبد الرحمن بن يعقوب الصنهاجى و أبو عبد اللّه محمد بن محمد الغزمونى]

و منهم أبو زيد عبد الرحمن بن يعقوب بن على الصنهاجى المكتب، حدّثنا عن قاضيها أبى زيد عبد الرحمن بن على الدكالى أنه اختصم عنده رجلان فى شاة ادّعى أحدهما أنه أودعها الآخر، و ادّعى الآخر أنها ضاعت منه، فأوجب اليمين على المودع عنده، أنها ضاعت من غير تضييع، فقال: كيف أضيع و قد شغلتنى حراستها عن الصلاة حتى خرج وقتها؟ فحكم عليه بالغرم، فقيل له فى ذلك، فقال: تأوّلت قول عمر «و من ضيعها فهو لما سواها أضيع».

و منهم أبو عبد اللّه محمد بن محمد الغزمونى؛ مكتبى الأول، و وسيلتى إلى اللّه عزّ و جلّ، قرأ على الشيخين أبى عبد اللّه القصرى و أبى حريث، و حجّ حجّات، و كان عقد بقلبه أنه كلّما ملك مائة دينار عيونا سافر إلى الحجّ، و كان بصيرا بتعبير الرؤيا، فمن عجائب شأنه فيه أنه كان فى سجن أبى يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق فيمن كان فيه من أهل تلمسان أيام محاصرته لها، فرأى أبو جمعة بن على التلالسى الجرائحى منهم كأنه قائم على

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۰۲

ساقيه دائرة و جميع قواديسها يصب فى نقير فى وسطها، فجاء ليشرب، فلمّا اغترف الماء إذا فيه فرث و دم فأرسله، ثم اغترف فإذا هو كذلك، ثلاثا أو أكثر، فعدل عنه، فرأى حصة ماء و شرب منها، ثم استيقظ و هو النهار، فأخبره، و قال: إن صدقت رؤياك فنحن عمّا قليل خارجون من هذا المكان، قال: كيف؟ قال: الساقية الزمان، و النقير السلطان، و أنت جرائحى تدخل يدك فى جوفه فينالها الفرث و الدم، و هذا ما لا تحتاج معه، فلم يكن إلّا ضحوة النهار، و إذا النداء عليه، فأخرج فوجد السلطان مطعونا بخنجر، فأدخل يده فنالها الفرث و الدم، فخاط جراحته، ثم خرج، فرأى حصة ماء، فغسل يديه و شرب، ثم لم يلبث السلطان أن توفى، و سرّحوا.

و تعداد أهل هذه الصفة يكثر، فلنصفح عنهم، و لنختم فصل من لقيته بتلمسان بذكر رجلين هما بقيد الحياة أحدهما عالم الدنيا، و الآخر نادرتها.

[أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم العبدرى]

أمّا العالم فشيخنا و معلّمنا العلامة أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدرى الأبلى، التلمسانى؛ سمع جدّه لأمّه أبا الحسين بن غلبون المرسى القاضى بتلمسان، و أخذ عن فقهائها أبى الحسين التنسى و ابنى الإمام، و رحل فى آخر المائة السابعة فدخل مصر و الشام و الحجاز و العراق، ثم قفل إلى المغرب فأقام بتلمسان مدة، ثم فرّ أيام أبى حم موسى بن عثمان إلى المغرب.

حدّثنى أنه لقى أبا العباس أحمد بن إبراهيم الخياط شقيق شيخنا أبى عثمان المتقدّم ذكره، فشكا له ما يتوقّعه من شرّ أبى حم، فقال له: عليك بالجبل، فلم يدر ما قال، حتى تعرّض له رجل من غمارة، فعرض عليه الهروب به، قال: فخفت أن يكون أبو حم قد دسّه علىّ، فتنكّرت له، فقال لى: إنما أسير بك على الجبل، فتذكّرت قول أبى إسحاق، فواطأته، و كان خلاصى على يده، قال: و لقد وجدت العطش فى بعض مسيرى به، حتى غلظ لسانى و اضطربت ركبتاى، فقال لى: إن جلست قتلتك لئلّا أفتضح بك، فكنت أقوّى نفسى، فمرّ على بالى فى تلك الحالة استسقاء عمر بالعباس، و توسّله به، فواللّه ما قلت شيئا حتى رفع لى غدير ماء، فأريته إياه، فشربنا

و نهضنا.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۰۳

و لما دخل المغرب أدرك أبا العباس بن البناء، فأخذ عنه، و شافه كثيرا من علمائه، قال لى: قلت لأبى الحسن الصغير: ما قولك فى المهدى؟ فقال: عالم سلطان، فقلت له: قد أبنت عن مرادى. ثم سكن جبال الموحّدين، ثم رجع إلى فاس، فلمّا افتتحت تلمسان لقيته بها، فأخذت عنه، فقال لى الأبلى: كنت يوما مع القاسم بن محمد الصنهاجى، فوردت عليه طومارة من قبل القاضى أبى الحجاج الطرطوشى فيها: [السريع]

خيرات ما تحويه مبذولة و مطلبى تصحيف مقلوبها

فقال لى: ما مطلبه؟ فقلت: نارنج.

دخل على الأبلى و أنا عنده بتلمسان الشيخ أبو عبد اللّه الدباغ المالقى المتطبّب فأخبرنا أنّ أديبا استجدى وزيرا بهذا الشطر: [السريع]

ثم حبيب قلّما ينصف

فأخذته فكتبته، ثم قلبته و صحّفته، فإذا هو: قصبتا ملف شحمى.

و مرّ الدباغ علينا يوما بفاس، فدعاه الشيخ، فلباه، فقال: حدّثنا بحديث اللظافة، فقال:

نعم، حدّثنى أبو زكريا بن السراج الكاتب بسجلماسة أنّ أبا إسحاق التلمسانى و صهره مالك بن المرحل، و كان ابن السراج قد لقيهما، اصطحبا فى مسير، فآواهما الليل إلى مجشر، فسألا عن صاحبه، فدلّا، فاستضافاه فأضافهما، فبسط قطيفة بيضاء، ثم عطف عليهما بخبز و لبن، و قال لهما: استعملا من هذه اللظافة حتى يحضر عشاؤكما، و انصرف، فتحاورا فى اسم اللظافة لأى شىء هو منهما حتى ناما، فلم يرع أبا إسحاق إلّا مالك يوقظه و يقول: قد وجدت اللظافة، قال: كيف؟ قال: أبعدت فى طلبها حتى وقعت بما لم يمرّ قطّ على مسمع هذا البدوى فضلا عن أن يراه، ثم رجعت القهقرى حتى وقعت على قول النابغة: [الكامل]

بمخضّب رخص كأنّ بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقد

فسنح لبالى أنه وجد اللطافة، و عليها مكتوب بالخطّ الرقيق اللّين، فجعل إحدى النقطتين للطاء فصارت اللطافة اللضافة و اللين اللبن و إن كان قد صحّف عنم بغنم، و ظنّ أن يعقد جبن، فقد قوى عنده الوهم، فقال أبو إسحاق: ما خرجت عن صوبه، فلمّا جاء سألاه، فأخبر أنها اللبن، و استشهد بالبيت كما قال مالك.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۰۴

و لا تعجب من مالك فقد ورد فاسا شيخنا أبو عبد اللّه محمد بن يحيى الباهلى، عرف بابن المسفر، رسولا عن صاحب بجاية، فزاره الطلبة، فكان فيما حدّثهم أنهم كانوا على زمان ناصر الدين يستشكلون كلاما وقع فى تفسير سورة الفاتحة من كتاب فخر الدين، و يستشكله الشيخ معهم، و هذا نصّه، ثبت فى بعض العلوم العقلية أنّ المركّب مثل البسيط فى الجنس، و البسيط مثل المركّب فى الفصل، و أنّ الجنس أقوى من الفصل، فرجعوا به إلى الشيخ الأبلى، فتأمّله ثم قال: هذا كلام مصحّف، و أصله أنّ المركب قبل البسيط فى الحس، و البسيط قبل المركب فى العقل، و أنّ الحسّ أقوى من العقل، فاخبروا ابن مسفر، فلجّ، فقال لهم الشيخ: التمسوا النسخ، فوجدوه فى بعضها كما قال الشيخ، و اللّه يؤتى فضله من يشاء.

قال لى الأبلى: لما نزلت تازى بتّ مع أبى الحسن بن برّى و أبى عبد اللّه الترجالى، فاحتجت إلى النوم، و كرهت قطعهما عن الكلام، فاستكشفتهما عن معنى هذا البيت للمعرى:

[الطويل]

أقول لعبد اللّه لمّا سقاؤنا و نحن بوادى عبد شمس و هاشم

فجعلا يفكّران فيه، فنمت حتى أصبحا، و لم يجداه، فسألانى عنه، فقلت: معناه أقول لعبد اللّه لمّا و هى سقاؤنا، و نحن بوادى عبد

شمس: شم لنا برقا. قلت: و فى جواز مثل هذا نظر.

سمعت الأبلى يقول: دخل قطب الدين الشيرازى و الدبيران على أفضل الدين الخونجى ببلده، و قد تزيّا بزى القونوية، فسأله أحدهما عن مسألة، فأجابه، فتعايا عن الفهم، و قرب التقرير، فتعايا، فقال الخونجى متمثّلا: [البسيط]

علىّ نحت المعانى من معادنها و ما علىّ لكم أن تفهم البقر

فقال له: ضمّ التاء يا مولانا، فعرفهما، فحملهما إلى بيته.

قلت: سمعت الشيخ شمس الدين الأصبهانى بخانقاه قوصون بمصر يقول: إنّ شيخه القطب توفى عام أحد عشر و سبعمائة، و له سبع و سبعون سنة، و هذا يضعف هذه الحكاية عندى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۰۵

سمعت الأبلى يقول: إنّ الخونجى ولى قضاء مصر بعد عزّ الدين بن عبد السلام، فقدم شاهدا كان عز الدين أخّره، فعذله فى ذلك، فقال: إنّ مولانا لم يذكر السبب الذى رفع يده من أجله، و هو الآن غير متمكّن من ذكره.

سمعت الشيخ الأبلى يحدّث عن قطب الدين القسطلانى أنه ظهر فى المائة السابعة من المفاسد العظام ثلاث: مذهب ابن سبعين، و تملك الططر للعراق، و استعمال الحشيشة.

سمعت الأبلى يقول: قال أبو المطرف بن عميرة: [الكامل]

فضل الجمال على الكمال بوجهه فالحقّ لا يخفى على من وسّطه

و بطرفه سقم و سحر قد أتى مستظهرا بهما على ما استنبطه

عجبا له برهانه بشروطه معه فما مقصوده بالسفسطه

قال: فأجابه أبو القاسم بن الشاط فقال: [الكامل]

علم التباين فى النفوس و أنها منها مغلّطة و غير مغلّطه

فئة رأت وجه الدليل و فرقة أصغت إلى الشبهات فهى مورّطه

فأراد جمعهما معا فى ملكه هذى بمنتجة و ذى بمغلّطه

يعنى قولهم فى التام: هو ما تحمل فيه البرهان الفصل.

و أخبار الأبلى و أسمعتى منه تحتمل كتابا، فلنقف على هذا القدر منها.

[أبو عبد اللّه بن أحمد بن شاطر الجمحى]

و أمّا النادرة فأبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن شاطر الجمحى المراكشى؛ صحب أبا زيد الهزميرى كثيرا، و أبا عبد اللّه بن تيجان، و أبا العباس بن البناء و أضرابه من المراكشيين و من جاورهم، و رزق بصحبة الصالحين حلاوة القبول، فلا تكاد تجد من يستثقله، و ربما سئل عن نفسه فيقول: ولىّ مفسود.

قلت له يوما: كيف أنت؟ فقال: محبوس فى الروح، و قال: الليل و النهار حرسيان:

أحدهما أسود، و الآخر أبيض، و قد أخذا بمجامع الخلق يجرّانهم إلى القيامة، و إنّ مردّنا إلى اللّه تعالى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۰۶

و سمعته يقول: المؤذنون يدعون أولياء اللّه إلى بيته لعبادته، فلا يصدّهم عن دعائهم ظلمة و لا شتاء و لا طين، و يصرفونهم عن الاشتغال بما لم يبين لهم، فيخرجونهم و يغلقون الأبواب دونهم.

و وجدته ذات يوم فى المسجد ذاكرا، فقلت له: كيف أنت؟ فقال فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ [الروم: ۱۵] فهممت بالانصراف، فقال: أين

تذهب من روضة من رياض الجنّة يقام بها على رأسك بهذا التاج؟ و أشار إلى المنار مملوءا اللّه أكبر.

مرّ ابن شاطر يوما على أبى العباس أحمد بن شعيب الكاتب و هو جالس فى جامع الجزيرة، طهّره اللّه تعالى! و قد ذهبت به الكفرة، فصاح به، فلمّا رفع رأسه إليه قال له: انظر إلى مركب عزرائيل هذا، و أشار إلى نعش هنالك، قد رفع شراعه و نودى عليه الطلوع يا غزى.

و أكل يوما مع أبى القاسم عبد اللّه بن رضوان الكاتب جلجلانا، فقال له أبو القاسم:

إنّ فى هذا الجلجلان لضربا من طعم اللوز، فقال ابن شاطر: و هل الجلجلان إلّا لوزة دقة؟

و سئل عن العلّة فى نضارة الحداثة، فقال: قرب عهدها باللّه، فقيل له: فمم تغير الشيوخ؟ فقال: من بعد العهد من اللّه، و طول الصحبة مع الشياطين، فقيل له: فبخر أفواههم؟ فقال: من كثرة ما تفل الشياطين فيها.

و كان يسمّى الصغير: فأر المصطكى، قال لى ابن شاطر: لقيت عمّى ميمونا المعروف بدبير لقرب موته و قد اصفرّ وجهه و تغيّرت حالته، فقلت له: ما بالك؟ و كان قد خدم الصالحين و رزق بذلك القبول، فقال: انسدّت الزربطانة فطلع، يعنى العذرة، يشير إلى الاحتقان للطبيعة.

أنشدنى ابن شاطر قال: أنشدنى أبو العباس بن البنّاء لنفسه: [الوافر]

قصدت إلى الوجازة فى كلامى

الأبيات.

و أخبار ابن شاطر عندى تحتمل كراسة، فلنقنع منها بهذا القدر.

[ذكر جماعة من شيوخ المقرى الكبير بتلمسان]

فصل- و لما دخلت تلمسان على بنى عبد الواد تهيّأ لى السفر منها، فرحلت إلى بجاية،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۰۷

فلقيت بها أعلاما درجوا فأمست بعدهم خلاء بلقعا. فمنهم الفقيه أبو عبد اللّه محمد بن يحيى الباهلى، عرف بابن المسفر، باحثته و استفدت منه، و سألنى عن اسم كتاب الجوهرى فقلت له: من الناس من يقول الصِحاح بالكسر و منهم من يفتح، فقال: إنما هو بالفتح بمعنى الصحيح، كما ذكره فى باب صح، قلت: و يحتمل أن يكون مصدر صح كحنان.

و كتب إلى بعض أصحابه بجواب رسالة صدّره بهذين البيتين: [الكامل]

وصلت صحيفتكم فهزّت معطفى فكأنما أهدت كؤوس القرقف

و كأنها ليل الأمان لخائف أو وصل محبوب لصبّ مدنف

و منهم قاضيها أبو عبد اللّه محمد ابن الشيخ أبى يوسف يعقوب الزواوى؛ فقيه ابن فقيه، كان يقول: من عرف ابن الحاجب اقرأ به المدوّنة قال: و أنا أقرأ به المدونة.

و منهم أبو على حسين بن حسين إمام المعقولات بعد ناصر الدين.

و منهم خطيبها أبو العباس أحمد بن عمران، و كان قد ورد تلمسان، و أورد بها على قول ابن الحاجب فى حدّ العلم «صفة توجب تمييزا لا يحتمل النقيض» الخاصة إلّا أن يزاد فى الحدّ «لمن قامت به»؛ لأنها إنما توجب فيه تميزا لا تمييزا، و هذا حسن.

و منهم الشيخان أبو عزيز و أبو موسى بن فرحان، و غيرهم من أهل عصرهم.

[ذكر شيوخه فى تونس]

ثم رحلت إلى تونس فلقيت بها قاضى الجماعة و فقيهها أبا عبد اللّه بن عبد السلام، فحضرت تدريسه، و أكثرت مباحثته، و لما نزلت بظاهر قسمطينة تلقّانى رجل من الطلبة، فسألنى عن هذه الآية وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ [المائدة: ۶۷] فإنّ ظاهرها أنّ الجزاء هو الشرط: أى و إن لم تبلّغ فما بلغت، و ذلك غير مفيد، فقلت: بل هو مفيد، أى: و إن لم تبلّغ فى المستقبل لم ينفعك تبليغك فى الماضى: لارتباط أول الرسالة بآخرها، كالصلاة و نحوها، بدليل قصة يونس، فعبر بانتفاء ماهية التبليغ عن انتفاء المقصود منه، إذ كان إنما يطلب و لا يعتبر بدونه، كقوله عليه الصلاة و السلام «لا صلاة إلّا بطهور» ثم اجتمعت بابن عبد السلام

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۰۸

بجامع بوقير بتونس، فسألته عن ذلك، فلم يزد على أن قال: هذا مثل قوله عليه الصلاة و السلام «فمن كانت هجرته إلى اللّه و رسوله فهجرته إلى اللّه و رسوله» و قد علمتم ما قال الشيخ تقى الدين فيه. قلت: كلام تقى الدين لا يعطى الجواب عن الآية، فتأمله.

و قاضى المناكح أبا محمد الأجمى، و هو حافظ فقهائها فى وقته، و الفقيه أبا عبد اللّه بن هارون شارح ابن الحاجب فى الفقه و الأصول، و الخطيب أبا عبد اللّه بن عبد الستار، و حضرت تدريسه بمدرسة المعرض، و العلّامة أبا عبد اللّه بن الجياب الكاتب، و الفقيه أبا عبد اللّه بن سلمة، و الشيخ الصالح أبا الحسن المنتصر وارث طريقة الشيخ أبى محمد المرجانى آخر المذكورين بإفريقية، و رأيت الشيخ ابن الشيخ المرجانى، فحدّثنى أبو موسى ابن الإمام أنه أشبه من الغراب بالغراب، و سيدى أبا عبد اللّه الزبيدى المتقدّم ذكره، و أوقفنى على خطإ فى كتاب الصّحاح، و ذلك أنه زعم أنّ السالم جلدة ما بين العين و الأنف، قال: و فيه يقول ابن عمر فى ابنه سالم: [الطويل]

يديرونني عن سالم و أديرهم و جلدة بين الأنف و العين سالم

قال: و هذا أراد عبد الملك حيث كتب إلى الحجاج «أنت منى كسالم» و هو خطأ فاحش، و كان يلزمه أن يسميها بالعمارة أيضا؛ لقوله عليه السلام «عمارة جلدة ما بين عينى و أنفى» و إنما يراد بمثل هذا القرب و التحمد.

و لقيت بتونس غير واحد من العلماء و الصلحاء يطول ذكرهم، ثم قفلت إلى المغرب يسايرنى رجل من أهل قسمطينة يعرف بمنصور الحلبى، فما رأيت رجلا أكثر أخبارا و لا أظرف نوادر منه، فممّا حفظته من حديثه أنّ رجلا من الأدباء مرّ برجل من الغرباء، و قد قام بين ستة أطفال، جعل ثلاثة عن يمينه و ثلاثة عن شماله، و أخذ ينشد: [البسيط]

ما كنت أحسب أن أبقى كذا أبدا أعيش و الدهر فى أطرافه حتف

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۰۹

ساس بستّة أطفال توسّطهم شخصى كأحرف ساس وسطها ألف

قال: فتقدّمت إليه و قلت: فأين تعريقة السين؟ فقال: طالب و ربّ الكعبة، ثم قال للآخر من جهة يمينه: قم، فقام يجرّ رجله كأنه مبطول، فقال: هذا تمام تعريقة السين.

[شيوخه فى فاس، و فى أغمات]

ثم رحلت من تلمسان إلى المغرب، فلقيت بفاس الشيخ الفقيه الحاج أبا إسحاق إبراهيم بن عبد اللّه بن عبد الرحيم البرناسنى، و الشيخ الفقيه أبا محمد عبد المؤمن الجاناتى، و الشيخ الفقيه الصالح أبا زرهون عبد العزيز بن محمد القيروانى، و الفقيه أبا الضياء مصباح بن عبد اللّه اليالصونى، و كان حافظ وقته، و الفقيه أبا عبد اللّه بن عبد الكريم، و شيخ الشيوخ أبا زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولى، و الأستاذ أبا العباس المكناسى، و كنت لقيت الأستاذ أبا العباس بن حزب اللّه، و الأستاذ أبا عبد اللّه ابن القصار بتلمسان، و لقيت غير هؤلاء ممّن يكثر عددهم، و كنت قد لقيت بتازا الفقيه أبا عبد اللّه بن عطية، و الأستاذ أبا عبد اللّه المجاصى، و الشيخ أبا الحسين الجيار، و غيرهم.

ثم بلغت بالرحلة إلى أغمات، ثم وصلت إلى سبتة، فاستوعبت بلاد المغرب و لقيت بكلّ بلد من لا بدّ من لقائه من علمائه و صلحائه، ثم قفلت إلى تلمسان فأقمت بها ما شاء اللّه تعالى، ثم أعملت الرحلة إلى الحجاز، فلقيت بمصر الأستاذ أثير الدين أبا حيان الغرناطى، فرويت عنه، و استفدت منه، و شمس الدين الأصبهانى الآخر، و شمس الدين بن عدلان، و قرأ علىّ بعض شروحه لكتب المزنى، و ناولنى إياه، و شمس الدين بن اللبان آخر المذكورين بها، و الشيخ الصالح أبا محمد المنوفى فقيه المالكية بها، و تاج الدين التبريزى الأصم، و غيرهم ممّن يطول ذكرهم.

[شيوخه فى مكة، و فى المدينة، و فى الشام]

ثم حججت فلقيت بمكة إمام الوقت أبا عبد اللّه بن عبد الرحمن التوزرى المعروف بخليل، و سألته يوم النحر حين وقف بالمشعر الحرام عن بطن محسّر لأحرك فيه على الجمل، فقال لى: تمالأ الناس على ترك هذه السنّة، حتى نسى بتركها محلّها، و الأقرب أنه هذا، و أشار إلى ما يلى الجابية التى على يسار المار من المشعر إلى منى من الطريق من أول ما يحاذيها إلى أن يأخذ صاعدا إلى منى، و ما رأيت أعلم بالمناسك منه، و الإمام أبا العباس بن رضى الدين الشافعى، و غير واحد من الزائرين و المجاورين و أهل البلد.

و بالمدينة أعجوبة الدنيا أبا محمد عبد الوهاب الجبرتى و غيره.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۱۰

ثم أخذت على الشام، فلقيت بدمشق شمس الدين بن قيّم الجوزية صاحب الفقيه ابن تيميّة، و صدر الدين الغمارى المالكى، و أبا القاسم بن محمد اليمانى الشافعى، و غيرهم، و ببيت المقدس الأستاذ أبا عبد اللّه بن مثبت، و القاضى شمس الدين بن سالم، و الفقيه المذكر أبا عبد اللّه بن عثمان، و غيرهم.

ثم رجعت إلى المغرب، فدخلت سجلماسة و درعة، ثم قطعت إلى الأندلس، فدخلت الجبل و أصطبونة و مربلّة و مالقة و بلش و الحامة، و انتهت بى الرحلة إلى غرناطة، و فى علم اللّه تعالى ما لا أعلم، و هو المسؤول أن يحملنا على الصراط الأقوم، و صلّى اللّه على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلّم؛ انتهى كلام جدى رحمه اللّه تعالى فى الجزء الذى ألّفه فى مشيخته، و قد لخّصه لسان الدين فى الإحاطة.

[رواية ابن خلدون عن شيخه أبى عبد اللّه المقرى الكبير]

و لنذكر هنا زيادات لا بأس بها، فنقول: و لما ألمّ ولى الدين بن خلدون بذكر مولاى الجدّ فى تاريخه الكبير عند تعريفه بنفسه، وصفه بأنه كبير علماء المغرب و نصّ محل الحاجة من تاريخه: لما رحلت من تونس منتصف شعبان من سنة أربع و ثمانين أقمنا فى البحر نحوا من أربعين ليلة، ثم وافينا مرسى الإسكندرية يوم الفطر، و لعشر ليال من جلوس الملك الظاهر على التخت و اقتعاد كرسى الملك دون أهله بنى قلاوون، و كنّا على ترقب ذلك لما كان يؤثر بقاصية البلاد من سموه لذلك و تمهيده له، و أقمت بإسكندرية شهرا لتهيئة أسباب الحجّ، و لم يقدر عامئذ، فانتقلت إلى القاهرة أول ذى القعدة، فرأيت حضرة الدنيا، و بستان العالم، و محشر الأمم، و مدرج الذرّ من البشر، و إيوان الإسلام، و كرسى الملك، تلوح القصور و الأواوين فى أوجه، و تزهو الخوانق و المدارس بآفاقه، و تضىء البدور و الكواكب من علمائه، و قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة و مدفع مياه السماء يسقيهم النهل و العلل سيحه، و يجبى إليهم الثمرات و الخيرات ثبجه، و مررت فى سككك المدينة تغصّ بزحام المارة و أسواقها تزخر بالنعم، و ما زلنا نحدّث عن هذا البلد، و بعد مداه فى العمران، و اتّساع الأحوال، و لقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا و أصحابنا حاجّهم و تاجرهم بالحديث عنه، سألت صاحبنا قاضى الجماعة بفاس و كبير العلماء بالمغرب أبا عبد اللّه المقرى فقلت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۱۱

له: كيف هى القاهرة؟ فقال: من لم يرها لم يعرف عزّ الإسلام، و سألت شيخنا أبا العباس بن إدريس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك، فقال: كأنما انطلق أهله من الحساب، يشير إلى كثرة أممه و أمنهم العواقب، و حضرت صاحبنا قاضى العسكر بفاس الفقيه الكاتب أبا القاسم البرجى بمجلس السلطان أبى عنان منصرفه من السّفارة عنه إلى ملوك مصر و تأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم سنة خمس و خمسين، و سأله عن القاهرة فقال: أقول فى العبارة عنها على سبيل الاختصار: إنّ الذى يتخيّله الإنسان فإنّ ما يراه دون الصورة التى تخيّلها لاتساع الخيال على كلّ محسوس إلّا القاهرة فإنها أوسع من كلّ ما يتخيّل فيها، فأعجب السلطان و الحاضرون بذلك؛ انتهى كلام ابن خلدون، و لا يخلو عن فائدة زائدة.

[من فوائد المقرى الكبير فى مواضع مختلفة]

و لا بأس أن نورد من فوائد مولاى الجدّ ما حضرنى الآن: فمن ذلك ما حكاه عن عبد الرزاق عن ابن قطرال قال: سمع يهودى بالحديث المأثور «نعم الإدام الخلّ» فأنكر ذلك، حتى كاد يصرح بالقدح، فبلغ ذلك بعض العلماء، فأشار على الملك أن يقطع عن اليهود الخل و أسبابه سنة، قال: فما تمت حتى ظهر فيهم الجذام.

و منها أنه قال: أنشدنى الشيخ أبو عبد اللّه محمد بن عبد الواحد قال: أنشدنى الشيخ التقى ابن دقيق العيد لنفسه فى معنى لطيف حجازى: [الطويل]

إذا كنت فى نجد و طيب نعيمه تذكّرت أهلى باللّوى فمحسّر

و إن كنت فيهم زدت شوقا و لوعة إلى ساكنى نجد و عيل تصبّرى

فقد طال ما بين الفريقين موقفى فمن لى بنجد بين أهلى و معشرى

و منها ما حكاه عن عبد اللّه بن عبد الحق عن ابن قطرال قال: كنت بالمدينة على ساكنها الصلاة و السلام إذ أقبل رافضى بفحمة فى يده، فكتب بها على جدار هناك: [البسيط]

من كان يعلم أنّ اللّه خالقه فلا يحبّ أبا بكر و لا عمر

و انصرف، فألقى علىّ من الفطنة و حسن البديهة ما لم أعهد مثله من نفسى قبل، فجعلت مكان يحب «يسب» و رجعت إلى مجلسى، فجاء فوجده كما أصلحته، فجعل يلتفت يمينا و شمالا، كأنه يطلب من صنع ذلك، و لم يتّهمنى، فلمّا أعياه الأمر انصرف.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۱۲

و منها أنه قال: حدّثت أنّ الزاهد أبا عمرة بن غالب المرسى نزيل تلمسان، و قد لقيت غير واحد من أصحابه، سأله بعض أن يشهد عقد ابنته، فتعذّر عليه، فلم يزل به حتى أجاب بعد جهد، فحضر العقد، و طعم الوليمة، ثم لما حضرت ليلة الزفاف استحضره فى ركوبها إلى دار زوجها على عادة أهل تلمسان، فأجابه مسرعا: فقيل له: أين هذا التيسير من ذاك التعسير؟

فقال: من أكل طعام الناس مشى فى خدمتهم، أو كما قال.

و منها أنه قال: حدثت أنّ الفقيه أبا عبد اللّه بن العواد العدل بتونس التقى يوما مع القاضى أبى على بن قداح، و كان ابن العواد شيخا، فقال له أبو على: كبرت يا أبا عبد اللّه فصرت تمشى كلّ شبر بدينار، يورّى بكثرة الفائدة فى مشيه إلى الشهادة، فقال له: كنت إذ كنت فى سنك أخرج رزقى من الحجر، يعرّض لابن قداح بأنه جيّار، و كذلك كان هو و أبوه، رحمهم اللّه تعالى جميعا! و هذا من مزاح الأشراف، كما جرى بين معاوية و الأحنف، انظر صدر «أدب الكتاب».

و منها أنه قال: قال لى الحاجّ أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن عبد الواحد الرباطى:

كنّا عند الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد، ففقد أحدنا نعليه: فقال الشيخ: كنّا عند العلم التبريزى فدخل عليه رجل يدعى بشيرا فكلّمه ثم خرج فلم يجد نعليه، فرجع إلى العلم و أنشده: [الوافر]

دخلت إليك يا أملى بشيرا فلمّا أن خرجت خرجت بشرا

أعد يائى التى سقطت من اسمى فيائى فى الحساب تعدّ عشرا

و قال رحمه اللّه تعالى: لمّا سعى أولاد الشيخ أبى شعيب بالقاضى أبى الحجاج الطرطوشى إلى السلطان و أمر بإشخاصه و كثر إرجاف المتشيّعين فيهم من بعده و خرج الأمر على خلاف ما أملوا منه قال فى ذلك: [الوافر]

حمدت اللّه فى قوم أثاروا شرورا فاستحالت لى سرورا

و قالوا النار قد شبّت فلمّا دنوت لها وجدت النار نورا

و منها: أنه حكى أنّ الشيخ أبا القاسم بن محمد اليمنى مدرّس دمشق و مفتيها حكى له

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۱۳

بدمشق أنه قال له شيخ صالح برباط الخليل عليه السلام: نزل بى مغربى فمرض حتى طال علىّ أمره، فدعوت اللّه أن يفرج عنى و عنه بموت أو صحة، فرأيت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، فى المنام فقال:

أطعمه الكسكسون، قال: يقوله هكذا بالنون، فصنعته له، فكأنما جعلت له فيه الشفاء، و كان أبو القاسم يقول فيه كذلك، و يخالف الناس فى حذف النون من هذا الاسم، و يقول: لا أعدل عن لفظ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، ثم قال: قلت: و وجه هذا من الطب أنّ هذا الطعام ممّا يعتاده المغاربة و يشتهونه، على كثرة استعمالهم له، فربما نبّه منه شهوة أو ردّه إلى عادة.

و قال الجدّ رحمه اللّه تعالى: رأيت بجامع الفسطاط من مصر فقيرا عليه قميص إلى جانبه دفاسة قائمة و بين يديه قلنسوة، فذكر لى هنالك أنهما محشوّتان بالبرادة، و أنّ زنة الدفاسة أربعمائة رطل مصرية، و هى ثلاثمائة و خمسون مغربية، وزنة القلنسوة مائتا رطل مصرية، و هى مائة و خمسة و سبعون مغربية، فعمدت إلى الدفاسة فأخذتها من طوقها أنا و رجل آخر، فأملناها بالجهد، ثم أقمناها، و لم نصل بها إلى الأرض، وعدت إلى القلنسوة فأخذتها من إصبع كان فى رأسها فلم أطق حملها، فتركتها، و كان يوم جمعة، فلمّا قضيت الصلاة مررنا فى جملة من أصحابنا بالفقير، فوجدناه لابسا تلك الدفاسة فى عنقه، واضعا تلك القلنسوة على رأسه، فقام إلينا و إلى غيرنا، و مشى بهما كما يمشى أحدنا بثيابه، فجعلنا نتعجّب، و يشهد بعضنا بعضا على ما رأى من ذلك، و لم يكن بالعظيم الخلقة.

و قال رحمه اللّه تعالى: كان الأستاذ ابن حكم قد بعث إلىّ بمحرّر لأبعث به إلى من يعرضه للبيع، ثم بلغه أنّ أحمالا من المتاع التونسى قد وصلت إلى البلد، فكتب إلىّ:

الحمد للّه الذى أمر عند كلّ مسجد بأخذ الزينة، و صلواته الطيبة، و بركاته الصيّبة، على من ختم به شريعته و أكمل دينه، و على آله و أصحابه الذين اتبعوه و الذين يتبعونه، و بعد فما تعلق به الإعلام، أن تعوّضوا المحرر بإحرام، لا يخفى على مثلكم جنسه و مجانسه، و من كلام العرب: كلّ ثوب و لابسه، و إن أربى على ثمن الأول ثمن الثانى، فلست عن الزيادة، و الحمد للّه بالوانى.

و من فوائده أنه قال: كتب فى صدر رسالة إلى صاحبنا الشيخ الناسك أبى على منصور ابن شيخ عصره و فريد دهره ناصر الدين المشدّالى الشيخ الخاشع صاحبنا أبو الحسن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۱۴

على بن موسى البحيرى يذكره شوقه إلى لقائه، لما كان يبلغه عنه، حتى قدر باجتماعهما بوهران أيام قضاء البحيرى بها: [الكامل]

أوحشتنى و لو اطّلعت على الذى لك فى فؤادى لم تكن لى موحشا

يا محرقا بالنار قلب محبّه أنسيت أنك مستكنّ فى الحشا

و قال رحمه اللّه تعالى: أنشدنى محمد البلفيقى قال: أنشدنى ابن رشيد قال: أنشدنى أبو حفص ابن الخيمى المصرى لنفسه: [الرمل]

لو رأى وجه حبيبى عاذلى لتفاصلنا على وجه جميل

و قال رحمه اللّه تعالى: قال لى محمد بن داود بن المكتب قال لى بلال الحبشى خادم الشيخ أبى مدين: كان الشيخ كثيرا ما ينشد هذا

البيت: [الكامل]

اللّه قل و ذر الوجود و ما حوى إن كنت مرتادا بصدق مراد

و قال رحمه اللّه تعالى: دخلت على عبد الرحمن بن عفان الجزولى، و هو يجود بنفسه، و كنت قد رأيته قبل ذلك معافى، فسألته عن السبب، فأخبرنى أنه خرج إلى لقاء السلطان، فسقط عن دابته، فتداعت أركانه، فقلت: ما حملك أن تتكلّف مثل هذا فى ارتفاع سنّك؟

فقال: حبّ الرياسة آخر ما يخرج من قلوب الصديقين.

و قال رحمه اللّه تعالى: قال لى محمد بن مرزوق: قال لى بعض أصحاب أبى إسحاق الطيار دفين عباد تلمسان: إنّ أبا إسحاق أقام خمسا و عشرين سنة لا ينام إلّا قاعدا، فسألت ابن مرزوق: لم لقّب بالطيار؟ فحدّثنى عن بعض أصحابه أنه نشر ذات يوم ثوبه فى الشمس على بعض السطوح، ثم قعد هنالك، فمرّ به رجل فقال له: طر، فقال: أعن أمرك؟ قال: نعم، فطار حتى وقع على الأرض و ما به من باس، فقال الجدّ، رحمه اللّه تعالى، بعد هذا ما نصّه:

قلت: إذا ما صار الحقّ للعبد سمعا و بصرا، فسمع به و أبصر أصاخ إلى الأحوال، و اجتلى المعانى، فيرى من غير مبصر، و يسمع من غير ناطق، كما قال الشيخ أبو عبد اللّه الشوذى الحلوىّ دفين تلمسان: [الوافر]

إذا نطق الوجود أصاخ قوم بآذان إلى نطق الوجود

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۱۵

و ذاك النّطق ليس به انعجام و لكن دقّ من فهم البليد

فكن فطنا تنادى من قريب و لا تك من ينادى من بعيد

و قال رحمه اللّه تعالى: حدّثت بمصر أنّ الشيخ سيدى عمر بن الفارض ولع بجمل، فكان يستأجره من صاحبه ليتأنّس به، فقيل له: لو اشتريته، فقال: المحبوب لا يملك، فسألت: فى أى حال كان هذا منه؟ فقيل لى: فى ابتداء أمره، فقلت: وجد اعتبار أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ [الغاشية: ۱۷] فوقفت به رؤية المعنى فيه عليه، فأحبّه مدلّا، و طلبه مجلّا.

و قال رضى اللّه عنه: حفظت من خطّ أبى زيد والد صاحبنا أبى الحسن: قيل للغزالى:

ما تقول فى الحلاج؟ فقال: و ما عسى أن أقول فيمن شرب بكأس الصفاء، على بساط الوفاء، فسكر و عربد، فاستوجب من اللّه الحدّ، فكان حدّه شهادته؟ ثم قال بعد هذا: قلت عربد الحلاج فى الحضرة لما نسى بسكره أوامره، فانتصر الظاهر لنفسه لصحة تعلّق اسمه، و سدل الباطن على عذره حجاب الغيرة من إفشاء سرّه: [الطويل]

على سمة الأسماء تجرى أمورهم و حكمة وصف الذات للحكم أجرت

و قال رحمه اللّه تعالى: سمعت شيخنا ببيت المقدس يقول: تجلّى اللّه على المسجد الأقصى بالجمال، و على المسجد الحرام بالحلال، و على مسجد الرسول صلّى اللّه عليه و سلم، بالكمال، قلت: فذلك يوقف النواظر، و ذاك يملأ الخواطر، و هذا يفتح البصائر.

و قال رحمه اللّه تعالى: أخبرنى أمير المؤمنين المتوكل على اللّه أبو عنان فارس نصره اللّه أنّ جده أمير المسلمين أبا سعيد سأل كاتبه عبد المهيمن الحضرمى عن تهادى أهل الحب التفاح دون الخوخ، و كلاهما حسن المنظر، طيب المخبر، شديد شبهه بأخيه، سديد تشبيه الوجنات به لمتوخّيه، فقال: من عند مولانا؟ فقال: أرى ذلك لاشتمال التفاح على الحب الذى يذكر بالحب و الهوى، و الخوخ على النوى الذى يذكر اسمه صفرة الجوى.

و قال رحمه اللّه تعالى: قال لى أبو حيان بالقاهرة: قال لى عمر بن الخيمى: تجاذبت أنا و نجم الدين بن إسرائيل هذا البيت: [البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۱۶

يا بارقا بأعالى الرّقمتين بدا لقد حكيت، و لكن فاتك الشّنب

فتحاكمنا إلى ابن الفارض، فأشار بأن ننظم قصيدة نضمّنها البيت، فنظم و نظمت:

[البسيط]

يا مطلبا ليس لى فى غيره أرب إليك آل التقضّى و انتهى الطّلب

فقضى به لى.

و قال رحمه اللّه تعالى: حدثت أنّ أبا يزيد الهزميرى بعث إلى ابن عمران الشولى، و كان كثير الصلاة، أنه لم يبق بينك و بين اللّه حجاب إلّا الركيعات، فرجع إليه، ما معناه: إنّ الاتصال كان منها، فلا كان الانفصال عنها، يعنى من رزق من باب فيلزمه.

و قال رحمه اللّه تعالى: كنت بجامع تلمسان، و إلى جانبى رجل ينتمى إلى طريقة العرفان، فجعل سائل يشكو الجوع و الألم، فتصدّق ذلك الرجل عليه بدرهم، و قال: إياك أن تشكو الرحمن إلى من لا يرحم، فقلت: أمره أن يسأل عزيزا بمولاه، و نهاه أن يشكو ذليلا إلى سواه.

و كان الفارابى كثيرا ما يقول: يا ربّ إليك المشتكى، حتى أنه يوجد أثناء كلامه فى غير موضعه، فيعجب منه من لا علم عنده بمنزعه.

و قال رحمه اللّه تعالى: حدّثت أنّ الفخر مرّ ببعض شيوخ الصوفية، فقيل للشيخ: هذا يقيم على الصانع ألف دليل، فلو قمت إليه، فقال: و عزّته لو عرفه ما استدلّ عليه، فبلغ ذلك الإمام، فقال: نحن نعلم من وراء الحجاب، و هم ينظرون من غير حجاب.

و قال رحمه اللّه تعالى: حدّثت أنّ رجلا- كان يجلس إلى أبى الحسن الحرانى، و كان يشرب الخمر، فسكر ذات يوم، فسقط على زجاجة، فشجّ وجهه، فاختفى إلى أن برىء، ثم عاد إلى مجالسة الشيخ، فلمّا رآه أنشد: [الكامل]

أ جريح كاسات أرقت نجيعها طلب التّرات يعزّ منه خلاص

لا تسفكنّ دم الزجاجة بعدها إنّ الجروح كما علمت قصاص

ففهمها الشاب، فتاب.

و قال رحمه اللّه تعالى: كثيرا ما كنت أسمع أبا محمد المجاصى ينشد هذا البيت:

[البسيط]

هم الرجال و عيب أن يقال لمن لم يتّصف بمعانى وصفهم رجل

ثم يبكى، و كان أهل البلد يسمّونه «البكّاء» و بعضهم «الخاشع».

و وجدت بخطّ مولاى الجدّ على ظهر كتابه «القواعد» ما نصّه: الحمد للّه تعالى جدّه، قرأت صدر كتاب «زهرة البساتين» للقاسم ابن الطيلسان، ثم سمعت ثلاثة أحاديث من أوله، بل حديثا و أثرا و إنشادا من فى الشيخ الخطيب الصالح أبى عبد اللّه محمد بن محمد ابن عياش الأنصارى، ثم تناولت منه جميع الكتاب المذكور، و أجازنيه بحقّ سماعه لبعضه، و تناوله لجميعه من جدّه محمد المذكور، بحقّ أخذه له عن مؤلّفه صهره القاسم المذكور، و ذلك بالمسجد الجامع من مالقة المحروسة، قال ذلك و كتبه محمد بن محمد بن أحمد المقرّى فى متم عشرين لشهر ربيع الآخر من عام سبعة و خمسين و سبعمائة.

و بخطّه، رحمه اللّه تعالى، حيث ذكر ما نصّه: الحمد للّه، مخالفة القواعد الشرعية، للعوائد العرفية، كإنكار الحشر و فتنة القبر، و نحوهما من الأمر بالمعروف، للركون إلى المشهور المألوف، أو كالتقليد مع الدليل، الذى ذمّه الشرع فى محكم التنزيل.

و بخطّه أيضا: الحمد للّه، قد تتابع صفات العام حتى يصير كأنه أشير به إلى شخص بعينه فيختصّ، و من ثم قيل فى قول اللّه عزّ و جلّ وَ لا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ [القلم: ۱۰]: إنه الأخنس بن شريق، و فى قوله تعالى: وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ [الهمزة: ۱]: إنه أمية بن خلف، و فى قوله تعالى: ذَرْنِى وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً [المدثر: ۱۱]: إنه الوليد بن المغيرة؛ انتهى.

و وجدت بخطّه أيضا، رحمه اللّه تعالى، ما نصّه: الحمد للّه، قال لى المتوكل على اللّه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۱۸

أبو عنان أمير المؤمنين فارس بن على: كان جدّنا أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق يقول:

الولايات ست: ثلاث وقفتها على اختيارى: الحجابة، و القصبة، و الشرطة، و ثلاث موكولة إليكم: القضاء، و الإمامة، و الحسبة. ثم قال رحمه اللّه تعالى: و هذا تدبير حسن.

و من فوائده: حدّثنى العدل أبو عبد اللّه محمد بن أبى زرع عن القاضى أبى عبد اللّه بن أبى الصبر أنه أمر الوالى بفاس أن يبنى فندق الشماعين، و كان قد خرب، فتوقّف حتى يأذن السلطان، فقال له: أسلفنى ما أبنيه به، فإن أجاز ذلك السلطان، و إلّا رددته عليك، ففعل، فلمّا طولب ذكر ما قال له القاضى، فغضب السلطان، و بعث فيه، فجعل المبعوثون يأتونه واحدا بعد واحد و هو متمهّل فى وضوئه و إصلاح بزّته و مركوبه، ثم جعل يمشى الهوينا، فلقيه ابنه، فقال له: أسرع فقد أكثر السلطان من التوجيه إليك، و هو واجد عليك، فقال له:

مسكين أبو يحيى، خاف، و ثبت على حاله، فلما كان فى الطريق لقى بعض العلماء، فتعرّض إليه، فقال: قل بخفىّ لطفك، بلطيف صنعك، بجميل سترك، دخلت فى كنفك، تشفّعت بنبيّك، فحفظه، ثم طلبه فلم يجده، فجعل يقول ذلك، فلمّا رآه السلطان سكن ما به، ثم سأله عن ذلك برفق، فقال له القاضى: كرهت الخراب بقرب القرويين و بالشماعين الذى هو عين فاس، فسألت الوالى ذلك على أنى أغرم إن لم تجز، و قلت له: المرجو من السلطان أن يجعله حبسا، فقال: قد فعلت، ثم بعث إلى الشهود و حبسه على الجامع، و شكر للقاضى صنيعه، و صرفه مغبوطا.

و هذا السلطان هو أبو يعقوب يوسف بن أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى، و توفى محاصرا لتلمسان فى ذى القعدة من عام ستة و سبعمائة، و كان ابتداء حصاره إياها سنة ثمان و تسعين و ستمائة، و كان جملة الحصار فيما حدّثت ألف شهر؛ انتهى.

[من فوائده التى ذكرها تلميذه النظار أبو إسحاق الشاطبى فى كتابه «الإنشاءات و الإفادات»]

و من فوائد مولاى الجدّ، رحمه اللّه تعالى، ما حكاه تلميذه أبو إسحاق الشاطبى فى كتاب «الإنشادات و الإفادات» و نصّه: إفادة- حضرت يوما مجلسا فى المسجد الجامع بغرناطة مقدم الأستاذ القاضى أبى عبد اللّه المقرى، فى أواخر ربيع الأول عام سبعة و خمسين و سبعمائة، و قد جمع ذلك المجلس القاضى أبا عبد اللّه و القاضى أبا القاسم الشريف شيخنا و الأستاذ أبا سعيد بن لب و الأستاذ أبا عبد اللّه البلنسى و ذا الوزارتين أبا عبد اللّه بن الخطيب و جماعة من الطلبة، فكان من جملة ما جرى أن قال القاضى أبو عبد اللّه المقرى: سئلت عن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۱۹

مسألة فى الأصول لم أجد لأحد فيها نصّا، و هى تخصيص العام المؤكّد بمنفصل، فأجبت بالجواز محتجّا بقول اللّه عزّ و جلّ قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ [الأعراف: ۳۳] فهذا عام مؤكد، و قد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «لم يحل اللّه من الفواحش إلّا مسألة الناسى».

انتهى.

و من الكتاب المذكور ما نصّه: إفادة- حدّثنى الشيخ الفقيه القاضى الجليل الشهير الخطير أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن أحمد المقرى، رحمه اللّه تعالى، و أملاه علينا، عن العالم الكبير أبى حيان بن يوسف بن حيان أنه قال: ورد كتاب من الأستاذ أبى عبد اللّه بن مثبت الغرناطى إلى صاحب له يسمّى حمزة، و فيه: سئل الشيخ، قال أبو حيان يعنى وجدت على ظهر نسخة من المفصل بخطّ عتيق سئل ابن الأخضر بمحضر ابن الأبرش: علام انتصب قوله:

[الطويل]

مقالة أن قد قلت سوف أناله

فقال: [الطويل]

و لا تصحب الأردى فتردى مع الرّدى

فقال: سألتك عن إعراب كلمة، فأجبتنى بشطر بيت، فقال ابن الأبرش: قد أجابك لو كنت تفهم، قال أبو حيان: فوقعت عليه للحين: إنّ هذا الشطر من قول النابغة: [الطويل]

أتانى، أبيت اللّعن، أنك لمتنى و تلك التى تصطكّ منها المسامع

مقالة أن قد قلت سوف أناله و ذلك من تلقاء مثلك رائع

يروى «مقالة» بالرفع، على أنه بدل من «أنك لمتنى» الفاعل، و بالفتح على ذلك إلّا أنه بناه لما أضافه إلى مبنى.

و منه: إفادة- حدّثنى الشيخ الفقيه القاضى أبو عبد اللّه المقرى، رحمه اللّه تعالى، قال:

سئل أبو العباس بن البنّاء، رحمه اللّه تعالى، و كان رجلا صالحا، فى قوله تعالى: قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ [طه: ۶۳] لم لم تعمل «إنّ» فى «هذان» فقال: لمّا لم يؤثر القول فى المقول لم يؤثّر العامل فى المعمول، فقال له: يا سيدى، هذا لا ينهض جوابا، فإنه لا يلزم من بطلان قولهم بطلان عمل إنّ، فقال له: إنّ هذا الجواب نوارة لا تحتمل أن تحكّ بين الأكفّ؛ انتهى.

و منه: إفادة- قال لنا الشيخ الأستاذ القاضى أبو عبد اللّه المقرى، رحمه اللّه تعالى: إنّ أهل المنطق و غيره يزعمون أنّ الأسماء المعدولة لا تكاد توجد فى كلام العرب، و هى موجودة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۲۰

فى القرآن، و ذلك قوله لا فارِضٌ وَ لا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ [البقرة: ۶۸] فإن زعم زاعم أنّ ذلك على حذف المبتدإ، و دخلت «لا» على الجملة، و تقديره لا هى فارض و لا هى بكر، قيل له: إن كان يسوغ لك ذلك فى هذا الموضع فلا يسوغ فى قوله تعالى لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ [النور: ۳۵] فصحّ أنّ الاسم المعدول موجود فصيح فى كلام العرب.

و منه: إفادة- حدّثنا الأستاذ أبو عبد اللّه المقرى، قال: سئل عن قوله تعالى وَ هُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [الأنبياء: ۳۳] لم عاد ضمير من يعقل إلى ما لا يعقل؟ فقال بعضهم: لما اشترك مع من يعقل فى السباحة و هى العوم عومل لذلك معاملته، قال: و هذا لا ينهض جوابا، فإنّ السباحة لما لا يعقل كالحوت، و إنما لمن يعقل العوم، لا السباحة، و أيضا فإلحاقه بما العوم له لازم كالحوت أولى من إلحاقه بما هو غير لازم له، قال:

و أجاب الأستاذ أبو محمد عبد المهيمن الحضرمى السبتى بأنّ الشىء المعظم عند العرب تعامله معاملة العاقل، و إن لم يكن عاقلا؛ لعظمه عندهم، و أجبت أنا بأنه لما عوملت فى غير هذا الموضع معاملة من يعقل فى نحو قوله تعالى وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى ساجِدِينَ [يوسف: ۴] لصدور أفعال العقلاء عنها أجرى عليها هنا ذلك الحكم للأنس به فى موضعه.

و منه: إفادة- لقّمنى الشيخ الفقيه القاضى أبو عبد اللّه المقرى، رحمه اللّه تعالى، لقمة بيده المباركة، و قال: لقّمنى الشيخ أبو عبد اللّه المسفر قال: لقّمنى أبو زكريا المحياوى قال:

لقّمنى أبو محمد صالح قال: لقّمنى الشيخ أبو مدين قال: لقّمنى أبو الحسن بن حرزهم قال:

لقّمنى ابن العربى قال: لقّمنى الغزالى قال: لقّمنى أبو المعالى قال: لقّمنى أبو طالب المكى قال: لقّمنى أبو محمد الجريرى قال: لقّمنى الجنيد قال: لقّمنى السقطى قال: لقّمنى معروف الكرخى قال: لقّمنى داود الطائى قال: لقّمنى حبيب العجمى قال: لقّمنى الحسن البصرى قال: لقّمنى على بن أبى طالب، رضى اللّه تعالى عنه، قال: لقّمنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم.

قلت: و بهذا السند صافحته أيضا رضى اللّه تعالى عنه؛ انتهى.

و للمحدثين فى هذا السند كلام مشهور، و انتصر بعضهم للسادة الصوفية رضى اللّه تعالى عنهم!.

و منه: إنشادة- أنشدنى الشريشى الفقيه أبو عبد اللّه قال: أنشدنى القاضى المقرى قال:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۲۱

أنشدنى الرباطى قال: أنشدنى ابن دقيق العيد لنفسه من صدر رسالة كتب بها لبعض إخوانه بالحجاز: [السريع]

يهيم قلبى طربا عند ما أستلمح البرق الحجازيّا

و يستميل الوجد قلبى و قد أصبح لى ثوب الحجازيّا

يا هل أقضّى من منّى حاجتى فأنحر البدن المهاريّا

و أرتوى من زمزم فهى لى ألذّ من ريق المهاريّا

و منه: إفادة- حدّثنا الأستاذ القاضى أبو عبد اللّه المقرى، رحمه اللّه تعالى قال:

رأيت لبعض من ألّف على كتاب «الكشاف» للزمخشرى فائدة لم أرها لغيره فى قوله تعالى وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ [آل عمران: ۷] إذ الناس يختلفون فى هذا الموضع اختلافا كثيرا، فقال قوم: الراسخون فى العلم يعلمون تأويله، و الوقوف عند قوله وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ [آل عمران: ۷] و قال قوم: إنّ الراسخين لا يعلمون تأويله، و إنما يوقف عند قوله وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ [آل عمران: ۷] فقال هذا القائل: إنّ الآية من باب الجمع و التفريق و التقسيم، من أنواع البيان، و ذلك لأنّ قوله تعالى هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ [آل عمران: ۷] هو جمع، و قوله مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ [آل عمران: ۷] تفريق، و قوله تعالى فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ [آل عمران: ۷] إلى قوله تعالى: وَ ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ [آل عمران: ۷] أحد طرفى التقسيم، و قوله تعالى وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ [آل عمران: ۷] الطرف الثانى، و تقديره: و أمّا الراسخون فى العلم فيقولون آمنّا به، و جاء قوله تعالى وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ [آل عمران: ۷] اعتراضا بين طرفى التقسيم، قال: و هذا مثل قوله تعالى وَ أَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ [الجن: ۱۴] فقوله وَ أَنَّا جمع، و قوله مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَ مِنَّا الْقاسِطُونَ تفريق؛ و قوله فَمَنْ أَسْلَمَ وَ مِنَّا الْقاسِطُونَ تقسيم، و هو من بديع التفسير، قلت: و مثله أيضا قوله تعالى يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ [هود: ۱۰۵] انتهى.

و منه: إنشادة- أنشدنا الشيخ الفقيه القاضى أبو عبد اللّه المقرى فى القول بالموجب لبعض العلماء فى وديعة: [الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۲۲

إن قال قد ضاعت فصدّق أنها ضاعت، و لكن منه يعنى لو يعى

أو قال قد وقعت فصدّق أنها وقعت، و لكن منه أحسن موقع

و منه: إنشادة أيضا من القول بالموجب لبعض الحنابلة: [الطويل]

يحجّون بالمال الذى يجمعونه حراما إلى البيت العتيق المحرّم

و يزعم كلّ أن تحطّ ذنوبهم تحطّ و لكن فوقهم فى جهنّم

و منه: إفادة- كتب لى بخطّه شيخنا الفقيه القاضى الجليل أبو عبد اللّه المقرى، رحمه اللّه تعالى، على ظهر «التسهيل» لابن مالك الذى كتبته بخطى بعد ما كتب لى بخطّه روايته فيه عن أبى الحسن بن مزاحم عن بدر الدين بن جماعة عن المؤلف، فكتب بعد ذلك ما نصّه: قال محمد بن محمد المقرى: بدر الدين بن جماعة المذكور يدعى بقاضى القضاة، على ما جرت به عوائد أهل المشرق فى تسمية مثله، و أنا أكره هذا الاسم محتجّا بقول النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم «إنّ أخنع اسم عند اللّه يوم القيامة رجل تسمّى بملك الملوك، لا ملك إلّا اللّه»؛ انتهى ما انتقيته من كتاب «الإنشادات و الإفادات» للشاطبى فيما يتعلّق بجدى رحمه اللّه تعالى.

[من فوائد المقرى الكبير مما لم يذكر سابقا]

و من فوائد مولاى الجدّ، رحمه اللّه، ممّا لم يذكر فيما سبق، أنه حكى أنّ ابن أمجوط المولّه، دخل فى حلقة أبى عبد اللّه بن رشيد بجامع القرويين، و بين رجليه قصبة كأنها فرس، و بيده أخرى كأنها رمح، فانتهره رجل، فضربه برمحه على رأسه، و قال له: اسكت يا ميت، فأبهت الناس لكلامه، فقال له الشيخ: يا فقير، أنت فى حال و نحن فى مقال، و شأن أرباب الأحوال التسليم لأصحاب المقال فنظر إليه المولّه و انصرف، ثم لم ينشب المنتهر أن توفى بعد ذلك بأيام قلائل.

و منها: قلت لابن شاطر يوما: كيف حالك؟ فقال: محبوس فى الروح، و صدق؛ لأنّ الدنيا سجن المؤمن، و لا مخلص له من حبسه إلّا بمفارقة نفسه.

و قال: سألت ابن شاطر عن معنى قول ابن الفارض: [الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۲۳

فلم أله باللّاهوت عن حكم مظهرى و لم أنس بالناسوت موضع حكمتى

فقال: يقول ما أنا بالحلّاج و لا ببلعام، ثم قال مولاى الجدّ بعد هذا الكلام ما صورته:

قلت: و هذا هو الإنسان على الكمال و التمام، و لقد سمعته يقول فى الحلّاج: نصف إنسان، يشير إلى البيت.

و قال أيضا رحمه اللّه تعالى: سمع ابن شاطر إنسانا يقول: الجنّة رخيصة، فقال: كيف تكون رخيصة و اللّه عزّ و جلّ يقول إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ [التوبة: ۱۱۱] انتهى. ثم قال مولاى الجدّ بأثر هذا الكلام: قلت: ما الأنفس و الأموال فى جنب ما فيها ممّا لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر؟ لا سيما و فوق هذه الحسنى زيادة الإكرام بالنظر و الرضاء.

و قال أيضا: قيل لابن شاطر: صف لنا الدنيا، فقال: كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ [النور: ۳۹] الآيتين، فبلغ ذلك أبا زيد ابن الإمام، فأنكر عائبا لاستحسان سامعه، تاليا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ [المائدة: ۱۳] و لقد أصيب المتعسّف بأدهى منها و أمرّ، فإنه أفحم يوما ببعض أهل النظر فتلا عليه فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ [البقرة: ۲۵۸] على أن له أن يقول: لم أخرج الآية عن مرادها، فالبهت من انقطاع المعاند، و الكفر من جحد الجاحد، و لنا أن نقول: التحريف المذموم هو التحويل للإبطال، و ليس هذا من قصد الممثل الأول بالمثال؛ انتهى.

و هذا كله على مذهب جمهور المالكية فى منع الاقتباس، و للكلام على ذلك موضع غير هذا، فليراجع فى كتب البيان و غيرها.

و قال رحمه اللّه تعالى: حدّثت أنّ المتوكل على اللّه أبا عنان، رحمه اللّه تعالى، أعطى ابن شاطر ألف دينار ليحجّ بها، فمرّ بها إلى تلمسان، فصار يدفع منها شيئا فشيئا للمتفرجين بغدير الوريط شرقى عباد تلمسان العلوى، إلى أن نفدت، فلمّا ورد السلطان أبو عنان تلمسان لقيه بسوق العطارين من منشر الجلد، فقال له: يا سيدى أبا عبد اللّه، حجّ مبرور، فقال له:

إذا جهلت أصل المال فانظر مصارفه، و يأبى اللّه إلّا أن ينفق الخبيث فى مثله، فضحك السلطان و انصرف؛ انتهى.

و كان لابن شاطر هذا عجائب، و لم يكن مخلّا بشىء من الحقوق الشرعية، و كان معتقدا عند أهل وقته، و كان السلطان أبو عنان على فقهه يعظّمه و يصله، و يسلّم له، وبات

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۲۴

عنده ليلة بقصره، و كان يدخل القصر، و لا تحتجب منه الجوارى، فاحتاج إلى البول، فبال فى قبة فى القصر عظيمة، فانتهرته إحدى الجوارى، و قالت له: أ تبول فى قبة مولانا؟ فقال لها: إنّ قبة مولانا الخضراء أعظم من هذه، و أنا أفعل تحتها ما هو أفظع من البول، و ما انتهرنى قط، فذكرت ذلك الجارية للسلطان، فضحك و علم أنه يريد السماء. و كان يكتب القرآن و العمدة و لا يغلق حرفا مجوفا فإذا غلب على ذلك أصلحه، حتى حكى أنه سافر لإصلاح حرف مجوف أغلقه سهوا من نسخة كان باعها، و لم يتذكّر ذلك حتى سافر مشتريها، فما رجع حتى جدّده.

و حكى الشيخ أبو القاسم بن داود الفخار السلوى أنّ الشيخ أبا عبد اللّه الشريف التلمسانى صاحب «المفتاح فى أصول الفقه» و شارح

«الجمل الخونجية» المتوفى عام اثنين و سبعين و سبعمائة المدفون بالمدرسة اليعقوبية من تلمسان المحروسة افتتح شرح العمدة بما نصّه: اللهمّ احمد نفسك عمّن أمرته أن يتّخذك وكيلا، حمدا عائدا منك إليك، متحدا بك، دائما بدوام ملكك، لا منقطعا و لا مفصولا- قال: فقال لى أبو عبد اللّه بن شاطر: ما هو انفصال عالم الملك؟ فقلت له: بالضرورة الوقتية فقال لى: ما أجهلك! و أجهل سيدك أبا عبد اللّه! و أجهل ابن سودكين الذى أخذ من كتابه هذا الحمد! إذ قال «لا منقطعا و لا مفصولا» بعد قوله «بدوام ملكك» و هو بالضرورة الوقتية، و هى منقطعة، فهلّا قال: «دائما بدوام قيوميتك، و عظيم قدرك، و مجدك الأعلى، و سبحات وجهك الأكرم، لا منقطعا و لا مفصولا» فبلغ ذلك أبا عبد اللّه الشريف، فبدله؛ انتهى.

و أخبار ابن شاطر كثيرة، و قد مرّ ذكره فى كلام مولاى الجدّ رحمه اللّه تعالى، و سيأتى ما ذكره لسان الدين به فى «الإحاطة».

و من فوائد مولاى الجدّ، رحمه اللّه تعالى، ما قاله إثر قول الرازى فى التفسير «الحس أقوى من العقل» و نصّه: هذا على ما حكاه فى المحصل من أنّ المعقولات فرع المحسوسات، قال: و لذلك من فقد حسّا فقد فقد علما كالأكمه و العنّين، و مذهب جمهور الفلاسفة أنّ اليقينيات هى المعقولات لا المحسوسات، انظر المحصل؛ انتهى.

و من فوائده، رحمه اللّه تعالى، أنه قال: أنشدت يوما الأبلى قول ابن الرومى: [الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۲۵

أفنى و أعمى ذا الطبيب بطبّه و بكحله الأحياء و البصراء

فإذا مررت رأيت من عميانه أمما على أمواته قرّاء

فاستعادنى حتى عجبت منه، مع ما أعرف من عدم ميله إلى الشعر، و انفعاله له، و ظننت أنه أعجب بما تضمّنه البيت الأول من غريب اللفّ و النشر المكرّر الذى لا أعرف له ثانيا فيه، فقال: أظننت أنى استحسنت الشعر؟ فقلت: مثلك يستحسن مثل هذا الشعر، فقال: إنما تعرفت منه كون العميان كانوا فى ذلك الزمان يقرءون على المقابر، فإننى كنت أرى ذلك حديث العهد، فاستفدت التاريخ.

و قال مولاى الجدّ، رحمه اللّه تعالى: حدثنى الأبلى أنّ أبا عبد اللّه محمد بن عبد الرحيم بن أبى العيش الخزرجى الخطيب بتلمسان كان يقول فى خطبته: من يطع اللّه و رسوله فقد رشد بالكسر، و كان الطلبة ينكرون عليه ذلك، فلمّا ورد عليهم الرواية الرحلة أبو عبد اللّه محمد بن عمر بن رشيد الفهرى سمعه يقول ذلك، فأنكر عليه فى جملتهم، و بلغ الخطيب ذلك، فلم يرجع، فلمّا قفل ابن رشيد من وجهته تلك دخل على الأستاذ أبى الحسن بن أبى الربيع بسبتة، فهنّأه بالقدوم، و قال له فيما قال: رشدت- يا ابن رشيد- و رشدت لغتان صحيحتان، حكاهما يعقوب فى «الإصلاح»، ثم قال مولاى الجدّ: قلت: هذه كرامة للرجلين أو للثلاثة.

و قال رحمه اللّه تعالى: قال طالب لشيخنا الأبلى يوما: مفهوم اللقب صحيح؟ فقال له الشيخ: قل زيد موجود، فقال: زيد موجود، فقال له الشيخ: أما أنا فلا أقول شيئا، فعرف الطالب ما وقع فيه، فخجل.

و هذا الأبلى تقدّم فى كلام مولاى الجدّ، رحمه اللّه تعالى، أنه عالم الدنيا، و هو تلمسانى كما تقدّم، قال تلميذه أبو القاسم السلوى الفخار: دخل علىّ شيخنا الأبلى يوما، و أنا أعجن طين الفخارة، فقال لى: ما علامة قبول هذه المادة أكمل صورة ترد عليها؟ فقلت: أن تدفع عن نفسها ما هو من غير جنسها من حجر أو زبل أو غيره، فأدركه وجد عظيم، حتى أنه صاح و قام و قعد، و بقى هنيّة مطرقا برأسه مفكرا، ثم قال: هكذا هى النفوس البشرية.

قال: و قال لى يوما، و قد وجد الصبيان يصوّتون بقضب رقاق على الذباب فإذا خرج قتلوه: الغلط الداخل عليه من أى أنواع المغلطات هو؟ فقلت له: من إيهام العكس، لما كان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۲۶

كلّ ذباب مصوّتا ظنّ أنّ كل مصوّت ذباب، فاستحسن ذلك. قلت: و حدّثنى مولاى العمّ الإمام شيخ الإسلام سيدى سعيد بن أحمد المقرى، رحمه اللّه تعالى، عن شيخه ابن جلال مفتى حضرتى فاس و تلمسان، أنه كان يحكى أنّ الغلط جاءه من عدم كلية الكبرى

فى الشكل الأوّل؛ لأنه ركبه هكذا: هذا مصوّت، و كلّ مصوّت ذباب، و قد علمت أنها هنا إنما تصدق جزئية لا كلية، و إذا كانت جزئية بطل الإنتاج؛ لأن ذلك من الضروب العقيمة؛ انتهى.

و من فوائد مولاى الجدّ، رحمه اللّه تعالى، أنه قال: سمعت شيخنا الأبلى يقول: ما فى الأمة المحمدية أشعر من ابن الفارض.

و قال أيضا، رحمه اللّه تعالى: سمعت شيخنا الأبلى يقول: إنما أفسد العلم كثرة التواليف، و إنما أذهبه بنيان المدارس، و كان ينتصف له من المؤلفين و البانين، و إنه لكما قال، غير أنّ فى شرح ذلك طولا، و ذلك أنّ التأليف نسخ الرحلة التى هى أصل جمع العلم، فكان الرجل ينفق فيها المال الكثير، و قد لا يحصل له من العلم إلّا النّزر اليسير؛ لأنّ عنايته على قدر مشقّته فى طلبه، ثم صار يشترى أكبر ديوان بأبخس ثمن، فلا يقع منه أكثر من موقع ما عوّض عنه، فلم يزل الأمر كذلك حتى نسى الأول بالآخر، و أفضى الأمر إلى ما يسخر منه الساخر، و أمّا البناء فلأنه يجذب الطلبة إلى ما يرتب فيه من الجرايات، فيقبل بها على من يعيّنه أهل الرياسة للأجراء و الإقراء منهم أو ممّن يرضى لنفسه الدخول فى حكمهم، و يصرفونها عن أهل العلم حقيقة الذين لا يدعون إلى ذلك، و إن دعوا لم يجيبوا، و إن أجابوا لم يوفوا لهم بما يطلبون من غيرهم. ثم قال مولاى الجدّ، رحمه اللّه تعالى: و لقد استباح الناس النقل من المختصرات الغريبة أربابها، و نسبوا ظواهر ما فيها إلى أمّهاتها، و قد نبّه عبد الحق فى «تعقيب التهذيب» على ما يمنع من ذلك لو كان من يسمع- و ذيلت كتابه بمثل عدد مسائله أجمع- ثم تركوا الرواية فكثر التصحيف، و انقطعت سلسلة الاتصال، فصارت الفتاوى تنقل من كتب من لا يدرى ما زيد فيها ممّا نقص منها؛ لعدم تصحيحها، و قلّة الكشف عنها. و لقد كان أهل المائة السادسة و صدر السابعة لا يسوّغون الفتوى من «تبصرة» الشيخ أبى الحسن اللخمى لكونه لم يصحّح على مؤلّفه و لم يؤخذ عنه، و أكثر ما يعتمد اليوم ما كان من هذا النّمط. ثم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۶؛ ص۲۲۶

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۲۷

انضاف إلى ذلك عدم الاعتبار بالناقلين، فصار يؤخذ من كتب المسخوطين كما يؤخذ من كتب المرضيين، بل لا تكاد تجد من يفرق بين الفريقين، و لم يكن هذا فيمن قبلنا، فلقد تركوا كتب البراذعى على نبلها، و لم يستعمل منها، على كره من كثير منهم، غير «التهذيب» الذى هو «المدوّنة» اليوم؛ لشهرة مسائله و موافقته فى أكثر ما خالف فيه المدوّنة لأبى محمد. ثم كلّ أهل هذه المائة عن حال من قبلهم من حفظ المختصرات و شقّ الشروح و الأصول الكبار، فاقتصروا على حفظ ما قلّ لفظه، و نزر حظّه، و أفنوا أعمارهم فى فهم رموزه، و حلّ لغوزه، و لم يصلوا إلى ردّ ما فيه إلى أصوله بالتصحيح، فضلا عن معرفة الضعيف من ذلك و الصحيح، بل هو حلّ مقفل، و فهم أمر مجمل، و مطالعة تقييدات زعموا أنها تستنهض النفوس. فبينا نحن نستكبر العدول عن كتب الأئمة إلى كتب الشيوخ، أتيحت لنا تقييدات للجهلة، بل مسوّدات المسوخ، فإنّا للّه و إنّا إليه راجعون، فهذه جملة تهديك إلى أصل العلم، و تريك ما غفل الناس عنه؛ انتهى.

و لنصلها بخاتمة تشير إلى حال العلماء أيضا اعلم أنّ شرّ العلماء علماء السلاطين، و للعلماء معهم أحوال؛ فكان الصدر الأول يفرون منهم، و هم يطلبونهم، فإذا حضر واحد منهم أفرغوا عليه الدنيا إفراغا ليقتنصوا بذلك غيره، ثم جاء أهل العصر الثانى، فطمحت أنفسهم إلى دنيا من حصل لهم، و منعهم قرب العهد بالخير عن إتيانهم، فكانوا لا يأتونهم، فإن دعوهم أجابوهم إلّا القليل، فانتقصوا ممّا كان لغيرهم بقدر ما نقصوا من منابذتهم، ثم كان فيمن بعدهم من يأتيهم بلا دعوة، و أكثرهم إن دعى أجاب، فانتقصوا بقدر ذلك أيضا، ثم تطارح جمهور من بعدهم عليهم، فاستغنوا بهم عن دعاء غيرهم، لا على جهة الفضل أو محبة المدحة منهم، فلم يبقوا عليهم من ذلك إلّا النزر اليسير، و صرفوهم فى أنواع السخر و الخدم إلّا القليل، و هم ينتظرون صرفهم، و التصريح بالاستغناء عنهم، و عدم الحاجة إليهم، و لا تستعظم هذا، فلعلّه سبب إعادة الحال جذعة، عجب اللّه من قوم يقادون إلى الجنّة بالسلاسل، و هذا كلّه ليظهر لك سرّ قول النبىّ صلى اللّه عليه و سلم «لتتبعنّ سنن من قبلكم، شبرا بشبر، و ذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه

خلفهم» قيل: اليهود و النصارى؟ قال: «فمن؟» و قد قصّ علينا القرآن و الأخبار من أمرهم ما شاهدنا أكثره أو أكثر منه فينا، سمعت العلّامة الأبلى يقول: لو لا انقطاع الوحى لنزل فينا أكثر ممّا نزل فيهم؛ لأنّا أتينا أكثر ممّا أتوا، يشير إلى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۲۸

افتراق هذه الأمة على أكثر ممّا افترقت عليه بنو إسرائيل، و اشتهار بأسهم بينهم إلى يوم القيامة، حتى ضعفوا بذلك عن عدوّهم، و تعدّد ملوكهم لاتّساع أقطارهم و اختلاف أنسابهم و عوائدهم، حتى غلبوا بذلك على الخلافة، فنزعت من أيديهم، و ساروا فى الملك بسير من قبلهم، مع غلبة الهوى و اندراس معالم التقوى، لكنّا آخر الأمم، أطلعنا اللّه من غيرنا على أقلّ ممّا ستر منّا، و هو المرجوّ أن يتمّ نعمته علينا، و لا يرفع ستره الجميل عنّا. فمن أشدّ ذلك إتلافا لغرضنا تحريف الكلم عن مواضعه الصحيحة أنّ ذلك لم يكن بتبديل اللفظ، إذ لا يمكن ذلك فى المشهورات من كتب العلماء المستعملة، فكيف فى الكتب الإلهية، و إنما كان ذلك بالتأويل كما قال ابن عباس و غيره، و أنت تبصر ما اشتملت عليه كتب التفسير من الخلاف، و ما حمّلت الآى و الأخبار من التأويلات الضعاف، قيل لمالك: لماذا اختلف الناس فى تفسير القرآن؟

فقال: قالوا بآرائهم فاختلفوا، أين هذه من قول الصدّيق «أىّ سماء تظلّنى؟ و أىّ أرض تقلّنى، إذا قلت فى كتاب اللّه عزّ و جلّ برأيى؟» كيف و بعض ذلك قد انحرف عن سبيل العدل إلى بعض الميل، و أقرب ما يحمل عليه جمهور اختلافهم أن يكون بعضهم قد علم بقصد إلى تحقيق نزول الآية من سبب أو حكم أو غيرهما، و آخرون لم يعلموا ذلك على التعيين، فلمّا طال بحثهم و ظنّوا عجزهم أرادوا تصوير الآية بما يسكن النفوس إلى فهمها فى الجملة؛ ليخرجوا عن حدّ الإبهام المطلق، فذكروا ما ذكروه على جهة التمثيل، لا على سبيل القطع بالتعيين، بل منه ما لا يعلم أنه أريد لا عموما و لا خصوصا، لكنه يجوز أن يكون المراد، فإن لم يكن إياه فهو قريب من معناه، و منه ما يعلم أنه مراد لكن بحسب الشركة و الخصوصية، مع جواز أن يكون هو المراد بحسب الخصوصية، ثم اختلط الأمران. و الحقّ أنّ تفسير القرآن من أصعب الأمور، فالإقدام عليه جراءة، و قد قال الحسن لابن سيرين: تعبر الرؤيا كأنك من آل يعقوب! فقال له: تفسّر القرآن كأنك شهدت التنزيل! و قد صحّ أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، لم يكن يفسّر من القرآن إلّا آيات معدودة، و كذلك أصحابه و التابعون بعدهم، و تكلّم أهل النقل فى صحة التفسير المنسوب لابن عباس إليه إلى غير ذلك، و لا رخصة فى تعيين الأسباب و الناسخ و المنسوخ إلّا بنقل صحيح أو برهان صريح، و إنما الرخصة فى تفهيم ما تفهمه العرب بطباعها من لغة و إعراب و بلاغة لبيان إعجاز و نحوها؛ انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۲۹

[ترجمات قصار للمقرى الكبير عن صاحب كتاب «نيل الابتهاج» و عن المرزوقى، و عن الوانشريسى]

و لنرجع إلى بقية أنباء مولاى الجدّ، رحمه اللّه، فنقول: قال صاحب «نيل الابتهاج، بتطريز الديباج» ما صورته: محمد بن محمد بن أحمد القرشى التلمسانى الشهير بالمقرى- بفتح الميم، و تشديد القاف المفتوحة- كذا ضبطه الشيخ عبد الرحمن الثعالبى فى كتابه «العلوم الفاخرة» و ضبطه ابن الأحمر فى فهرسته و سيدى أحمد زروق، بفتح الميم و سكون القاف- الإمام، العلّامة، النظّار، المحقق، القدوة الحجّة، الجليل، الرحلة، أحد فحول أكابر علماء المذهب المتأخرين الأثبات، قاضى الجماعة بفاس، ذكره ابن فرحون فى الأصل، يعنى «الديباج»، و أثنى عليه؛ انتهى.

و قال الخطيب ابن مرزوق: كان صاحبنا المقرى معلوم القدر، مشهور الذكر بالخير، تبعه بعد موته من حسن الثناء، و صالح الدعاء، ما يرجى له النفع به يوم اللقاء، و عوارفه معلومة عند الفقهاء، و مشهورة بين الرعاء؛ انتهى.

و قال أبو العباس الوانشريسى فى بعض فوائده: و مقّرة- بفتح الميم، بعدها قاف مفتوحة مشدّدة- قرية من قرى بلاد الزاب من أعمال إفريقية، سكنها سلفه، ثم تحوّلوا إلى تلمسان، و بها ولد الفقيه المذكور، و بها نشأ، و قرأ و أقرأ، إلى أن خرج منها صحبة الركاب

المتوكلى العنانى أمير المؤمنين فارس عام تسعة و أربعين و سبعمائة إلى مدينة فاس المحروسة، فولّاه القضاء، فنهض بأعبائه علما و عملا، و حمدت سيرته، و لم تأخذه فى اللّه لومة لائم، إلى أن توفى بها إثر قدومه من بلاد الأندلس فى غرض الرسالة لأبى عنان عام تسعة و خمسين و سبعمائة، ثم نقل إلى مسقط رأسه تلمسان.

و قال فى موضع آخر: إنه توفى، رحمه اللّه تعالى، يوم الأربعاء التاسع و العشرين من جمادى الأولى عام تسعة و خمسين و سبعمائة، بمدينة فاس المحروسة، ثم نقل إلى تلمسان محلّ ولادته و مقرّ أسلافه، و دفن بها فى البستان الملاصق لقبلى داره الكائنة بباب الصرف من البلد المذكور، و هو الآن على ملك بعض ورثة الشيخ أبى يحيى الشريف؛ انتهى.

و من أخبار مولاى الجدّ، رحمه اللّه تعالى، أنه قال: شهدت الوقفة سنة أربع و أربعين و سبعمائة، و كانت جمعة، و قام الخطيب فى سابع ذى الحجة فى الناس بالمسجد الحرام، و قال: إن جمعة وقفتكم هذه خاتمة مائة جمعة وقف بها من الجمعة التى وقف فيها رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، فى حجّة الوداع آخر عشر من الهجرة، و شاع ذلك فى الناس و ذاع، و كان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۳۰

علم ذلك ممّا تواتر عندهم، و اللّه أعلم، و هم يزعمون أنّ الجمعة تدور على خمس سنين، و هذا مناف لذلك، و لكن كثير منهم ينكر اطّراد هذا و يقول: إنها قد تكون على خلاف ذلك، فلا أدرى.

و منها أنه قال: شهدت شمس الدين بن قيّم الجوزية قيّم الحنابلة بدمشق، و قد سأله رجل عن قوله عليه الصلاة و السلام «من مات له ثلاثة من الولد كانوا له حجابا من النار» كيف إن أتى بعد ذلك بكبيرة؟ فقال: موت الولد حجاب، و الكبيرة خرق لذلك الحجاب، و إنما يكون الحجاب حجابا ما لم يخرق، فإذا خرق فقد زال عن أن يكون حجابا، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة و السلام «الصوم جنّة» ما لم يخرقها، ثم قال: و هذا الرجل أكبر أصحاب تقى الدين ابن تيمية.

و من أخبار مولاى الجدّ الدالّة على صرامته ما حكاه ابن الأزرق عنه: أنه كان يحضر مجلس السلطان أبى عنان لبثّ العلم، و كان نقيب الشرفاء بفاس إذا دخل مجلس السلطان يقوم له السلطان و جميع من فى المجلس إجلالا له، إلّا الشيخ المقرى فإنه كان لا يقوم فى جملتهم، فأحسّ النقيب من ذلك، و شكاه إلى السلطان، فقال له السلطان: هذا رجل وارد علينا نتركه على حاله إلى أن ينصرف، فدخل النقيب فى بعض الأيام على عادته، فقام له السلطان على العادة و أهل المجلس، فنظر إلى المقرى، و قال له: أيها الفقيه، ما لك لا تقوم كما يفعل السلطان نصره اللّه و أهل مجلسه إكراما لجدى و لشرفى؟ و من أنت حتى لا تقوم لى؟

فنظر إليه المقرى و قال له: أمّا شرفى فمحقّق بالعلم الذى أنا أبثّه و لا يرتاب فيه أحد، و أمّا شرفك فمظنون، و من لنا بصحته منذ أزيد من سبعمائة سنة، و لو علمنا شرفك قطعا لأقمنا هذا من هنا، و أشار إلى السلطان أبى عنان، و أجلسناك مجلسه، فسكت؛ انتهى.

قال ابن الأزرق: و على اعتذاره ذلك بأن الشرف الآن مظنون، فمن معنى ذلك أيضا ما يحكى عنه أنه كان يقرأ بين يدى السلطان أبى عنان المذكور صحيح مسلم بحضرة أكابر فقهاء فاس و خاصتهم، فلمّا وصل إلى أحاديث «الأئمة من قريش» قال الناس: إن قال الشيخ «الأئمة من قريش» و أفصح بذلك استوغر قلب السلطان، و إن ورّى وقع فى محظور، فجعلوا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۳۱

يتوقّعون له ذلك، فلمّا وصل إلى الأحاديث قال بحضرة السلطان و الجمهور: إنّ الأئمّة من قريش، ثلاثا، و يقول بعد كلّ كلمة: و غيرهم متغلّب، ثم نظر إلى السلطان و قال له: لا عليك، فإنّ القرشى اليوم مظنون، أنت أهل للخلافة، إذ بعض الشروط قد توفّرت فيك و الحمد للّه، فلمّا انصرف إلى منزله بعث له السلطان بألف دينار؛ انتهى.

قال أبو عبد اللّه بن الأزرق: قلت: و يلزم أيضا من اعتذاره أنّ قيام السلطان لذى الشرف المحقق بالعلم أولى بالمحافظة على تعظيم حرمات اللّه، و قد روى عن بعض الأمراء أنه تكبّر على ذلك، و استخفّ بمنزلة من عظم به غيره، فسلبه اللّه ملكه و ملك نبيه من بعده؛ انتهى.

و من أجوبة مولاى الجدّ، رحمه اللّه تعالى، قوله: سألنى السلطان عمّن ألزمته يمينا على نفى العلم فحلف جهلا على البتّ، هل يعيد أم لا؟ فأجبته بإعادتها، و قد كان من حضر من الفقهاء أفتوا بأن لا تعاد؛ لأنه أتى بأكثر ممّا أمر به على وجه يتضمّنه، فقلت له: اليمين على وجه الشك غموس، قال ابن يونس: و الغموس: الحلف على تعمّد الكذب، أو على غير يقين، و لا شكّ أنّ الغموس محرّمة منهىّ عنها، و النهى يدلّ على الفساد، و معناه فى العقود عدم ترتب أثره؛ فلا أثر لهذه اليمين، و يجب أن تعاد، و قد يكون من هذا اختلافهم فيمن إذنها السكوت، فتكلّمت هل يجتزأ بذلك؟ و الإجزاء هنا أقرب؛ لأنه الأصل، و الصمات رخصة لعلبة الحياء، فإن قلت: البتّ أصل، و نفى العلم إنما يعتبر عند تعذّره، قلت: ليس رخصة كالصّمات.

و منها أنه قال: سألنى بعض الفقهاء عن السبب فى سوء بخت المسلمين فى ملوكهم، إذ لم يل أمرهم من يسلك بهم الجادّة و يحملهم على الواضحة، بل من يغتر فى مصلحة دنياه، غافلا عن عاقبة أخراه، فلا يرقب فى مؤمن إلّا و لا ذمّة، و لا يراعى عهدا و لا حرمة، فأجبته بأنّ ذاك لأنّ الملك ليس فى شريعتنا و ذلك أنه كان فيمن قبلنا شرعا، قال اللّه تعالى ممتنّا على بنى إسرائيل وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً [المائدة: ۲۰] و لم يكن ذلك فى هذه الأمة، بل جعل لهم خلافة، قال اللّه تعالى وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۳۲

الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ [النور: ۵۵] و قال تعالى وَ قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طالُوتَ مَلِكاً [ص: ۲۴۷] و قال سليمان رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكاً [ص: ۳۵] فجعلهم اللّه تعالى ملوكا، و لم يجعل فى شرعنا إلّا الخلفاء، فكان أبو بكر خليفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و إن لم يستخلفه نصّا، لكن فهم الناس ذلك فهما، و أجمعوا على تسميته بذلك، ثم استخلف أبو بكر عمر، فخرج بها عن سبيل الملك الذى يرثه الولد عن الوالد، إلى سبيل الخلافة الذى هو النظر و الاختيار، و نصّ فى ذلك على عهده، ثم اتّفق أهل الشّورى على عثمان، فإخراج عمر لها عن بنيه إلى الشورى دليل على أنها ليست ملكا، ثم تعين علىّ بعد ذلك، إذ لم يبق مثله، فبايعه من آثر الحقّ على الهوى، و اصطفى الآخرة على الدنيا، ثم الحسن كذلك، ثم كان معاوية أول من حوّل الخلافة ملكا، و الخشونة لينا، ثم إنّ ربّك من بعدها لغفور رحيم، فجعلها ميراثا، فلمّا خرج بها عن وضعها لم يستقم ملك فيها، ألا ترى أنّ عمر بن عبد العزيز، رضى اللّه عنه، كان خليفة لا ملكا، لأنّ سليمان، رحمه اللّه تعالى، رغب عن بنى أبيه إيثارا لحقّ المسلمين، و لئلّا يتقلّدها حيّا و ميتا، و كان يعلم اجتماع الناس عليه، فلم يسلك طريق الاستقامة بالناس قطّ إلّا خليفة، و أمّا الملوك فعلى ما ذكرت إلّا من قل، و غالب أفعاله غير مرضية؛ انتهى.

و فوائد مولاى الجدّ و تحفه و طرفه و لطائفه و دقائقه يستدعى استقصاؤها مجلدات، فلنكتف بما قدّمناه: [البسيط]

و فى الإشارة ما يغنى عن الكلم

[مؤلفات المقرى الكبير]

و أما تأليفه فكثيرة: منها كتاب «القواعد» اشتمل على ألف قاعدة و مائتى قاعدة، قال العلّامة الونشريسى فى حقّه: إنه كتاب غزير العلم، كثير الفوائد، لم يسبق إلى مثله، بيد أنه يفتقر إلى عالم فتاح؛ انتهى.

و قد أشار فيه إلى مأخذ الأربعة، و هو قليل بهذه الديار المشرقية، و لم أر منه بمصر إلّا نسخة عند بعض الأصحاب، و ذكر أنها من أوقاف رواق المغاربة بالأزهر المعمور، و أمّا قول

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۳۳

لسان الدين فى «الإحاطة» عند تعرّضه لذكر تآليف مولاى الجدّ ما صورته: «ألّف كتابا يشتمل على أزيد من مائة مسألة فقهية، ضمّنها كلّ أصل من الرأى و المباحثة» فهو غير القواعد بلا مرية.

و منها كتاب «الطّرف و التّحف» غاية فى الحسن و الظرف، قاله الونشريسى، و قد وقفت على بعضه فرأيت العجب العجاب.

و منها «اختصار المحصل» و لم يكمله، و شرحه لجمل الخونجى، كذلك، و منها كتاب «عمل من طبّ لمن حبّ» و هو بديع فى بابه، مشتمل على أنواع: الأول فيه أحاديث حكمية كأحاديث «الشهاب» و «سراج المهتدين» لابن العربى، و النوع الثانى منه الكليات الفقهية على جملة أبواب الفقه فى غاية الإفادة، و الثالث فى قواعد و أصول، و الرابع فى اصطلاحات و ألفاظ، قال الوانشريسى: و قد أطلعنى الفقيه أبو محمد عبد اللّه بن عبد الخالق على نسخة من هذا الكتاب، فتلطّفت فى استنساخها، فلم يسمح به؛ انتهى.

قلت: و قد رأيت هذا الكتاب بحضرة فاس عند بعض أولاد ملوك تلمسان و هو فوق ما يوصف، و فيه يقول مولاى الجدّ، رحمه اللّه تعالى: [البسيط]

هذا كتاب بديع فى محاسنه ضمّنته كل شىء خلته حسنا

فكلّ ما فيه إن مرّ اللبيب به و لم يشمّ عبيرا شام منه سنا

فخذه و اشدد به كفّ الضنين و ذد حتى تحصّله، عن جفنك الوسنا

و هذه الأبيات كافية فى وصف هذا الكتاب، إذ صاحب البيت أدرى بالذى فيه.

[بعض فوائد المقرى الكبير التى أودعها كتابه «المحاضرات»]

و منها كتاب «المحاضرات» و فيه من الفوائد و الحكايات و الإشارات كثير، و قد ملكت منه بالمغرب نسختين، فلنذكر منه بعض الفوائد، فنقول: قال رحمه اللّه تعالى: قيل لصوفى: لم تقول اللّه اللّه و لا- تقول لا- إله إلّا اللّه؟ فقال نفى العيب حيث يستحيل العيب عيب، و هذا إن لم يكن فى هذه الكلمة؛ لأنها أفضل ما قالته الأنبياء فهو فى كثير من التنزيه الذى يطلقه المتكلّمون و غيرهم، حتى قال الشاشى عنهم: إنهم يتمندلون بأسماء اللّه عزّ و جلّ، ما عرفه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۳۴

من كيّفه، و لا وحّده من مثّله، و لا عبده من شبهه، المشبّه أعشى، و المعطّل أعمى، المشبّه متلوّث بفرث التجسيم، و المعطّل نجس بدم الجحود، و نصيب المحقّ لبن خالص و هو التنزيه، انزل من علوّ التشبيه، و لا- تعل قلل أباطيل التعطيل، فالوادى المقدّس بين الجبلين.

أبو المعالى: من اطمأنّ إلى موجود انتهى إليه فكره فهو مشبّه، و من سكن إلى النفى المحض فهو معطّل، و فى قطع بموجود و اعترف بالعجز عن إدراكه فهو موحّد: [الرمل]

جلّ ربّ الأعراض و الأجسام عن صفات الأعراض و الأجسام

جلّ ربّى عن كلّ ما اكتنفته لحظات الأفكار و الأوهام

برىء اللّه من هشام و ممّن قال فى اللّه مثل قول هشام

الدقاق: المريد صاحب ولّه؛ لأنّ المراد بلا شبه، و قيل: مثله الأعلى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى: ۱۱].

الجنيد: أشرف كلمة فى التوحيد قول الصّدّيق: الحمد للّه الذى لم يجعل للخلق سبيلا إلى معرفته إلّا بالعجز عن معرفته.

القشيرى: يعنى أنّ العارف عاجز عن معرفته، و المعرفة موجودة فيه.

غيره: ما عرف سوى اللّه، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك: [الخفيف]

كلّ ما ترتقى إليه بوهم من جلال و قدرة و ثناء

فالذى أبدع البرية أعلى منه، سبحان مبدع الأشياء!

سئل المريسى الشافعى عن التوحيد بحضرة الرشيد، فقال: أن لا تتوهّمه و لا تتّهمه، فأبهت. بشر.

الشبلى: من توهّم أنه واصل، فليس له حاصل، و من رأى أنه قريب فهو بعيد، و من تواجد فهو ناقد، و من أجاب عن التوحيد بالعبارة

فهو غافل، و من سكت عنه فهو جاهل. ما أرادت همّة سالك أن تقف عند ما كشف لها إلّا نادته هواتف الحقيقة: الذى تطلب أمامك، و ما تبرّجت ظواهر المكونات إلّا نادتك حقائقها: إنّما نحن فتنة فلا تكفر: [البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۳۵

ما ينتهى نظرى منهم إلى رتب فى الحسن إلّا و لاحت فوقها رتب

الجريرى: ليس لعلم التوحيد إلّا لسان التوحيد.

الحسن: العجز عن درك الإدراك إدراك: [البسيط]

تبارك اللّه وارت غيبه حجب فليس يعرف إلّا اللّه ما اللّه

دعا نبى إلى اللّه، عزّ و جلّ، بحقيقة التوحيد، فلم يستجب له إلّا الواحد بعد الواحد، فعجب من ذلك، فأوحى اللّه، عزّ و جلّ، إليه: تريد أن تستجيب لك العقول؟ قال: نعم، قال: احجبنى عنها، قال: كيف أحجبك و أنا أدعو إليك؟ قال: تكلّم فى الأسباب، و فى أسباب الأسباب، فدعا الخلق من هذا الطريق، فاستجاب له الجمّ الغفير.

و منه: سمع أعرابى اختلاف المتكلّمين بمسجد البصرة فى الإنسان و انتزاع كلّ واحد منهم الحجّة على رأيه، فخرج و هو يقول: [الرجز]

إن كنت أدرى فعلىّ بدنه من كثرة التخليط فىّ من أنّه

و من عجز عن أقرب الأشياء نسبة منه، فكيف يقدر على أبعد الأمور حقيقة عنه؟ من عرف نفسه عرف ربّه.

و منه: دع ما يسبق إلى القلوب إنكاره، و إن كان عندك اعتذاره.

لمّا احتضر الوليد بن أبان، قال لبنيه: هل تعلمون أحدا هو أعلم بالكلام منى؟ قالوا:

لا، قال: فإنى أوصيكم بما عليه أهل الحديث، فإنّى رأيت الحقّ معهم. و عن أبى المعالى نحوه.

و منه: هجر أحمد المحاسبىّ لما صنّف فى علم الكلام، فقال: إنما قصدت إلى نصر السنّة، فقال: أ لست تذكر البدعة و الشبهة؟ قلت: من تحقّق كلام فخر الدين الرازى وجده فى تقرير الشّبهة أشد منه فى الانفصال عنها، و فى هذا ما لا يخفى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۳۶

و منه: من آمن بالنظر إلى ظاهر الثعبان كفر بالاستماع إلى خوار العجل، و من شاهد مجاوزة القدرة الإلهية لمنتهى وسع القوة البشرية لم يكترث بوعيد الدنيا و لم يؤثر الهوى على الهدى و التقوى.

و منه: على بن الحسين: من عرف اللّه بالأخبار، دون شواهد الاستبصار و الاعتبار، اعتمد على ما تلحقه التهم.

و منه: قيل لطبيب: بم عرفت ربّك؟ قال: بالإهليلج، يجفف الحلق، و يلين البطن.

و قيل لأديب: بم عرفت ربّك؟ قال: بنحلة فى أحد طرفيها عسل، و فى الآخر لسع، و العسل مقلوب اللسع، و سأل الدهرية الشافعى عن دليل الصانع، فقال: ورقة الفرصاد تأكلها دودة القزّ فيخرج منها الإبريسم، و النحل فيكون منها العسل، و الظّباء فينعقد فى نوافجها المسك، و الشاء فيكون منها البعر، فآمنوا كلّهم، و كانوا سبعة عشر.

قيل لأعرابى: بم عرفت ربّك؟ فقال: البعرة تدلّ على البعير، و الروث يدلّ على الحمير، و آثار الأقدام تدلّ على المسير، فسماء ذات أبراج، و بحار ذات أمواج، أمّا يدلّ ذلك على العليم القدير: [الكامل]

قد يستدلّ بظاهر عن باطن حيث الدخان يكون موقد نار

قيل لأعرابى: بم عرفت اللّه؟ قال: بنقص عزائم الصدور، و سوق الاختيار إلى حبائل المقدور.

و منه: الدقاق: لو كان إبليس بالحقّ عارفا، ما كان لنفسه بالإضلال و الإغواء واصفا.

و منه: التوحيد محو آثار البشرية، و تجديد صفات الألوهية. الحقّ واحد فى ذاته لا ينقسم، واحد فى صفاته لا يماثل، واحد فى أفعاله

لا- يشارك. لو كان موجودا عن عدم، ما كان موصوفا بالقدم. الحياة شرط القدرة، دلّت على ذلك الفطرة. لو لم يكن الصانع حيّا، لاستحال أن يوجد شيئا. لو لم يكن باقيا، لكان للألوهية منافيا. لو كان البارى جسما، ما استحقّ الإلهية اسما. لو كان البارى جوهرا، لكان للحيز مفتقرا. العرض لا- يبقى، و القديم لا- يتغيّر و لا يفنى. لو لم يكن بصفة القدرة موصوفا، لكان بسمة العجز معروفا. لو لم يكن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۳۷

عالما قادرا، لاستحال كونه خالقا فاطرا. دلّت الفطرة و العبرة، أنّ الحوادث لا تحصل إلّا من ذى قدرة. لو لم يكن بالإرادة قاصدا، ما كان العقل بذلك شاهدا. من تنوع إيجاده، دلّ ذلك على أنّ الفعل مراده. لو لم يكن بالسمع و البصر موصوفا، لكان لضدّيهما مألوفا. لو جاز سامع لا سمع له، لجاز صانع لا صنع له. لو كان سمعه بأذن، لافتقرت ذاته إلى ركن. من صدرت عنه الشرائع و الأحكام، كان موصوفا بالكلام. ليس فى الصفات السبع ما لا يتعلّق إلّا الحياة، و لا ما يؤثّر إلّا القدرة و الإرادة. كما جاز أن يأمر بما لا يريد جاز أن يريد ما لا يحبّ.

لا يسأل عمّا يفعل. الواحد كاف، و ما زاد عليه متكاف. ليس مع اللّه تعالى موجودات؛ لأنّ الموجودات كلّها كالظّلّ. من نور القدرة له نور التبعية، لا رتبة المعية: [مجزوء الرمل]

إنّ من أشرك باللّ ه جهول بالمعانى

أحول العقل؛ لهذا ظنّ للواحد ثانى

قال جعفر بن محمد: لو كان على شىء لكان محمولا، و لو كان فى شىء لكان محصورا، و لو كان من شىء لكان محدثا.

قيل لثمامة بن الأشرس: متى كان اللّه؟ فقال: و متى لم يكن؟ فقيل: فلم كفر الكافر؟

فقال: الجواب عليه.

قال خادم أبى عثمان: قال لى مولاى: يا محمد، لو قيل لك أين معبودك ما كنت تجيب؟ قال: أقول بحيث لم يزل، قال: فإن قيل لك فأين كان فى الأزل؟ فقال: أقول بحيث هو الآن، فنزع قميصه و أعطانيه.

قيل لصوفى: أين هو؟ فقال: محقك اللّه! أ يطلب مع العين أين؟.

و منه، سمعت شيخنا يقول: نقصنا صفة كمال له فينا، يعنى إذا وجب له كلّ الكمال وجب لنا كلّ النقص، و هذا على أنه ليس فى الإمكان أبدع ممّا كان، و فيه كلام.

و منه: بلغ أحمد أنّ أبا ثور قال فى الحديث «خلق اللّه آدم على صورته»، إنّ الضمير لآدم، فهجره، فأتاه أبو ثور، فقال أحمد: أى صورة كانت لآدم يخلقه عليها؟ كيف تصنع بقوله «خلق اللّه آدم على صورة الرحمن»؟ فاعتذر إليه، و تاب بين يديه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۳۸

و منه: أتى يهودى المسجد فقال: أيكم وصىّ محمد صلّى اللّه عليه و سلم؟ فأشاروا إلى الصّدّيق، فقال:

إنى سائلك عن أشياء لا يعلمها إلّا نبىّ أو وصى نبىّ، قال: سل، قال: فأخبرنى عمّا ليس للّه، و عمّا ليس عند اللّه، و عمّا لا يعلمه اللّه، فقال: هذه مسائل الزنادقة، و همّ بقتله، فقال ابن عباس: ما أنصفتموه، إمّا أن تجيبوه و إمّا أن تصرفوه إلى من يجيبه، فإنى سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، يقول لعلى «اللهمّ اهد قلبه، و ثبّت لسانه» فقال أبو بكر: قم معه إلى على، فقال له: أمّا ما لا يعلمه فقولكم فى عزير إنه ابن اللّه، و اللّه، عزّ و جلّ، لا يعلم له ولدا، قال فى التنزيل وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ [يونس: ۱۸] و أمّا ما ليس عند اللّه فالظلم، و أمّا ما ليس له فالشريك، فأسلم اليهودى، فقبّل أبو بكر رأس على، و قال له: يا مفرج الكربات، و وردت مثل هذه المسائل عن الصحابة، فاللّه تعالى أعلم.

و قال العتابى لأبى قرة النصرانى عند المأمون: ما تقول فى المسيح؟ قال: من اللّه، قال:

البعض من الكلّ على سبيل التّجزى، و الولـد من الوالد على طريق التناسل، و الخلّ من الخمر على وجه الاستحالة، و الخلق من الخالق على جهة الصنعة، فهل من معنى خامس؟

قـال: لاـ و لكن لو قلت بواحـد منهـا مـا كنت تقول؟ قـال: البـارى لاـ يتجزّأ، و لو جـاز عليه ولـد لجاز له ثان و ثالث و هلمّ جرّا، و لو استحال فسد، و الرابع مذهبنا، و هو الحقّ.

و منه: أول ما تكلّم به عيسى فى المهد أن قال: إِنِّی عَبْدُ اللَّهِ [مريم: ۳۰] و هو حجّة على الغالين فيه، يقال لهم: إن صدق فقد كذبتم، و إلّا فمن عبدتم؟ و لمن ادّعيتم؟

قال القاضـى ابن الطيب للقسـيس لما وجهه عضد الدولة إلى ملك الروم: لم اتّحد اللاهوت بالناسوت؟ فقال: أراد أن ينجى الناس من الهلاـك، قـال: فهـل درى أنه يقتل و يصـلب أولا؟ فإن لم يـدر لم يجز أن يكون إلها و لا ابنا، و إن درى فالحكمـة تمنع من التعرّض لمثل ما قلتم إنه جرى.

سأل القاضى هذا البطرك عن أهله و ولده، فأنكر ذلك النصارى، فقال: تبرءون هذا ممّا تثبتونه لربّكم؟ سوأة لهذا الرأى، فانكسروا.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۳۹

ابن العربى: سمعت الفقراء ببغداد يقولون: إنّ عيسى، عليه السلام، كان إذا خلق من الطين كهيئة الطير طار شيئا ثم سقط ميتا؛ لأنه كان يخلق و لا يرزق، و لو رزق لم يبق أحد إلّا قال «هو اللّه» إلّا من أوتى هداه.

سأل ابن شاهين الجنيد عن معنى «مع» فقال: مع الأنبياء بالنظر و الكلاءة إِنَّنِی مَعَكُما [طه: ۴۶] و مع العامة بالعلم و الإحاطة إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ [المجادلة: ۷] فقال: مثلك يصلح دليلا على اللّه.

و منه: سأل قدرىّ عليّا، رضى اللّه عنه، عن القدر، فأعرض عنه، فألحّ عليه، فقال:

أخلقك كيف شئت، أو كيف شاء؟ فأمسك، فقال: أ ترونه يقول كيف شئت؟ إذن و اللّه أقتله، فقال: كيف شاء، قال: أ يحييك كيف تشـاء أو كيف يشـاء؟ قـال: كيف يشـاء، قـال: فيـدخلك حيث تشـاء أو حيث يشـاء؟ قال: حيث يشاء، قال: اذهب فليس لك من الأمر شىء.

أبو سليمان: أدخلهم الجنّة قبل أن يطيعوه، و أدخلهم النار قبل أن يعصوه، جلّ حكم الأزل، أن يضاف إلى العلل، سبق قضاؤه فعله إِنِّی جاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِيفَةً [البقرة: ۳۰] و أوقفت مشيئته أمره وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِی الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً [يونس: ۹۹].

قال الشاذلى: أهبط آدم إلى الأرض قبل أن يخلقه؛ لأنه قال فِی الْأَرْضِ و لم يقل فى السماء و لا فى الجنة.

الأوزاعى: قضى بما نهى، و حال دون ما أمر، و اضطرّ إلى ما حرم: [البسيط]

ألقاه فى اليمّ مكتوفا و قال له إيّاك إيّاك أن تبتّل بالماء

قال الأوزاعى لغيلان: مشيئتك مع مشيئة اللّه، عزّ و جلّ، أو دونها؟ فلم يجب، فقال هشام بن عبـد الملك: فلو اختار واحدة، فقال: إن قال معها فقد زعم أنه شريك، و إن قال وحدها فقد تفرّد بالربوبية، قال: للّه درّك أبا عمرو.

من بيان عظمته رَفِيعُ الدَّرَجاتِ [غافر: ۱۵] من آثار قدرته بَدِيعُ السَّماواتِ [البقرة: ۱۱۷] توقيع أمره يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ [النحل: ۹۰] واقع زجره وَ يَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ [النحل: ۹۰] تنفيذ حكمه فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ [البروج: ۱۶] دستور ملكه لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ [الأنبياء: ۲۳].

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۴۰

إياس بن معاوية: ما خاصمت أحدا بعقلى كلّه إلّا القدرية، قلت لقدرى: ما الظلم؟

فقال: أخذ ما ليس لك، قلت: فإنّ اللّه له كل شىء.

الواسطى: ادّعى فرعون الربوبية على الكشف، و ادّعت المعتزلة الربوبية على الستر، تقول ما شئت فعلت.

و منه: من أقصته السوابق لم تدنه الوسائل، إذا كان القدر حقّا فالحرص باطل، إذا كان اللّه، عزّ و جلّ، عدلا فى قضائه فمصيبات الخلق بما كسبت أيديهم: [البسيط]

ما عذر معتزليّ موسر منعت كفّاه معتزليّا معسرا صفدا

أ يزعم القدر المحتوم ثبّطه؟ إن قال ذاك فقد حلّ الذى عقدا

و منه: دخل محمد بن واسع على بلال بن فروة فقال: ما تقول فى القدر؟ قال: تفكر فى جيرانك أهل القبور فإن فيهم شغلا عن القدر: [السريع]

و كل من أغرق فى نعته أصبح منسوبا إلى العيّ

المقادير، تبطل التقدير، و تنقض التدبير.

قال معتزلى لسنى: لو أراد ثبوت أحد على الكفر لم يقل لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ [الأحزاب: ۴۳] فقال السنى: لو لم يكن الإيمان من فعله لم يقل لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ [الأحزاب: ۴۳].

قال نقفور طاغية النصارى لأبى الحسن الشلبانى: أنت تقول إنّ الخير و الشرّ من اللّه؟

و ذلك لأنّ النصارى كلّهم على مذهب القدرية فى الاستطاعة، قال: نعم، قال: كيف يعذب عليه؟ هل كان حقّا عليه أن يخلق؟ فقال: لم يضطره إلى ما خلق مضطرّ.

قيل: نزلت وَ ما أَضَلَّنا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ فى القدرية؛ لأنهم أضافوا الحول و القوة فى الشرّ إلى البشر فأشركوهم فى الخلق، أما ترى قوله تعالى: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ [القمر: ۴۷]

إلى قوله تعالى: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ [القمر: ۴۷] [الخفيف]

كنت دهرا أقول بالاستطاعة و أرى الجبر ضلّة و شناعه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۴۱

ففقدت استطاعتى فى هوى ظب ى، فسمعا لمن أحبّ و طاعه

غيره: [الكامل]

ما لا يكون فلا يكون بحيلة أبدا، و ما هو كائن سيكون

غيره: [الوافر]

تريد النفس أن تعطى مناها و يأبى اللّه إلّا ما يشاء

شفاء الصدور، فى التسليم للمقدور: [الطويل]

إذا لم يكن إلّا الأسنّة مركب فلا رأى للمضطرّ إلّا ارتكابها

غيره: [الرمل]

أىّ يومىّ من الموت أفرّ يوم لا يقدر أم يوم قدر

إذا كان الداء من السماء، بطل الدواء.

قال الحائط للوتد: لم تشقّنى؟ قال: سل من يدقّنى: [الكامل]

الناس يلحون الطبيب، و إنما غلط الطبيب إصابة المقدور

قيل لحكيم: أخرج الهمّ من قلبك، فقال: ليس بإذنى دخل: [الكامل]

نفسى تنازعنى فقلت لها قرى موت يريحك أو صعود المنبر

ما قد قضى سيكون فاصطبرى له و لك الأمان من الذى لم يقدر

و لتعلمى أنّ المقدّر كائن لا بدّ منه صبرت أو لم تصبرى

و منه: الهارب من المقدور كالمتقلّب فى كفّ الطالب. من كان السلطان يطلبه، ضاق عليه مذهبه وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ [الأنعام: ۱۳۴] أسلى آية فى التنزيل ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي أَنْفُسِكُمْ إلى قوله تعالى: بِما آتاكُمْ [الحديد: ۲۳].

و منه: أخلّ رجل بخدمة صاحب الإسكندرية، فتغيّب، ثم ظفر به عرفاؤه، فقادوه،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۴۲

فانساب منهم، و رمى بنفسه فى بئر، و تحت الإسكندرية أسراب يسير فيها القائم من أول البلد إلى آخره، فلم يزل يمشى حتى وجد بئرا صاعدة، فتعلّق بها، فإذا هى فى دار السلطان، فأخذه فأدّبه، فانظر كيف فرّ من قودة السلطان مكرها، و أتاه برجله طائعا: [الكامل]

ذهب القضاء بحيلة العقلاء

و منه: قال يزيد بن المهلب لموسى بن نصير: أنت أدهى الناس و أعلمهم، فكيف طرحت نفسك فى يد سليمان؟ فقال: إنّ الهدهد يهتدى للماء فى الأرض الفيفاء، و ينصب له الصبىّ الفخّ بالدودة أو الحبة فيقع فيه: [الوافر]

و لو جرت الأمور على قياس لوقّى شرّها الفطن اللبيب

الواسطى: اختيار ما جرى لك فى الأزل، خير من معارضة الوقت.

ابن معاذ: عجبت من ثلاثة: رجل يريد تناول رزقه بتدبيره، و رجل شغله غده، و عالم مفتون يعيب على زاهد مغبوط.

و منه: شكى لبعض الأنبياء امرأة كانت تؤذى أهل زمانها، فأوحى اللّه إليه: أن فرّ من قدامها حتى تنقضى أيامها.

و منه: ابن المعتز: كرم اللّه، عزّ و جلّ، لا ينقض حكمته، و لذلك لا تقع الإجابة فى كلّ دعوة وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ [المؤمنون: ۷۱]: [الطويل]

أريد فلا أعطى، و أعطى و لم أرد و قصّر علمى أن أنال المغيّبا

و منه: كان ابن مجاهد ينشد لبعضهم: [الخفيف]

أيها المعتدى ليطلب علما كلّ علم عبد لعلم الكلام

تطلب الفقه كى تصحّح حكما ثم أغفلت منزل الأحكام

و منه: قال الأحدب البغدادى للقاضى الباقلانى: هل للّه، عزّ و جلّ، أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه؟ فقال: إن أردتم بالتكليف القول المجرد فقد وجد، قُلْ كُونُوا حِجارَةً [الإسراء: ۵۰]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۴۳

أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ [البقرة: ۳۱] وَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ [القلم: ۴۲] و إن أردتم به ما يصحّ فعله و تركه فالكلام متناقض، و هذا هو الذى نعرفه؛ لأنّ التكليف اقتضاء فعل ما فيه مشقّة، و ما لا يطاق لا يفعل البتّة، فقال: سئلت عن كلام مفهوم فطرحته فى الاحتمالات، فقال: إنى بيّنت الوجوه المحتملة، فإن كان معك شىء فهاته، فقال عضد الدولة: قد صدق، و ما جمعتكم إلّا للفائدة، لا للمهاترة. ثم قال لقاضيه بشر بن الحسن المعتزلى: تكلّم، فقال:

ما لا يطاق على ضربين: أحدهما ما لا يطاق للاشتغال بضدّه، و هذا سبيل الكافر، لا يطيق الإيمان للاشتغال بالكفر، و أمّا العاجز فما ورد فى الشريعة تكليفه، و لو ورد لكان جائزا، و قد أثنى اللّه، عزّ و جلّ، على من سأله أن لا يكلّفه ما لا يطيقه فقال رَبَّنا وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ [البقرة: ۲۸۶] لأنّ اللّه له أن يفعل فى ملكه ما يريد.

و منه: خرج عمر بن عبد العزيز فى سفر ليلا، فقال له رجل: انظر إلى القمر ما أحسنه، فنظر فقال: قد علمت أنك أردت نزوله بالدّبران، و نحن لا نتطيّر بذلك و لا نعتقده: [الوافر]

إذا عقد القضاء عليك أمرا فليس يحلّه إلّا القضاء

يدبّر بالنجوم و ليس يدرى و ربّ النجم يفعل ما يشاء

و قال: [مجزوء الرمل]

ليس للنجم إلى ض رّ و لا نفع سبيل

إنما النجم على الأو قات و السّمت دليل

و قال: [مجزوء الرجز]

من كان يخشى زحلا أو كان يرجو المشترى

فإننى منه- و إن كان أخى الأدنى- برى

لمّا وجّه عضد الدولة القاضى ابن الطيب إلى ملك الروم قال له الوزير: أخذت الطالع لخروجك؟ فسأله القاضى عن ذلك، ففسّره له، فقال: السعد و النحس بيد اللّه، ليس للكواكب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۴۴

فيه تـأثير، و إنما وضـعت كتب النجوم ليتمعش بها العامـة، و لا حقيقـة لها، فاستحضـر الوزير ابن الصوفى و دعاه إلى مناظرة القاضـى، فقال: لا أقدم على المناظرة، و إنما أقول: إذا كان من النجوم كذا كان كذا، و أمّا التعليل فمن علم المنطق، و الذى يتولّى المناظرة عليه أبو سـليمان المنطقى، فأحضر و أمر، فقال هذا القاضى يقول: إذا ركب عشرة أنفس فى ذلك المركب الذى فى دجلة فاللّه تعالى قادر على أن يزيـد فيهم آخر فى ذلـك الوقت، فإن قلت له لا يقـدر قطعتم لسانى، فأى معنى لمناظرتى؟ فقال القاضـى للوزير: ليس كلامنا فى القـدرة، لكن فى تـأثير الكواكب، فانتقـل هـذا إلى مـا ترى لعجزه، و أنـا إن قلت إنّ اللّه تعالى قادر على ذلك فلا أقول إنه يخرق العـادة الآـن، و لاـ يجوز عنـدنا ذلك، فهو فرار من الزحف، فقال المنطقى: المناظرة دربـة، و أنا لا أعرف مناظرة هؤلاء القوم، و هم لا يعرفون مواضعاتنا، فقال الوزير: قد قبلنا اعتذارك، و الحق أبلج.

رأس الدين، صحة اليقين. من سابق القدر، عثر: [الكامل]

و إذا خشيت من الأمور مقدّرا و فررت منه فنحوه تتوجّه

قيل: لمّا وقع الوباء بالكوفة فرّ ابن أبى ليلى على حمار، فسمع منشدا ينشده: [الرجز]

لن يسبق اللّه على حمار و لا على ذى منسر طيّار

أو يأتى الحتف على مقدار قد يصبح اللّه أمام السارى

فقال: إذا كان اللّه أمام السارى فلا مهرب، و رجع.

و منه: شـكا بعض الصـالحين إلى الخليفـة ضـرر الأـتراك، فقال: أنتم تعتقـدون أنّ هـذا من قضاء اللّه و قـدره، فكيف أردّه؟ فقال: إنّ صاحب القضاء قال: وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ [البقرة: ۲۵۱] فردّهم عنهم.

القدر و الطلب كالعدلين على ظهر الدابة كلّ واحد منهما معين لصاحبه، فالقدر بالطلب، و الطلب بالقدر.

قيـل لعـارف: إن كنت متوكلا فألق بنفسك من هـذا الحائط فلن يصـيبك إلّا ما كتب اللّه لك، فقال: إنما خلق اللّه الخلق ليجرّبهم، لا ليجرّبوه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۴۵

الجوهرى: كف اللّه النـار عن يـد موسـى لئلاـ تقول النـار: طبعى، و احترق لسـانه لئلا يقول الكليم: مكانى، و قال غيره: لو لم يقل لنار إبراهيم سَلاماً لهلك من برد النار.

قيل للجنيـد: أ نطلب الرزق؟ قال: إن علمتم أين هو فاطلبوه، قيل: فنسأل اللّه؟ قال: إن خشـيتم أن ينساكم فذكروه، قيل: فلنلزم البيوت؟ قال: التجربة منك شكّ، قيل: فما الحيلة؟

قال: ترك الحيلة. يقول: ليكن تصرّفك بإذنه، لا بشهوتك، فقد قيل: ترك الطلب يضعف الهمّة، و يذلّ النفس، و يورث سوء الظنّ.

الطرطوشي: القدر و الطلب كأعمى و مقعد في قرية، يحمل الأعمى المقعد، و يدلّ المقعد الأعمى.

قال رجل لبشر: إني أريد السفر إلى الشام، و ليس عندي زاد، فقال: اخرج لما قصدت إليه، فإنه إن لم يعطك ما ليس لك، لم يمنعك ما لك.

الناس في هذا الباب ثلاثة: فرقة عاملت اللّه، عزّ و جلّ، على مقتضى شمول قدرته للشّرّ و الخير، و أعرضوا عن الأسباب، فأدركوا التوكل، وفاتهم الأدب، و هم بعض الصوفية، و قد قيل: اجعل أدبك دقيقا، و علمك ملحا، و هذا إبليس لم تنفعه كثرة علمه لمّا دفعته قلّة أدبه.

و فرقة عاملته على ذلك مع الجريان على عوائد مملكته، و التصرّف بإذنه على مقتضى حكمته، و هم الأنبياء و خواصّ العلماء، فأصابوا الأدب، و ما أخطئوا التوكل. و الفرقة الثالثة- و هم الجمهور- أقبلوا على الأسباب، و نسوا المسبب، ففاتهم الأمران، فهلكوا.

و منه: جل الواحد المعروف، قبل الحدود و الحروف: [البسيط]

لقد ظهرت فما تخفى على أحد إلّا على أكمه لا يعرف القمرا

كما بطنت بما أبديت من حجب و كيف يبصر من بالعزّة استترا

سئل النصيبي عن الرؤية بمجلس عضد الدولة، فأنكرها محتجّا بأنّ كلّ شيء يرى بالعين فهو في مقابلتها، فقال له القاضي ابن الطيب: لا يرى بالعين، قال له الملك: فبما ذا يرى؟

قال: بالإدراك الذي يحدثه اللّه في العين و هو البصر، و لو أدرك المرئي بالعين لوجب أن يدرك بكلّ عين قائمة، و هذا الأجهر عينه قائمة و لا يرى بها شيئا.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۴۶

و منه: ابن العربي: للصوفية في إطلاق لفظ العشق على الحقّ تجاوز عظيم، و اعتداء كبير، و لو لا إطلاقه للمحبة ما أطلقناها، فكيف أن نتعدّاها؟.

الدقاق: العشق مجاوزة الحدّ في الحب، و لما كان الحقّ لا يوصف بالحدّ لم يوصف بالمحدود، إذ لو جمع محابّ الخلق كلّهم لشخص واحد لم يبلغ ما يستحقّه قدر الحقّ من الحبّ.

خمسة أبهمت، فلم تعين لعظم أمرها: الاسم الأعظم، و ساعة الجمعة، و ليلة القدر، و الصلاة الوسطى، و الكبائر؛ لأنّ اجتنابها يكفر غيرها، يعني على أحد الأقوال في المسألة.

و منه: قيل في التسعة و التسعين اسما: إنها تابعة لاسم اللّه، و هو تمام المائة، فهي عدد درج الجنّة؛ لما في الصحيح من أنّ درجها مائة، بين كلّ درجتين مسيرة مائة عام، و لذلك قيل: من أحصاها دخل الجنّة، و هذه الأسماء مفضلة على غيرها ممّا لا يحصى، ألا ترى قوله عليه السلام في الصحيح: بأسمائه الحسنى ما علمت منها و ما لم أعلم؟.

ذكر القرآن في أربعة و خمسين موضعا منه، فلم يشر في شيء منها إلى خلقه، و ذكر الإنسان في ثمانية عشر موضعا ثلث ذلك العدد فصرّح في جميعها بخلقه، قال ابن عطية:

و هذا يدلّ على أنه غير مخلوق.

أبو علي بن أبي اللحم: بتّ ليلة جمعة بمصر في أيام أبي حريش، و كان يقول بخلق القرآن، و أبي خلف المعافري، و كان يقول: القرآن كلام اللّه ليس بمخلوق، أفكر عن أيهما آخذ، فلمّا نمت أتاني آت فقال لي: قم، فقمت، قال: قل، فقلت: ما أقول؟ فقال: [مجزوء الكامل]

لا و الذي رفع السما ء بلا عماد للنظر

فتزيّنت بالساطعا ت اللامعات و بالقمر

و المالىء السّبع الطّبا ق بكلّ مختلف الصور

ما قال خلق فى القرا ن بخلقه إلّا كفر

لكن كلام منزل من عند خلّاق البشر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۴۷

ثم قال: اكتبها، فأخذت كتابا من كتبى و كتبتها فيه، فلمّا أصبحت وجدت ذلك بخطّى على كتاب من كتبى، فجلست فى البيت إلى الزوال، ثم خرجت، فسألنى إنسان عمّا رأيت البارحة، فقلت: ما أخبرت أحدا، فقال: قد شاعت رؤياك فى الناس.

الخواصّ: انتهيت إلى رجل مصروع، فجعلت أؤذن فى أذنه، فنادانى الشيطان من جوفه: دعنى أقتله، فإنه يقول بخلق القرآن.

عمرو بن دينار: أدركت سبعة من الصحابة يقولون: من قال القرآن مخلوق فهو كافر، قلت: قال مالك: يستتاب.

و منه: كان عضد الدولة يحبّ العلم و العلماء، فكان مجلسه يحتوى على عدد منهم أكثرهم الفقهاء و المتكلّمون، و كان يعقد لهم مجالس للمناظرة، فقال لقاضيه بشر بن الحسن:

إنّ مجلسنا خال عن عاقل من أهل الإثبات ينصر مذهبه، فقال: إنما هم عامة يرون الخير و ضدّه، و يعتقدونهما جميعا، و إنما أراد ذمّ القوم، ثم أقبل يمدح المعتزلة، فقال عضد الدولة:

محال أن يخلو مذهب طبّق الأرض من ناصر فانظر، قال: بلغنى أنّ بالبصرة شيخا يعرف بأبى الحسن الباهلى، و فى رواية بأبى بكر بن مجاهد، و شابّا بابن الباقلّانى، فكتب إليهما، فلمّا وصل الكتاب قال الشيخ: قوم كفرة؛ لأنّ الديلم كانوا روافض، لا يحلّ لنا أن نطأ بساطهم، فقال الشاب: كذا قال ابن كلاب و المحاسبى و من فى عصرهم: إنّ المأمون فاسق لا يحضر مجلسه، حتى ساق أحمد بن حنبل إلى طرسوس، و جرى عليه ما عرف، و لو ناظروه لكفّوه عن هذا الأمر، و تبيّن له ما هم عليه بالحجّة، و أنت أيضا، أيها الشيخ، تسلك سبيلهم حتى يجرى على الفقهاء ما جرى على أحمد، و يقولون بخلق القرآن و نفى الرؤية، وها أنا خارج إن لم تخرج، قال الشيخ: إن شرح اللّه صدرك لهذا فاخرج، فردّ اللّه به الكرة.

حفظ من كلام النبىّ صلى اللّه عليه و سلم، المنتقى و المرسل أمثال أمثال المنزل، ثم انتقى من ذلك صحة و فصاحة ما يبلغ حجم المصحف أو يربى عليه، فهل وجدت فيه ما يشبهه أو ينزع إليه؟ أشهد أنه من عند اللّه، تنزيل من لدنه.

أول إعجاز القرآن الجهل بنوعه من جنس الكلام، فإنه لا يدخل فى مضمار الشعر،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۴۸

و لا ينخرط فى سلك الخطب، و لا المواعظ و المقامات و الكتب، و لا فى شىء ممّا يؤلف التخاطب به، و تعرف فيه طبقات أهل مذهبه، فإن لم يتبيّن ما رسمت لك فاعرض كلامك فى كلّ صنف من هذه الأصناف تجد لنفسك مع فحولة حاله القصور أو المماثلة أو الزيادة، و لا تجد لكلامك نسبة إلى القرآن، بل لا تدرى ما تقول إن طلب منك البيان، إلّا أن تسلب العقل، كمسيلمة و أمثاله ممن ابتلى بالهذيان، و قد تفطن للدلالة كافر غلبت عليه الجهالة، انظر السيرة.

الزمخشرى: ما أعجب شأن الضّلال، لم يرضوا للنبوّة ببشر، و قد رضوا للإلهية بحجر.

سأل القاضى أبا بكر ملك الروم- حين وجّهه عضد الدولة إليه- عن انشقاق القمر، كيف لم يره جميع الناس؟ فقال: لأنهم لم يكونوا على أهبة و وعد، قال: فما النسبة التى بينكم و بين القمر حتى لم يره غيركم من الروم و غيرهم؟ قال: النسبة التى بينكم و بين المائدة حتى رأيتموها دون اليهود و المجوس، فدعا القسيس، فأقرّ للقاضى، فقال له القاضى: أ تقول إنّ الكسوف يراه جميع أهل الأرض أم أهل الإقليم الذى فى محاذاته؟ قال: لا يراه إلّا من فى محاذاته، قال: فما تنكر من لا يرى انشقاق القمر إلّا فى تلك الناحية ممّن تأهّب لذلك؟

قال: هـذا صـحيح، إلّا أنّ الشأن فى مثله أن لا ينقل آحادا، لكن تواترا، بحيث يصل العلم الضـرورى به إلينا و إلى غيرنا، و انتفاء ذلك يدلّ على افتعال الخبر، فقال الملك للقاضى:

الجواب، فقال: يلزمه فى نزول المائدة ما لزمنا فى انشقاق القمر، فبهت الذى كفر.

قال ملك الروم للقاضـى ابن الطيب فى هـذه الرسالة: ما تقول فى المسـيح؟ قال: روح اللّه و كلمته و عبده، قال: تقولون المسـيح عبد؟ قـال: بـذلك نـدين، قـال: و لا تقولون إنه ابن اللّه؟ قال: ما اتّخـذ اللّه من ولـد، قال: العبـد يخلق و يحيى و يبرئ؟ قال: ما فعل المسـيح ذلك قطّ، قال: هـذا مشـهور فى الخلق، قال: لا، قال: ما قال أحـد من أهل المعرفة إنّ الأنبياء يفعلون المعجزات، لكن اللّه تعالى يفعلها على أيـديهم تصـديقا لهم، قـال: إنّ ذلـك فى كتـابكم، قـال: فى كتابنـا أنّ ذلك كلّه بإذن اللّه تعالى، و لو جاز أن يكون ذلك فعل المسـيح لجاز أن يقال إن موسـى قلب العصا، و أخرج يـده بيضاء، و فلق البحر، قال: إنّ الأنبياء من لدن آدم كانوا يتضـرّعون للمسـيح حتى يفعل ما يطلبون، قال: أفى لسان اليهود عظم لا يقولون معه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۴۹

إن المسيح كان يتضرّع لموسى، و كذلك أمّة كلّ نبىّ، لا فرق بين الموضعين فى الدعوى.

الجوزى فى قوله عليه السـلام «يوشـك أن ينزل ابن مريم فيكم و إمـامكم منكم» إنما كان الإمام منّا لئلّا يتـدنّس بغبار الشـبهة وجه «لا نبىّ بعدى».

كان بالبصـرة يهودى يقرّر المتكلمين على نبوّة موسـى، فإذا أقرّوا جحـد نبوّة محمـد صـلى اللّه عليه و سـلم، و قال: نحن على ما اتّفقنا عليه، إلى أن نتّفق على غيره، فسأل أبا الهـذيل عن ذلك فقال: إن كان موسـى هـذا الـذى أخبر بمحمـد صـلى اللّه عليه و سـلم، و أقرّ بشـرفه و أمر باتبـاعه فأنـا أقرّ بنبوّته، و إن كـان غيره فأنـا لا أعرفه، فتحيّر اليهودى، ثم سأله عن التوراة، فقال: إن كانت التى نزلت على موسى المذكور فهى حقّ، و إلّا فهى عندى باطل.

و منه: قيل للحسن: الملائكة أفضل أم الأنبياء؟ فقال: أين أنت من هذه الآية وَ لا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ [هود: ۳۱].

و منه: و عن عمر و على- رضـى اللّه عنهما!- أنّ الخضر لقيهما و علّمهما هذا الدعاء، و ذكر فيه خيرا كثيرا لمن قاله فى إثر كلّ صلاة: يا من لا يشغله سمع عن سمع، و يا من لا تغلطه المسائل، و من لا يتبرّم على إلحاح الملحّين، أذقنى برد عفوك، و حلاوة مغفرتك.

و منه: سـمع إياس يهوديا يقول: ما أحمق المسـلمين! يزعمون أنّ أهل الجنّة يأكلون و يشربون و لا يبولون و لا يتغوّطون، فقال: أو كل ما تأكله تحدثه؟ قال: لا؛ لأنّ اللّه تعالى يجعل أكثره غذاء، قال: فما تنكر أن يجعل جميع ما يأكل أهل الجنة غذاء؟

الرزيـة كلّ الرزيـة، تضـييع أمر المرأة الرّنديـة، و ذلك أنه وردت على تلمسان فى العشـرة الخامسـة من المائـة الثامنة امرأة من رندة لا تأكل و لا تشرب و لا تبول و لا تتغوّط و تحيض، فلمّا اشتهر هذا من أمرها أنكره الفقيه أبو موسى ابن الإمام، و تلا كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ [المائدة: ۷۵] فأخـذ الناس يبثّون ثقات نسائهم و دهاتهنّ إليها، فكشـفن عنها بكلّ وجه يمكنهنّ، فلم يقفن على غير ما ذكر، و سـئلت: هل تشـتهين الطّعام؟ فقالت: هل تشـتهون التبن بين يـدى الـدوابّ؟ و سـئلت: هل يأتيها شـىء؟ فأخبرت أنها صامت ذات يوم فأدركها الجوع و العطش،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۵۰

فنامت فأتاها آت فى النوم بطعام و شـراب، فأكلت و شـربت، فلمّا أفاقت وجـدت نفسـها قد اسـتغنت، فهى على تلك الحال، تؤتى فى المنام بالطعام و الشـراب إلى الآن، و لقد جعلها السلطان فى موضع بقصره و حفظها بالعدول و من يكشف عمّا عسى تجىء أمها به إذا أتت إليهـا أربعين يومـا، فلم يوقـف لهـا على أمر، بيـد أنى أردت أن يزاد فى عـدد العـدول، و يجمع إليهم الأطبـاء، و من يخوض فى المعقولات من علمـاء الملل المسـلمين و غيرهم، و يوكل من نساء الفرق من يبالغ فى كشف من يـدخل إليها، و لا يترك أحـد يخلو بها، و بالجملة يبالغ فى ذلك، و يسـتدام رعيها عليه سنة؛ لاحتمال أن يغلب عليها طبع فتستغنى فى فصل دون فصل، ثم يكتب هذا فى

العقود، و يشاع أمره فى العالم، و ذلك لأنه يهدم حكم الطبيعة الذى هو أضرّ الأحكام على الشريعة، و يبين كيفية غذاء أهل الجنّة، و أنّ الحيض ليس من فضلات الغذاء، و يبطل التأثير و التولّد، و يوجب أنّ الاقترانات بالعادات، لا باللزوم، و عند الأسباب، لا بها، إلى غير ذلك، إلّا أنى لما أشرت بهذا انقسم من أشرت عليه بتبليغه إلى من لم يفهم ما قلت و من لم يرفع به رأسا؛ لإيثار الدنيا على الدين، فإنّا للّه و إنّا إليه راجعون.

و قد ذكر أنّ امرأة أخرى كانت معها على تلك الحالة، و حدّثنى غير واحد من الثقات ممّن أدرك عائشة الجزيرية أنها كانت كذلك، و أنّ عائشة بنت أبى يحيى اختبرتها أربعين يوما أيضا، و كم من آية أضيعت، و حجّة نسيت، هذا ممّا لم يعرف مثله قبل المائة الثامنة، و كذلك الوباء العام القريب فروطه، يوشك أن يطول أمره، فينسى ذكره، و يكذب المحدّث به إذا انقضى عصره، و كم فيه أيضا من أدلّة، على أصول الملّة.

و منه- قال شيخ من صالحى الفقهاء فى عصرنا بفاس: أبو زرهون عبد العزيز بن محمد القيروانى، رحمه اللّه تعالى: مات فقير عندنا بالمئذنة، فوجدوا عنده ربطة من دراهم، فوضعوها عند المؤذن، فلمّا نزل ليلحده سقطت من جيبه فى القبر، و لم يشعر حتى واراه، فكشف عنه، فإذا الدراهم قد لصقت ببدنه درهما إلى درهم كالنجوم، فحاول قلع واحد منها فقامت معه قطعة من لحمه، و تبعها من ذلك المحلّ ريح منتنة، قال الشيخ: فاطلعت على ذلك و شاهدته ثم ردّوا التراب عليه و انصرفوا.

قال عبد اللّه بن إدريس لغيلان الممرور: متى تقوم الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، غير أنه من مات فقد قامت قيامته، قال: فالمصلوب يعذب عذاب القبر؟

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۵۱

قال: إن حقّت عليه الكلمة، و ما تدرى لعلّ جسده فى عذاب لا تدركه أبصارنا و لا أسماعنا، فإنّ للّه لطفا لا يدرك، و انظر الحديث «فلو لا أن لا تدافنوا لدعوت اللّه أن يسمعكم ما أسمع من عذاب القبر».

و منه- المازرى: مسألة التكفير بالمال مشكلة، و قد اضطرب فيها قول مالك و هو إمام الفقهاء، و القاضى أبى بكر، و هو إمام المتكلّمين.

الغزالى: لا يقطع بتكفير الفلاسفة إلّا فى ثلاث مسائل: قدم العالم، و نفى العلم بالجزئيات، و إنكار المعاد البدنى و توابعه القطعية.

أصل الفلاسفة اعتقاد المحسوسات معقولات، و المعتزلة اعتقاد المشهورات قطعيات، و من ثم قيل لهم: مخنثة الفلاسفة.

لا يكفى التقليد، فى عقائد التوحيد، لا فرق بين إنسان ينقاد، و بهيمة تقاد.

و منه- كان أبو هاشم من أفسق الناس، فجلس ذات يوم يعيب الإرجاء و كان فى المجلس مرجىء، فأنشد: [الوافر]

يعيب القول بالإرجاء حتى يرى بعض الرجاء من الجرائر

و أعظم من ذوى الإرجاء ذنبا وعيدىّ يصرّ على الكبائر

كان مالك ينشد كثيرا: [الطويل]

و خير أمور الدين ما كان سنّة و شرّ الأمور المحدثات البدائع

ابن عقيل: يشبه أن يكون واضع الإرجاء زنديقا، فإنّ صلاح العالم فى إثبات الوعيد و اعتقاد الجزاء، فلمّا لم يكن هذا المائن جحد الصانع لمخالفة العقل، أسقط فائدة الإثبات، و هى الخشية و المراقبة، و هدم سياسة الشريعة، فهم شرّ طائفة على الإسلام.

سئل مالك عن أشرّ الطوائف، فقال: الروافض.

بينا ابن المعلّم شيخ الرافضة فى بعض مجالس المناظرة مع أصحابه أقبل ابن الطيب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۵۲

فقال: جاءكم الشيطان، فسمعه على بعد، فلمّا جلس إليهم تلا عليهم أَ لَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا [مريم: ۸۳].

مالك: أهل السنّة من لا لقب له: لا خارجى، و لا قدرى، و لا رافضى.

البديع: [المتقارب]

يقولون لى: ما تحبّ الوصىّ فقلت: الثّرى بفم الكاذب

أحبّ النبىّ و آل النبىّ و أختصّ آل أبى طالب

و أعطى الصحابة حقّ الولاء و أجرى على السّنن الواجب

فإن كان نصبا ولاء الجميع فإنّى كما زعموا ناصبى

و إن كان رفضا ولاء الجميع فلا برح الرفض من جانبى

أحبّ النبىّ و أصحابه فما المرء إلّا مع الصاحب

أ يرجو الشفاعة من سبّهم بل المثل السوء للضارب

يوقّى المكاره قلب الجبان و فى الشّبهات يد الحاطب

أخذ البيت الخامس من قول الشافعى: [الكامل]

إن كان رفضا حبّ آل محمد فليشهد الثّقلان أنى رافضى

و منه- أبو حنيفة: لقيت عطاء فقال لى: ممّن أنت؟ فقلت: من أهل الكوفة، فقال: من أهل القرية الذين فرقوا دينهم و كانوا شيعا؟ قلت: نعم، قال: فمن أنت منهم؟ قلت: ممن يؤمن بالقدر، و لا يسبّ السلف، و لا يكفر بالذنب، قال: عرفت، فالزم.

و منه: الإرادة تطلق على المحبّة، و على قصد أحد الجائزين بالتخصيص، و كلّ واحد من المعنيين يوجد بدون الآخر، أما الأول فكقوله: [الوافر]

تريد النفس أن تعطى مناها

و هو ظاهر، و أمّا الثانى فكقصد المتوعّد بالإهلاك إلى أمر عبده الذى أمره بأمر لينظر امتثاله، و لدقّة الفرق بينهما ضلّ المعتزلة فى أمرهما فقالوا: إنّ اللّه، عزّ و جلّ، لا يريد المعاصى؛ لأنه لا يحبّ الفساد، و لا يرضى لعباده الكفر، قال عمار بن ياسر يوم صفّين: [الخفيف]

صدق اللّه و هو للصّدق أهل و تعالى ربّى و كان جليلا

ربّ عجّل شهادة لى بقتل فى الذى قد أحبّ قتلا جميلا

و منه: العبدرى: قتل الحسين دعا إلى حرب، و أخذ بثأره كذاب ثقيف، و نوّه باسمه أعداء ملّة جدّه بنو عبيد ليقتصّ من قضية بمثلها، فيقرأ الفهم سورة تلك الصورة، و يتهجّى اللبيب حروف تلك الحروب، فيعلم أنّ الكلّ آلات مستعملات، حسبما اقتضاه العلم القديم.

و منه: أبو العباس الأبيانى: ثلاث لو كتبت على ظفر لوسعهنّ، و فيهنّ خير الدنيا و الآخرة: اتّبع لا تبتدع، اتّضع لا ترتفع، اتّزع لا تتّسع.

و منه: كانت سكينة بنى إسرائيل فى التابوت، فغلبوا عليها، و سكينة هذه الأمة فى القلوب، فغلبوا بها، استحفظوا كتابهم فحرّفوا من أحكامه و وصفه، و حفظ كتابنا فلا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه.

و منه: فى الصحيح: كان أبو ذرّ يقسم قسما أن هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ [الحج: ۱۹] نزلت فى الذين برزوا يوم بدر: حمزة و على و عبيدة، و عتبة و شيبة و الوليد، قلت: ففى الآية شهادة من اللّه تعالى لعلى بالجنة و الشهادة، أمّا الجنة فبنصّها، و أمّا الشهادة فلأنه و صاحبيه استشهدوا، و خصمهم قتلوا، فهى ردّة على الخوارج قطعا.

و منه: جاز أبو بكر بن نافع بالكرخ أيام الديلم و قوة الرفض، فقالت له امرأة: سيدى أبو بكر، فقال: لبيك يا عائشة، فقالت له: متى كان اسمى عائشة؟ فقال: أ يقتلوننى و تخلصين؟

و فى آخر هذا الكتاب ما صورته: فهذه جملة تراجم، و فيها مقنع لمن أراد المحاضرة، أو تنميق مجالس المناظرة، و كان الفراغ من جمعها فى آخر يوم من شعبان المكرّم من عام سبعة و خمسين و سبعمائة؛ انتهى ما تعلّق به الغرض من بعض كلام مولاى الجدّ، رحمه اللّه تعالى، فى كتابه «المحاضرات».

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۵۴

[رجع إلى سرد مؤلفات المقرى الكبير]

و لنرجع إلى سرد بقيّة تواليفه، رحمه اللّه تعالى، فنقول: و منها «شرح لغة قصائد المغربى الخطيب»، و «مقالة فى الطلعة المملكة»، و «شرح التسهيل»، و «النظائر»، و «كتاب المحرّك لدعاوى الشرّ من أبى عنان»، و «إقامة المريد»، و «رحلة المتبتل»، و حاشية بديعة جدّا على مختصر ابن الحاجب الفقهى، فيها أبحاث و تدقيقات لا- توجد فى غيرها، و قد وقفت عليها بالمغرب، و من أشهر كتبه فى التصوف كتاب «الحقائق و الرقائق»، و هو من الحسن بمكان لا يلحق، و قد شرحه الشيخ الصالح شيخ شيوخ شيوخنا سيدى أحمد زروق رضى اللّه عنه و نفعنا به!

[من فوائد المقرى الكبير التى أودعها فى كتابه «الحقائق و الرقائق»]

و سنح لى أن أسرد هنا شيئا من هذا الكتاب الفذّ فى بابه فنقول:

قال فيه مولاى الجدّ، رحمه اللّه تعالى: هذا كتاب شفعت فيه الحقائق بالرقائق، و مزجت المعنى الفائق باللفظ الرائق، فهو زبدة التذكير، و خلاصة المعرفة، و صفوة العلم، و نقاوة العمل، فاحتفظ بما يوحيه إليك فهو الدّليل، و على اللّه قصد السبيل.

حقيقة- عمل قوم على السوابق، و قوم على اللواحق، و الصوفى من لا ماضى له و لا مستقبل، فإن كان زجاجيا، فبخ بخ.

رقيقة- من لم يجد ألم البعد، لم يجد لذّة القرب، فإنّ اللّذّة هى التخلّص من الألم.

حقيقة- لما انطبعت الصور فى مرآة الخيال قال العقل: أنا الملك المكوكب، فقالت الرياضة: الزمنى و تعرف قدرك، فإذا العقل عقال.

رقيقة- من ضحك من نوم الغفلة بكى عند الانتباه، فإنّ الأضغاث أضداد.

حقيقة- أثر الزهد عقل دنّ سقراط على سراج غوطة أبى نصر، فقيل: فأين اعتبار أَ فَلا يَنْظُرُونَ [الغاشية: ۱۷]؟ فقال: وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ [الذاريات: ۲۱].

رقيقة- طالب الدنيا يخاف الفوت، و صاحبها يترقّب الزوال و لو بالموت، فإذا حمى الوطيس، و حجّ الرئيس، أنشأ الزاهد بينهما ينشد: [الوافر]

عزيز النفس لا ولد يموت و لا أنس يحاذره يفوت

حقيقة- العابد طالب رياسة و حرمة، و الزاهد صاحب نفاسة و همّة، و المعنى للعارف يعادى فى اللّه تعالى و يوالى، و يرضى اللّه و لا يبالى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۵۵

رقيقة من سابق سبق، و من رافق ارتفق، و من لاحق التحق، و العجز و الكسل مقدمتا الخيبة، و: [الطويل]

على قدر أهل العزم تأتى العزائم

حقيقة- العمل دواء القلب، و إذا كان الدواء لا يصلح إلّا إذا كان على حمية البدن، فكذلك العمل لا ينجح إلّا بعد صوم النفس، فارق نفسك و تعال.

رقيقة- مثل دواعى الخير و الشرّ فى الإنسان كمثل الخلط الفاعل و القوة الدافعة فى العليل، تغلب القوّة فيسكن الخلط فيجد الراحة، و عن قليل يتحرّك فيجد الألم.

حقيقة- العمل على السلامة مسالمة، و على الغنيمة تجارة، و على الأمر قرض، فيضاعف له أضعافا كثيرة.

رقيقة- تطهّر من أدناس هواك، و تزيّن بلباس تقواك، و قم لمسجد انقطاعك على قدم شكواك، و أحرم بتوجيه قلبك إلى قبلة نجواك، تجد الحقّ عندك و ليس بسواك.

حقيقة- وجد العارف فجاد بنفسه، فوجد اللّه عنده، و تواجد المريد فحاكى، و من لم يبك تباكى.

رقيقة- زكّ نفسك لقلبك، تزك عند ربّك، بعها منه رخيصة، فهى على ثمنها لديه حريصة إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى [التوبة: ۱۱۱].

حقيقة- الزوال وقت المناجاة، فطهّر قلبك قبله من الحاجات، و إياك و الحظّ، فذهاب نقطته أسرع من اللحظ.

رقيقة- الزاد لك و هو مكتوب، و الزائد عليك و هو مسلوب، فأجمل فى طلب المضمون، و لا تلزم نفسك صفقة المغبون.

حقيقة- أمر بالتوكّل لتقصر الطرف عليه، و أذن فى التسبّب لتنصرف منه إليه، فذاك مخبر بحقيقة التفرّد، و هذا مظهر لحكمة التعبّد.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۵۶

رقيقة- الملك أبو الدنيا، و هو مع ذلك محبوس فيها، تبهم عليه الأبواب، و يستدعى الحراس و الحجاب، فإذا خرج حدّقت إليه الألحاظ، و أحدقت بجهاته الحفّاظ، أى حظّ حظّ من فقد نعمة فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ [الملك: ۱۵].

حقيقة- قال صاحب الزهر الأنيق: علامات المحبة أربع: الإفلاس، و الاستئناس، و الأنفاس، و الوسواس. قلت: الإفلاس التجرّد إلّا عنه كالخليل، و الاستئناس التوحّش إلّا منه كالكليم، و الأنفاس و الوسواس صلة الاسم و عائده.

رقيقة- ذكر مذكر بمالقة، فقام الخطيب الشيخ الولى أبو عبد اللّه الساحلى بهذا البيت:

[الخفيف]

ليت شعرى أفى زمام رضاكم كتب اسمى أم فى زمام الهوان؟

و كنت يوما مع السلطان و الجند يعرضون عليه، و كان يسقط و يثبت، و أنا أتفكّر فى البيت، حتى خلت أن أفتضح، فقلت: وا همّاه من هذا الإبهام، ثم كدت أخلد بقبح العمل إلى الأرض فينشلنى حسن الظنّ باللّه، عزّ و جلّ، فأنهض: [السريع]

إنّ المقادير إذا ساعدت ألحقت العاجز بالقادر

حقيقة- إذا قابل إبرة القلب مغناطيس الحسن صبا فانجذب، فإذا اتّصل عشق فانقطع، فإذا انجذّ فنى فبقى، حاشا الصوفى أن يموت.

رقيقة- افتخر الغراب بإقامة قرآن الفجر، فقيل: حتى تغسل بول الشيطان من أذنك، فطرب الديك فرحا بالفوز، و ندب العصفور ترحا على الفوت.

حقيقة- الخلوة بيت الاعتبار، و فى بيته يؤتى الحكم، و باب هذا البيت العلم وَ أْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها [البقرة: ۱۸۹].

رقيقة- واقع فقير هناة، ثم دخل خلوته، فبدت له نفسه بوجه مومسة، فقال: ما أنت؟

قالت: أمّ الحياة، فقال: ما أجمل أن تبدل هاؤك همزة، فقالت: إذن لم تصنع ما شئت، فانتبه لقرع العتاب، فتاب.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۵۷

حقيقة- القلب إيوان الملك و يسعنى، و عزّ الملك يأنف عن ذلّ المزاحمة، أنا أغنى الشركاء عن الشرك.

رقيقة- لما وضع البسطامى أوزار حوبه، فكّ طابع الصحيفة عن قلبه، فلم يجد بها غير الطفرى، فصاح بنفسه لكّ البشرى، انزل طيفور عمّا تريد، ليس فى الدار أبو يزيد.

حقيقة- قال شيخنا أبو هادى يوما لأصحابه: بماذا يرتقى العبد عن مقامه إلى مقام أعلى منه؟ قالوا: بفضل اللّه و رحمته، فقال: إنما سألتكم عن السبب الخاصّ بهذا الأمر، قالوا: من عند الشيخ؟ قال: يخلق اللّه له همّة فيرتقى بها إلى رتبة أسمى من رتبته.

و من هذا الكتاب:

حقيقة- التفت إلى مواهب الملوك تجدهم إنما يوسعون فيما قد يسترجعون، فأمّا العلماء و كلّ من يعطى بحقّ فإنما يعطون بقصد وَ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ [طه: ۱۳۱] و اصبر نفسك دونهم فعن قريب تنصرف عنهم.

رقيقة- قلت لقلبى: كيف تجدك؟ فقال: أمّا من أمّارتك ففى عناء الجهاد، و أما من لوّامتك فعلى جمر الصبر، قلت: فمتى الراحة؟ قال: إذا اطمأنّت النفس، فاضمحلّ الوهم و غاب الحسّ.

حقيقة- قطع السّوى طهارة المنيب، و لا يقبل اللّه صلاة بغير طهور، و كتابه النحيب، و المكاتب عبد ما بقى عليه، و بابه الدخول على الحبيب.

نظر رجل إلى امرأة عفيفة فقالت: يا هذا، غضّ بصرك عمّا ليس لك، تنفتح بصيرتك فترى ما هو لك.

رقيقة- لما حنكت الطينة بتمر الجنّة، و غذيت بلبانها، فطرت على محبتها- انظروا إلى حبّ الأنصار التمر- فلم تطق الفطام عنها: [المتقارب]

و تأبى الطباع على الناقل

فذاك ما تجد من الحنين إلى التلاق، و الأنين على الفراق، و الشغف بمدح العابر، و ذمّ الغابر، و فى ذلك: [الخفيف]

كم أردنا ذاك الزمان بمدح فشغلنا بذمّ هذا الزمان

و إن لم تعرف عصرا خاليا، و لا خلّا نائيا، لم يمرّ عليك ممّا تشتهيه، أطيب ممّا أنت فيه: [الكامل]

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى و حنينه أبدا لأول منزل

و منه: حقيقة- قيل: عرّض الكليم بطلب القوت فى رحلة الهجرة إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ [القصص: ۲۴] فحمل على كاهل إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ [القصص: ۲۵] و صرح فى سفر التأديب لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً [الكهف: ۷۷] فحمل على كاهل هذا فِراقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ [الكهف: ۷۸] قلت: لما تمحض الطلب له اكتفى، فلمّا تعلّق حقّ الغير به وفى، و لذلك قضى أبا المرأتين، الأجلين.

رقيقة- كان خرق السفينة إراءة لكرامة فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِ [طه: ۳۹] فى مرآة وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ [الكهف: ۷۹]: [البسيط]

و ربما صحّت الأجسام بالعلل

و قتل الغلام إشارة إلى اشتمال قتله فَقَضى عَلَيْهِ [القصص: ۱۵] على رحمة فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِ [طه: ۴۰] برمز فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما [الكهف: ۸۰] و المحن الصم حبائل المنح، و إقامة الجدار إثارة لفتوّة فَسَقى لَهُما [القصص: ۲۴] ليخفض له جناح إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ [القصص: ۲۴] فيستظل من حرّ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ [الكهف: ۷۷] فى نيّة هذا فِراقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ [الكهف: ۷۸].

حقيقة- قيل لمحمد بن الحسن الزبيدى التونسى و أنا عنده بها: كيف لم يصبر الكليم و قد ناط الصبر بالمشيئة سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً [الكهف: ۶۹] و قد جاء فى الصحيح فى

قصة سليمان عليه السلام «لو قال إن شاء اللّه لكان كما قال» و المقام الموسوى أجلّ وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي [طه: ۴۱] و طلابه أفضل؟ ما جميع أعمال الصبر و الجهاد فى طلب العلم إلّا كبصقة فى بحر، فقال: كان موسى على علم من علم اللّه، و هو علم المعاملة، لا يعلمه الخضر، و كان الخضر على علم من علم اللّه لا يعلمه موسى، فلم يظنّ أنّ ما لم يحطّ به خبرا يأباه حكم الظاهر، و إلّا كيف يلتزم البر عليه، و قد أمر بصرف الإنكار إليه؟ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا [طه: ۹۲] بل لم يعتد مثله من ملاقاة المشاق، فيما كان عليه الخضر من اختراق الآفاق، و ركوب الطباق، فما علقه بقوله، فقد صدقه بفعله، و ما لم يستطع عليه صبرا، فلم يدخل فى التزامه اعتقادا، و لا ذكرا».

رقيقة- قال لى عبد الرحمن بن يعقوب المكتّب: كان عندنا بالساحل سائح هجّيراه:

إلهى بسطت لى أملى، و أحصيت علىّ عملى، و غيّبت عنى أجلى، و لا أدرى إلى أىّ الدارين يذهب بى، لقد أوقفتنى موقف المحزونين ما أبقيتنى.

حقيقة- تنازع القلب و النفس الخلق، فقسّمها بينهما قاضى العقل، فمن باع منهما حظّه فلا شفعة لصاحبه عليه.

و منه: حقيقة- الحجب ثلاثة: فحجاب الغيرة منع، و حجاب الحيرة دفع، و حجاب الغفلة قطع أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُ.

رقيقة: اللحم أيام التشريق مكروه، و كل لذّة عند أرباب الدنيا كاللحم عندك أيام الأضحى، فلا تريّنك الغفلة عن سرّك زيادة النعمة عندك.

حقيقة- الفقر إلى اللّه الاستغناء به عمّا سواه، و هوية الرضا بالله أن لا يخطر بالبال إلّاه.

و منه: حقيقة- التلوّن مجون، تارة طربا و طورا شجون، و التمكّن معرفة، و أين الحال من الصفة؟

رقيقة- قال لى محمد بن عبد الواحد الرباطى: قال لى محمد بن عبد السيد الطرابلسى: دخلت على أبى الحسن الحرانى فقلت له: كيف أصبحت؟ فأنشد: [البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۶۰

أصبحت ألطف من مرّ النسيم سرى على الرياض يكاد الوهم يؤلمنى

من كلّ معنّى لطيف أحتسى قدحا و كلّ ناطقة فى الكون تطربنى

حقيقة- قال الطالب: الوقت سيف، و قال الواصل: بل مقت، فتلا العارف قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ [الأنعام: ۹۱]

رقيقة- لصاحب الوقت يومان: [الكامل]

يوم بأرواح يباع و يشترى و أخوه ليس يسام فيه بدرهم

و فصل الفضل بينهما: [الطويل]

و ما تفضل الأيام أخرى بذاتها و لكنّ أيام الملاح ملاح

و منه: حقيقة- قال لى الشيخ أبو عبد اللّه محمد بن مرزوق العجيسى بعباد تلمسان:

قال لى أبو عبد اللّه بن حيون: إنه وجد على ظهر كتاب بخطّ عتيق: قال أبو يزيد البسطامى:

يظهر فى آخر الزمان رجل يسمّى شعيبا، لا تدرك له نهاية، قالا: و هو أبو مدين، قلت: وقف بظاهره مع الشريعة، و ذهب بباطنه مع الحقيقة، فما انقطع لصحّة البداية، و لا رجع لعدم الغاية.

رقيقة- قمت ببعض الأسحار، على قدم الاستغفار، و قد استشعرت الصبابة، و استدثرت الكآبة، فأملى الجنان على اللسان، بما نفث فى روعه روح الإحسان: [مخلع البسيط]

منكسر القلب بالجنايا يدعوك يا مانح العطايا

أقعده الذنب عن رفيق حثّوا لرضوانك المطايا

و منه: أثر حقيقة فى شأن الحلاج ما نصّه، ثم قلت: [الكامل]

و لربّ داع للجمال أطعته و أبى الجلال علىّ أن أتقدّما

فأطعت بالعصيان أمرهما معا و جنحت للتسليم كيما أسلما

و منه: حقيقة- قلت للسرّ: ما لك تحسّ من خلف الموانع؟ فقال: خرق شعاعى سور العوائق، ثم انعكس إلىّ بصور الحقائق، فأصبحت كما قيل: [البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۶۱

كأنّ مرآة عين الدهر فى يده يرى بها غائب الأشيا فلم يغب

رقيقة- الليل رداء الرهبة، تهاب الجبان فيه أسد الأبطال، و تتقى الحواسّ دونه الخيال إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِيلًا [المزمل: ۶].

حقيقة- النهار معاش النفس، فهو استعداد إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا [المزمل: ۷] و الليل رياش الأنس، فهو معاد وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا [المزمل: ۸] فهذا جمع و ذاك فرق، و الحال أسرع ذهابا من البرق.

و منه: حقيقة- إن أكبرت النفس حالها، فذكّرها أصلها و مآلها، فإنها تصغر عند ذلك، و تستقيم بك على أرض المسالك «احثوا التراب فى وجوه المدّاحين» مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فِيها نُعِيدُكُمْ [طه: ۵۵].

رقيقة- إنما يتعاظم من يجد الحقارة من نفسه، و يتوهّم المهانة عند أبناء جنسه، فلذلك تراه مغمزا للعيون، مهمزا للظنون، من أسرّ سريرة حسنة كساه اللّه رداءها.

رقيقة- رأيت الملوك لا يشمّتون، و لا يدعى لهم إلّا بما يتعلّق بأغراض الدنيا، و أكثر ذلك ممّا تحيل عقوده العوائد، فعلمت أنّ الدنيا ضدّ الآخرة.

حقيقة- من لم يفرّ خور و ذلك الجبن، من خاف أدلج و رجا، من لم يكرّ تمنّ و تلك الزمانة يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً [النساء: ۷۲].

رقيقة- سمعت أبا محمد المجاصى يقول: رويت بالسند الصحيح أنّ عابدا رابط ببعض الثغور مدّة فكان كلّما طلع الفجر يسمع من ينشد دون أن يرى شيئا: [البسيط]

لو لا رجال لهم سرد يصومونا و آخرون لهم ورد يقومونا

لزلزلت أرضكم من تحتكم غضبا فإنّكم قوم سوء لا تبالونا

حقيقة- ما حمد اللّه حقّ حمده، إلّا من عرفه حقّ معرفته، و ذلك ممّا لا ينبغى لغيره «لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

رقيقة- قلت: [الوافر]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۶۲

أشيم البرق من بين الثنايا و أشتمّ العبير من الثناء

فأبدو تارة و أغيب أخرى مثار الشوق مثنىّ الحياء

حقيقة- تحقق الحامد بكمال الذات فغاب عن حسّه فى بحار العظمة، و تعلق الشاكر بجمال الفعل فوقف مع نفسه بسوق النعمة، فهذا تاجر لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ [إبراهيم: ۷] و ذاك ذاكر وَ ما بِكُمْ مِنْ [النحل: ۵۳].

و منه: حقيقة- الصبر مطيّة المريد، و الرضا سجيّة المراد، فهذا يقوم للأمر، و ذاك يسعى للأجر.

رقيقة- الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، و الصبر بغير حساب، و الرضا بالرضا، و ذلك سدرة المنتهى.

حقيقة- النفس الأمّارة آبدة لا تملك إلّا بلطائف الحيل، و المطمئنّة ذلول لا تنفلت إلّا ممّن غفل وَ أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ [يوسف: ۱۳].

رقيقة- الدنيا معشوق الطالب، عاشق الهارب هذا يستخدمها، و ذاك يخدمها، يبنى الخادم المسجد ليقال، و يعمره المخدوم لينال، فعل الخادم السعى من غير جدوى: [الطويل]

و ليس لرحل حطّه اللّه حامل

و للمخدوم الجدوى بغير سعى: [الطويل]

و ليس لما تبنى يد اللّه هادم

إن السعادة أصلها التخصيص.

حقيقة- الجمال رياش، و الحسن صورة، و الملاحة روح، فذلك ستره عليك، و هذا سرّه فيك فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي [الحجر: ۲۹]

رقيقة- أعطى يوسف شطر الحسن، يعنى حسن آدم؛ لأنه إن لم يكن فى الإمكان أبدع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۶۳

ممّا كان فقد خلقه الحقّ بيده فى أحسن تقويم، ثم نفخ فيه من روحه لتتمّ علّة الأمر بسجود التحيّة و التكريم، فكان كما قال من أنزل عليه الفرقان «خلق اللّه آدم على صورة الرحمن» فآدم إذا كمال الحسن، و إلّا فهو المراد؛ لأنّ الشطر، يقتضى الحصر، و النصف، ينزع عن الوصف، و أعطى محمد صلى اللّه عليه و سلم، كمال الجمال، فما أبصره أحد إلّا هابه، و تمام الملاحة فما عرفه شخص إلّا أحبّه، مع أنباء نوره فى الآباء، بأنّ أبوّة المعنى لسيد نجباء الأبناء، كما قال العارف عمر: [الطويل]

و إنّى و إن كنت ابن آدم صورة فلى فيه معنى شاهد بأبوّتى

حقيقة- لا يثنينّك الخوف عن قرع الباب فتيأس، فإنه لا ييأس من روح اللّه إلّا القوم الكافرون، و لا يدنينّك الرجاء من الفترة فتأمن، فإنه لا يأمن مكر اللّه إلّا القوم الخاسرون، فإن لم تستطع بعد الحرص أن تعدل، فلا تمل كلّ الميل مع النفس إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ [يوسف: ۵۳].

رقيقة- ارفع قصتك فى رقعة الإقبال على كفّ الرجاء، خافضا من طرف الحياء و صوت الإدلال، عاكفا فى زاوية الانكماش من وراء ستر الخوف، يخرج عليك حاجب القدر من باب الكرم بتوقيع فَاسْتَجَبْنا لَهُ [الأنبياء: ۸۴].

و منه: حقيقة- صدق مجاهدة الفاروق أيقظ الوسنان، و طرد الشيطان، و أرضى الرحمن، ففاز بسلامة «ما سلكت فجّا إلّا سلك الشيطان فجّا غير فجّك»؛ و حقق مشاهدة الصدّيق أسمع من ناجى، فحاز غنيمة «لو كشف الغطاء ما ازداد يقينا».

رقيقة- ذهب أبو بكر فى السابقين، و لحق عمر بأهل اليقين، فما أدرك الصدّيق أداء التصلية، حتى استدرك الفاروق قضاء التقفية: [الطويل]

و لو كنت فى أهل اليمين منعّما بكيت على ما فات من زمن الصّبا

حقيقة- النصّ سلاح، و النظر مطيّة، و الاتّباع جنّة، و الورع نجاة، و الخلاف فتنة، و البدع مهالك، و خير الأمور أوساطها.

و منه: حقيقة- تخيّر المساعد، و اختبر المصاعد، و ليكن همّك فى سفرك منك معرفتك كيف ترجع إليك، فلن يحقّق صفة الربوبية، من لم يحقّق نعت العبودية.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۶۴

رقيقة- حدّثت أنّ سيدى أبا الحسن الشاذلى لمّا أزمع على التحوّل من طيبة على من بها الصلاة و السلام، أوقف فعله على إذن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، له فرآه فى منامه فقال توحشنا يا على؟

فأخذ يعتلّ، فأذن له، و قال: إذا جئت مصر فاقرأ عز الدين بن عبد السلام منى السلام، قال:

فلمّا التقينا بلّغته المألكة سرّا، فلم تظهر نفسه لذلك، فلمّا قام المزمزم قال: [الكامل]

صدق المحدّث و الحديث كما جرى و حديث أهل الحبّ ما لا يفترى

فاستغفر الشيخ، ثم كذب نفسه، ثم حطّ للتسليم رأسه.

حقيقة- الوهم شيطان القلب يأتيه من بين يديه و من خلفه و عن يمينه و عن شماله و سائر الجهات لمراقبة قُلْ هُوَ الْقادِرُ [الأنعام: ۶۵] فمن ثم كان أشدّ تقلّبا من المرجل على النار، فإذا ذكر اللّه سكن أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ [الرعد: ۲۸].

رقيقة- فرق القلب من ذكر اللّه خوف وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ [الحج: ۳۵] ثم سكن لذكره رجاء وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ [الرعد: ۲۸] فعاد داء تقشعرّ

منه دواء ثُمَّ تَلِينُ [الزمر: ۲۳] فنعق بلائمة:

[البسيط]

دع عنك لومى فإنّ اللوم إغراء

ثم هتف بمنادمه:

و داونى بالتى كانت هى الداء

حقيقة- العبودية صفة نفسك؛ لأنها حال أحد العبيد، و العبودة صفة قلبك؛ لأنها ملكة واحد العباد، و العبادة قصد وجهك؛ لأنها نعت الفردوس من العباد.

و منه: حقيقة- إنما تزيد فى الدنيا بقدر ما تنقص من الآخرة، فإنّ تشييد الجدار على قدر انتقاص الجبل.

رقيقة- من جرّ لنفسه جار على قلبه، فلا تجوز شهادته عند ربّه؛ لأنّ العدل ترك العدول و الميل.

رقيقة - لا تقدمنّ إلّا بدليل و إذن، و احذر ما لا ينفع ما استطعت فقد تم، انظر فلا حرج إن جهلت ما لم تكلف علمه، و أخاف عليك سوء عاقبة الهجوم.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۶۵

رقيقة- إذا اهتزّ العرش بالسّحر لدعاء أهل تَتَجافى جُنُوبُهُمْ [السجدة: ۱۶] انبعث من نسيمه ما أغشاهم طيبه الراحة أَمَنَةً مِنْهُ [الأنفال: ۱۱] و أهبّ المستغفر من نومه لإدراك فضل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ [المائدة: ۱۱۹].

حقيقة- دع الغريب و ما يريب، و اركب الجادّة، و لا تسلك بنيّات الطريق فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ [الأنعام: ۱۵۳].

و منه: حقيقة- سفر المريد تجارة، و سفر المعارف عمارة، فهذا يرحل للإقامة عند الحقيقة، و ذاك يطلب الاستقامة على الطريقة.

رقيقة- إياك أيها المصلّى لنا، أن تلتفت إلى غيرنا، و أقبل علينا بصدق نيّتك، و ناجنا بخلوص سريرتك، فقد قمنا بينك و بين قبلتك، و ناجيناك بلسان تلاوتك فإن غبت عنّا، فلست منّا.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۶؛ ص۲۶۵

، و الكرامة عناية، و الاعتراض جناية، فإياك و لم؟ فإن عرفت فاتّبع، و إن جهلت فسلّم.

رقيقة- الليل معاد الأنس إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِيلًا [المزمل: ۶] و النهار معاش النفس إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا [المزمل: ۷] فهذا نشاط رغبة يتّسع فى مناكبه المجال، و تعتور على مراكبه الأحوال، و ذلك حجاب رهبة تهوى إليه الأوجال، و تجتمع فيه هموم الرجال، ألا ترى كيف تهاب الجبان دونه الأبطال، و تتقى الحواس خلفه الخيال؟ كما قال:

[الطويل]

نهارى نهار الناس حتى إذا دجا لى الليل هزّتنى إليك المضاجع

أقضّى نهارى بالحديث و بالمنى و يجمعنى و الهمّ بالليل جامع

حقيقة- حجب الطالب أربعة: فحجاب الغيرة قاذع؛ قيل لبعضهم: أ تحب أن تراه؟

فقال: لا، قيل: و لم؟ قال: أجلّ ذلك عن نظر مثلى، و حجاب التيه قامع، نزل فقير على ابن عجوز، فبينما هى تصلح له الطعام غشى على الفتى، فسألها الفقير فقالت له: إنه يهوى ابنة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۶۶

عمّ له بتلك الخيمة، فخطرت، فاشتمّ غبار ذيلها، فذهب الفقير ليخطبها عليه، فقالت: إذا لم يطق غبار ذيلى فكيف يستطيع أن يشاهدنى؟ و حجاب الحيرة دافع، و من ثم حلا لأرباب الغيبة، قال بعضهم: يا دليل الحائرين، زدنى تحيرا، و مر على أصحاب الرغبة و الرهبة كما قال: [الخفيف]

قد تحيّرت فيك خذ بيدى يا دليلا لمن تحيّر فيكا

و حجاب الغفلة قاطع، كان بعضهم يقول: إن عذبتنى بشىء فلا تعذبنى بذلّ الحجاب.

و نظر آخر إلى امرأة فوقع عليه سهم، فعوّره و عليه مكتوب: نظرت بعين العورة فرميناك بسهم الأدب، و لو نظرت بعين الشهوة لرميناك بسهم القطيعة.

رقيقة- حدّثت أنّ ابن الفارض دخل على الشيخ عز الدين و قد ذهب به التفكّر فيما له عند اللّه عزّ و جلّ، فكاشفه بأن أنشده من قصيدة له: [البسيط]

لك البشارة فاخلع ما عليك فقد ذكرت ثم على ما فيك من عوج

فبدرته البشاشة، و أظنّ أن قد خلع قماشه.

حقيقة- وقفت ذات يوم بالجبانة، و استفهمت اسمى هل عرف منها مكانه، فأملى بعد هنيئة من نظمه، ما وقفت منه على حقيقة مبلغ علمه: [الخفيف]

كلّ ميت رأته عينى فإنى ذلك الميت إن نظرت بقلبى

و جميع القبور قبرى لو لا جهل نفسى بما لها عند ربّى

رقيقة- أهم ما على السالك مراعاة قلبه، أن يتلف فى تقلّبه، فذلك فساد حاله، و ذهاب رأس ماله، تزوّج فقير فلبس ثياب العرس، فطلب قلبه فلم يجده، فصاح: خلقانى، فأعطوه، فأخذها و خرج.

حقيقة- حجب المطلوب ثلاثة: فحجاب التيه جمال، كما قال العارف عمر: [الخفيف]

ته دلالا فأنت أهل لذاكا و تحكّم فالحسن قد ولّاكا

و حجاب العزة جلال: [البسيط]

همّت بإتياننا حتى إذا نظرت إلى المراة نهاها وجهها الحسن

و حجاب الكبرياء كمال، أنشدت لرابعة: [المتقارب]

أحبّك حبّين حبّ الهوى و حبّا لأنك أهل لذاكا

فأمّا الذى هو حبّ الهوى فشغلى بذكرك عمّن سواكا

و أمّا الذى أنت أهل له فأن ترفع الحجب حتى أراكا

و ما الحمد فى ذا و لا ذاك لى و لكن لك الحمد فى ذا و ذاكا

و هذا معنى ما فى الصحيح «و ما بين أهل الجنّة و بين أن ينظروا إلى ربّهم إلّا رداء الكبرياء على وجهه فى جنّة عدن».

و منه: حقيقة- الآثار منصة التجلّى، فمن لم يزر مهلب و يتفكّرون زار عمير يمرّون و بطل رصد الحجاج.

رقيقة- من تفكّر تذكّر، و من تذكّر تبصّر، فإن أكمل وقف، و إن قصر انصرف إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ [الإنسان: ۳].

حقيقة- الوحدة فهم، و التوحيد علم، و الاتّحاد حكم، و الاثنينية و هم: [الطويل]

ألا كلّ شىء ما خلا اللّه باطل

و منه: حقيقة- أهمّ ما على السالك مراعاة قلبه، أن يتلف فى تقلّبه، فإن ذلك فساد حاله، و ذهاب رأس ماله، رئى فقير ينادى فى السوق: ارحموا صوفيّا ذهب رأس ماله، فقيل له: و هل للصوفى رأس مال؟ فقال: نعم، كان لى قلب ففقدته.

و منه: حقيقة- تنازع القلب و النفس الخلق، فترافعا إلى العقل، فقسمه بينهما، فانفردت النفس بالهوى، و القلب بالتقوى، فصرفت طرقهما إلى الجهتين، و قطعت الشفعة فيهما بين الفئتين.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۶۸

و منه، عند ختم الكتاب ما نصّه: حقيقة- لا يودع السرّ إلّا عند أهله، و لا يذيعه إلّا من ضاق ذرعا بحمله، فإن عدا مودعه الرمز فقد زلّ، و إن تعدّى مذيعه الغمز فقد ضلّ.

رقيقة- الحسن خلق، و الجمال خلق، و حسن الأدب فى الظاهر عنوان حسن الأدب فى الباطن، و حيث هو الجمال هو الجميل.

حقيقة- تحقّق العلماء بالتوحيد فاستشعروا وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ [الصافات: ۹۶] لكنهم اعتبروا خلق السبب و الابتلاء به، فتصرّفوا بدلالة الإذن فى مذهبه، فاستقاموا على طريقة الأدب، و لم يفتهم فضل التوكل، و لم تتّسع معارف الزهاد لما عرفوا المسبّب بكيفية الانصراف إلى السبب منه، لدقّة الفرق بينه و بين الانصراف عنه، فوقفوا مع التوكل للعذر، و لم يستعملوا أدب الجريان مع ابتلاء الأمر، و عكف الغافلون على ظاهر السبب، ففاتهم التوكل و الأدب أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُ [الأعراف: ۱۷۹].

رقيقة- ألفيت لعبد الحق الإشبيلى بيتا هو عندى أفضل من قصيدة، و هو: [الخفيف]

قد يساق المراد و هو بعيد و يريد المريد و هو قريب

و من أراد معرفة قدر هذا البيت فليتل اللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ.

[الشورى: ۱۳]

حقيقة- أشرف أسمائك ما أضافك إليه، و أكرم صفاتك ما دلّ فيك عليه: [السريع]

لا تدعنى إلّا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائى

و لا تصفنى بالهوى عندها فعندها تحقيق أنبائى

رقيقة: [الكامل]

أعزز بمن سوداء قلبى مغرب لخياله، و سواد عينى مشرق

إن غاب عن سرّى فعنه لم يغب أو عن عيانى فهو فيه محقّق

و العين تعجز أن ترى إنسانها و القلب بالروح اللطيف مصدّق

صن عينك عن قلبك لربّك، و قلبك عن نفسك لحبّك، و نفسك عن طبعك لوليّك، و طبعك عن هواك لعدوّك، و هواك عمّن سواك، و قد كنت من نسل الجنّة، و كان بينك و بين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۶۹

البلاء أوقى جنّة، لطف اللّه تعالى بى و بكم فى مجارى أحكامه، و يسّرنا أجمعين للعمل بموجبات إكرامه، و صلّى اللّه على سيدنا و مولانا محمد و على آله و سلم تسليما كثيرا إلى يوم لقائه؛ انتهى ما تعلّق به الغرض من كتاب «الحقائق و الرقائق» لمولاى الجدّ الإمام، سقى اللّه عهده صوب الغمام! و ما ذكرته من كلامه غيض من فيض، و قلّ من كثر، و يكفى من الحلى ما قلّ و ستر العنق.

[من شعر المقرى الكبير و لمحة العارض لتكملة تائية ابن الفارض]

و لنذكر بعض نظمه، رحمه اللّه تعالى، و قد تقدّم بعضه أثناء ما سبق من كلامه رضى اللّه عنه، فراجعه إن شئت.

و من بديع نظمه، رحمه اللّه تعالى، ما فى الإحاطة و نصّه: نقلت من ذلك قوله:

«هذه لمحة العارض، لتكملة ألفية ابن الفارض، سلب الدهر من فرائدها مائة و سبعة و سبعين، فاستعنت على ردّها بحول اللّه المعين».

من فصل الإقبال: [الطويل]

رفضت السّوى و هو الطّهارة عند ما تلفّعت فى مرط الهوى و هو زينتى

و جئت الحمى و هو المصلّى ميمّما بوجهة قلبى وجهها و هو قبلتى

و قمت و ما استفتحت إلّا بذكرها و أحرمت إحراما لغير تحلّة

فدينى إن لاحت ركوع، و إن دنت سجود، و إن لاهت قيام بحسرة

على أننا فى القرب و البعد واحد تؤلّفنا بالوصل عين التّشتّت

و كم من هجير خضت ظمان طاويا إليها و ديجور طويت برحلة

و فيها لقيت الموت أحمر و العدا بزرقة أسنان الرّماح و حدّة

و بينى و بين العذل فيها منازل تنسّيك أيام الفجار و مؤتة

و لمّا اقتسمنا خطّتينا فحامل فجار بلا أجر و حامل برّة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۷۰

خلا مسمعى من ذكرها فاستعدته فعاد ختام الأمر أصل القضيّة

و كم لى على حكم الهوى من تجلّد دليل على أنّ الهوى من سجيّتى

يقول سميرى و الأسى سالم الأسى و لا توضع الأوزار إلّا لمحنة

لو أنّ مجوسا بتّ موقد نارها لما ظلّ إلّا منهلا ذا شريعة

و لو كنت بحرا لم يكن فيه نضحة لعين إذا نار الغرام استحرّت

فلا ردم من نقب المعاول آمن و لا هدم إلّا منك شيد بقوة

فممّ تقول الأسطقسّات منك أو علام مزاج ركّبت أو طبيعة

فإن قام لم يثبت له منك قاعد و إلّا فأنت الدّهر صاحب قعدة

فما أنت يا هذا الهوى؟ ماء أو هوا أم النار أم دسّاس عرق الأمومة

و إنى على صبرى كما أنا واصف و حالى أقوى القائمين بحجّة

أقلّ الضّنى أن عجّ من جسمى الضّنى و ما شاكه معشار بعض شكيّتى

و أيسر شوقى أننى ما ذكرتها و لم أنسها إلّا احترقت بلوعة

و أخفى الجوى قرع الصواعق منك فى جواى و أخفى الوجد صبر المودّة

و أسهل ما ألقى من العذل أننى أحبّ أقلّى ذكرها و فضيحتى

و أوج حظوظى اليوم منها حضيضها بالأمس، و سل حرّ الجفون الغزيرة

و أوجز أمرى أنّ دهرى كلّه كما شاءت الحسناء يوم الهزيمة

أروح و ما يلقى التأسّف راحتى و أغدو و ما يعدو التفجّع خطّتى

و كالبيض بيض الدهر و السّمر سوده مساءتها فى طىّ طيب المسرّة

و شأن الهوى ما قد عرفت و لا تسل و حسبك أن لم يخبر الحبّ رؤيتى

سقام بلا برء، ضلال بلا هدى أوام بلا رىّ، دم لا بقيمة

و لا عتب فالأيام ليس لها رضا و إن ترض منها الصّبر فهو تعنّتى

ألا أيها اللّوّام عنّى، قوّضوا ركاب ملامى فهو أول محنتى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۷۱

و لا تعذلونى فى البكاء و لا البكى و خلّوا سبيلى ما استطعتم و لوعتى

فما سلسلت بالدمع عينى إن جنت و لكن رأت ذاك الجمال فجنّت

تجلّى و أرجاء الرجاء حوالك و رشدى غاو و العمايات عمّت

فلم يستبن حتى كأنى كاسف و راجعت إبصارى له و بصيرتى

و من فصل الاتصال: [الطويل]

و كم موقف لى فى الهوى خضت دونه عباب الردى بين الظّبا و الأسنّة

فجاوزت فى حدّى مجاهدتى له مشاهدتى لمّا سمت بى همّتى

و حلّ جمالى فى الجلال، فلا أرى سوى صورة التّنزيه فى كلّ صورة

و غبت عن الأغيار فى تيه حالتى فلم أنتبه حتى امتحى اسمى و كنيتى

و كاتبت ناسوتى بأمّارة الهوى وعدت إلى اللاهوت بالمطمئنّة

و علم يقينى صار عينا حقيقة و لم يبق دونى حاجب غير هيبتى

و بدّلت بالتلوين تمكين عزّة و من كلّ أحوالى مقامات رفعة

و قد غبت بعد الفرق و الجمع موقفى مع المحو و الإثبات عند تثبّتى

و كم جلت فى سمّ الخياط و ضاق بى لبسطى و قبضى بسط وجه البسيطة

و ما اخترت إلّا دنّ بقراط زاهدا و فى ملكوت النفس أكبر عبرة

و فقرى مع الصبر اصطفيت على الغنى مع الشكر إذ لم يحظ فيه مثوبتى

و أكتم حبّى ما كنى عنه أهله و أكنى إذا هم صرّحوا بالخبيّة

و إنّى فى جنسى و منه لواحد كنوع، ففصل النوع علّة حصّتى

تسبّبت فى دعوى التوكّل ذاهبا إلى أنّ أجدى حيلتى ترك حيلتى

و آخر حرف صار منّى أولا مريدا و حرف فى مقام العبودة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۷۲

تعرّفت يوم الوقف منزل قومها فبتّ بجمع سدّ خرق التشتّت

فأصبحت أقضى النفس منها منى الهوى و أقضى على قلبى برعى الرعيّة

فبايعتها بالنفس دارا سكنتها و بالقلب منه منزلا فيه حلّت

فخلّص الاستحقاق نفسى من الهوى و أوجب الاسترقاق تسليم شفعة

فيا نفس، لا ترجع تقطّع بيننا و يا قلب لا تجزع ظفرت بوحدة

و من فصل الإدلال: [الطويل]

تبدّت لعينى من جمالك لمحة أبادت فؤادى من سناها بلفحة

و مرّت بسمعى من حديثك ملحة تبدّت لها فيك القران و قرّت

ملامى أبن، عذرى استبن، وجدى استعن سماعى أعن، حالى أبن، قائلى اصمت

فمن شاهدى سخط، و من قائلى رضا و تلوين أحوالى و تمكين رتبتى

مرامى إشارات، مراعى تفكّر مراقى نهايات، مراسى تثبّت

و فى موقفى و الدار أقوت رسومها تقرّب أشواقى تبعّد حسرتى

معانى أمارات، مغانى تذكّر مبانى بدايات، مثانى تلفّت

و بثّ غرام، و الحبيب بحضرة و ردّ سلام، و الرقيب بغفلة

و مطلع بدر فى قضيب على نقا فويق محلّ عاطل دون دجية

و مكمن سحر بابلىّ له بما حوت أضلعى فعل القنا السّمهرية

و منبت مسك من شقيق ابن منذر على سوسن غضّ بجنّة و جنّة

و رصف اللآلى فى اليواقيت كلّما تعلّ بصرف الراح فى كلّ سحرة

سل السلسبيل العذب عن طعم ريقه و نكهته يخبرك عن علم خبرة

و رمّان كافور عليه طوابع من النّد لم تحمل به بنت مزنة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۷۳

و لطف هواء بين خفق و بانة و رقّة ماء فى قوارير فضّة

لقد عزّ عنك الصبر حتى كأنه سراقة لحظ منك للمتلفّت

و أنت و إن لم تبق منّى صبابة منّى النفس لم تقصد سواك بوجهة

و كلّ فصيح منك يسرى لمسمعى و كلّ مليح منك يبدو لمقلتى

تهون علىّ النفس فيك، و إنها لتكرم أن تغشى سواك بنظرة

فإن تنظرينى بالرضا تشف علّتى و إن تظفرينى باللقا تطف غلّتى

و إن تذكرينى و الحياة بقيدها عدلت لأمنى منيتى بمنيّتى

و إن تذكرينى بعد ما أسكن الثرى تجلّت دجاه عند ذاك و ولّت

صلينى و إلّا جدّدى الوعد تدركى صبابة نفس أيقنت بتفلّت

فما أمّ بوّ هالك بتنوفة أقيم لها خلف الحلاب فدرّت

فلمّا رأته لا ينازع خلفها إذا هى لم ترسل عليه و ضنّت

بكت كلّما راحت عليه و إنها إذا ذكرته آخر الليل حنّت

بأكثر منّى لوعة غير أننى رأيت وقار الصبر أحسن حلية

فرحت كما أغدو إذا ما ذكرتها أطامن أحشائى على ما أجنّت

أهوّن ما ألقاه إلّا من القلى هوى و نوى نيل الرّضا منك بغيتى

أخوض الصّلا، أطفى العلا و العلو لا أصلّ السلا، أرعى الخلى بين عبرتى

ألا قاتل اللّه الحمامة غدوة لقد أصلت الأحشاء نيران لوعة

و قاتل معناها و موقف شجوها على الغصن ما ذا هيّجت حين غنّت

فغنّت غناء أعجميّا فهيّجت غرامى من ذكرى عهود تولّت

فأرسلت الأجفان سحبا و أوقدت جواى الذى كانت ضلوعى أكنّت

نظرت بصحراء البريقين نظرة وصلت بها قلبى فصلّ و صلّت

فيا لهما قلبا شجيّا و نظرة حجازيّة لو جنّ طرف لجنّت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۷۴

و وا عجبا للقلب كيف اعترافه و كيف بدت أسراره خلف سترة

و للعين لمّا سوئلت كيف أخبرت و للنفس لمّا وطّنت كيف دلّت

و كنّا سلكنا فى صعود من الهوى يسامى بأعلام العلا كلّ رتبة

إلى مستوى ما فوقه فيه مستوى فلمّا توافينا ثبتّ و زلّت

و كنّا عقدنا عقدة الوصل بيننا على نحر قربان لدى قبر شيبة

مؤكدة بالنّذر أيام عهده فلمّا تواثقنا اشتددت و حلّت

و من فصل الاحتفال: [الطويل]

أزور اعتمارا أرضها بتنسّك و أقصد حجّا بيتها بتحلّة

و فى نشأتى الأخرى ظهرت بما علت له نشأتى الأولى على كلّ فطرة

و لو لا خفاء الرّمز من لا و لن و لم تجدها لشملى مسلكا بتشتّت

و لو لم يجدّد عهدنا عقد خلّة قضيت و لم يقض المنى صدق توبة

بعثت إلى قلبى بشيرا بما رأت على قدم عيناى منه فكفّت

فلم يعد أن شام البشارة شام ما جفا الشام من نور الصفات الكريمة

فيا لك من نور لو أنّ التفاتة تعارض منه بالنفوس النفيسة

تحدّث أنفاس الصّبا أن طيبها بما حملته من حراقة حرقة

و تنبىء آصال الربيع عن الرّبا و أشجاره أن قد تجلّت فجلّت

و تخبر أصوات البلابل أنها تغنّت بترجيعى على كلّ أيكة

فهذا جمالى منك فى بعد حسرتى فكيف به إن قرّبتنى بخلّة

تبدّى و ما زال الحجاب و لا دنا و غاب و لم يفقده شاهد حضرتى

له كلّ غير فى تجلّيه مظهر و لا غير إلّا ما محت كفّ غيرة

تجلّى دليل، و احتجاب تنزه و إثبات عرفان، و محو تثبّت

فما شئت من شىء و آليت أنه هو الشىء لم تحمد فجار أليتى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۷۵

و فى كلّ خلق منه كلّ عجيبة و فى كلّ خلق منه كلّ لطيفة

و فى كلّ خاف منه مكمن حكمة و فى كلّ باد منه مظهر جلوة

أراه بقلب القلب و اللّغز كامنا و فى الزّجر و الفال الصحيح الأدلّة

و فى طىّ أوفاق الحساب و سرّ ما يتمّ من الأعداد فابدأ بستّة

و فى نفثات السحر فى العقد التى تطوع لها كلّ الطّباع الأبيّة

يصور شكلا مثل شكل و يعتلى عليه بأوهام النفوس الخبيثة

و فى كلّ تصحيف و عضو بذاته اختلاج، و فى التقويم مجلى لرؤية

و فى خضرة الكمّون تزجى شرابه مواعيد عرقوب على إثر صفرة

و فى شجر قد خوّفت قطع أصلها فبان بها حمل لأقرب مدّة

و فى النخل فى تلقيحه و اعتبر بما أتى فيه عن خير البريّة و اسكت

و فى الطابع السبتىّ فى الأحرف التى يبيّن منها النّظم كلّ خفيّة

و فى صنعة الطّلّسم و الكيمياء و ال كنوز و تغوير المياه المعينة

و فى حرز أقسام المؤدّب محرز و حزب أصيل الشاذلىّ و بكرة

و فى سيمياء الحاتمىّ و مذهب اب ن سبعين إذ يعزى إلى شرّ بدعة

و فى المثل الأولى و فى النّحل الألى بها أوهموا لمّا تساموا بسنّة

و فى كلّ ما فى الكون من عجب و ما حوى الكون إلّا ناطقا بعجيبة

فلا سرّ إلّا و هو فيه سريرة و لا جهر إلّا و هو فيه كحلية

سل الذكر عن أنصاف أصناف ما ابتنى عليه الكلام من حروف سليمة

و عن وضعها فى بعضها و بلوغ ما أتت فيه أمضى عدّها و تثبت

فلا بدّ من رمز الكنوز لذى الحجا و لا ظلم إلّا ظلم صاحب حكمة

و لو لا سلام ساق للأمن خيفتى لعاجل مسّ البرد خوفى لميتتى

و لو لم تداركنى و لكن بعطفها درجت رجائى أن نعتنى خيبتى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۷۶

و لو لم تؤانسنى عنا قبل لم و لم قضى العتب منّى بغية بعد وحشتى

و نعم أقامت أمر ملكى بشكرها كما هوّنت بالصبر كلّ بليّة

و من فصل الاعتقال: [الطويل]

سرت بفؤادى إذ سرت فيه نظرتى و سارت و لم تثن العنان بعطفة

و ذلك لمّا أطلع الشمس فى الدجى محيّا ابنة الحيين فى خير ليلة

يمانيّة لو أنجدت حين أنجدت لما أبصرت عيناك حيّا كميّت

لأصحمة فى نصحها قدم بنى لكلّ نجاشىّ بها حصن ذمّة

ألمّت فحطّت رحلها ثم لم يكن سوى وقفة التوديع حتى استقلّت

فلو سمحت لى بالتفات و حلّ من مهاوى الهوى و الهون جدّ تفلّتى

و لكنها همّت بنا فتذكّرت قضاء قضاة الحسن قدما فصدّت

أجلت خيالا إننى لا أجلّه و لم أنتسب منه لغير تعلّة

على أننى كلّى و بعضى حقيقة و باطل أوصافى و حقّ حقيقتى

و جنسى و فصلى و العوارض كلّها و نوعى و شخصى و الهواء و صورتى

و جسمى و نفسى و الحشا و غرامه و عقلى و روحانيتى القدسيّة

و فى كلّ لفظ عنه ميل لمسمعى و فى كلّ معنى منه معنى للوعتى

و دهرى به عيد ليوم عروبة و أمرى أمرى و الورى تحت قبضتى

و وقتى شهود فى فناء شهدته و لا وقت لى إلّا مشاهد غيبة

أراه معى حسّا و وهما و إنه مناط الثريّا من مدارك رؤيتى

و أسمعه من غير نطق كأنه يلقّن سمعى ما توسوس مهجتى

ملأت بأنوار المحبّة باطنى كأنك نور فى سرار سريرتى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۷۷

و جليت بالإجلال أرجاء ظاهرى كأنك فى أفقى كواكب زينة

فأنت الذى أخفيه عند تستّرى و أنت الذى أبديه فى حين شهرتى

فته أحتمل، و اقطع أصل، و اعل أستفل و مر أمتثل، و املل أمل، وارم أثبت

فقلبى إن عاتبته فيك لم أجد لعتبى فيه الدهر موقع نكتة

و نفسى تنبو عن سواك نفاسة فلا تنتمى إلّا إليك بمنّة

تعلّقت الآمال منك بفوق ما أرى دونه ما لا ينال بحيلة

و حامت حواليها و ما وافقت حمى سحائب يأس أمطرت ماء عبرتى

فلو فاتنى منك الرّضا و لحقتنى بعفو بكيت الدهر فوت فضيلة

و لو كنت فى أهل اليمين منعّما بكيت على ما كان من سبقيّة

و كم من مقام قمت عنك مسائلا أرى كلّ حىّ كلّ حىّ و ميّت

أتيت بفاراب أبا نصرها فلم أجد عنده علما يبرّد غلّتى

و لم يدر ما قولى ابن سيناء سائلا فقل كيف أرجو عنده برء علّتى

فهل فى ابن رشد بعد هذين مرتجى و فى ابن طفيل لاحتثاث مطيّتى

لقد ضاع- لو لا أن تداركنى حمّى من اللّه- سعى بينهم طول مدّتى

فقيّض لى نهجا إلى الحقّ سالكا و أيقظنى من نوم جهلى و غفلتى

فحصّنت أنظار الجنيد جنيدها بترك فلى من رغبة ريح رهبة

و كسّرت عن رجل ابن أدهم أدهما و أنقذته من أسر حبّ الأسرّة

و عدت على حلّاج شكرى بصلبه و ألقيت بلعام التفاتى بهوّة

فقولى مشكور، و رأيى ناجح و فعلى محمود، بكلّ محلّة

رضيت بعرفانى فأعليت للعلا و أجلسنى بعد الرّضا فيه جلّتى

فعشت و لا ضيرا أخاف و لا قلّى و صرت حبيبا فى ديار أحبّتى

فها أنا ذا أمسى و أصبح بينهم مبلّغ نفسى منهم ما تمنّت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۷۸

و من نظمه أيضا ما حكى عنه فى «الإحاطة» إذ قال: و أنشدنى قوله فى حال قبض، و قيّدتها عنه: [الطويل]

إليك بسطت الكفّ أستنزل الفضلا و منك قبضت الطّرف أستشعر الذّلّا

وها أنا ذا قد قمت يقدمنى الرّجا و يحجم بى الخوف الذى خامر العقلا

أقدّم رجلا إن يضىء برق مطمع و تظلم أرجائى فلا أنقل الرّجلا

ولى عثرات لست آمل إن هوت بنفسى أن لا أستقيل و أن أصلى

فإن تدركنّى رحمة أنتعش بها و إن تكن الأخرى فأولى بى الأولى

و قوله رحمه اللّه تعالى: [مجزوء الكامل]

وجد تسعّره الضلوع و ما تبرّده المدامع

همّ تحرّكه الصّبا بة و المهابة لا تطاوع

أمل إذا وصل الرّجا أسبابه فالموت قاطع

باللّه يا هذا الهوى ما أنت بالعشّاق صانع

[من شعره الذى رواه لسان الدين فى الإحاطة]

و قال رحمه اللّه تعالى كما فى «الإحاطة»: و ممّا كتبت به لمن بلغنى عنه بعض الشىء:

[الرمل]

نحن، إن تسأل بناس، معشر أهل ماء فجّرته الهمم

عرب من بيضهم أرزاقهم و من السّمر الطوال الخيم

عرّضت أحسابهم أرواحهم دون نيل العرض و هى الكرم

أورثونا المجد حتى إننا نرتضى الموت و لا نزدحم

ما لنا فى الناس من ذنب سوى أننا نلوى إذا ما اقتحموا

و قال: ممّا قلته مذيّلا به قول القاضى أبى بكر بن العربى: [الهزج الوافر]

أما و المسجد الأقصى و ما يتلى به نصّا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۷۹

لقد رقصت بنات الشو ق بين جوانحى رقصا

قولى: [الهزج]

فأقلع بى إليه هوى جناحا عزمه قصّا

أقلّ القلب و استعدى على الجثمان فاستعصى

فقمت أجول بينهما فلا أدنى و لا أقصى

قال رحمه اللّه تعالى: و ممّا قلته فى التورية بشأن راوى المدوّنة: [البسيط]

لا تعجبنّ لظبى قد دها أسدا فقد دها أسدا من قبل سحنون

و من نظم مولاى الجدّ ممّا لم يذكره فى «الإحاطة» قوله حسبما ألفى بخطّه على ظهر نسخة من تأليفه «القواعد»: [البسيط]

ناديت و القلب بالأشواق محترق و النفس من حيرة الأبعاد فى دهش

يا معطشى من وصال كنت آمله هل فيك لى فرج إن صحت و اعطشى

[و من شعره الذى لم يذكره فى الإحاطة]

و من نظمه ما أسنده الوانشريسى إليه: [الكامل]

خالف هواك و كن لعقلك طائعا فخذ الحقيقة عند طرف الناظر

و منه ممّا نسبه له المذكور، و رأيت من ينسبهما لغيره: [البسيط]

لمّا رأيناك بعد الشّيب يا رجل لا تستقيم و أمر النفس تمتثل

زدنا يقينا بما كنّا نصدقه بعد المشيب يشبّ الحرص و الأمل

و فى «الإحاطة» فى ترجمة شعره ما صورته قال: و ممّا قلته من الشعر، و به نختم الكلام: [البسيط]

أنبتّ عودا لنعماء بدأت بها فضلا و ألبستها بعد اللّحى الورقا

فظلّ مستشعرا مستدثرا أرجا ريّان ذا بهجة يستوقف الحدقا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۸۰

فلا تشنه بمكروه الجنى فلكم عوّدته من جميل من لدن خلقا

و انف القذى عنه و اثر الدهر منبته و غذّه برجاء واسقه غدقا

و احفظه من حادثات الدهر أجمعها ما جاء منها على ضوء و ما طرقا

انتهى ما قصدته من ترجمة مولاى الجدّ على ما اقتضاه الوقت، و لو أرسلت عنان القلم فى شأنه لضاق هذا الديوان عن ذلك، و يرحم اللّه شيخ شيوخ شيوخنا عالم المغرب سيدى أبا العباس الوانشريسى ثم التلمسانى نزيل فاس صاحب «المعيار» و غيره إذ قال فى تأليفه الذى عرّف فيه بمولاى الجدّ لمّا سأله بعضهم فى ذلك، و ذكر ما حضره، ما نصّه: و لقد استوفى شيخ شيوخنا المحقّق النظار أبو عبد اللّه بن مرزوق الحفيد ترجمة المقرى فى كتاب سمّاه «النور البدرى، فى التعريف بالفقيه المقرى» و قد تقدّمت الإشارة إلى أن اسم هذا التأليف مبنى على أنّ المقرى بفتح الميم و سكون القاف، و قد علمت ما فى ذلك ممّا مضى.

قلت: و قد ملكت بفاس مجلّدا ضخما بخطّ مؤلفه، و هو أحد علماء مدينة فاس، ألّفه برسم مولاى الجدّ، و سمّاه ب «الزهر الباسم» و أطال فيه فى مدح مولاى الجدّ، و الثناء عليه، و التنويه بقدره، و ذكر محاسنه، و لم يحضرنى الآن لكونى تركته مع جملة كتبى بالمغرب، و قد تعلّق بحفظى ما قاله فى أوله من جملة أبيات: [الوافر]

إذا ذكرت مفاخر أهل فاس ذكرنا من أتى من تلمسان

و قلنا هل رأيتم فى قضاة شبيها للفقيه العدل ثانى

إلى أن قال:

و نفس العلم إن شانت لشخص فما للمقّرى فى العلم شانى

[تلامذة المقرى الكبير]

و قد أخذ عنه، رحمه اللّه تعالى، جماعة أعلام مشهورون، منهم لسان الدين بن الخطيب ذو الوزارتين، و الوزير أبو عبد اللّه بن زمرك، و الأستاذ العلّامة أبو عبد اللّه القيجاطى الآبّة فى علم القراءات، و الشيخ الفقيه القاضى الرحّال الحاج أبو عبد اللّه محمد بن سعيد بن عثمان بن سعيد الصنهاجى الزمورى الدار المعروف بنقشابو، و الولى ابن

خلدون صاحب التاريخ، و فى بعض المواضع يعبر عنه بصاحبنا، و فى بعضها بشيخنا، و النظار أبو إسحاق الشاطبى، و العلّامة أبو محمد عبد اللّه بن جزى، و الحافظ ابن علان، و غيرهم ممّن يطول تعداده، و لا كالشيخ الولى الشهير الكبير العارف باللّه سيدى محمد بن عباد الرندى شارح حكم ابن عطاء اللّه فإنه ممّن يفتخر مولاى الجدّ، رحمه اللّه تعالى، بكون مثله تلميذا له، و لا بأس أن نورد ترجمته تبرّكا به فى هذا الكتاب، و لو لم تقتضه المناسبة التى راعيناها فى هذا التأليف، فكيف و قد اقتضته؟ فنقول:

[ترجمة ابن عباد الرندى شارح حكم ابن عطاء اللّه الإسكندرى]

قال فى حقّه صاحبه الشيخ أبو زكريا السراج، ما صورته: هو شيخنا الفقيه الخطيب البليغ الخاشع الخاشى، الإمام العالم المصنّف السالك العارف المحقّق الربانى ذو العلوم الباهرة، و المحاسن المتظاهرة، سليل الخطباء، و نتيجة العلماء، أبو عبد اللّه محمد ابن الشيخ الفقيه الواعظ الخطيب البليغ العلم الحظى الوجيه الحسيب الأصيل أبى إسحاق إبراهيم بن أبى بكر بن عباد، كان حسن السّمت، طويل الصمت، كثير الوقار و الحياء، جميل اللقاء، حسن الخلق و الخلق، عالى الهمّة، متواضعا، معظّما عند الخاصة و العامة، نشأ ببلده رندة على أكمل طهارة، و عفاف و صيانة، و حفظ القرآن ابن سبع سنين، ثم تشاغل بعد بطلب العلوم النحوية و الأدبية و الأصولية و الفروعية، حتى رأس فيها، و حصل معانيها، ثم أخذ فى طريق الصوفية و المباحثة على الأسرار الإلهية حتى أشير إليه، و تكلّم فى علوم الأحوال و المقامات، و العلل و الآفات، و ألّف فيه تواليف عجيبة، و تصانيف بديعة غريبة، و له أجوبة كثيرة فى مسائل العلوم نحو

مجلّدين، و درس كتبا و حفظها أو جلّها كشهاب القضاعى و الرسالة و مختصرى ابن الحاجب و تسهيل ابن مالك و مقامات الحريرى و فصيح ثعلب و غيرها، و قوت القلوب، أخذ ببلده رندة عن أبيه القرآن و غيره، و عن خاله الشيخ الفقيه القاضى عبد اللّه الفريسى العربية و غيرها، و عن الشيخ الفقيه الخطيب أبى الحسن على بن أبى الحسن الرّندى حرف نافع، و عرض عليه الرسالة، و بتلمسان و فاس عن السيد الشريف الإمام العالم العلامة المحقق أبى عبد اللّه التلمسانى الحسنى جمل الخونجى تفهما و غيره، و عن الشيخ الفقيه القاضى العالم أبى عبد اللّه المقرى كثيرا من المختصر الفرعى لابن الحاجب و فصيح ثعلب و بعض صحيح مسلم كلّها تفقها، و عن الشيخ الفقيه العالم أبى محمد عبد النور العمرانى الموطأ و العربية، و عن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۸۲

الإمام العالم أبى عبد اللّه الأبلى «الإرشاد» لأبى المعالى و جميع كتاب ابن الحاجب الأصلى و عقيدة ابن الحاجب تفقها، و عن الشيخ الفقيه الحافظ أبى الحسن الصرصرى بعض «التهذيب» تفقها، و عن الشيخ الأستاذ المقرى الصالح أحمد بن عبد الرحمن المجاصى- شهر بالمكناسى- كثيرا من جمل الزجاج و تسهيل ابن مالك، و عن الشيخ الفقيه الصالح أبى مهدى عيسى المصمودى جميع كتاب ابن الحاجب و الحاجبية له أيضا تفقها، و تفقّه على الفقيه العالم أبى محمد الواتعيلى فى كتاب ابن الحاجب الفقهى و أخذ عنه حرف نافع، و عن الشيخ الفقيه الصالح المدرس بالحلفاويين أبى محمد عبد اللّه القشتالى كثيرا من «التهذيب»، و عن قاضى الجماعة و خطيب الحضرة أبى عبد اللّه محمد بن أحمد القشتالى كثيرا من «التهذيب» تفقها، و كذا عن غيرهم، و لقى بسلا الشيخ الحاج الصالح السنى الزاهد الورع أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر، و أقام معه و مع أصحابه سنين عديدة، قال: قصدتهم لوجدان السلامة معهم، ثم رحل لطنجة فلقى بها الشيخ الصوفى أبا مروان عبد الملك، لازمته كثيرا، و قرأت عليه، و سمعت منه، و أنشدنى من شعره و شعر غيره، و تردّدت بينى و بينه مسائل فى إقامته بسلا، و انتفعت به عظيما فى فى التصوّف و غيره، و أجازنى إجازة عامة. مولده برندة عام ثلاثة و ثلاثين و سبعمائة، و توفى بعد العصر يوم الجمعة ثالث رجب عام اثنين و تسعين و سبعمائة، و حضر جنازته الأمير فمن بعده، و همّت العامّة بكسر نعشه تبركا به، و لم أر جنازة أحفل و لا أكثر خلقا منها، ورثاه الناس بقصائد كثيرة؛ انتهى كلام السراج.

و قال غيره فى حقّه: محمد بن إبراهيم بن عبد اللّه بن مالك بن إبراهيم بن محمد بن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عبّاد، النفزى نسبا، الرّندى بلدا، الشهير بابن عبّاد، الفقيه الصوفى الزاهد الولى العارف باللّه تعالى.

و قال فى حقّه الشيخ ابن الخطيب القسمطينى فى كتابه «أنس الفقير، و عز الحقير»: هو الخطيب الشهير، الصالح الكبير، و كان والده من الخطباء، الفصحاء النجباء، و لأبى عبد اللّه هذا عقل و سكون، و زهد بالصلاح مقرون، و كان يحضر معنا مجلس شيخنا الفقيه أبى عمران العبدوسى، رحمه اللّه تعالى، و هو من أكابر أصحاب ابن عاشر، و من خيار تلامذته، و أخذ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۸۳

عنه. و له كلام عجيب فى التصوّف، و صنّف فيه، كما هو الآن يقرأ على الناس مع كتب التذكير، و له فى ذلك قلم انفرد به، و سلم له فيه بسببه، و من تصانيفه «شرح كتاب الحكم» لابن عطاء اللّه فى سفر، رأيته و على ظهر نسخة منه مكتوب: [البسيط]

لا يبلغ المرء فى أوطانه شرفا حتى يكيل تراب الأرض بالقدم

و من كلامه فيه: الاستئناس بالناس، من علامات الإفلاس، و فتح باب الأنس باللّه تعالى الاستيحاش من الناس. و من كلامه فيه: من لازم الكون و بقى معه و قصر همّته عليه و لم تنفتح له طريق الغيوب الملكوتية، و لا خلص له بسرّه إلى فضاء شهادة الوحدانية، فهو مسجون بمحطاته، و محصور فى هيكل ذاته. إلى غير ذلك من كلامه. و كان يحضر السماع ليلة المولد عند السلطان، و هو لا يريد ذلك، و ما رأيته قطّ فى غير مجلس جالسا مع أحد، و إنما حظّ من يراه الوقوف معه خاصا، و كنت إذا طلبته فى الدعاء احمرّ وجهه و استحيا كثيرا، ثم يدعو لى، و أكثر تمتّعه من الدنيا بالطيب و البخور الكثير، و يتولّى أمر خدمته بنفسه، و لم يتزوّج، و لم يملك أمة، و لباسه فى داره مرقّعة، فإذا خرج سترها بثوب أخضر أو أبيض، و له تلامذة كلّهم أخيار مباركون، و بلغنى عن بعضهم أنه تصدّق حين

تاب على يده بعشرة آلاف دينار ذهبا، و هو الآن إمام جامع القرويين بفاس و خطيبه، و أكثر قراءته فى صلاة الجمعة إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ و أكثر خطبته وعظ، و مثله من يعظ الناس؛ لأنه اتّعظ فى نفسه، و قد أوحى اللّه تعالى إلى عيسى، عليه الصلاة و السلام: يا عيسى، عظ نفسك فإن اتّعظت فعظ الناس، و إلّا فاستحى منى، ذكره الغزالى؛ و عهدى به أنه على صفة البدلاء، الصادقين النبلاء، كثر اللّه مثله فى الإسلام؛ انتهى.

قلت: و قد زرت قبره مرارا بفاس، و دعوت اللّه تعالى عنده، و هو عند أهل فاس بمثابة الشافعى عند أهل مصر، و من منن اللّه سبحانه علىّ أنى سكنت محلّه لمّا توليت الخطابة و الإمامة بجامع القرويين من فاس المحروسة مضافين إلى الفتوى، و الدار المعلومة للخطيب بالجامع المذكور إلى الآن تعرف بدار الشيخ ابن عباد، و أقمت على ذلك خمس سنين و أشهرا، ثم قوّضت الرحال للمشرق، وها أنا إلى الآن فيها، و اللّه ييسّر الخير حيث كان.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۸۴

و قال الشيخ سيدى أحمد زروق فى شأن الشيخ ابن عباد: إنه ولد برندة، و بها نشأ فى عفاف و صون، ثم رحل لفاس و تلمسان فقرأ بهما الفقه و الأصول و العربية، ثم عاد فصحب بمدينة سلا أفضل أهل زمانه علما و عملا سيدى أحمد بن عاشر، نفعنا اللّه به! فأظهر اللّه تعالى من بركاته ما لا يخفى على متأمّل، ثم نقل بعد وفاة الشيخ فجعل خطيبا بجامع القرويين من مدينة فاس، و بقى بها خمس عشرة سنة خطيبا، فتوفّاه اللّه تعالى بها بعد صلاة العصر من يوم الجمعة رابع رجب سنة اثنتين و تسعين و سبعمائة، و دفن بكدية البراطل من داخل باب الفتوح. و كان، رضى اللّه عنه، ذا صمت و سمت، و تحمل و زهد، معظما عند الكافة، معوّلا- فى حلّ المشكلات على فتح الفتاح العليم: [الطويل]

و من علمه أن ليس يدعى بعالم و من فقره أن لا يرى يشتكى الفقرا

و من حاله أن غاب شاهد حاله فلا يدّعى وصلا و لا يشتكى هجرا

كذا رأيت بخطّ من أثق به فى تعريفه مختصرا مع زيادة ما تحققت، و كتبه شاهدة بكماله علما و عملا، فهى كافية فى تعريفه، و كان الذى طلبه فى وضع الشرح على الحكم سيدى أبو زكريا السراج الذى أكثر رسائله له و سيدى أبو الربيع سليمان بن عمر؛ انتهى.

و قال فى موضع آخر: سيدنا العارف المحقّق الخطيب البليغ نسيج وحده، و مقدم من أتى من بعده، أبو عبد اللّه، قرأ بفاس و تلمسان العربية و الأصول و الفقه ككتاب الإرشاد و مختصر ابن الحاجب الفقهى و الأصلى و تسهيل ابن مالك، و توفى بفاس، و قبره بها مشهور، و مزيته معروفة شرقا و غربا، و قد كتب مسائل معروفة أكثرها لسيدى يحيى السراج، و له كتب الشرح مع سيدى سليمان بن عمر الذى قال فى حقّه: إنه ولى بلا شكّ، بطلبهما لذلك، و رأيت كتابا فى الإمامة سمّاه «تحقيق العلامة، فى أحكام الإمامة» فذكرته لشيخنا القورى، رحمه اللّه تعالى، و كان معتنيا بكتبه معوّلا عليها فى حاله، فقال: أظنّه لوالده سيدى إبراهيم، و قد كان خطيبا بالقصبة إذ كانت عامرة، و له خطب عظيمة الفصاحة، حسنة الموقع؛ انتهى.

و قال الشيخ أبو يحيى بن السكاك: أمّا شيخى و بركتى أبو عبد اللّه بن عبّاد، رضى اللّه عنه، فإنه شرح الحكم و عقد درر منثورها فى نظم بديع، و جمعت من إنشائه مسائل مدارها على الإرشاد إلى البراءة من الحول و القوّة، فيها نبذ كأنفاس الأكابر، مع حسن التصرّف فى طريق الشاذلى، و جودة تنزيل على الصور الجزئية، و بسط التعبير، مع إنهاء البيان إلى أقصى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۸۵

غاياته، و التفنّن فى تقريب الغامض إلى الأذهان بالأمثلة الوضعية، فقرّب بها حقائق الشاذلية تقريبا لم يسبق إليه، كما قرّب الإمام ابن رشد مذهب مالك تقريبا لم يسبق إليه، و كان مع ذلك آية فى التحقّق بالعبودية و البراءة من الحول و القوّة و عدم المبالاة بالمدح و الذمّ، بل له مقاصد نفيسة فى الإعراض عن الخلق، و عدم المبالاة بهم، و أعظم أخلاقه التى لا- يصبر عنها و يضطرب لها غاية الاضطراب أن يحضر حيث ينسى الحقّ، لا سيما إن كان نسيان الحقّ بالنسبة إليه، فهو الذى يقلقه، و يضيق صدره على اتّساعه و وفور

انشراحه عن ذلك، و لقد ذكر بعض من كان من أخصّ الناس به و منقطعا إليه أحوال رجال الرسالة القشيرية و الحلية و ما منحوا من المواهب، قال: فلمّا مات الشيخ و استبصرت ما أشاهده منه من أفعال تدلّ على القطع بصديقيته لاح لى أنّ تلك الصفات التى يذكر مشخّصة فيه نشاهدها عيانا، و لو لم أر الشيخ لقلت: إننى لم أر كمالا، و على الجملة فهو واحد عصره بالمغرب. ذكر لى عن قطب المعقول بالمغرب و المشرق الأبلى أنه كان يشير إليه فى حال قراءته عليه، أعنى الشيخ ابن عباد، و يقول: إنّ هناك علما جمّا لا يوجد عند مشاهير أهل ذلك الوقت، إلّا أنه كان لا يتكلّم، رضى اللّه عنه، و شهد له المقطوع بولايتهم بالتقدّم، و أقرّوا له بالشيخوخة، و تبرّكوا به، كسيدى سليمان اليازغى و سيدى محمد المصمودى و سيدى سليمان بن يوسف بن عمر الأنفاسى و أمثالهم، و كان شيخه الحجّة الورع أحمد بن عاشر يشيد بذكره، و يقدمه على سائر أصحابه، و يأمرهم بالأخذ عنه، و الانتفاع به، و التسليم له، و يقول: ابن عباد أمّة وحده، و لا شكّ أنه كذلك كان، أعنى غريبا فإنّ العارف غريب الهمّة بعيد القصد، لا يجد مساعدا على قصده. و كان الغالب عليه الحياء من اللّه تعالى، و التنزّل بين يدى عظمته، و تنزيله نفسه منزلة أقلّ الحشرات، لا يرى لنفسه مزية على مخلوق، لما غلب عليه من هيبة الجلال و عظمة المالك و شهود المنّة، نظّارا إلى جميع عباد اللّه تعالى بعين الرحمة و الشفقة و النصيحة العامة، مع توفية المراتب حقّها، و الوقوف مع الحدود الشرعية، و اعتبارهم من حيث مراد اللّه تعالى بهم، هذا دأبه مع الطائع و العاصى ما لم يظهر له من أحد مخايل حبّ التعظيم و المدح و التجبّر على المساكين و رؤية الحقّ إذ هى دعوى لا تليق بالعبد، و من كانت هذه صفته فقد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۸۶

وصل حدّ الخذلان، بل هى علامة تقارب القطع على أنه شقى مسلم إلى غضب اللّه تعالى و مقته، أعاذنا اللّه تعالى منه. و كان من حال هذا السيد تألف قلوب الأولاد الصغار، فهم يحبّونه محبّة تفوق محبّتهم لآبائهم و أمهاتهم، فينتظرون خروجه للصلاة و هم عدد كثير، يأتون من كلّ أوب و من المكاتب البعيدة، فإذا رأوه ازدحموا على تقبيل يده. و كذا كان ملوك زمانه يزدحمون عليه، و يتذلّلون بين يديه، فلا يحفل بذلك، و ذكر لى بعض تلامذته أنّ أقواله تشبه أفعاله، لما منحه اللّه تعالى من فنون الاستقامة، مع ما فى كلامه من النور و الحلاوة التى استفزّت ألباب المشارقة، بحيث صار لهم بحث عريض على تواليفه؛ انتهى كلام ابن السكاك.

و له من التواليف: الرسائل الكبرى، و الصغرى، و شرح الحكم، و نظمها فى ثمانمائة بيت من الرجز.

و حدّث الشيخ أبو مسعود الهراس قال: كنت أقرأ فى صحن جامع القرويين و المؤذنون يؤذنون بالليل، فإذا أبو عبد اللّه بن عبّاد قد خرج من باب داره، و جاء يطير فى الصحن كأنه جالس متربّع حتى دخل فى البلاط الذى حول الصّومعة، ثم مشيت فوجدته يصلّى حول المحراب، و سأله السراج عن أبى حامد الغزالى، فقال: هو فوق الفقهاء، و أقلّ من الصوفية.

و ممّا نقل من خطّه، رحمه اللّه تعالى، و لا يدرى هل هى له أم لا: [الكامل]

الحزم قبل العزم فاحزم و اعزم و إذا استبان لك الصواب فصمّم

و استعمل الرفق الذى هو مكسب ذكر القلوب وجد و أجمل و احلم

و احرس و سر و اشجع وصل و امنن وصل و اعدل و أنصف وارع و احفظ و ارحم

و إذا وعدت فعد بما تقوى على إنجازه و إذا اصطنعت فتمّم

و ذكر الشيخ الفقيه الخطيب القاضى الحاج أبو سعيد بن أبى سعيد السلوى أنه رأى فى حائط جامع القرويين أبياتا مكتوبة بفحم بخطّ الشيخ أبى عبد اللّه بن عباد و هى: [السريع]

أيتها النفس إليه اذهبى فحبّه المشهور من مذهبى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۸۷

مفضض الثغر له نقطة من عنبر فى خده المذهب

أيأسنى التوبة من حبه طلوعه شمسا من المغرب

قال الشيخ أبو سعيد: فاستشكلت هذه الأبيات لما اشتملت عليه من التغزل، و ذكر الخال و الخدّ و الثغر، و مقام الشيخ ابن عباد يجلّ عن الاشتغال بمثل هذا، فلقيت يوما أبا القاسم الصيرفى، فذاكرته بالقصة و وجه الإشكال فيها، فقال لى: مقامك عندى أعلى من أن تستشكل مثل هذا، هذه أوصاف ولى اللّه القائم بأمر اللّه المهدى، فشكرته على ذلك؛ انتهى.

قلت: رأيت بخطّ الوانشريسى إثر هذه الحكاية ما نصّه: قلت فى صحة هذه الحكاية عن الشيخ نظر؛ لما احتوت عليه من تعبير الحسن، و قدر الشيخ و ورعه أعلى من هذا، فهذان إشكالان، و اللّه أعلم.

و حكى أنّ الشيخ ابن عباد، رحمه اللّه تعالى، لما احتضر جعل رأسه فى حجر أبى القاسم هذا، و أخذ فى قراءة آية الكرسى إلى قوله الْحَيُّ الْقَيُّومُ [البقرة: ۲۵۵] ثم يقول: يا اللّه، يا حىّ، يا قيّوم، فيلقنه من حضر لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لا نَوْمٌ [البقرة: ۲۵۵] فيمتنع الشيخ من قراءتها و يقول: يا اللّه، يا حىّ، يا قيّوم، فلمّا قربت وفاته سمع منه هذا البيت و كان آخر ما تكلّم به: [البسيط]

ما عوّدونى أحبائى مقاطعة بل عوّدونى إذا قاطعتهم و صلوا

و لمّا توفى الشيخ ابن عبّاد، رضى اللّه عنه، فى التاريخ المتقدّم حضر جنازته السلطان أمير المسلمين أبو العباس أحمد ابن السلطان أبى سالم و أهل البلدتين- يعنى فاسا الجديد التى هى مسكن السلطان و خواصّ أتباعه، و فاسا العتيق التى هى محلّ الأعلام و الخاص و العام من الناس فى ذلك القطر، إذ هى إذ ذاك حضرة الخلافة و قبة الإسلام فى المغرب- و تقدّم بعده للإمامة و الخطبة بجامع القرويين نائبه أيام مرضه الشيخ الصالح الورع أبو زيد عبد الرحمن الزرهونى حسبما قاله الجادرى رحمه اللّه تعالى!.

و حكى الوانشريسى، رحمه اللّه تعالى، أنّ الشيخ ابن عبّاد كلّم ابن دريدة الوالى فى مظلمة، فلم يقبل، فلمّا كان يوم الجمعة و نزل السلطان أبو العباس للصلاة بجامع القرويين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۸۸

وراء الشيخ ابن عباد، قال الشيخ فى خطبته: من الأمور المستحسنة، أن لا يبقى الوالى سنة؛ انتهى.

و للشيخ ابن عباد خطب مدونة بالمغرب مشهورة بأيدى الناس، و يقرءون منها ما يتعلّق بالمولد النبوى الشريف بين يدى السلطان تبرّكا بها، و كذا يقرءونها فى المجتمعات فى المواسم، كأول رجب و شعبان و نصفهما و السابع و العشرين منهما، كرمضان، و قد حضرت بمراكش المحروسة سنة عشر و ألف قراءة كراسة الشيخ فى المولد النبوى على صاحبه الصلاة و السلام بين يدى مولانا السلطان المرحوم أحمد المنصور بالله الشريف الحسنى، رحمه اللّه تعالى، و قد احتفل لذلك المولد بأمور يستغرب وقوعها، جازاه اللّه تعالى عن نيّته خيرا، و قد أشرت إلى ذلك فى كتابى الموسوم ب «روضة الآس، العاطرة الأنفاس، فى ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس» و سردت جملة من القصائد و الموشحات فى وصف ذلك الصنيع، و رحمة اللّه وراء الجميع.

[عود إلى شيوخ لسان الدين و ترجمة أبى محمد عبد الحق بن سعيد بن محمد]

و لنرجع إلى مشايخ لسان الدين بن الخطيب، رحمه اللّه تعالى، فنقول:

و منهم: الشيخ الفقيه القاضى بمكناسة الزيتون أبو محمد عبد الحق بن سعيد بن محمد، ذكره فى «نفاضة الجراب» و قال: إنه لقيه بمكناسة الزيتون سنة إحدى و ستين و سبعمائة، و كان من أهل المعرفة و الحصافة، قائما على كتاب أبى عمرو بن الحاجب فى مذهب مالك، و كان ممتازا به فيما دون تلمسان، قرأه على الشيخين علمى الأفق المغربى أبى موسى و أبى زيد ابنى الإمام عالمى تلمسان و المغرب جميعا. قال لسان الدين فى «النفاضة»:

و تصدّر المذكور لإقرائه الآن، فما شئت من اضطلاع، و معرفة و اطلاع، و قيّد جزءا نبيلا على فتوى الإمام القاضى أبى بكر بن العربى المسمّاة ب «الحاكمة»، و سمّاه ب «الجازمة، على الرسالة الحاكمة» أجاد فيه و أحسن، و قرأت عليه بعضه و أذن لى فى تحمّله؛ انتهى.

[ترجمة الفقيه يونس بن عطية (ابن أبى عفيف) الوانشريسى]

و من أشياخ لسان الدين الذين لقيهم بمكناسة الزيتون الفقيه الفاضل الخير يونس بن عطية الوانشريسى، له عناية بفروع الفقه، و ولى القضاء بقصر كتامة.

و منهم الفقيه الفاضل الخير أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن أبى عفيف، المتصدّر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۸۹

لقراءة كتاب الشفاء النبوى، لديه جملة حسنة من أصول الفقه أشف بها على كثير من نظرائه قراءة منه إياها على أبى عبد اللّه محمد بن أبى الفضل الصباغ، و شاركه فى قراءتها على الإمام أبى عبد اللّه الأبلى.

[أبو على عمر بن عثمان الوانشريسى]

و منهم الفقيه المدرك الأستاذ فى فن العربية: أبو على عمر بن عثمان الوانشريسى؛ قال لسان الدين: حضرت مذاكرته فى مسألة أعوزت عليه، و طال عنها سؤاله، و هى قول الشاعر: [البسيط]

الناس أكيس من أن يمدحوا رجلا ما لم يروا عنده آثار إحسان

و صورة السؤال: كيف وقوع أفعل بين شيئين لا اشتراك بينهما فى الوصف؛ إذ أوقع الشاعر «أكيس» بين الناس و بين أن يمدحوا، و هو مؤوّل بالمصدر و هو المدح، و لا يوصف بذلك؛ انتهى.

قلت: الإشكال مشهور، و الجواب عنه بضرب من المجاز ظاهر، و قد أشار إليه أبو حيّان فى «الارتشاف» و جماعة آخرون فى قول بعض المؤلفين كصاحب التلخيص «أكثر من أن تحصى» و لو لا السآمة لذكرت ما قيل فى ذلك، و خلاصة ما قالوه أنّ فى الكلام تقديرا، و اللّه أعلم.

[أبو جعفر أحمد بن محمد، الجنان، الأوسى]

و ممّن لقيه لسان الدين بمكناسة الزيتون الفقيه العدل الأخبارى الأديب المشارك أبو جعفر أحمد بن محمد بن إبراهيم الأوسى الجنّان، من أهل الظرف و الانطباع و الفضيلة، و هو كاتب عاقد للشروط، ناظم ناثر مشارك فى فنون من العلم، مؤلّف، و قد ذكرنا فى غير هذا المحلّ ما دار بينه و بين لسان الدين من المحاورة و المراجعة، فليراجع، قال لسان الدين رحمه اللّه تعالى: ناولنى المذكور تأليفه الحسن الذى سمّاه «المنهل المورود، فى شرح المقصد المحمود» شرح فيه وثائق الجزرى فأربى بيانا و إفادة و إجادة، و أذن لى فى حمله عنه، و هو فى ثلاث مجلّدات، و أنشدنى كثيرا من شعره.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۹۰

[أبو عبد اللّه بن أبى رمانة]

و منهم القاضى بها أبو عبد اللّه بن أبى رمانة؛ قال لسان الدين: لقيته بمكناسة، و كان من أهل الحياء و الحشمة، و ذوى السذاجة و العفّة، ثم ذكر ما داعبه به حين تأخّر عن لقائه، و قد ذكرنا ذلك فى غير هذا الموضع.

[أبو على الحسن بن عثمان بن عطية الوانشريسى]

و ممّن لقيه لسان الدين بمكناسة الفقيه العدل أبو على الحسن بن عثمان بن عطية الوانشريسى، قال: و كان فقيها عدلا من أهل

الحساب، و القيام على الفرائض، و العناية بفروع الفقه، و من ذوى السذاجة و الفضل، و يقرض الشعر، و له أرجوزة فى الفرائض مبسوطة العبارة مستوفية المعنى؛ انتهى.

و قال ابن الأحمر فى حقّه: هو شيخنا الفقيه المفتى المدرس القاضى الفرضى الأديب، الحاج أبو على ابن الفقيه الصالح أبى سعيد عثمان التجانى المنعوت بالونشريسى، أجازنى عامة، أخذ عن الفقيه المفتى الأديب الخطيب المعمر القاضى المحدّث الراوية خاتمة المحدّثين بالمغرب أبى البركات ابن الحاج البلفيقى؛ انتهى.

و مولده فى حدود أربع و عشرين و سبعمائة.

و ذكر صاحب «المعيار المعرب، و الجامع المغرب، عن فتاوى إفريقية و الأندلس و المغرب» جملة من فتاويه و قال فى وثائقه، و قد أجرى ذكره، ما صورته: إنّ بلديّنا الشيخ القاضى العلامة أبا على الحسن وقعت له قضية مع عدول مكناسة، و ذلك أنّ السلطان أبا عنان فارسا كان أمر بالاقتصار على عشرة من الشهود بمدينة مكناسة و كتب اسم الشيخ أبى على هذا فى العشرة، فشقّ ذلك على بعض شيوخ العدول المؤخّرين لحداثة سنّ أبى على، فلمّا علم تشغيبهم صنع رجزا و رفعه إلى مقام المتوكل على اللّه أبى عنان نصّه: [الرجز]

نبدأ أولا بحمد اللّه و نستعينه على الدواهى

ثم نوالى بالصلاة و السلام على نبيّ دونه كلّ الأنام

و بعد ذا نسأل ربّ العالمين أن يهب النصر أمير المؤمنين

خليفة اللّه أبا عنان لا زال فى خير و فى أمان

ملّكه اللّه من البلاد من سوس الأقصى إلى بغداد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۹۱

و يسّر الحجاز و الجهادا و جعل الكلّ له مهادا

يا أيها الخليفة المظفّر دونك أمرى إنه مفسّر

عبدكم نجل عطية الحسن قد قيل لا يشهد إلّا إن أسنّ

و هو فى أمركم المعهود من جملة العشرة الشهود

نصّ عليه أمركم تعيينا و سنّه قارب أربعينا

مع الذى ينتسب العبد إليه من طلب العلم و بحثه عليه

على الفرائض له أرجوزه أبرز فى نظامها إبريزه

و مجلس له على الرساله فكيف يرجو حاسد زواله

حاشا أمير المؤمنين ذاكا و عدله قد بلغ السّماكا

و علمه قد طبق الآفاقا و حلمه قد جاوز العراقا

و جوده مشتهر فى كلّ حىّ قصّر عن إدراكه حاتم طىّ

و حكى بعض الحفّاظ أنه لما بلغت الأبيات السلطان أمر بإقراره على ذلك، و قد وقفت على رجزه المذكور، و له شرح عليه لم أره، و الظاهر أنه ممّن تدبّج معه لسان الدين، رحم اللّه الجميع! و هو معدود فى جملة من لقيه.

[أبو العباس أحمد بن عاشر]

و من مشايخ لسان الدين، رحمه اللّه، ذو الكرامات الكثيرة و المقامات الكبيرة، سيدى الحاج أبو العباس أحمد بن عاشر الصالح

المشهور، كان لسان الدين- رحمه اللّه تعالى!- حريصا على لقائه بسلا أيام كان بها، و قد لقيه، و لم يتملّ منه لشدة نفوره من الناس، خصوصا أصحاب الرياسة، و لذا قال لسان الدين، لما ذكر أنه لقيه فى «نفاضة الجراب» ما صورته: يسّر اللّه لقاءه على تعسّره، انتهى.

و سنترجم الولى المذكور فى نظم لسان الدين حيث وصفه بقوله: [الرمل]

بوليّ اللّه فابدأ و ابتدر

و قبره الآن بسلا محطّ رجاء الطالبين، و كعبة قصد الراغبين، تلوح عليه أنوار العناية،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۹۲

و تستمدّ منه أنواء الهداية، و هو على ساحل البحر المحيط بخارج مدينة سلا المحروسة، و قد زرته و للّه الحمد عند توجّهى إلى حضرة مراكش سنة ألف و تسعة، و الناس يشدّون الرحال إليه من أقطار المغرب، نفعنا اللّه تعالى به، و أعاد علينا من بركاته! بجاه نبيّنا محمد صلّى اللّه عليه و سلم.

رجع إلى مشايخ لسان الدين الوزير ابن الخطيب رحمه اللّه تعالى:

[أبو عبد اللّه محمد بن على الفخار البيرى]

و منهم الأستاذ المحقّق العلامة الكبير النحوى الشهير أبو عبد اللّه محمد بن على الفخار البيرى، رحمه اللّه تعالى!.

كان شيخ النحاة بالأندلس غير مدافع، و أخذ عنه خلق كثيرون كالشاطبى أبى إسحاق صاحب شرح الألفية و الوزير ابن زمرك و غيرهما، و قد حكى عنه مسائل غريبة تلميذه الشاطبى، و قال لسان الدين فى «الإحاطة» فى ترجمة مشيخته ما صورته: و لازمت قراءة العربية و الفقه و التفسير و المعتمد عليه العربية على الشيخ الأستاذ الخطيب أبى عبد اللّه بن الفخار البيرى، الإمام المجمع على إمامته فى فنّ العربية، المفتوح عليه من اللّه تعالى فيها حفظا و اطّلاعا و اضطلاعا و نقلا و توجيها بما لا مطمع فيه لسواه؛ انتهى.

و لنورد بعض فوائد ابن الفخار فنقول

: و من فوائد ابن الفخار المذكور التى حكاها عنه الشاطبى قوله: حدّثنى أنّ بعض الشيوخ كان إذا أتى بإجازة يشهد فيها سأل الطالب المجاز عن لفظ إجازة ما وزنه و ما تصريفه؟ ثم قال الشاطبى: و لمّا حدّثنا بذلك سألناه عنها فأملى علينا ما نصّه: وزن إجازة فى الأصل إفعالة، و أصلها إجوازة فأعلّت بنقل حركة الواو إلى الجيم حملا على الفعل الماضى استثقالا، فتحرّكت الواو فى الأصل و انفتح ما قبلها فى اللفظ، فانقلبت ألفا، فصارت إجازة- بألفين- فحذفت الألف الثانية عند سيبويه؛ لأنها زائدة و الزائد أولى بالحذف من الأصلى، و حذفت الأولى عند الأخفش؛ لأنها لا تدلّ على معنى و هو المدّ، و قول سيبويه أولى؛ لأنه قد ثبت عوض التاء من المحذوف فى نحو «زنادقة» و التاء زائدة، و تعويض الزائد من الزائد أولى من تعويض الزائد من الأصلى، للتناسب، و وزنها فى اللفظ عند سيبويه إفعلة و عند الأخفش إفالة؛ لأنّ العين عنده محذوفة؛ انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۹۳

و قال الشاطبى رحمه اللّه تعالى: لمّا توفى شيخنا الأستاذ الكبير، العلم الخطير، أبو عبد اللّه بن الفخار سألت اللّه، عزّ و جلّ، أن يرينيه فى المنام فيوصينى بوصيّة أنتفع بها فى الحالة التى أنا عليها من طلب العلم، فلمّا نمت فى تلك الليلة رأيت كأنى أدخل عليه فى داره التى كان يسكن بها، فقلت له: يا سيدى، أوصنى فقال لى: لا تعترض على أحد، ثم سألنى بعد ذلك فى مسألة من مسائل العربية كالمؤنس لى، فأجبته عنها، و لا أذكرها الآن؛ انتهى.

و قال الشاطبى أيضا ما صورته: حدّثنا الأستاذ الكبير الشهير أبو عبد اللّه محمد بن الفخار شيخنا- رحمه اللّه تعالى!- قال: حدّثنى بسبتة بعض المذاكرين أنّ ابن خميس لمّا ورد عليها بقصد الإقراء بها اجتمع إليه عيون طلبتها، فألقوا عليه مسائل من غوامض الاشتغال، فحاد

عن الجواب عنها بأن قال لهم: أنتم عندى كرجل واحد، يعنى أنّ ما ألقوا عليه من المسائل إنما تلقوها من رجل واحد، و هو ابن أبى الربيع، فكأنه إنما يخاطب رجلا واحدا ازدراء بهم، فاستقبله أصغر القوم سنّا و علما بأن قال له: إن كنت بالمكان الذى تزعم فأجبنى عن هذه المسائل من باب معرفة علامات الإعراب التى أذكرها لك، فإن أجبت فيها بالصواب لم تحظ بذلك فى نفوسنا لصغرها بالنظر إلى تعاميك عن الإدراك و التحصيل، و إن أخطأت فيها لم يسعك هذا البلد، و هى عشر: الأولى: أنتم يا زيدون تغزون، و الثانية أنتنّ يا هندات تغزون، و الثالثة أنتم يا زيدون و يا هندات تغزون، و الرابعة أنتنّ يا هندات تخشين، و الخامسة أنت يا هند تخشين، و السادسة أنت يا هند ترمين، و السابعة أنتنّ يا هندات ترمين، و الثامنة أنتنّ يا هندات تمحون أو تمحين، كيف تقول؟ و التاسعة أنت يا هند تمحين أو تمحون، كيف تقول؟ و العاشرة أنتما تمحوان أو تمحيان، كيف تقول؟ و هل هذه الأفعال كلّها مبنية أو معربة أو بعضها مبنى و بعضها معرب؟ و هل هى كلّها على وزن واحد أو على أوزان مختلفة؟ علينا السؤال و عليك التمييز لنعلم الجواب، فبهت الشيخ، و شغل المحلّ بأن قال:

إنما يسأل عن هذا صغار الولدان، قال له الفتى: فأنت دونهم إن لم تجب، فانزعج الشيخ، و قال: هذا سوء أدب، و نهض منصرفا، و لم يصبح إلّا بمالقة متوجّها إلى غرناطة حرسها اللّه تعالى! و لم يزل بها مع الوزير ابن الحكيم إلى أن مات رحمة اللّه تعالى عليه! انتهى.

ثم قال الشاطبى: و الجواب عن هذه المسائل ما يذكر: أمّا الجواب عن «تغزون» الأولى فإنه معرب، و وزنه أصلا تفعلون، و لفظا تفعون، و عن الثانية فمبنىّ للحاق نون الإناث و وزنه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۹۴

تفعلن، و عن الثالثة على التغليب فعلى ردّه للأول يلحق بالأول، و للثانى كالثانى، و أما «تخشين» من الرابعة فمبنىّ للنون و وزنه تفعلن، و عن الخامسة فمعرب، و وزنه أصلا تفعلين، و لفظا تفعين، و أما «ترمين» من السادسة فمعرب، و وزنه أصلا تفعلين، و لفظا تفعين، و من السابعة مبنىّ للنون، و وزنه تفعلن، و أمّا «تمحون و تمحين» من الثامنة فهما لغتان، و هما مبنيان للنون، و التاسعة لا يقال إلّا «تمحين» بالياء خاصة لتّفق اللغتان، و وزنها تفعين كتخشين، و أمّا تمحيان من العاشرة فعلى لغة الياء لا إشكال و على الواو فيظهر من كلام النحويين أنه لا يجوز إلّا بالواو؛ انتهى.

و قد أورد هذه الحكاية عالم الدنيا سيدى أبو عبد اللّه محمد بن مرزوق- رحمه اللّه تعالى!- فى شرحه الواسع العجيب المسمّى ب «تمهيد المسالك، إلى شرح ألفية ابن مالك» و نصّ محلّ الحاجة منه: و قد حكى أنّ بعض طلبة سبتة أورد على أبى عبد اللّه بن خميس عشر مسائل من هذا النوع، و هى: أنتم يا زيدون تغزون، و أنتنّ يا هندات تغزون، و أنتم يا زيدون و يا هندات تغزون، و أنتنّ يا هندات تخشين، و أنت يا هند تخشين، و أنت يا هند ترمين، و أنتنّ يا هندات ترمين، و أنتنّ يا هندات تمحون أو تمحين كيف تقول؟ و أنت يا هند تمحون أو تمحين، كيف تقول؟ و أنتما تمحوان أو تمحيان، على لغة من قال محوت، كيف تقول؟ و هل هذه الأمثلة كلّها مبنية أو معربة أو مختلفة؟ و هل وزنها واحد أو مختلف؟ قالوا:

و لم يجب بشىء، قلت: فلعلّه استسهل أمرها، فأمّا المثال الأول فمعرب، و وزنه تفعلون كتنظرون، إذ أصله تغزوون، فاستثقلت ضمة الواو التى هى لام فحذفت، ثم حذفت الواو أيضا لالتقائها ساكنة مع واو الضمير، و كانت أولى بالحذف؛ لأنّ واو الضمير فاعل، و لغير ذلك ممّا تقدّم بعضه، و أمّا الثانى فمبنى و وزنه تفعلن كتخرجن، و أمّا الثالث فكالأول إعرابا و وزنا؛ لأنّ فيه تغليب المذكّر على المؤنّث، و أمّا الرابع فمبنىّ و وزنه تفعلن مثل تفرحن؛ لأنه لما احتيج إلى تسكين آخر الفعل لإسناده إلى نون جماعة النسوة ردّت الياء إلى أصلها؛ لأنها إنما قلبت ألفا لتحركها و انفتاح ما قبلها، و الآن ذهبت حركتها لاستحقاقها السكون، و أمّا الخامس فمعرب و وزنه تفعلين كتفرحين، و أصله تخشيين، فقلبت الياء ألفا لتحرّكها و انفتاح ما قبلها، ثم حذفت لالتقائها ساكنة مع ياء الضمير، و ترك فتحة الشين دالّة على الألف، و أمّا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۶؛ ص۲۹۴

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۹۵

السادس فمعرب و وزنه تفعلين كتضربين، و أصله ترميين، حذفت كسرة الياء لاستثقالها، ثم حذفت الياء لاجتماعها ساكنة مع ياء الضمير، و أمّا السابع فمبنيّ و وزنه تفعلن كتضربن، و أمّا الثامن و التاسع فمضارع محى ورد بالأوزان الثلاثة، فمن يمحوا قال فى المضارع من جماعة النسوة تمحون مثله من غزا بناء و وزنا، و من قال يمحى قال فيه تمحين كترمين بناء و وزنا، و من قال يمحى قال فيه تمحين كتخشين بناء و وزنا، و يقال فى المضارع للواحدة على اللغة الأولى تمحين كتدعين إعرابا و وزنا و تصريفا، و قد تقدّم فى كلام المصنّف، و على الثانية كما يقال لها من رمى إعرابا و وزنا و تصريفا، و على الثالثة كما يقال لها من تخشى أيضا، و قد تقدّما، و ليس ما وقع فى السؤال كما نقل من خطّ بعض الشارحين أنه يقال فيها تمحون كتفرحن بشيء، و أمر التثنية ظاهر؛ انتهى بحروفه.

و ما قاله، رحمه اللّه تعالى، فى الاعتذار عن ابن خميس و هو اللائق بمقامه، فإنّ مكان ابن خميس من العلوم غير منكر، و قد مدحه ابن خطاب بقوله: [الكامل]

رقّت حواشى طبعك ابن خميس فهفا قريضك لى وهاج رسيسى

و لمثله يصبو الحليم و يمترى ماء الشؤون به و سير العيس

لك فى البلاغة، و البلاغة بعض ما تحويه من أثر، محل رئيس

نظم و نثر لا تبارى فيهما عززت ذاك و ذا بعلم الطوسى

يعنى أبا حامد الغزالى.

[أبو عبد اللّه محمد بن خميس التلمسانى]

و قال لسان الدين بن الخطيب فى «عائد الصلة» فى حقّ أبى عبد اللّه محمد بن خميس التلمسانى المذكور ما صورته: كان رحمه اللّه تعالى نسيج وحده زهدا و انقباضا و أدبا و همّة، حسن الشّيبة، جميل الهيئة، سليم الصّدر، قليل التّصنّع، بعيدا عن الرّياء، عاملا على السياحة و العزلة، عارفا بالمعارف القديمة، مضطلعا بتفاريق النّحل، قائما على العربية و الأصلين، طبقة الوقت فى الشعر، و فحل الأوان فى المطول، أقدر الناس على اجتلاب الغريب. ثم ذكر من أحواله جملة، إلى أن قال: و بلغ الوزير أبا عبد اللّه بن الحكيم أنه يروم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۹۶

السفر، فشقّ ذلك عليه، و كلّفه تحريك الحديث بحضرته، و جرى ذلك، فقال الشيخ: أنا كالدم بطبعى أتحرك فى كل ربيع؛ انتهى.

و قال ابن خاتمة فى «مزية المرية، على غيرها من البلاد الأندلسية»: إنه نظم فى الوزير ابن الحكيم القصائد التى حليت بها لبّات الآفاق، و تنفّست عنها صدور الرفاق، و كان من فحول الشعراء، و أعلام البلغاء، يرتكب مستصعبات القوافى، و يطير فى القريض مطار ذى القوادم الباسقة و الخوافى، حافظا لأشعار العرب و أخبارها، و له مشاركة فى العقليات، و استشراف على الطلب، و قعد لإقراء العربية بحضرة غرناطة، و مال بأخرة إلى التصوّف و التجوال، و التحلّى بحسن السّمت و عدم الاسترسال، بعد طىّ بساط ما فرط له من بلده من الأحوال. و كان صنع اليدين، حدّثنى بعض من لقيت من الشيوخ أنه صنع قدحا من الشمع على أبدع ما يكون فى شكله و لطافة جوهره و إتقان صنعته، و كتب بدائر شفته: [الطويل]

و ما كنت إلّا زهرة فى حديقة تبسّم عنّى ضاحكات الكمائم

فقلّبت من طور لطور فها أنا أقبّل أفواه الملوك الأعاظم

و أهداه خدمة للوزير أبى عبد بن الحكيم.

و أنشدنا شيخنا القاضى أبو البركات ابن الحاج و حكى لنا قال: أنشدنى أبو عبد اللّه بن خميس، و حكى لى، قال: لما وقفت على الجزء الذى ألّفه ابن سبعين و سمّاه ب «الفقيرية» كتبت على ظهره: [البسيط]

الفقر عندى لفظ دقّ معناه من رامه من ذوى الغايات عنّاه

كم من غبىّ بعيد عن تصوّره أراد كشف معمّاه فعمّاه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۹۷

و أنشدنا شيخنا الأستاذ أبو عثمان بن لبون غير مرة قال: سمعت أبا عبد اللّه بن خميس ينشد، و كان يحسب أنهما له، و يقال: إنهما لابن الرومى: [المديد]

ربّ قوم فى منازلهم عرر صاروا بها غررا

ستر الإحسان ما بهم سترى لو زال ما سترا

ثم قال ابن خاتمة: و قد جمع شعره و دوّنه صاحبنا القاضى أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم الحضرمى فى جزء سمّاه «الدرّ النفيس، فى شعر ابن خميس» و عرّف به صدره، و قدم ابن خميس المرية سنة ست و سبعمائة فنزل بها فى كنف القائد أبى الحسن بن كماشة من خدّام الوزير ابن الحكيم، فوسّع له فى الإيثار و المبرة، و بسط له وجه الكرامة طلق الأسرّة، و بها قال فى مدح الوزير المذكور قصيدته التى أولها: [مجزوء الكامل]

العشى تعيا و النوابغ عن شكر أنعمك السوابغ

و وجّه بها إليه [من ألمرية]، و هى طويلة، و منها:

و دسائع ابن كماشة مع كل بازغة و بازغ

تأتى بما تهوى النغا نغ من شهيّات اللغالغ

و منها:

ما ذاق طعم بلاغة من ليس للحوشىّ ماضغ

و يقال: إنّ الوزير اقترح عليه أن ينظم قصيدة هائية، فابتدأ منها مطلعها، و هو قوله: [الكامل]

لمن المنازل لا يجيب صداها محيت معالمها و صمّ صداها

و ذلك آخر شهر رمضان من سنة ثمان و سبعمائة، ثم لم يزد على ذلك إلى أن توفى، رحمه اللّه تعالى، فكان آخر ما صدر عنه من الشعر و قد أشار معناه إلى معناه، و آذن أولاه بحضور أخراه، و كانت وفاته بحضرة غرناطة قتيلا ضحوة يوم الفطر مستهلّ شوّال سنة ثمان و سبعمائة، و هو ابن نيّف و ستين سنة، و ذلك يوم مقتل مخدومه الوزير ابن الحكيم، أصابه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۹۸

قاتله بحقده على مخدومه، و كان آخر ما سمع منه أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ [غافر: ۲۸] و استفاض من حال القاتل أنه هلك قبل أن يكمل سنة من حين قتله من فالج شديد أصابه، فكان يصيح و يستغيث: ابن خميس يطلبنى، ابن خميس يضربنى، ابن خميس يقتلنى، و ما زال الأمر يشتدّ به حتى قضى نحبه على تلك الحال، نعوذ باللّه من الورطات، و مواقعات العثرات؛ انتهى ملخصا.

و حكى غيره أنّ بعضهم كتب بعد قوله «لمن المنازل لا- يجيب صداها» ما نصّه: لابن الحكيم، و من بديع نظم ابن خميس قوله: [الطويل]

تراجع من دنياك ما أنت تاركه و تسألها العتبى وها هى فارك

تؤمل بعد التّرك رجع ودادها و شرّ وداد ما تودّ الترائك

حلالك منها ما حلالك فى الصّبا فأنت على حلوائه متهالك

تظاهر بالسلوان عنها تجمّلا فقلبك محزون و ثغرك ضاحك

تنزّهت عنها نخوة لا زهادة و شعر عذارى أسود اللون حالك

و هى طويلة طنانة، و فى آخرها يقول:

فلا تدعون غيرى لدفع ملمّة إذا ما دهى من حادث الدهر داعك

فما إن لذاك الصوت غيرى سامع و ما إن لبيت المجد بعدى سامك

يغصّ و يشجى نهشل و مجاشع بما أورثتنى حمير و السكاسك

تفارقنى الروح التى لست غيرها و طيب ثنائى لاصق بى صائك

و ما ذا عسى ترجو لداتى و أرتجى و قد شمطت منى اللّحى و الأفائك

يعود لنا شرخ الشباب الذى مضى إذا عاد للدنيا عقيل و مالك

و مما اشتهر من نظمه قوله: [السريع]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۲۹۹

أرّق عينى بارق من أثال كأنه فى جنح ليلى ذبال

أثار شوقا فى ضمير الحشا و عبرتى فى صحن خدّى أسال

حكى فؤادى قلقا و اشتعال و جفن عينى أرقا و انهمال

جوانح تلفح نيرانها و أدمع تنهلّ مثل العزال

قولوا و شاة الحبّ ما شئتم ما لذّة الحبّ سوى أن يقال

عذرا للوّامى و لا عذر لى فزلّة العالم ما إن تقال

قم نطرد الهمّ بمشمولة تقصّر الليل إذا الليل طال

و عاطها صفراء ذمّيّة تمنعها الذمّة من أن تنال

كالمسك ريحا و اللّمى مطعما و التّبر لونا و الهوى فى اعتدال

عتّقها فى الدّنّ خمّارها و البكر لا تعرف غير الحجال

لا تثقب المصباح لا واسقنى على سنا البرق و ضوء الهلال

فالعيش نوم و الرّدى يقظة و المرء ما بينهما كالخيال

خذها على تنغيم مسطارها بين خوابيها و بين الدّوال

فى روضة باكر و سميّها أخمل دارين و أنسى أوال

كأنّ فأر المسك مفتوتة فيها إذا هبّت صبا أو شمال

من كفّ ساجى الطرف ألحاظه مفوّقات أبدا للنضال

من عاذرى و الكلّ لى عاذر من حسن الوجه قبيح الفعال

من خلّبىّ الوعد كذّابه ليّان لا يعرف غير المطال

كأنه الدهر و أىّ امرئ يبقى على الدهر إذا الدهر حال

أما ترانى آخذا ناقضا عليه ما سوّفنى من محال

و لم أكن قطّ له عائبا كمثل ما عابته قبلى رجال

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۰۰

يأبى ثراء المال علمى، و هل يجتمع الضّدّان: علم و مال

و تأنف الأرض مقامى بها حتى تهادانى ظهور الرحال

لو لا بنو زيّان ما لذّلى ال عيش و لا هانت علىّ الليال

هم خوّفوا الدهر و هم خفّفوا على بنى الدنيا خطاه الثقال

لقيت من عامرهم سيّدا غمر رداء الحمد جمّ النوال

و كعبة للجود منصوبة يسعى إليها الناس من كلّ بال

خذها أبا زيان من شاعر مستملح النزعة عذب المقال

يلتفظ الألفاظ لفظ النوى و ينظم الآلاء نظم اللآل

مجاريا مهيار فى قوله (ما كنت لو لا طمعى فى الخيال)

و قصيدة مهيار مطلعها: [السريع]

ما كنت لو لا طمعى فى الخيال أنشد ليلى بين طول الليال

و من نظم ابن خميس قوله: [الكامل]

نظرت إليك بمثل عينى جؤذر و تبسّمت عن مثل سمطى جوهر

عن ناصع كالدرّ أو كالبرق أو كالطّلع أو كالأقحوان مؤشر

تجرى عليه من لماها نطفة بل خمرة لكنها لم تعصر

لو لم يكن خمرا سلافا ريقها تزرى و تلعب بالنّهى لم تخطر

و كذاك ساجى جفنها لو لم يكن فيه مهنّد لحظها لم يحذر

لو عجت طرفك فى حديقة خدّها و أمنت سطوة صدغها المتنمّر

لرتعت من ذاك الحمى فى جنة و كرعت عن ذاك اللّمى فى كوثر

طرقتك و هنا و النجوم كأنها حصباء درّ فى بساط أخضر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۰۱

و الركب بين مصعّد و مصوّب و النوم بين مسكّن و منفّر

بيضا إذا اعتكرت ذوائب شعرها سفرت فأزرت بالصباح المسفر

سرحت غلائلها فقلت سبيكة من فضّة أو دمية من مرمر

منحتك ما منعتك يقظانا فلم تخلف مواعدها و لم تتغيّر

و كأنما خافت بغاة و شاتها فأتتك من أردافها فى عسكر

و بجزع ذاك المنحنى أدمانة تعطو فتسطو بالهزبر القسور

و تحية جاءتك فى طىّ الصّبا أذكى و أعطر من شميم العنبر

جرّت على واديك فضل ردائها فعرفت فيها عرف ذاك الإذخر

هاجت بلابل نازح عن إلفه متشوّق ذاكى الحشا متسعّر

و إذا نسيت ليالى العهد التى سلفت لنا فتذكّريها تذكرى

رحنا تغنّينا و نرشف ثغرها و الشمس تنظر مثل عين الأخزر

و الروض بين مفضّض و معسجد و الجوّ بين ممسّك و معصفر

و كان السلطان أمير المؤمنين أبو عنان المرينى- رحمه اللّه تعالى!- كثير العناية بنظم ابن خميس و روايته، قال رحمه اللّه تعالى: أنشدنا القاضى خطيب حضرتنا العليّة أبو عبد اللّه محمد بن عبد الرزاق بقصر المصارة يمنه اللّه قال: أنشدنا بلفظه شيخ الأدباء و فحل

الشعراء، أبو عبد اللّه بن خميس لنفسه: [الطويل]

أنبت و لكن بعد طول عتاب و فرط لجاج ضاع فيه شبابى

و ما زلت و العياء تعنى غريمها أعلّل نفسى دائما بمتاب

و هيهات من بعد الشباب و شرخه يلذّ طعامى أو يسوغ شرابى

خدعت بهذا العيش قبل بلائه كما يخدع الصادى بلمع سراب

تقول هو الشهد المشور جهالة و ما هو إلّا السمّ شيب بصاب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۰۲

و ما صحب الدنيا كبكر و تغلب و لا ككليب رىء فحل ضراب

إذا كعّت الأبطال عنها تقدّموا أعاريب غرّا فى متون عراب

و إن ناب خطب أو تفاقم معضل تلقّاه منهم كلّ أصيد ناب

تراءت لجسّاس مخيلة فرصة تأتّت له فى جيئة و ذهاب

فجاء بها شوهاء تنذر قومها بتشييد أرجام و هدم قباب

و كان رغاء الصقب فى قوم صالح حديثا فأنساه رغاء سراب

فما تسمع الآذان فى عرصاتهم سوى نوح ثكلى أو نعيب غراب

و سل عروة الرّحّال عن صدق بأسه و عن بيته فى جعفر بن كلاب

و كانت على الأملاك منه وفادة إذا آب منها آب خير مآب

يجير على الحيين قيس و خندف بفضل يسار أو بفصل خطاب

زعامة مرجو النوال مؤمّل و عزمة مسموع الدعاء مجاب

فمرّ يزجّيها حواسر ظلّعا بما حملوها من منّى و رغاب

إلى فدك و الموت أغرب غاية و هذا المنى يأتى بكلّ عجاب

تبرّض صفو العيش حتى استشفه فداف له البرّاض قشف حباب

فأصبح فى تلك المعاطف نهزة لنهب ضباع أو لنهس ذئاب

و ما سهمه عند النضال بأهزع و لا سيفه عند الصراع بنابى

و لكنها الدنيا تكرّ على الفتى و إن كان منها فى أعزّ نصاب

و عادتها أن لا توسّط عندها فإمّا سماء أو تخوم تراب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۰۳

فلا ترج من دنياك ودّا و إن يكن فما هو إلّا مثل ظلّ سحاب

و ما الحزم كلّ الحزم إلّا اجتنابها فأشقى الورى من تصطفى و تحابى

أبيت لها، ما دام شخصى، أن ترى تمرّ ببابى أو تطور جنابى

فكم عطلت من أربع و ملاعب و كم فرقت من أسرة و صحاب

و كم عفّرت من حاسر و مدجّج و كم أثكلت من معصر و كعاب

إليكم بنى الدنيا نصيحة مشفق عليكم بصير بالأمور نقاب

طويل مراس الدهر جذل مماحك عريض مجال الهمّ جلس ركاب

تأتّت له الأهوال أدهم سابقا و غصّت به الأيام أشهب كابى

و لا تحسبوا أنى على الدهر عاتب فأعظم ما بى أيسر ما بى

و ما أسفى إلّا شباب خلعته و شيب أبى إلّا نصول خضاب

و عمر مضى لم أحل منه بطائل سوى ما خلا من لوعة و تصابى

ليالى شيطانى على الغىّ قادر و أعذب ما عندى أليم عذاب

عكسنا قضايانا على حكم عادنا و ما عكسها عند النّهى بصواب

على المصطفى المختار أزكى تحيّة فتلك التى أعتدّ يوم حساب

فتلك عتادى أو ثناء أصوغه كدرّ سحاب أو كدرّ سخاب

و من مشهور نظم ابن خميس قوله: [الكامل]

عجبا لها أ يذوق طعم وصالها من ليس يأمل أن يمرّ ببالها

و أنا الفقير إلى تعلة ساعة منها، و تمنعنى زكاة جمالها

كم ذاد عن عينى الكرى متألق يبدو و يخفى فى خفىّ مطالها

يسمو لها بدر الدّجى متضائلا كتضاؤل الحسناء فى أسمالها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۰۴

و ابن السبيل يجىء يقبس نارها ليلا فتمنحه عقيلة مالها

يعتادنى فى النوم طيف خيالها فتصيبنى ألحاظها بنبالها

كم ليلة جادت به فكأنما زفّت علىّ ذكاء وقت زوالها

أسرى فعطّلها و عطّل شهبها بأبى شذا المعطار من معطالها

و سواد طرّته كجنح ظلامها و بياض غرّته كضوء هلالها

دعنى أشم بالوهم أدنى لمعة من ثغرها و أشمّ مسكة خالها

ما راد طرفى فى حديقة خدّها إلّا لفتنته بحسن دلالها

أ نسيب شعرى رقّ مثل نسيمها فشمول راحك مثل ريح شمالها

و انقل أحاديث الهوى و اشرح غرى لغاتها و اذكر ثقات رجالها

و إذا مررت برامة فتوقّ من أطلائها و تمشّ فى أطلالها

و انصب لمغزلها حبالة قانص ودع الكرى شركا لصيد غزالها

و أسل جداولها بفيض دموعها و انضح جوانحها بفضل سجالها

أنا من بقيّة معشر عركتهم هذى النوى عرك الرّحى بثفالها

أكرم بها فئة أريق نجيعها بغيا فراق العين حسن مآلها

حلّت مدامة وصلها و حلت لهم فإن انتشوا فبحلوها و حلالها

بلغت بهرمس غاية ما نالها أحد وناء لها لبعد منالها

وعدت على سقراط سورة كأسها فهريق ما فى الدنّ من جريالها

و سرت إلى فاراب منها نفحة قدسيّة جاءت بنخبة آلها

ليصوغ من ألحانه فى حانها ما سوّغ القسيس من أرمالها

و تغلغلت فى سهرورد فأسهرت عينا يؤرّقها طروق خيالها

فخبا شهاب الدين لمّا أشرقت و خوى فلم يثبت لنور جلالها

ما جنّ مثل جنونه أحد، و لا سمحت يد بيضا بمثل نوالها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۰۵

و بدت على الشّوذىّ منها نشوة ما لاح منها غير لمعة آلها

بطلت حقيقته و حالت حاله فيما يعبّر عن حقيقة حالها

هذى صبابتهم ترقّ صبابة فيروق شاربها صفاء زلالها

و هى طويلة.

قال السلطان أبو عنان رحمه اللّه تعالى: أخبرنى شيخنا الإمام العالم العلامة وحيد زمانه أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم الأبلى، رحمه اللّه تعالى، قال: لمّا توجّه الشيخ الصالح الشهير أبو إسحاق التنيسى من تلمسان إلى بلاد المشرق اجتمع هنالك بقاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد، فكان من قوله له: كيف حال الشيخ العالم أبى عبد اللّه بن خميس؟ و جعل يحليه بأحسن الأوصاف، و يطنب فى ذكر فضله، فبقى الشيخ أبو إسحاق متعجّبا، و قال: من يكون هذا الذى حلّيتموه بهذا الحلى و لا أعرفه ببلده؟ فقال له هو القائل:

عجبا لها أ يذوق طعم وصالها

قال: فقلت له: إنّ هذا الرجل ليس عندنا بهذه الحالة التى وصفتم، إنما هو عندنا شاعر فقط، فقال له: إنكم لم تنصفوه، و إنه لحقيق بما وصفناه به.

قال السلطان: و أخبرنا شيخنا الأبلى المذكور أنّ قاضى القضاة ابن دقيق العيد كان قد جعل القصيدة المذكورة بخزانة كانت له تعلو موضع جلوسه للمطالعة، و كان يخرجها من تلك الخزانة، و يكثر تأمّلها و النظر فيها، و لقد تعرّفت أنه لما وصلت هذه القصيدة إلى قاضى القضاة تقى الدين المذكور لم يقرأها حتى قام إجلالا لها؛ انتهى.

و كان ابن خميس، رحمه اللّه تعالى- بعد مفارقة بلده تلمسان، سقى اللّه أرجاءها أنواء نيسان!- كثيرا ما يتشوّق لمشاهدتها، و يتأوّه عند تذكّره لمعاهدها، و ينشد القصائد الطّنانة فى ذلك، سالكا من الحنين إليها المسالك، فمن ذلك قوله: [الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۰۶

تلمسان لو أنّ الزمان بها يسخو منى النفس لا دار السلام و لا الكرخ

و دارى بها الأولى التى حيل دونها مثار الأسى لو أمكن الحنق اللبخ

و عهدى بها و العمر فى عنفوانه و ماء شبابى لا أجين و لا مطخ

قرارة تهيام، و مغنى صبابة و معهد أنس لا يلذّ به لطخ

إذ الدهر مثنىّ العنان منهنه و لا ردع يثنى من عنانى و لا ردخ

ليالى لا أصغى إلى عذل عاذل كأنّ وقوع العذل فى أذنى صمخ

معاهد أنس عطّلت فكأنها ظواهر ألفاظ تعمّدها النسخ

و أربع آلاف عفا بعض آيها كما كان يعرو بعض ألواحنا اللطخ

فمن يك سكرانا من الوجد مرة فإنى منه طول دهرى لملتخّ

و من يقتدح زندا لموقد جذوة فزند اشتياقى لا عفار و لا مرخ

أ أنسى وقوفى لاهيا فى عراصها و لا شاغل إلّا التودّع و السّبخ

و إلّا اختيالى ماشيا فى سماطها رخيّا كما يمشى بطرّته الرّخّ

و إلّا فعدوى مثل ما ينفر الطّلا وليدا و حجلى مثل ما ينهض الفرخ

كأنى فيها أردشير بن بابك و لا ملك لى إلّا الشبيبة و الشرخ

و إخوان صدق من لداتى كأنهم جآذر رمل لا عجاف و لا بزخ

وعاة لما يلقى إليهم من الهدى و عن كل فحشاء و منكرة صلخ

هم القوم كلّ القوم سيّان فى العلا شبابهم الفرغان و الشيخة السّلخ

مضوا و مضى ذاك الزمان و أنسه و مرّ الصّبا و المال و الأهل و البذخ

كأن لم يكن يوما لأقلامهم بها صرير، و لم يسمع لأكعبهم جبخ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۰۷

و لم يك فى أرواحها من ثنائهم شميم و لا فى القضب من لينهم ملخ

و لا فى محيّا الشمس من هديهم سنا و لا فى جبين البدر فى طيبهم ضمخ

سعيتم بنى عمّور فى شتّ شملنا فما تجركم ربح و لا عيشنا ربخ

دعيتم إلى ما يرتجى من صلاحكم فردّكم عنه التعجرف و الجمخ

تعاليتمو عجبا فطمّ عليكم عباب له فى رأس عليائكم جلخ

و أوغلتمو فى العجب حتى هلكتم جماح غواة ما ينهنههم قفخ

كفاكم بها سجنا طويلا و إن يكن هلاك لكم فيها فهى لكم فخّ

فكم فئة منّا ظفرتم بنيلها بأبشارها من حجن أظفاركم برخ

كأنّكمو من خلفها و أمامها أسود غياض و هى ما بينكم أرخ

فللسّوق منها القيد إن هى أغربت و للهام إن لم تعط ما رعت النقخ

كأن تحتها من شدّة القلق القطا و من فوقها من شدّة الحذر الفتخ

و أقرب ما تهذى به الهلك و التوى و أيسر ما تشكو به الذلّ و الفنخ

فماذا عسى نرجوه من لمّ شعثها و قد حزّ منها الفرع و اقتلع الشّلخ

و ما يطمع الراجون من حفظ آيها و قد عصفت فيها رياحهم الثبخ

زعانف أنكاد لئام عناكل متى قبضوا كفّا على إثره طخّوا

و لمّا استقلّوا من مهاوى ضلالهم و أوموا إلى أعلام رشدهم زخّوا

دعاهم أبو يعقوب للشرف الذى يذلّ له رضوى و يعنو له دمخ

فلم يستجيبوه فذاقوا و بالهم و ما لامرىء عن أمر خالقه نخّ

و ما زلت أدعو للخروج عليهم و قد يسمع الصمّ الدعاء إذا أصخوا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۰۸

و أبذل فى استئصالهم جهد طاقتى و ما لظنابيب ابن سابحة قفخ

تركت لمينا سبتة كلّ نجعة كما تركت للعزّ أهضامها شمخ

و آليت أن لا أرتوى غير مائها و لو حلّ لى فى غيره المنّ و المذخ

و أن لا أحطّ الدهر إلّا بعقرها و لو بوّأتنى دار إمرتها بلخ

فكم نقعت من غلّة تلكم الإضى و كم أبرأت من علّة تلكم اللبخ

و حسبى منها عدلها و اعتدالها و أبحرها العظمى و أريافها النفخ

و أملاكها الصّيد المقاولة الألى لعزّهم تعنو الطراخمة البلخ

كواكب هدى فى سماء رياسة تضىء فما يدجو ضلال و لا يطخو

ثواقب أنوار ترى كلّ غامض إذا الناس فى طخياء غيّهم التخّوا

و روضات آداب إذا ما تأرّجت تضاءل فى أفياء أفنانها الرمخ

مجامر ندّ فى حدائق نرجس تنمّ و لا لفح يصيب و لا دخ

و أبحر علم لا حياض رواية فيكبر منها النضح أو يعظم النضخ

بنو الغرفيين الألى من صدورهم و أيديهم تملا القراطيس و الطرخ

إذا ما فتى منهم تصدّى لغاية تأخّر من ينحو و أقصر من ينخو

رياسة أخيار و ملك أفاضل كرام لهم فى كلّ صالحة رضخ

إذا ما بدا منّا جفاء تعطّفوا علينا، و إن حلّت بنا شدّة رخّوا

نزورهم حذّا نحافا فننثنى و أجمالنا دلح و أبدادنا دلخ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۰۹

يربّوننا بالعلم و الحلم و النّهى فما خرجنا بزّ و لا حدّنا برخ

و ما الزهد فى أملاك لخم و لا التّقى ببدع، و للدنيا لزوق بمن يرخو

و إلّا ففى ربّ الخورنق غنية فما يومه سرّ و لا صيته رضخ

تطلّع يوما و السدير أمامه و قد نال منه العجب ما شاء و الجفخ

و عنّ له من شيعة الحقّ قائم بحجّة صدق لا عبام و لا وشخ

فأصبح يجتاب المسوح زهادة و قد كان يؤذى بطن أخمصه النخّ

و فى واحد الدنيا أبى حاتم لنا دواء، و لكن ما لأدوائنا نتخ

تخلّى عن الدنيا تخلى عارف يرى أنها فى ثوب نخوته لتخ

و أعرض عنها مستهينا لقدرها فلم يثنه عنها اجتذاب و لا مصخ

فكان له من قلبها الحبّ و الهوى و كان لها من كفّه الطرح و الطخّ

و ما معرض عنها و هى فى طلابه كمن فى يديه من معاناتها نبخ

و لا مدرك ما شاء من شهواتها كمن حظّه منها التمجّع و النجخ

و لكننا نعمى مرارا عن الهدى و نصلج حتى ما لآذاننا صمخ

و ما لامرىء عمّا قضى اللّه مزحل و لا لقضاء اللّه نقض و لا فسخ

أبا طالب لم تبق شيمة سؤدد يساد بها إلّا و أنت لها سنخ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۱۰

تسوّغت أبناء الزمان أياديا لدرّتها فى كلّ سامعة شخّ

و أجريتها فيهم عوائد سؤدد فما لهم كسب سواها و لا نخّ

غذتهم غواديها فهى فى عروقهم دماء، و فى أعماق أعظمهم مخّ

و عمّتهم حزنا و سهلا فأصبحوا و مرعاهم وزخ و مرعيهم ولخ

بنى الغرفيين أبلغوا ما أردتم فما دون ما تبغون و حل و لا زلخ

و لا تقعدوا عمّن أراد سجالكم فما غربكم جفّ و لا غرفكم وضخ

و خلّوا وراء كلّ طالب غاية و تيهوا على من رام شأوكم و انخوا

و لا تذروا الجوزاء تعلو عليكم ففى رأسها من وطء أسلافكم شدخ

لأفواه أعدائى و أعين حسّدى إذا جليت خائيتى الغضّ و الفضخ

دعوها تهادى فى ملاءة حسنها ففى نفسها من مدح أملاكها مدخ

يمانيّة زارت يمانين فانثنت و قد جدّ فيها الزهو و استحكم الزمخ

و قد بسط فى «الإحاطة» ترجمة ابن خميس المذكور، و ممّا أنشد له قوله: [الطويل]

سل الريح إن لم تسعد السفن أنواء فعند صباها من تلمسان أنباء

و فى خفقان البرق منها إشارة إليك بما تنمى إليها و إيماء

تمرّ الليالى ليلة بعد ليلة و للأذن إصغاء و للعين إكلاء

و إنى لأصبو للصّبا كلّما سرت و للنجم مهما كان للنجم إصباء

و أهدى إليها كلّ يوم تحيّة و فى ردّ إهداء التحيّة إهداء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۱۱

و أستجلب النوم الغرار و مضجعى قتاد كما شاءت نواها و سلّاء

لعلّ خيالا من لدنها يمرّ بى ففى مرّه بى من جوى الشوق إبراء

و كيف خلوص الطّيف منها و دونها عيون لها فى كلّ طالعة راء

و إنّى لمشتاق إليها و منبئ ببعض اشتياقى لو تمكّن إنباء

و كم قائل تفنى غراما بحبّها و قد أخلقت منها ملاء و أملاء

لعشرة أعوام عليها تجرّمت إذا ما مضى قيظ بها جاء إهراء

يطنّب فيها عائثون و خرّب و يرحل عنها قاطنون و أحياء

كأنّ رماح الناهبين لملكها قداح، و أموال المنازل أبداء

فلا تبغين فيها مناخا لراكب فقد قلّصت منها ظلال و أفياء

و من عجب أن طال سقمى و نزعها و قسّم إضناء علينا و إطناء

و كم أرجفوا غيظا بها ثم أرجؤوا فيكذب إرجاف و يصدق إرجاء

يردّدها عيّابها الدهر مثل ما يردّد حرف الفاء فى النطق فأفاء

فيا منزلا نال الردى منه ما اشتهى ترى هل لعمر الأنس بعدك إنساء

و هل للظى الحرب التى فيك تلتظى إذا ما انقضت أيام بؤسك إطفاء

و هل لى زمان أرتجى فيه عودة إليك و وجه البشر أزهر وضّاء

و منها:

أحنّ لها ما أطّت النّيب حولها و ما عاقها عن مورد الماء أظماء

فما فاتها منّى نزاع على النّوى و لا فاتنى منها على القرب إجشاء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۱۲

كذلك جدّى فى صحابى و أسرتى و من لى به فى أهل ودّى إن فاؤوا

و لو لا جوار ابن الحكيم محمد لما فات نفسى من بنى الدهر إقماء

حمانى فلم تنتب محلّى نوائب بسوء و لم ترزأ فؤادى أرزاء

و أكفأ بيتى فى كفالة جاهه فصاروا عبيدا لى و هم لى أكفاء

يؤمّون قصدى طاعة و محبّة فما عفته عافوا و ما شئته شاؤوا

دعانى إلى المجد الذى كنت آملا فلم يك لى عن دعوة المجد إبطاء

و بوّأنى من هضبة العزّ تلعة يناجى السّها منها صعود و طأطاء

يشيّعنى منها إذا سرت حافظ و يكلؤنى منها إذا نمت كلاء

و لا مثل نومى فى كفالة غيره و للذئب إلمام و للصّلّ إلماء

بغيضة ليث أو بمرقب خالب تبزّ كسا فيه و تقطع أكساء

إذا كان لى من نائب الملك كافل ففى حيثما هوّمت كنّ و إدفاء

و إخوان صدق من صنائع جاهه يبادرنى منهم قيام و إيلاء

سراع لما يرجى من الخير عندهم و من كلّ ما يخشى من الشّرّ أبراء

إليك أبا عبد الإله صنعتها لزوميّة فيها لوجدى إفشاء

مبرّأة ممّا يعيب لزومها إذا عاب إكفاء سواها و إيطاء

أذعت بها السّرّ الذى كان قبلها عليه لأحناء الجوانح إضناء

و إن لم يكن كلّ الذى كنت آملا و أعوز إكلاء فما عاز إكماء

و من يتكلّف مفحما شكر منّة فما لى إلى ذاك التكلّف إلجاء

إذا منشد لم يكن عنك و منشئ فلا كان إنشاد و لا كان إنشاء

[عود إلى ترجمة ابن الفخار، و ذكر فوائده]

رجع إلى ترجمة ابن الفخار و فوائده:

قال الشاطبى: حدّثنا الأستاذ الكبير أبو عبد اللّه بن الفخار قال: جلس بعض الطلبة إلى بعض الشيوخ المقرئين، فأتى المقرئ بمسألة الزوائد الأربع فى أوّل الفعل المضارع، و قال:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۱۳

يجمعها قولك «نأيت» فقال له ذلك الطالب: لو جمعتها بقولك «أنيت» لكان أملح، ليكون كلّ حرف تضعيف ما قبله، فالهمزة لواحد و هو المتكلّم، و النون لاثنين و هما: الواحد و معه غيره، و الواحد المعظم نفسه، و الياء لأربعة: للواحد الغائب، و للغائبين، و للغائبين، و للغائبات، و التاء لثمانية: للمخاطب، و للمخاطبين، و للمخاطبين، و المخاطبة، و المخاطبتين، و المخاطبات، و للغائبة، و للغائبتين، فاستحسن الشيخ ذلك منه.

و حكى الشاطبى أيضا أنّ شيخه ابن الفخار أورد عليهم سؤالا، و هو: كيف يجمع بين مسألة رجل أوقع الصلاة بثوب حرير اختيارا و بين قوله: [الوافر]

جرى الدّميان بالخبر اليقين

فلم ينقدح لنا شىء، فقال: الجواب أنّ الأوّل ممنوع عند الفقهاء شرعا، ورد اللام فى دم فى التثنية ممنوع عند النحاة قياسا، و كلاهما

فى حكم المعدوم حسّا، و إذا كان كذلك كان الأوّل بمنزلة من صلّى بادى العورة اختيارا، فتلزمه الإعادة، و كان الثانى بمنزلة ما باشر فيه عين دم علم التثنية، فتلزمه الفتحة، و إن كان أصلها السكون، قال: و هذه المسألة تشبه مسألة ابن جنى فى الخصائص، قال: ألقيت يوما على بعض من كان يعتادنى مسألة فقلت له: كيف تجمع بين قوله: [الكامل]

لدن بهزّ الكفّ يعسل متنه فيه كما عسل الطريق الثّعلب

و بين قوله «اختصم زيد و عمرو»؟ فلم ينقدح له فيها شىء، و عاد مستفهما، فقال له:

اجتماعهما أنّ الواو اقتصر به على بعض ما وضع له من الصلاحية الملازمة مطلقا، و الطريق اقتصر به على بعض ما كان يصلح له.

قال الشاطبى: و حدّثنى أيضا قال: كان لقاضى القضاة علما و جزالة أبى جعفر ولد يقرأ علىّ بمالقة، و كان ابنا نبيها فهما و نبلا، فسأل منى يوما مسألة يذكرها لأقرانه، و كان معجبا بالغرائب، فجرى على لسانى أن قلت له: بينّ على زيد فعل أمر و فاعل، و الأصل ابأينّ على زيد، ثم سهل بالنقل و الحذف، على قياس التسهيل، فصار بينّ كما ترى، فأعجب بالمسألة حتى ناظر فيها ليلة أباه، و كان أنحى نحاة أهل عصره، فأعجب ممّا يرى من ابنه من النبل و التحصيل، فبلغت المسألة الشيخ الأستاذ أبا بكر بن الفخار، رحمه اللّه تعالى، فاعتنى بها،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۱۴

و حاول فى استخراج وجه من وجوه الاعتراض على عادة المصلحين من طلبة العلم، فوجد فى «مختصر العين» أنّ الكلمة من ذوات الواو، و لم يذكر صاحب المختصر غير ذلك، و لم يكن، رحمه اللّه تعالى، رأى قول أبى الحسن اللحيانى فى نوادره: إنه ممّا يتعاقب على لامه الواو و الياء فيقال: بأى يبأى بأوا و بأيا، كما يقال شأى يشأى شأوا و شأيا، فلم يقدم شيئا على أن اجتمع بالقاضى المذكور فقال له: أ لم تسمع ما قال فلان بينّ على زيد و إنما هو بونّ على زيد؛ لأنه من ذوات الواو، و نصّ على ذلك صاحب المختصر، و حمله على أن يرسل إلى و يردنى عن ذلك الذى قلته فى المسألة، و اجتمعت أنا معه، و حدّثنى بما جرى له مع الأستاذ ابن الفخار، فذكرت له ما حكاه أبو الحسن اللّحيانى فى نوادره، و ما قاله ابن جنى فى «سرّ الصناعة»، فسرّ بذلك، و أرسل بعد إلى الأستاذ ابن الفخار، و ذكر له نصّ اللحيانى و قول ابن جنى و جمع القاضى بيننا، و عقد فى قلوبنا مودّة، فكان الأستاذ ابن الفخار يومئذ يقصدنى فى منزلى، و فى المواسم، و يستشيرنى فى أموره على سبيل التأنيس، رحمة اللّه عليه، فأوّاه على فقد الناس أمثاله.

و قال الشاطبى أيضا: أنشدنى الفقيه الأستاذ الكبير أبو عبد اللّه بن الفخار، رحمه اللّه تعالى، و قال: ألقى فى سرى بيت لم أسمعه قطّ فى السادس عشر من شهر رجب عام ستة و خمسين و سبعمائة: [الخفيف]

لتكن راجيا كما أنت ترجو و لأربى من الذى أنت راجى

قال الشاطبى: و قرّر لنا الأستاذ ابن الفخار المذكور يوما توجيه قول أبى الحسن الأخفش فى كسرة الذال من نحو يومئذ إنها إعرابية لا بنائية، إذ لم يذكر أحد وجه هذا المذهب قبل، قال ابن جنى: إنّ الفارسى اعتذر له بما يكاد يكون عذرا، فلمّا تمّ التوجيه قلت له و أنا حينئذ صغير السنّ: هب أنّ الأمر على ما قاله الأخفش من أنّ الكسرة إعرابية، فما يصنع ببناء الزمان المضاف إلى «إذ» فى أحد الوجهين و الإضافة إلى المفرد المعرب تقتضى الإعراب دون البناء؟

فتعجّب من صدور هذا السؤال منى لصغر سنّى، و أجاب عنه بأنه قد يذهب السبب و يبقى حكمه، كما قاله ابن جنى فى اسم الإشارة فى ترجمة سيبويه «هذا علم ما الكلم من العربية» على أن يكون سيبويه وضعه غير مشير به و تركه مبتيا، و أزال سبب البناء، و نظّر ذلك بباب التسوية على ما هو مقرّر فى موضعه، قال: و نظير ذلك ما قرّره من إضافة حيث إلى المفرد مع بقاء البناء فيما ذكره الزمخشرى، و ذلك قوله: [الرجز]

أما ترى حيث سهيل طالعا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۱۵

و قوله أنشدنا ابن الأعرابى لبعض المحدّثين: [الطويل]

و نحن سعينا بالبلايا لمعقل و قد كان منكم حيث لىّ العمائم

و قد كان حقّها أن تعرب لزوال سبب البناء، و هو الإضافة إلى جملة، و حصول سبب الإعراب و هو الإضافة إلى المفرد، و لكنه لم يعتبر النادر، و أبقى الحكم الشائع.

و قال الشاطبى أيضا: كان شيخنا ابن الفخار يأمرنا بالوقف على قوله تعالى فى سورة البقرة قالُوا الْآنَ و نبتدئ جِئْتَ بِالْحَقِ و كان يفسّر لنا معنى ذلك قولهم الآن أى فهمنا و حصل البيان، ثم قيل: جئت بالحقّ، يعنى فى كلّ مرة، و على كل حال، و كان- رحمه اللّه تعالى!- يرى هذا الوجه أولى من تفسير ابن عصفور له من أنه على حذف الصفة، أى: بالحقّ البيّن، و كان يحافظ عليه.

[أبو محمد عبد اللّه بن عبد اللّه بن حذلم، و ذكر نموذج من شعره]

و قال الشاطبى: أنشدنى صاحبنا الفقيه الأجلّ الأديب البارع أبو محمد بن حذلم لنفسه أبياتا، أنشدنيها يوم عيد على قبر سيّدنا الإمام الأستاذ الكبير الشهير أبى عبد اللّه بن الفخار يرثيه بها: [الطويل]

أيا جدثا قد أحرز الشرف المحضا بأن صار مثوى السّيّد العالم الأرضى

عجبت لما أحرزته من معارف و شتى معال لم تزل تعمر الأرضا

طويت عليه و هو عين زمانه فيا جفن عين الدهر كم تؤثر الغمضا

فحيّاك من صوب الحيا كلّ ديمة تديم له فى الجنّة الرفع و الخفضا

فها نحن فى عيد الأسى حول قبره وقوفا لنقضى من عيادته الفرضا

كمثل الذى كنّا وقوفا ببابه بعيد الأمانى زائرين له أيضا

و منّا سلام لا يزال يخصّه يذكّره من بعض أشواقنا البعضا

قلت: و ابن حذلم المذكور له باع مديد فى العلم و الأدب، و هو أبو محمد عبد اللّه بن عبد اللّه بن حذلم، و من نظمه قوله: [الكامل]

أبت المعارف أن تنال براحة إلّا براحة ساعد الجدّ

فإذا ظفرت بها فلست بمدركك أربا بغير مساعد الجدّ

و قوله رحمه اللّه: [السريع]

كم من صديق حال فى ودّه و لم أزل أرويه عن محضه

حضوره عين على ودّه و غيبه عين على بغضه

و لم أكن أجهل هذا و لا عجزت أن أجرى على قرضه

لكنّ من قد سرّنى بعضه أحبّ أن أصفح عن بعضه

و قوله، رحمه اللّه، يوم عيد، و هو ممّا ألهج به أنا كثيرا: [المتقارب]

يقولون لى خلّ عنك الأسى ولذ بالسرور فذا يوم عيد

فقلت لهم و الأسى غالب و وجدى يحيى و شوقى يزيد

توعّدنى مالكى بالفراق فكيف أسرّ وعيدى وعيد

و قوله رحمه اللّه: [الوافر]

حبيب زارنى فى الليل سرّا فأحيا نفس مشتاق إليه

و علّلنى بنشر المسك منه و حيّانى بصفحة وجنتيه

و عانقنى عناق الودّ صفحا و فارقنى فيا لهفى عليه

[وفاة ابن الفخار]

رجع- و توفى الأستاذ سيبويه زمانه أبو عبد اللّه محمد بن على بن الفخار أستاذ الجماعة بغرناطة ليلة الاثنين ثانى عشر رجب عام أربعة و خمسين و سبعمائة، رحمه اللّه تعالى!.

رجع- إلى مشايخ لسان الدين رحمه اللّه تعالى.

[من مشايخ لسان الدين أبو عبد اللّه بن عبد الولى العواد]

و منهم الأستاذ ابن العوّاد- قال فى «الإحاطة»: قرأت كتاب اللّه، عزّ و جلّ، على المكتّب نسيج وحده، فى تحمّل المنزّل حقّ حمله، تقوى، و صلاحا و خصوصيّة، و إتقانا و نغمة و عناية و حفظا و تبحّرا فى هذا الفن، و اضطلاعا بغرائبه، و استيعابا لسقطات الأعلام،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۶؛ ص۳۱۶

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۱۷

الأستاذ الصالح أبى عبد اللّه بن عبد الولى العوّاد تكتيبا ثم حفظا، ثم تجويدا، على مقرأ أبى عمرو، ثم نقلنى إلى أستاذ الجماعة، و مطيّة الفنون، و مفيد الطلبة، الشيخ الخطيب المتفنن أبى الحسن على القيجاطى، فقرأت عليه القرآن و العربية، و هو أوّل من انتفعت به؛ انتهى.

[و منهم أبو عبد اللّه بن بيبش]

و من أشياخه، رحمه اللّه الشيخ العلامة أبو عبد اللّه بن بيبش، و له، رحمه اللّه تعالى، نظم جيد، فمنه قوله ملغزا فى مسطرة الكتابة: [الطويل]

و مقصورة خلف الحجاب و سرّها مضاع، فما يلقاك من دونها ستر

لها جثة بيضاء أسبل فوقها ذوائب زانتها، و ليس لها شعر

إذا ألبست مثل الصباح و برقعت رأيت سواد الليل لم يمحه الفجر

عقيلة صون لا يفرّق شملها سوى من أهمته الخطابة و الشّعر

و قوله فى ترتيب حروف الصحاح: [الطويل]

أ ساجعة بالواديين تبوّئى ثمارا جنتها حاليات خواضب

دعى ذكر روض زاره سقى شربه صباح ضحى طير ظماء عواصب

غرام فؤادى قاذف كلّ ليلة متى ما نأى وهنا هداه يراقب

و له جواب عن البيتين المشهورين: [مخلع البسيط]

يا ساكنا قلبى المعنّى و ليس فيه سواك ثانى

لأىّ معنى كسرت قلبى و ما التقى فيه ساكنان

فقال: [مخلع البسيط]

نحلتنى طائعا فؤادا فصار إذ حزته مكانى

لا غرو إذ كان لى مضافا أنّى على الكسر فيه بانى

و قد ذكرت ذلك فى غير هذا الموضع مع زيادة بلفظ لسان الدين، فليراجع فى الباب الخامس من هذا الكتاب.

و من أشياخ لسان الدين، رحمه اللّه تعالى، قاضى الجماعة الصدر المتفنّن أبو عبد اللّه بن أبى بكر؛ قال فى «الإحاطة» و قرأت على قاضى الجماعة أبى عبد اللّه بن أبى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۱۸

بكر، رحمه اللّه تعالى؛ انتهى.

[و منهم قاضى الجماعة أبو عبد اللّه بن أبى بكر، الأشعرى، المالقى]

و قاضى الجماعة عند المغاربة هو بمعنى قاضى القضاة عند المشارقة، فليعلم ذلك.

و ابن أبى بكر المذكور هو محمد بن يحيى بن محمد بن أحمد بن بكر بن سعد الأشعرى المالقى، من ذرية أبى موسى الأشعرى، كان من صدور العلماء، و أعلام الفضلاء، سذاجة و نزاهة و معرفة و تفنّنا، فسيح الدرس، أصيل النظر، واضح المذهب، مؤثرا للإنصاف، عارفا بالأحكام و القراءة، مبرّزا فى الحديث تاريخا و إسنادا و تعديلا و جرحا، حافظا للأنساب و الأسماء و الكنى، قائما على العربية، مشاركا فى الأصول و الفروع، و اللغة و العروض و الفرائض و الحساب، مخفوض الجناح، حسن الخلق، عطوفا على الطلبة، محبّا فى العلم و العلماء، مطّرحا للتصنّع، عديم المبالاة بالملبس، بادى الظاهر، عزيز النفس، نافذ الحكم، تقدّم ببلده مالقة، ناظرا فى أمور العقد و الحلّ و مصالح الكافة. ثم ولّى القضاء بها، فأعزّ الخطّة، و ترك الشوائب، و أنفذ الحق ملازما للقراءة و الإقراء، محافظا للأوقات، حريصا على الإفادة. ثم ولّى القضاء بغرناطة المحروسة، سنة ۷۳۷، فقام بالوظائف و صدع بالحق، و بهرج الشهود، فزيّف منهم ما ينيف على سبعين، و استهدف بذلك إلى معاداة و مناضلة خاض ثبجها، و صادم تيّارها، غير مبال بالمغبّة، و لا حافل بالتّبعة، فناله لذلك من المشقّة و الكيد العظيم ما نال مثله، حتى كان لا يمشى إلى الصلاة ليلا، و لا يطمئنّ على حاله.

و جرت له فى ذلك حكايات، إلى أن عزم عليه الأمير أن يردّ للعدالة بعض من أخّره، فلم يجد فى قناته مغمزا، و لا فى عوده معجما، و تصدّر لبثّ العلم بالحضرة، يقرئ فنونا جمّة، فنفع، و خرّج، و أقرأ القرآن، و درّس الفقه و الأصول و العربية و الفرائض و الحساب، و عقد مجالس الحديث شرحا و سماعا على انشراح صدر، و حفظ تجمّل، و خفض جناح. قال القاضى ابن الحسن: إنه كان صاحب عزم و مضاء، و حكم صادع، و قضاء، أحرق قلوب الحسدة، و أعز الخطّة بإزالة الشوائب، و ذهّب و فضّض الحقّ بمعارفه، و نفذ فى المشكلات، و ثبت فى المعضلات، و احتج و بكّت، و تفقّه و نكّت.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۱۹

و حدّثنا صاحبنا أبو جعفر الشّقورى قال: كنت جالسا بمجلس حكمه، فرفعت إليه امرأة رقعة مضمّنها أنها محبّة فى مطلّقها، و تبتغى الشفاعة لها فى ردّها، فتناول الرقعة، و وقّع على ظهرها بلا مهلة: الحمد للّه، من وقف على ما بالقلوب فليصخ لسماعه إصاخة مغيث، و ليشفع للمرأة عند زوجها تأسّيا بشفاعة الرسول صلّى اللّه عليه و سلم، لبريرة فى مغيث. و اللّه يسلم لنا العقل و الدين، و يسلك بنا سبيل المهتدين، و السلام من كاتبه.

قال الشقورى: قال لى بعض الأصحاب: هلّا كان هو الشفيع لها، فقلت: الصحيح أنّ الحاكم لا ينبغى أن يباشر ذلك بنفسه على المنصوص.

قرأ ابن أبى بكر المذكور على الأستاذ ابن أبى السداد الباهلى القرآن جمعا و إفرادا و العربية و الحديث، و لازمه، و تأدّب به، و على الشيخ الصالح أبى عبد اللّه بن عياش كثيرا من كتب الحديث، و سمع عليه جميع صحيح مسلم إلّا دولة واحدة. و أخذ عن الأستاذ أبى جعفر بن الزبير و الخطيب ابن رشيد و الولى الصالح أبى الحسين بن فضيلة، و الأستاذ أبى عبد اللّه بن الكماد، و أجازه العدل الراوية

أبو فارس عبد العزيز بن الهوّارى و أبو إسحاق التلمسانى.

و من أهل إفريقية المعمر أبو محمد بن هارون و محمد بن سيد الناس.

و من أهل مصر الشرف الدمياطى، و جماعة من أهل الشام و الحجاز، فقد رحمه اللّه تعالى فى المصافّ يوم المناجزة بطريف، زعموا أنه وقع عن بغلة ركبها، و أشار عليه بعض المنهزمين بالركوب، فلم يقدر، و قال له: انصرف، هذا يوم الفرح، إشارة لقوله تعالى فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ [آل عمران: ۱۷۰] و ذلك ضحى يوم الاثنين ۷ جمادى الأولى سنة ۷۴۱ رحمه اللّه تعالى!.

[و منهم ابن أبى يحيى، و اسمه إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبى بكر، التسولى]

و من أشياخ لسان الدين ابن الخطيب، رحمه اللّه تعالى، الشيخ أبو إسحاق بن أبى يحيى الشهير الذكر فى المغرب، و قد عرّف به فى «الإحاطة» فى اسم إبراهيم من ترجمة الغرباء بما نصّه: إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبى بكر التسولى، من أهل تازا، يكنى أبا سالم، و يعرف بابن أبى يحيى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۲۰

حاله من الكتاب المؤتمن- كان هذا الرجل قيّما على «التهذيب» و «رسالة ابن أبى زيد»، حسن الإقراء لهما، و له عليهما تقييدان نبيلان قيّدهما أيام قراءته إياهما على أبى الحسن الصّغير، حضرت مجالسه بمدرسة عدوة الأندلس من فاس، و لم أر فى متصدّرى بلده أحسن تدريسا منه. كان فصيح اللسان، سهل الألفاظ، موفيا حقوقها، و ذلك لمشاركته الحضر فيما بأيديهم من الأدوات، و كان مجلسه وقفا على «التهذيب» و «الرسالة»، و كان- مع ذلك- سمحا فاضلا، حسن اللقاء، على خلق بائنة على أخلاق أهل مصره. امتحن بصحبة السلطان، فصار يستعمله فى الرسائل، فمرّ فى ذلك حظّ كبير من عمره ضائعا لا فى راحة دنيا و لا فى نصب آخرة. ثم قال: و هذه سنّة اللّه فيمن خدم الملوك، ملتفتا إلى ما يعطونه، لا إلى ما يأخذون من عمره، و راحته أن يبوء بالصّفقة الخاسرة، لطف اللّه بمن ابتلى بذلك و خلّصنا خلاصا جميلا!.

و من كتاب «عائد الصلة»: الشيخ الفقيه الحافظ القاضى، من صدور المغرب، مشاركة فى العلم، و تبحرا فى الفقه، كان وجيها عند الملوك، صحبهم و حضر مجالسهم و استعمل فى السّفارة، فلقيناه بغرناطة، و أخذنا بها عنه، تام السّراوة، حسن العهد، مليح المجالس، أنيق المحاضرة، كريم الطبع، صحيح المذهب.

تصانيفه- قيّد على «المدوّنة» بمجلس شيخه أبى الحسن كتابا مفيدا، و ضمّ أجوبته على المسائل فى سفر، و شرح كتاب «الرسالة» شرحا عظيم الإفادة.

مشيخته- لازم أبا الحسن الصّغير، و هو كان قارىء كتب الفقه عليه، و جلّ انتفاعه فى التفقّه به، و روى عن أبى زكريا بن يس، قرأ عليه كتاب «الموطأ» إلّا كتاب «المكاتب» و كتاب «المدبّر» فإنه سمعه بقراءة الغير، و عن أبى عبد اللّه بن رشيد، قرأ عليه «الموطأ» و «شفاء» عياض، و عن أبى الحسن بن عبد الجليل السرواتى، قرأ عليه «الأحكام الصغرى» لعبد الحق، و أبى الحسن بن سليمان، قرأ عليه «رسالة ابن أبى زيد»، و عن غيرهم.

وفاته- فلج بأخرة فالتزم منزله بفاس يزوره السلطان و من دونه، و توفى بعد عام ثمانية و أربعين و سبعمائة؛ انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۲۱

و قال ابن الخطيب القسمطينى: إن ابن أبى يحيى المذكور توفى سنة تسع و أربعين و سبعمائة؛ انتهى.

[و منهم محمد بن أحمد الطنجالى الهاشمى]

و من أشياخ لسان الدين الطنجالى الهاشمى، و هو محمد بن أحمد. قال فى «عائد الصلة»: كان على سنن سلفه كثرة حياء، وسمة صلاح، و شدة انقباض، و إفراط وقار و حشمة، بذّ الكهولة على حداثة سنّه فى باب الورع و الدين و الإغراق فى الصلاح و الخير، و تقدّم خطيبا ثم قاضيا ببلده، فأظهر من النزاهة و العدالة ما يناسب منصبه، ففزع الناس إليه فى كائنة الوباء العظيم بأموالهم، و قلّدوه عهود صدقاتهم، فاستقرّ فى يده من المال الصامت و الحلى و الذخيرة و العدّة ما تضيق بيوت أموال الملك عنه و صرف ذلك مصارفه، و وضعه وفق عهوده، فلم يتلبّس منه بنقير و لا قطمير، و كان مدركا أصيل الرأى، قائما على الفرائض و الحساب، ثم تحرج و طلب الإعفاء فأسعف به على حال ضنانة، و فى ذلك يقول قريبه صاحبنا الفقيه القاضى أبو الحسن بن الحسن يخاطبه: [الطويل]

لك اللّه يا بدر السّماحة و البشر رفعت بأعلى رتبة راية الفخر

و لا سيما لمّا وليت أمورها فروّيتها من عذب نائلك الغمر

و دارت قضاياها عليك بأسرها على حين لا برّ يعين على برّ

فقمت بها خير القيام مصمّما على الحقّ تصميم المهنّدة البتر

فسرّ بك الإسلام يا ابن حمامة و أمست بك الأيام باسمة الثغر

تعيد عليك الحمد ألسن حالها و تتلو لما يرضيك من سور الشكر

لذاك أمير المسلمين بعدله أقامك تقضى فى الزمان على جبر

فأحييت رسم العلم بعد مماته و غادرت وجه الحكم أسنى من البدر

و لكنك استعفيت عنه تورّعا و تلك سبيل الصالحين كما تدرى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۲۲

فكم من ولىّ فرّ عنه لعلمه به كأبى الحجاج جدّك من ذخر

فزاد اتّصالا عزّه باجتنابه له و سما قدرا على قنّة النسر

جريت على نهج السلامة فى الذى تبعت له فابشر بأمنك فى الحشر

و أرضاك مولاك الإمام بفضله و أعفاك إعفاء الكرامة و البرّ

فأنت على الحالين أفضل من قضى و أشرف من يعفى إلى آخر الدهر

لما حزت من شتى المعالى التى بها تحليت عن أسلافك السادة الغرّ

صدور مقامات المعارف كلّها بحور النوال الجمّ فى اليسر و العسر

هم النفر الأعلون من آل هاشم و ناهيك من مجد أثيل و من فخر

و هى طويلة: انتهى.

[و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن مرزوق (ترجمته باستفاضة عن لسان الدين)]

و من أشياخ لسان الدين، رحمه اللّه تعالى، الشيخ الإمام الخطيب الرئيس سيدى أبو عبد اللّه بن مرزوق، و لنلخّص ترجمته من «الإحاطة» و غيرها، فنقول: هو محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبى بكر بن مرزوق، العجيسى، التلمسانى، يكنى أبا عبد اللّه، و يلقّب من الألقاب المشرقية بشمس الدين. قال أبو الحسن على بن لسان الدين بن الخطيب فى حقّه: سيدى، و سند أبى، فخر المغرب، و بركة الدول، و علم الأعلام، و مستخدم السيوف و الأقلام، و مولى أهل المغرب على الإطلاق، أبقاه اللّه تعالى و أمتع بحياته و أعاننى على ما يجب فى حقّه! قاله تربيته و ولده على ابن المؤلف؛ انتهى، يعنى ابن الخطيب.

و قال لسان الدين: هذا الرجل من طرف دهره ظرفا و خصوصيّة و لطافة، مليح التوسّل، حسن اللقاء، مبذول البشر، كثير التودّد، نظيف

البزّة، لطيف التأنّى، خيّر البيت، طلق الوجه، خلوب اللسان، طيّب الحديث، مقدر الألفاظ، عارف بالأبواب، درب على صحبة الملوك و الأشراف، متقاض لإيثار السلاطين و الأمراء، يسحرهم بخلابة لفظه، و يفتلهم فى الذّروة و الغارب بتنزّله، و يهتدى إلى أغراضهم الكمينة بحذقه، و يصطنع غاشيتهم بتلطّفه، ممزوج الدّعابة بالوقار و الفكاهة بالنّسك و الحشمة بالبسط، عظيم المشاركة لأهل ودّه، و التعصّب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۲۳

لإخوانه، ألف مألوف، كثير الأتباع و العلق، مسخّر الرقاع فى سبيل الوساطة، مجدى الجاه، غاصّ المنزل بالطلبة، منقاد للدعوة، بارع الخطّ أنيقه، عذب التّلاوة، متّسع الرواية، مشارك فى فنون من أصول و فروع و تفسير، يكتب و يشعر و يقيّد و يؤلّف، فلا يعدو السّداد فى ذلك، فارس منبر، غير جزوع و لا هياب. رحل إلى المشرق فى كنف حشمة من جناب والده، رحمه اللّه تعالى، فحجّ و جاور و لقى الجلّة، ثم فارقه و قد عرف بالمشرق حقّه، و صرف وجهه إلى المغرب، فاشتمل عليه السلطان أبو الحسن أميره اشتمالا خلطه بنفسه، و جعله مفضى سرّه، و إمام جمعته، و خطيب منبره، و أمين رسالته، فقدم فى غرضها على الأندلس أواخر عام ثمانية و أربعين و سبعمائة، [و لما حالت بالأمير المذكور الحال استقرّ بالأندلس مفلتا من النكبة، فى وسط عام اثنين و خمسين و سبعمائة]، [فاجتذبه سلطانها، رحمه اللّه، و أجراه على تلك الوتيرة فقلّده الخطبة بمسجده فى السادس لصفر عام ثلاثة و خمسين و سبعمائة] و كان قد أقعده للإقراء بالمدرسة من حضرته، و فى أخريات عام أربعة و خمسين صرف عنه وجه برّه فى أسلوب طماح، و دالّة و سبيل هوى وقحة، فاغتنم الفترة، و انتهز الفرصة، و أنفذ فى الرحيل العزمة، و انصرف عزيز الرّحلة، مغبوط المنقلب، فاستقرّ بباب ملك المغرب، أمير المؤمنين أبى عنان فارس فى محلّ تجلّة و بساط قرب، مشترك الجاه، مجدى التوسّط، ناجع الشفاعة، و اللّه يتولّاه و يزيده من فضله!.

مشيخته- من كتابه المسمى «عجالة المستوفز المستجاز، فى ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز، من أئمة المغرب و الشام و الحجاز»: فممن لقيه بالمدينة المشرّفة على ساكنها الصلاة و السلام الإمام العالم العلّامة عزّ الدين محمد أبو الحسن بن على بن إسماعيل الواسطى، صاحب خطّتى الإمامة و الخطابة بالمسجد الكريم النبوى، و أفرد جزءا فى مناقبه.

و منهم الشيخ الإمام جمال الدين أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى الخزرجى السعدى العبّادى، تحمّل عن عفيف الدين أبى محمد عبد السلام بن مزروع و أبى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۲۴

اليمن و غيره. و الشيخ الإمام خادم الوقت بالمسجد الكريم، و نائب الإمامة و الخطابة به، و منشد الأمداح النبوية هنالك. و الشيخ الصالح الثّقة المعمّر محيى الدين أبو زكريا يحيى بن محمد المغراوى التونسى سمع ابن حامل و التوزرى. و الشيخ نور الدين أبو الحسن على بن محمد الحجار الفراش بحرم رسول اللّه و الوقاد به، و كان مقصودا من كل قطر. و الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد الصنعانى نائب القضاء بالمدينة. و الشيخ الإمام قاضى القضاة بالمدينة شرف الدين بن محرز الإخميمى بن الأسيوطى. و الشيخ الصالح عز الدين خالد بن عبد اللّه الطواشى. و الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد اللّه المعيشى، سمع ابن مزروع البصرى و غيره. و الشيخ بهاء الدين موسى بن سلامة الشافعى المصرى، الخطيب بالمسجد الكريم بها.

و الشيخ الخطيب أبو طلحة الزبير بن أبى صعصعة الأسوانى. و الشيخ عفيف الدين المطرى.

و الشيخ الأديب أبو البركات أيمن بن محمد بن محمد، إلى أربعة عشر، ابن أيمن، التونسى، المجاور. و الشيخ أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن فرحون، اليعمرى، التونسى، المجاور.

و الشيخ أبو فارس عبد العزيز بن عبد الواحد بن أبى ركبون التونسى، و قرأ بها على أبيه القرآن العظيم، قال: و كانت قراءتى عليه بالمدينة عند قبره عليه الصلاة و السلام.

و بمكة شرّفها اللّه تعالى الشيخ المعمّر الثقة شرف الدين أبو عبد اللّه عيسى بن عبد اللّه، الحجبى، المكى، المتوفّى و قد قارب المائة. و الشيخ زين الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد اللّه بن محمد بن أبى بكر، الطبرى، المكى. و الشيخ الصالح شرف الدين خضر بن عبد الرحمن، العجمى. و شيخ شيوخ رباط الأعاجم حيدر بن عبد اللّه، المقرئ. و الشيخ مقرئ الحرم برهان الدين إبراهيم بن مسعود بن إبراهيم الأيلى المصرى. و الشيخ مصلح الدين الحسن بن عبد اللّه العجمى. و الإمام الصالح أبو الصفاء خليل بن عبد اللّه، القسطلانى، التوزرى. و الشيخ الإمام الصالح أبو محمد عبد اللّه بن أسعد، الشافعى، الحجّة، انتهت إليه الرياسة العلمية و الخطط الشرعية بالحرم. و الشيخ فخر الدين عثمان بن أبى بكر، النويرى، المالكى. و الشيخ الإمام المدرس بالحرم شهاب الدين أحمد بن الحرازى، اليمنى. و الشيخ قاضى القضاة نجم الدين محمد بن جمال الدين بن عبد اللّه بن المحب الطبرى. و الشيخ جلال الدين أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن براجين، القشيرى، التلمسانى، و قرأ بها على أبيه و ألبسه بها الخرقة. و الشيخ الملك شرف الدين عيسى بن محمد بن أبى بكر بن أيوب. و الشيخة فاطمة بنت محمد بن محمد بن أبى بكر بن أيوب. و الشيخة فاطمة بنت محمد بن محمد بن أبى بكر بن محمد بن إبراهيم الطبرى، المكية. و الشيخ أبو الربيع سليمان بن يحيى بن سلمان، المراكشى، السفاح..

و الشيخ قاضى القضاة و خطيب الخطباء عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن محمد بن جماعة،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۲۵

الكنانى، قاضى القضاة بالديار المصرية.

و بمصر الشيخ علاء الدين القونوى. و التّقى السعدى. و قاضى القضاة القزوينى، و هو شهير الذكر، رفيع القدر. و قاضى القضاة البرهان الحنفى. و الشرف أقضى القضاة الإخميمى.

و الشيخ المحدّث المسند البدر محمد بن محمد الفارقى. و القطب الحافظ أبو محمد بن منير.

و الشهاب أحمد الجوهرى الحلبى. و المعمر الشرف يحيى المقدسى بن المصرى. و الشيخ محسن القرشى. و الشهاب الحنبلى. و فتح الدين محمد بن محمد بن أحمد بن عبد اللّه بن محمد بن يحيى بن سيد الناس، اليعمرى. و الشيخ المسند شمس الدين أبو بكر بن سيد الناس أخوه. و الإمام أبو حيان. و المؤرخ النسابة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبى بكر بن على بن حاتم بن خليش، الزبيرى، المصرى، يبلغ شيوخه نحوا من ألفى شيخ.

و الشيخ الشمس بن عدلان. و الشهاب البوشى المالكى. و الشيخ المتصوّف تاج الدين أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن ثعلب، المصرى، مدرس المالكية. و الشمس ابن كنشفرى، الخطابى، الصيرفى. و العماد ابن المنجم الدمياطى. و التاج الأشعرى. و التقى الثعلبى.

و الفتح بن عبد القوى. و الشمس الورجمى. و التقى الأشمونى. و العلامة التقى السبكى.

و المعروف ابن بنت الشاذلى. و أبو الحسن التميمى. و البرهان الخيمى. و الشمس الأسوانى.

و البرهان الحكرى. و الشمس ابن جابر الوادى آشى. و أبو محمد عبد الكريم الطوسى. و أبو فارس الزروالى التونسى. و صالح بن عبد العظيم بن يونس. و أبو عبد اللّه بن القماح. و التاج التبريزى. و الشيخ محمود الأصبهانى و الشرف المقيلى. و البرهان السفاقسى.

و من النساء الشيخة المسندة ست الفقهاء فاطمة بنت محمد الفيومى البكرى.

و ببلبيس أسد الدين يوسف بن داود الأيوبى، من أبناء الملوك.

و من الشاميين بالمقدس علاء الدين أبو الحسن على بن أيوب، و خطيب القدس النور ابن الصائغ المقدسى، و محمد بن على بن مثبت الأندلسى، و البرهان الجعبرى إمام الخليل.

و من أهل دمشق البرهان بن الفركاح، و الشمس بن مسلم قاضى الحنابلة.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۲۶

و بالإسكندرية أحمد المرادى بن العشاب، و أبو القاسم بن على بن البراء، و الناصر بن المنير.

و بطرابلس الخطيب أبو محمد جابر بن عبد الغفار.

و بتونس الزبيدى، و القاضى ابن عبد الرفيع، و القاضى ابن عبد السلام، و ابن راشد، و أبو موسى هارون، و المحدّث أبو عبد اللّه التلمسانى، و الحافظ أبو زكريا يحيى بن عصفور التلمسانى نزيل تونس، و أبو محمد بن سعد اللّه بن أبى القاسم بن البراء.

و ببلاد الجريد الشيخ الخطيب أبو عبد الملك بن حيون.

و بالزاب ابن أبى، و الشيخ أبو محمد بن راشد.

و ببجاية الإمام النظار المجتهد أبو على ناصر الدين المشذالى، و الحافظ فقيه زمانه أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن بالبخت الزواوى، و الشيخ الفقيه أبو عبد اللّه الخطيب المسفر، و غيرهم.

و بتلمسان الشيخان الإمامان ابنا الإمام، و قاضى القضاة بها أبو عبد اللّه بن هديۀ، و الخطيب أبو محمد المجاصى، و الشريف أبو على حسن بن يوسف بن يحيى الحسنى، و الشيخ أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن على، المعروف بابن إسحاق، الخياط و غيرهم.

محنته- اقتضى الخوض الواقع بين يدى تأميل الأمير أبى الحسن رحمه اللّه تعالى عودۀ الأمر إليه و قد ألقاه اليمّ إلى الساحل بمدينۀ الجزائر أن قبض عليه بتلمسان أمراؤها المتوثبون عليها فى هذه الفترۀ من بنى زيّان، إرضاء لقبيلهم المتّهم بمداخلته، و قد رحل عنهم دسيسا من أميرهم عثمان بن يحيى، فصرف مأخوذا عليه طريقه، منتهبا رحله، منتهكۀ حرمته، و أسكن قرارۀ مطبق عميق القعر، مقفل المسلك، حريز القفل، ثانى اثنين؛ انتهى ملخصا.

و رأيت بخطّ ابن مرزوق على قوله «و قد رحل عنهم دسيسا- إلى آخره» ما نصّه: لم أرحل عنهم إلّا بإذنهم، و اقتراحهم علىّ فى الإصلاح بينهم، لكنهم غدروا تقيۀ على أنفسهم، قاله ابن مرزوق، انتهى. و كتب تحته ولد ابن الخطيب ما صورته: نعم ما ترى: [الوافر].

و عند اللّه تجتمع الخصوم

انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۲۷

رجع إلى كلام لسان الدين فى حقّه- قال بعد الكلام السابق ما ملخصه: و لأيام قتل ثانيه ذبحا بمقربۀ من شفا تلك الرّكيۀ، و انقطع أثره، و أيقن الناس بفوات الأمر فيه، و لزمان من محنته ظهرت عليه بركۀ سلفه فى خبر ينظر بطرفه إلى الكرامۀ فنجا و لا تسل كيف، و خلّصه اللّه خلاصا جميلا، و قدم على الأندلس، و اللّه ينفعه بنيّته؛ انتهى.

و كتب ابن مرزوق على هذا المحلّ ما نصّه: لم يكن المقتول- حين قتل- معى، و لا قتل ذبحا، قاله ابن مرزوق؛ انتهى. و كتب بعض علماء مصر تحته ما نصّه: هذه دعوى، و المؤرخ أعرف، انتهى، فكتب آخر بعد هذا ما نصّه: أ تخبرنى عنى؟ انتهى.

[نماذج من شعر ابن مرزوق]

رجع- ثم قال لسان الدين فى ترجمۀ شعره ما صورته: ركب مع السلطان بخارج الحمراء أيام ضربت اللوز قبابها البيض، و زيّنت الفحص العريض، و الروض الأريض، فارتجل فى ذلك: [الكامل]

انظر إلى النّوّار فى أغصانه يحكى النجوم إذا تبدّت فى الحلك

حيّا أمير المسلمين و قال: قد عميت بصيرۀ من بغيرك مثّلك

يا يوسفا حزت الجمال بأسره فمحاسن الأيام تومى هيت لك

أنت الذى صعدت به أوصافه فيقال فيه: ذا مليك أو ملك

إلى أن قال: و من الشعر المنسوب إلى محاسنه ما أنشد عنه و بين يديه ليلة الميلاد المعظم من عام ثلاثة و ستين و سبعمائة: [مجزوء الرجز]

قل لنسيم السّحر للّه بلّغ خبرى

إن أنت يوما بالحمى جررت فضل المئزر

ثم حثث الخطو من فوق الكثيب الأعفر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۲۸

مستقريا فى عشبه مخفىّ وطء المطر

تروى عن الضحاك فى ال روض حديث الزّهر

مخلّق الأذيال بال عبير أو بالعنبر

وصف لجيران الحمى و جدى بهم و سهرى

و حقّهم ما غيّرت ودّى صروف الغير

للّه عهد فيه قضّيت حميد الأثر

أيامه هى التى أحسبها من عمرى

و يا لليل فيه ما عيب بغير القصر

العمر فينان و وج ه الدهر طلق الغرر

و الشّمل بالأحباب من ظوم كنظم الدّرر

صفو من العيش بلا شائبة من كدر

ما بين أهل تقطف ال أنس جنىّ الثمر

و بين آمال تبى ح القرب صافى الغدر

يا شجرات الحىّ حىّ اك الحيا من شجر

إذا أجال الشوق فى تلك المغانى فكرى

خرّجت من خدّى حدى ث الدمع فوق الطّرر

و قلت يا خدّ ارو من دمعى صحاح الجوهرى

عهدى بحادى الرّكب كال ورقاء عند السّحر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۲۹

و العيس تجتاب الفلا و اليعملات تنبرى

تخبط بالأخفاف مظ لوم البرى و هو برى

قد عطفت عن ميد و التفتت عن حور

قسىّ سير ما سوى ال عزم لها من وتر

حتى إذا الأعلام حلّ ت لحفىّ البشر

و استبشر النازح بال قرب و نيل الوطر

و عيّن الميقات للسّ فر نجاح السّفر

فالناس بين محرم بالحجّ أو معتمر

لبّيك لبيك إل ه الخلق بارى الصّور

و لاحت الكعبة بى ت اللّه ذات الأثر

مقام إبراهيم و ال مأمن عند الذّعر

و اغتنم القوم طوا ف القادم المبتدر

و أعقبوا ركعتى السّ عى استلام الحجر

و عرّفوا فى عرفا ت كلّ عرف أذفر

ثم أفاض الناس سع يا فى غد للمشعر

فوقفوا و كبّروا قبل الصباح المسفر

و فى منّى نالوا المنى و أيقنوا بالظّفر

و بعد رمى الجمرا ت كان حلق الشّعر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۳۰

أكرم بذاك السّفر و ال لّه و ذاك السّفر

يا فوزه من موقف يا ربحه من متجر

حتى إذا كان الوداع و طواف الصّدر

فأىّ صبر لم يخن أو جلد لم يغدر

و أىّ وجد لم يصل و سلوة لم تهجر

ما أفجع البين لقل ب الواله المستعبر

ثم ثنوا نحو رسو ل اللّه سير الضّمّر

فعاينوا فى طيبة لألاء نور نيّر

زاروا رسول اللّه واس تشفوا بلثم الجدر

نالوا به ما أمّلوا و عرّجوا فى الأثر

على الضّجيعين أبى بكر الرّضا و عمر

زيارة الهادى الشّفى ع جنّة فى المحشر

فأحسن اللّه عزا ء قاصد لم يزر

ربع ترى مستنزل ال آى به و السّور

و ملتقى جبريل بال هادى الزّكىّ العنصر

و روضة الجنّة بى ن روضة و منبر

منتخب اللّه و مخ تار الورى من مضر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۳۱

و المنتقى و الكون من ملابس الخلق عرى

إذ لم يكن فى أفق من زحل و مشترى

ذو المعجزات الغرّ أم ثال النجوم الزّهر

يشهد بالصدق له منها انشقاق القمر

و الضّبّ و الظّبى إلى نطق الحصى و الشّجر

من أطعم الألف بصا ع فى صحيح الخبر

و الجيش روّاه بما ء الراحة المنهمر

يا نكتة الكون التى فاتت منال الفكر

يا حجّة اللّه على ال رائح و المبتكر

يا أكرم الرّسل على ال لّه و خير البشر

يا من له التقدّم ال حقّ على التأخّر

يا من لدى مولده المقدّس المطهّر

إيوان كسرى ارتجّ إذ ضاءت قصور قيصر

و موقد النار طفى كأنه لم يسعر

يا عمدتى يا ملجئى يا مفزعى يا وزرى

يا من له اللواء و ال حوض و ورد الكوثر

يا منقذ الغرقى و هم رهن العذاب الأكبر

إن لم تحقّق أملى بؤت بسعى المخسر

صلّى عليك اللّه يا ثمال كلّ معسر

صلّى عليك اللّه يا نور الدّجى المعتكر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۳۲

يا ويح نفسى كم أرى فى غفلة من عمرى

وا حسرتى من قلة ال زاد و بعد السفر

يحجّنى و اللّه بال برهان وعظ المنبر

يا حسنها من خطب لو حرّكت من نظرى

يا حسنها من شجر لو أورقت من ثمر

أؤمّل الأوبة و ال لأمر بكفّ القدر

أسوّف العزم به من شهر لشهر

من صفر لرجب من رجب لصفر

ضيّعت فى الكبرة ما أعددته فى صغرى

و ليس ما مرّ من ال لأيام بالمنتظر

و قلّما أن حمدت سلامة فى غرر

ولى غريم لا ينى فى طلب المنكسر

يا نفس جدّى قد بدا الصبح ألا فاعتبرى

و اتّعظى بمن مضى و ارتدعى و ازدجرى

ما بعد شيب الفود من مرتقب فشمّرى

أنت و إن طال المدى فى قلعة و سفر

و ليس من عذر يقى م حجّة المعتذر

يا ليت شعرى و المنى تسرق طيب العمر

هل أرتجى من عودة أو رجعة أو صدر

فأبرد الغلّة من ذاك الزّلال الخصر

مقتديا بمن مضى من سلف و معشر

نالوا جوار اللّه و ه و الفخر للمفتخر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۳۳

أرجو بإبراهيم مو لانا بلوغ الوطر

فوعده لا يمترى فى الصدق منه ممترى

و هو الإمام المرتضى و الخيّر ابن الخيّر

أكرم من نال العلا بالمرهفات البتر

ممهّد الملك و سى ف الحقّ و الليث الجرى

خليفة اللّه الذى فاق بحسن السّير

و كان منه الخبر فى ال علياء وفق الخبر

فصدّق التصديق من مرآه للتّصور

و مستعين اللّه فى ورد له و صدر

فاق الملوك الصّيد بالم جد الرفيع الخطر

فأصبحت ألقابهم منسيّة لم تذكر

و حاز منه أوحد وصف العديد الأكثر

برأيه المأمون أو عسكره المظفّر

بسيفه السّفّاح أو بعزمه المقتدر

بالعلم المنصور أو بالذابل المنتصر

يا ابن الإمام الطاهر الب رّ الزكىّ السّير

مدحك قد علّم نظ م الشّعر من لم يشعر

جهد المقلّ اليوم من مثلى كوسع المكثر

فإن يقصّر ظاهرى فلم يقصّر مضمرى

قلت: قول لسان الدين فى حقّ هذه القصيدة «إنها من الشعر المنسوب إلى محاسنه» تعريض خفى بأنّ هذه القصيدة يحتمل أن تكون قيلت على لسانه حسبما جرت بذلك عادة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۳۴

الأكابر و الرؤساء أن ينسب إليهم ما ليس من كلامهم فى نفس الأمر، و ليس الواقع عندى كذلك؛ لأنّ باع ابن مرزوق فى النظم و النثر مديد، فأنّى يقصر عن هذا القصيد؟ و من يصدر منه على البديهة قوله: [الكامل]

انظر إلى النوّار فى أغصانه

الأبيات السابقة فى اللوز- لا يستغرب منه مثل هذا، و لذا كتب ابن لسان الدين على قول والده «من الشعر المنسوب إلى محاسنه» ما صورته: حضرت إنشاءها و إنشادها ليلة الميلاد الشريف فى التاريخ المذكور، و استحسنها شعراء العدوتين، و هى ممّا لا ينكر على مدارك سيدى أبى عبد اللّه و رسوخه فى علم النظم و النثر، قاله على بن الخطيب؛ انتهى.

و كتب بعضهم على قوله فى هذه القصيدة: [مجزوء الرجز]

أيامه هى التى أعدّها من عمرى

ما نصّه: ولّت و اللّه، انتهى، فكتب ابن مرزوق بعده ما نصّه: لكنها بدلت بخير منها و الحمد للّه، و حصلت الخاتمة ببركة رسول اللّه، صلّى اللّه عليه و سلم، تسليما؛ انتهى.

و كتب ابن لسان الدين على قوله:

و قلّما أن حمدت سلامة فى غرر

ما نصّه: كذلك كان، و ليت والدى رحمه اللّه تعالى كذلك؛ انتهى.

و كتب على قوله «برأيه المأمون- إلخ» ما نصّه: لو كان له رأى مأمون ما نزل على قلعة الملك لسكنى القصبة بدخيلة طلب الراحة، فضربت عنقه، و كانت الراحة منه؛ انتهى.

و كتب بعض إثر هذا ما صورته: القدر لا يغالب، الحذر ينفع ما لم يأتك القدر، فإذا أتى قدر، لم ينفع حذر؛ انتهى.

و كتب ابن لسان الدين على قوله «فلم يقصر مضمرى» ما صورته: صدق و اللّه؛ انتهى.

ثم قال لسان الدين: و وردت باب السلطان الكبير أبى عنان، فبلوت من مشاركته و حميد سعيه ما يليق بمثله، و لمّا نكبه لم أقصّر عن ممكن حيلة فى أمره. فلما هلك السلطان أبو عنان و صار الأمر لأخيه المتلاحق من الأندلس أبى سالم بعد الولد المسمّى بالسعيد كان ممّن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۳۵

دانت له الطاعة، و أناخ راحلة الملك، و حلب ضرع الدولة، و خطب عروس الموهبة، فأنشب ظفره فى متات معقود من لدن الأب، مشدود من لدن التقرب، فاستحكم عن قرب، و استغلظ عن كثب، فاستولى على أمره، و خلطه بنفسه، و لم يستأثر عنه ببثّه، و لا انفرد بما سوى بضع أهله، بحيث لا يقطع فى شىء إلّا عن رأيه، و لا يمحو و يثبت إلّا واقفا عند حدّه، فغشيت بابه الوفود، و صرفت إليه الوجوه و وقفت عليه الآمال، و خدمته الأشراف، و جلبت إلى سدّته بضائع العقول و الأموال، و هادته الملوك، فلا تحدو الحداة إلّا إليه، و لا تحطّ الرّحال إلّا لديه، إن حضر أجرى الرسم، و أنفذ الأمر و النّهى، لحظا أو سرارا أو مكاتبة، و إن غاب تردّدت الرّقاع، و اختلفت الرّسل، ثم انفرد أخيرا ببيت الخلوة و منتبذ المناجاة من دونه مصطفّ الوزراء، و غايات الحجّاب، فإذا انصرف تبعته الدنيا، و سارت بين يديه الوزراء، و وقفت ببابه الأمراء، قد وسع الكلّ لحظه، و شملهم بحسب الرّتب و الأحوال رعيه، و وسم أفذاذهم تسويده، و عقدت ببنان علّيتهم بنانه. لكن رضا الناس الغاية التى لا تدرك، و الحسد بين بنى آدم قديم، و قبيل الملك مباين لمثله، فطويت الجوانح على سل، و حنيت الضلوع على بثّ، و أغمضت الجفون على قذّى، إلى أن كان من نكبته الثالثة ما هو معروف، جعلها اللّه له طهورا. و لمّا جرت الحادثة على الدولة بالأندلس و كان لحاق جميعنا بالمغرب جنيت ثمرة ما أسفته من وده، فوفى الكيل، و أشرك فى الجاه، و أدرّ الرّزق، و رفع المجلس، بعد التسبّب فى الخلاص و السّعى فى الجبر، جبره اللّه تعالى، و كان له أحوج ما يكون إلى ذلك يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [الشعراء: ۸۹] انتهى.

[خطاب من لسان الدين إلى ابن مرزوق حين قدم على بنى مرين مفلتا من الأندلس]

و كتب ابن لسان الدين على هذا المحلّ ما صورته: هذا لسان أبى عليه فى الغيبة و الحضور؛ انتهى.

و ممّا خاطبه به لسان الدين مهنّئا من طريق القدوم على الأبواب المرينية، مفلتا من البلية

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۳۶

بشفاعته، ما نصّه: سيدى الذى إليه انقطاعى و انحياشى، و ملاذى و ملجئى الذى يسّر خلاصى و سنّى انتياشى، و منعمى الذى جبر جناحى و أنبت رياشى، و مولى هذا الصنف العلمى و لا أحاشى، كتبه صنيع نعمتكم الخالصة الحرة، و مسترقّ فضلكم الذى تألّقت منه فى ليل الخطوب الغرة، ابن الخطيب لطف اللّه به من كذا، و قد شدّ إلى إبلاغ النفس عذرها فى مباشرة تقبيل اليد التى لها اليد العظمى، و السجيّة الرّحمى، فلكم طوقت من نعمى، و جبال النعم قد أثقلت الظهر، و استغرقت السّرّ و الجهر، فبأى لسان أو بأى بنان، و لا أثر بعد عيان، تقابل نعمة تداركت الرمق و قد أشفى، و أبقت الذّماء و الشروع فى استئصالها لا يخفى، فيا لك من فرد هزم ألفا، و وعد نصر لم يعرف خلفا، و نيّة خلصت تبتغى إلى اللّه زلفى، لقد صدع بها مولاى غريبة فى الزمن، بالغا حسن صنيعها صنعاء اليمن، مترفّعة عن الثمن، و إن لم يقم بها مثله فمن، فليهن سيدى ما ذاع لمجده بها من فخر، و ما قدم يوم تزلّ الأقدام من ذخر، و ما جلب للمقام المولوى الإبراهيمى من طيب ذكر، و استفاضة حمد و شكر، لقد ارتهن دعاء الحافى و الناعل، و الدالّ على الخير شريك الفاعل، و الذى أحيا النفس جدير برد جدتها، و إنجاز عدتها، و أنا قد قويت بجاهكم و إن كنت ضعيفا، و استشعرت سعدا جديدا و قدرا منيفا، و أيقنت أنّ اللّه، عزّ و جلّ، كان بى لطيفا، إذ هيّأ لى من رحمة ذلك المقام المولوى على يدكم نصرا عزيزا، و بوّأنى من جاهه حرزا حريزا، و قد استأسدت الأعداء، و أعضل الداء، و أعمل الاعتداء، و عزّ الفداء، فانفرج الضيق، و تيسّرت للخير الطريق، و ساغ الريق، و نجا الغريق، غريبة لا تمثّل إلّا فى الحلم، و لطيفة فيها اعتبار لأولى العلم، اللهمّ جاز سيدى فى نفسه و ولده، و حاله و بلده، و معاده بعد طول عمره و انفساح أمده، و كن له نصيرا أحوج ما يكون إلى نصر، و اجعل له سعة من كلّ حضر، و اقصر عليه جاه كلّ قصر، كما جعلت ذاته فوق كلّ ذات و عصره فوق كل عصر. و ليعلم سيدى أنّ من أراد بى منافسة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۳۷

و حسدا، و زأر علىّ أسدا، لما استقلّ على الكرسى جسدا، من غير ذنب تبين، و لا حدّ تعين، أصابه من خلاصى المقيم المقعد، و وعد النفس بأمل أخلف منه الموعد، لما استنقذنى اللّه برحمته من بين ظفره و نابه، و غطانى بستر جنانه، و كثرنى فى العيون على قلّة، و أعزنى بعزّ نصره على حال ذلّة، لم يدع حيلة إلّا نصبها أمامى، ليحبط ذلك المقام الكريم ذمامى، و يكدر جمامى، و يستدرك حمامى، و زعم أنّ بيده على البعد زمامى، و يأبى ذلك رأى يفرق بين الحقّ و ضدّه، و عدل لا يخرج الشىء عن حدّه، فنبهت سيدى خوفا أن تتّجه حيلة، أو تفسد وسيلة، و أنا قادم بالأهل و الولد ليعمل فى رب الصنيعة على شاكلة المجد الذى هو له أهل، فما بابتدائه جهل، و لا يختلف فى عظم ما أسداه غرّ و لا كهل، و لا ينبّه مثله على تتميم، و إجزال فضل عميم، و مؤانسة غريب، وصلة نصر عزيز و فتح قريب، بحول اللّه تعالى.

و قال لسان الدين بعد ما سبق نقله عنه فى حقّ ابن مرزوق: و لمّا انقضى أمر سلطانه، رحمه اللّه تعالى، متجنّى عليه بسببه، محمولا عليه من أجله، تقبّض عليه و أجمع الملأ على قتله، و شدّ اعتقاله، و طلب بالمال العريض و انتهبت أمواله و اعتقلت رباعه، و جنبت مراكبه، و اصطفيت أمهات أولاده، و تمادى به الاعتقال و الشدّة، إلى أن عادته عوائد اللّه فى الخلاص من الشدّة، و الانتياش عن الورطة ظاهرة عليه بركة سلفه، قائمة له حجّة الكرامة فى أمره.

حكى أمير المسلمين سلطاننا أعزّه اللّه قال: عرض لى والدى، رحمه اللّه تعالى، فى النوم فقال: يا ولدى، اشفع فى الفقيه ابن مرزوق، فقبّلت يده، و اقتضيت حظه، و حكيت داعيته، و عينت للوجهة فى ذلك قاضى الحضرة، فكان ذلك ابتداء الفرج.

[نكبة ابن مرزوق و خلاصه منها]

و حدّثنى الثقة من خدام السلطان أبى عنان عنه مخبرا عن نفسه لما نفس عنه من نكبته، و أجاره من سخطته، قال: رأيت رسول اللّه،

صلى اللّه عليه و سلم، فأمرنى بذلك، و كفى بها جاها و حرمة، قلت: فترك سبيله، و أتيح له ركوب البحر إلى البلاد المشرقية بأهله و ولده، فسار فى كنف الستر، و تحت جناح الرقابة، فى وسط رجب من عام أربعة و ستين و سبعمائة من ساحل باديس، صحب اللّه وجهته، و ختم عصمته! انتهى ما لخصته من كلام لسان الدين بلفظه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۳۸

و رأيت على هامش هذا المحل من «الإحاطة» بخطّ المذكور ما صورته: أقول و أنا ابن مرزوق المسمّى فيه: إنى قد وصلت إلى تونس المحروسة فى شهر رمضان من سنة خمس و ستين، فلقيت بها من المبرّة و الكرامة و الوجاهة فوق ما يعهده أمثالى، و وليت خطابة جامع ملكها، و تدريس أم المدارس فيها، و هى المعروفة بمدرسة الشماعين، كلّ ذلك تحت رعاية و عناية و ملازمة لمجلس ملكها، إلى أن توفى سنة إحدى و سبعين، ثم مع ولده و ابن أخيه، إلى أن رحلت فى البحر فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث و سبعين، فحللت فى الديار المصرية، و لقيت من ملكها الذى لم أر فى الملوك مثله حلما و فضلا و حياء وجودا و تلطّفا و رحما، السلطان المالك الملك الأشرف ناصر الدين و الدنيا شعبان بن حسين، فأحسن لى و أجرى علىّ و على أولادى ما قام به الحال، و قلّدنى دروسا و مدارس، و أهّلنى للمثول بين يديه، و الحال مستمرّ على ذلك حتى الآن، و ذلك من فضل اللّه و معهود إحسانه، و المرجو من اللّه حسن العاقبة، و كتب فى رمضان سنة خمس و سبعين؛ انتهى.

و كتب بعده أبو الحسن على بن لسان الدين، رحمهما اللّه تعالى، ما صورته: صدق، و هو فوق ذلك كلّه، فقدره معروف، و لطالما كان ملك المغرب يفتخر به، فصار يفتخر بتقليد الدروس: [السريع]

و الدهر لا يبقى على حالة

انتهى.

قال فى «الإحاطة»: و لمّا شرح كتاب «الشفاء» للقاضى عياض، رحمه اللّه تعالى، و استبحر فيه، [و أكثر النقل، و بذل الجهد]، طلب أهل العدوتين نظم مقطوعات تتضمّن الثناء على الكتاب المذكور، و إطراء مؤلّفه، فانثال عليه من ذلك الطّمّ و الرّم، بما تعدّدت منه الأوراق، و اختلفت فى الإجادة و غيرها الأرزاق، إيثارا لغرضه، و مبادرة من كلّ الجهات لإسعاف أربه، و طلب منى أن ألمّ فى ذلك بشىء، فكتبت له فى ذلك: [الطويل]

شفاء عياض للصدور شفاء فليس بفضل قد حواه خفاء

هديّة برّ لم يكن لمديلها سوى الأجر و الذكر الجميل كفاء

و فى لنبىّ اللّه حقّ وفائه و أكرم أوصاف الكرام وفاء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۳۹

و جاء به بحرا يقول بفضله على البحر طعم طيّب و صفاء

و حقّ رسول اللّه بعد وفاته رعاه، و إغفال الحقوق جفاء

هو الذّخر يغنى فى الحياة عتاده و يترك منه للبنين رفاء

هو الأثر المحمود ليس يناله دثور، و لا يخشى عليه عفاء

حرصت على الإطناب فى نشر فضله و تمجيده لو ساعدتنى فاء

و استزاد من هذا الغرض الذى لم يقنع فيه بالقليل، فبعثت إليه من محلّ انتقالى من مدينة سلا حرسها اللّه تعالى: [مجزوء الرمل]

أ أزاهير رياض أم شفاء لعياض

جدّل الباطل للح قّ بأسياف مواض

و جلا الأنوار برها نا بحقّ و افتراض

و شفى من يشتكى ال غلّة فى زرق الحياض

أىّ بنيان مقال آمن خوف انقضاض

أىّ عهد ليس يرمى بانتكاث و انتقاض

و معان فى سطور كأسود فى غياض

و شفاء لصدور من ضنى الجهل مراض

حرّر القصد فما شين بنقد و اعتراض

يا أبا الفضل ادر أنّ اللّه عن سعيك راض

فاز عبد أقرض اللّ ه برجحان القراض

وجبت غرّ المزايا من طوال أو عراض

لك يا أصدق راو لك يا أعدل قاض

لرسول اللّه وفّى ت بجدّ و انتهاض

خير خلق اللّه فى حا ل و فى آت و ماض

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۴۰

سدّد اللّه ابن مروز ق إلى تلك المراضى

زبدة العرفان، معنى كلّ نسك و ارتياض

فتولّى بسط ما أجم لت من غير انقباض

ساهرا لم يدر فى استخ لاصه طعم اغتماض

إن يكن دينا على الأيام قد حان التّقاضى

دام فى علو و من عا داه يهوى فى انخفاض

ما وشى الصبح الدياجى بسواد فى بياض

ثم نظمت له أيضا فى الغرض المذكور، و الإكثار من هذا النمط، فى هذا الموضع، ليس على سبيل التبجّح بإجادته و غرابته، و لكن على سبيل الإشادة بالشّرح المشار إليه، فهو بالغ غاية الاستبحار: [السريع]

حيّيت يا مختطّ سبت ابن نوح بكلّ مزن يغتدى أو يروح

و حمل الرّيحان ريح الصّبا أمانة فيك إلى كلّ روح

دار أبى الفضل عياض الذى أضحت بريّاه رياضا تفوح

يا ناقل الآثار يعنى بها و واصلا فى العلم جرى الجموح

طرفك فى الفضل بعيد المدى طرفك للمجد شديد الطموح

كفاك إعجازا كتاب الشّفا و الصبح لا ينكر عند الوضوح

للّه ما أجزلت فينا به من منحة تقصر عنها المنوح

روض من العلم همى فوقه من صيّب الفكر الغمام السفوح

فمن بيان الحقّ زهر بدا و من لسان الصدق طير صدوح

تأرّج العرف و طاب الجنى و كيف لا يثمر أو لا يفوح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۴۱

و حلّة من طيب خير الورى فى الجيب و الأعطاف منها نضوح

و معلم للدين شيّدته فهذه الأعلام منها تلوح

فقل لهامان كذا أو فلا يا من أضلّ الرّشد تبنى الصّروح

فى أحسن التقويم أنشأته خلقا جديدا بين جسم و روح

فعمره المكتوب لا ينقضى إذا تقضّى عمر سام و نوح

كأنه فى الحفل ريح الصّبا و كلّ عطف فهو غصن مروح

ما عذر مشغوف بخير الورى إن هاج منه الذّكر أن لا يبوح

عجبت من أكباد أهل الهوى و قد سطا البعد و طال النّزوح

إن ذكر المحبوب سالت دما ما هنّ أكباد و لكن جروح

يا سيّد الأوضاع يا من له بسيّد الإرسال فضل الرجوح

يا من له الفضل على غيره و الشمس تخفى عند إشراق يوح

يا خير مشروح وفى و اكتفى و من ابن مرزوق بخير الشّروح

فتح من اللّه حباه به و من جناب اللّه تأتى الفتوح

ثم قال: و على الجملة و التفصيل، فهذا الرجل نسيج وحده شهرة و جلالة و خصالا و أبوّة صالحة، تولّاه اللّه! و كان له! و انصرف بجملته إلى بلاد المشرق عام أربعة و ستين و سبعمائة، تولّاه اللّه تعالى، و أسعد منقلبه! و مولده بتلمسان عام أحد عشر و سبعمائة؛ انتهى كلام لسان الدين.

[ترجمة أبى عبد اللّه بن مرزوق عن المؤرخ ابن خلدون]

و لنزد فى هذه الترجمة على ما ذكره فنقول: قال ابن خلدون: صاحبنا الخطيب أبو عبد اللّه بن مرزوق، من أهل تلمسان، كان سلفه نزلاء الشيخ أبى مدين بالعبّاد، و متوارثين تربته من لدن جدّهم خادمه فى حياته، و كان جدّه الخامس أو السادس أبو بكر بن مرزوق معروفا بالولاية فيهم، و نشأ محمد هذا بتلمسان، و مولده فيما أخبرنى عام عشرة و سبعمائة؛ انتهى.

و هو مخالف لما ذكره لسان الدين فيما مرّ عنه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۴۲

ثم قال ابن خلدون: و ارتحل مع والده إلى المشرق سنة ثلاث عشرة، [و سمع ببجاية على الشيخ ناصر الدين]، و لما جاور أبوه بالحرمين رجع إلى القاهرة، فأقام و برع فى الطلب و الرواية، و كان يجيد الخطّين، و رجع سنة ثلاث و ثلاثين إلى المغرب، و لقى السلطان أبا الحسن محاصرا لتلمسان، و قد شيّد بالعبّاد مسجدا عظيما و كان عمّه محمد بن مرزوق خطيبا به على عادتهم فى العبّاد، و توفى، فولّاه السلطان خطابة ذلك المسجد مكان عمّه، و سمعه يخطب على المنبر، و يشيد بذكره، و يثنى عليه، فحلى بعينه، فقرّبه، و هو مع ذلك يلازم ابنى الإمام، و يأخذ نفسه بلقاء الأفاضل و الأكابر و الأخذ عنهم، و حضر مع السلطان وقعة طريف، ثم استعمله فى الرسالة إلى الأندلس، ثم إلى ملك قشتالة فى تقرير الصلح، و استنقاذ ولده المأسور يوم طريف، و رجع بعد وقعة القيروان مع زعماء النصارى، فرجع إلى المغرب. و وفد على السلطان أبى عنان بفاس مع أمّه حظيّة أبى الحسن. ثم رجع إلى تلمسان، و أقام بالعبّاد، و على تلمسان يومئذ أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن و أخوه أبو ثابت، و السلطان أبو الحسن بالجزائر، و قد حشد هناك، فأرسل أبو سعيد ابن مرزوق المذكور إليه سرّا فى الصلح، فلمّا اطّلع أخوه أبو ثابت على الخبر أنكره على أخيه، فبعثوا من حبس ابن مرزوق، ثم أجازوه البحر إلى الأندلس، فنزل على أبى الحجاج سلطانها بغرناطة، فقرّبه، و استعمله على الخطبة بجامع الحمراء، فلم يزل خطيبه إلى

أن استدعاه أبو عنان سنة أربع و خمسين بعد مهلك أبيه و استيلائه على تلمسان و أعمالها، فقدم عليه، ورعى له وسائله، و نظمه فى أكابر أهل مجلسه، ثم بعثه لتونس عام ملكها سنة ثمان و خمسين ليخطب له ابنة السلطان أبى يحيى، فردّت الخطبة، و اختفت بتونس، و وشى إلى السلطان أبى عنان أنه كان مطلعا على مكانها، فسخطه لذلك، و أمر بسجنه، فسجن مدة، ثم أطلقه قبل موته.

و لمّا استولى أبو سالم على السلطنة آثره، و جعل زمام الأمور بيده، فوطىء الناس عتبته، و غشى أشراف الدولة ببابه، و صرفوا إليه الوجوه، فلما وثب عمر بن عبد اللّه بالسلطان آخر عام اثنين و ستين حبس ابن مرزوق، ثم أطلقه بعد أن رام كثير من أهل الدولة قتله، فمنعه منهم، ثم لحق بتونس سنة أربع و ستين، و نزل على السلطان أبى إسحاق و صاحب دولته أبى محمد بن تافراكين، فأكرموه و ولّوه الخطابة بجامع الموحدين، و أقام بها إلى أن هلك السلطان أبو يحيى سنة سبعين و ولى ابنه خالد، ثم لمّا قتل السلطان أبو العباس خالدا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۴۳

و استولى على السلطنة، و كان بينه و بين ابن مرزوق شىء لميله مع ابن عمّه محمد صاحب بجاية، عزله عن الخطبة، فوجم لها، فأجمع الرحلة إلى المشرق، و سرحه السلطان، فركب السفينة، و نزل بالإسكندرية، ثم ارتحل إلى القاهرة، و لقى أهل العلم و أمراء الدولة، و نفقت بضائعه عندهم، و أوصلوه إلى السلطان الأشرف، فولّاه الوظائف العلمية، فلم يزل بها موفّر الرتبة، معروف الفضيلة، مرشحا لقضاء المالكية، ملازما للتدريس، إلى أن هلك سنة إحدى و ثمانين؛ انتهى ملخصا.

[ترجمة ابن مرزوق عن الحافظ ابن حجر]

و قال الحافظ ابن حجر: إنه لمّا وصل تونس أكرم إكراما عظيما، و فوّضت إليه الخطابة بجامع السلطان و تدريس أكبر المدارس، ثم قدم القاهرة، فأكرمه الأشرف شعبان، و درّس بالشيخونية و الصرغتمشية و النجمية، و كان حسن الشكل، جليل القدر، مات فى ربيع الأول سنة إحدى و ثمانين؛ انتهى.

[ترجمته عن الخطيب القسمطينى]

و قال ابن الخطيب القسمطينى: هو شيخنا الفقيه الجليل الخطيب، توفى بالقاهرة، و دفن بها بين ابن القاسم و أشهب، و له طريق واضح فى الحديث، و لقى أعلاما، و سمعنا منه البخارى و غيره فى مجالس، و لمجلسه لباقة و جمال، و له شرح جليل على «العمدة» فى الحديث؛ انتهى.

و كتب بخطّه بلديّنا أبو عبد اللّه بن العباس التلمسانى ما نصّه: نقلت من خطّ بعض السادات كتبه للإمام زعيم العلماء الحفيد ابن مرزوق أنه وجد بخطّ جدّه الخطيب ابن مرزوق لما ثقفه عمر بن عبد اللّه على الشيخ أبى يعقوب كتب ما نصّه: الحمد للّه على كلّ حال، خرّج الطبرى فى منسكه و أبو حفص الملاى فى سيرته عن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب و عبد اللّه بن عمرو بن العاص، رضى اللّه تعالى عنهم، قالا: وقف رسول اللّه، صلّى اللّه عليه و سلم، على الثّنية التى بأعلى مكة، و ليس بها يومئذ مقبور، فقال: يبعث اللّه من ههنا سبعين ألفا يدخلون الجنّة بغير حساب، يشفع كلّ واحد منهم فى سبعين ألفا يدخلون الجنّة بغير حساب و لا عقاب، وجوههم كالقمر ليلة البدر، فقال أبو بكر: من هم يا رسول اللّه؟ قال: هم الغرباء من أمتى الذين يدفنون ههنا، ففى هذا الموضع دفن والدى، رحمه اللّه تعالى، و بعد سماعه لهذا الحديث بسبعة أيام دفن فيه، أفتراه لا يشفع فيمن أقال عثرة ولده؟ أفما يشترى هذا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۴۴

بأموال الأرض؟ أفلا يرعى لى ثمانية و أربعين منبرا فى الإسلام شرقا و غربا و أندلسا؟ أفلا يرعى لى أنه ليس اليوم يوجد من يسند أحاديث الصحاح سماعا من باب إسكندرية إلى البرين و الأندلس غيرى و نحو من مائتين و خمسين شيخا؟ و اللّه تعالى أعلم، لكن

حرمنى اللّه تعالى نبذة الاشتغال به، و آثرت اتباع الهوى و الدنيا، فهويت، اللهمّ غفرانك! أفلا يرعى لى مجاورة نحو اثنى عشر عاما و ختم القرآن فى داخل الكعبة، و الإحياء فى محراب النبى، صلى اللّه عليه و سلم، و الإقراء بمكة، و لا أعلم من له هذه الوسيلة غيرى؟ أ فلا يرعى لى الصلاة بمكة سنين، و غربتى بينكم، و محنتى فى بلدى، على محبتكم و خدمتكم، من ذا الذى خدمكم من الناس يخرج على هذا الوجه؟ أستغفر اللّه، أستغفر اللّه، أستغفر اللّه من ذنوبى، و ذنوبى أعظم، و ربّى أعلم، و ربّى أرحم، و السلام؛ انتهى.

ففى هذا دليل على عظم قدره و مكانته فى الدين و الدنيا.

قلت: و لقد رأيت مصحفه بتلمسان عند أحفاده و عليه خطه الرائق الذى أعرفه، و هو يقول: قرأت فى هذا المصحف تجاه الكعبة المشرفة اثنى عشر ألف ختمة؛ انتهى.

و مع هذا فقد نسى فى المصحف المذكور لفظة إليك من قوله تعالى يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ [الملك: ۴] حتى كتبه بخطّه فوق السطر حفيده العلامة سيدى أبو عبد اللّه محمد بن مرزوق، رحمة اللّه على الجميع!

و قال الخطيب المذكور، رحمه اللّه تعالى، فى بعض تعاليقه ما صورته: و من أشياخ والدى سيدى محمد المرشدى، لقيه فى ارتحالنا إلى الشرق، و حين حملنى إليه و أنا ابن تسع عشرة سنة نزلنا عنده، و وافقنا صلاة الجمعة، و من عادته أن لا يتّخذ للمسجد إماما، و حضر يومئذ من أعلام الفقهاء من لا يمكن اجتماع مثلهم فى غير ذلك المشهد، قال: فقرب وقت الصلاة، فتشوّف من حضر من الفقهاء و الخطباء إلى التقديم، فإذا الشيخ قد خرج فنظر يمينا و شمالا و أنا خلف والدى، فوقع بصره علىّ، فقال لى: يا محمد، تعال، قال: فقمت معه حتى دخلت معه فى موضع خلوة، فباحثنى فى الفروض و الشروط و السنن، قال: فتوضّأت و أخلصت النيّة، فأعجبه وضوئى، و دخل معى المسجد، و قادنى إلى المنبر، و قال لى: يا

محمد، ارق المنبر، فقلت له: يا سيدى، و اللّه لا أدرى ما أقول، فقال لى: ارق، و ناولنى السيف الذى يتوكّأ عليه الخطيب عندهم، و أنا جالس مفكر فيما أقول إذا فرغ المؤذنون، فلمّا فرغوا نادانى بصوته، و قال لى: يا محمد، قم، و قل بسم اللّه، قال: فقمت، و انطلق لسانى بما لا أدرى ما هو، إلّا أنى كنت أنظر إلى الناس ينظرون إلىّ و يخشعون من موعظتى، فأكملت الخطبة، فلمّا نزلت قال لى: أحسنت يا محمد، قراك عندنا أن نولّيك الخطابة، و أن لا تخطب بخطبة غيرك ما وليت و حييت، ثم سافرنا فحججنا، و أراد والدى الجوار، و أمرنى بالرجوع لأونس عمى و قرابتى بتلمسان، و أمرنى بالوقوف على سيدى المرشدى هنالك، فوقفت عليه، و سألنى عن والدى، فقلت له: يقبّل أيديكم، و يسلّم عليكم، فقال لى: تقدّم يا محمد، و استند إلى هذه النخلة، فإن شعيبا- يعنى أبا مدين- عبد اللّه عندها ثلاث سنين، ثم دخل خلوته زمانا، ثم خرج فأمرنى بالجلوس بين يديه، ثم قال لى: يا محمد، أبوك من أحبابنا و إخواننا، إلّا أنك يا محمد، إلّا أنك يا محمد، فكانت هذه إشارة إلى ما امتحنت به من مخالطتى أهل الدنيا و التخليط، ثم قال لى: يا محمد، أنت مشوش من جهة أبيك، تتوهّم أنه مريض، و من بلدك، أمّا أبوك فبخير و عافية، و هو الآن عن يمين منبر رسول اللّه، صلّى اللّه عليه و سلم، و عن يمينه خليل المالكى، و عن يساره أحمد قاضى مكة، و أمّا بلدك، فسمّ اللّه، فخط دائرة فى الأرض، ثم قام فقبض إحدى يديه على الأخرى و جعلهما خلف ظهره يطوف بتلك الدائرة، و يقول: تلمسان، تلمسان، حتى طاف بتلك الدائرة مرات، ثم قال لى:

يا محمد، قد قضى اللّه الحاجة فيها، فقلت له: كيف يا سيدى؟ فقال: ستر اللّه إن شاء اللّه على من فيها من الذرارى و الحريم، و يملكها هذا الذى حصرها، يعنى السلطان أبا الحسن، و هو خير لهم، ثم جلس و جلست بين يديه، فقال لى: يا خطيب، فقلت: يا سيدى، عبدك و مملوكك، فقال لى: كن خطيبا، أنت الخطيب، و أخبرنى بأمور، و قال لى: لا بدّ أن تخطب بالجامع الغربى، و هو الجامع الأعظم بالإسكندرية، ثم أعطانى شيئا من كعيكات صغار، و زوّدنى بها و أمرنى بالرحيل.

و أمّا خبر تلمسان فدخلها المرينى كما ذكر، و ستر اللّه من فيها من الذرارى و الحريم، و كان هذا المرشدى يتصرّف فى الولاية

كتصرّف سيدى أبى العباس السبتى، نفعنا اللّه بهما!.

و للخطيب ابن مرزوق المذكور تأليف: منها شرحه الجليل على العمدة فى خمسة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۴۶

أسفار، جمع فيه بين ابن دقيق العيد و الفاكهانى مع زوائد، و شرحه النفيس على الشفاء، و لم يكمل، و شرحه على الأحكام الصغرى لعبد الحق، و شرحه على ابن الحاجب الفرعى، سمّاه «إزالة الحاجب، عن فروع ابن الحاجب» و له غيرها، و ديوان خطب بالغرب مشهور كقصيدته التى قالها فى نكبته بتلمسان، و أولها: [المتقارب]

رفعت أمورى لبارى النّسم و موجدنا بعد سبق العدم

و من نظمه عند وداعه أهل تونس: [الوافر]

أودّعكم و أثنى ثم أثنى على ملك تطاول بالجميل

و أسأل رغبة منكم لربى بتيسير المقاصد و السبيل

سلام اللّه يشملنا جميعا فقد عزم الغريب على الرحيل

و من نظم أبى المكارم ابن آجروم يسلى المذكور عند ما سجن بعد مقتل السلطان أبى سالم: [السريع]

يا شمس علم أفلت بعدما أضاءت المشرق و المغربا

حجبت قسرا عن عيون الورى و الشمس لا ينكر أن تحجبا

[ترجمة ابن مرزوق (و يعرف بابن مرزوق الكفيف، و هو والد أم جد المؤلف) و ترجمة عالم الدنيا أبى عبد اللّه محمد بن مرزوق (المعروف بابن مرزوق الحفيد)]

و بيتهم بيت علم و ولاية و صلاح كعمّه و جدّه و أبيه و جدّ أبيه، و كولديه محمد و أحمد و حفيده عالم الدنيا البحر أبى عبد اللّه محمد بن أحمد بن مرزوق، و ولد حفيده المعروف بالكفيف، و حفيد حفيده المعروف بالخطيب، و هو آخر المذكورين منهم فيما نعلم.

قلت: كان مرادى أن أعرّف بجميعهم، و لكنى خشيت الطول، فلنلمّ بذكر الحفيد عالم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۴۷

الدنيا، و ابنه العلامة المشهور بالكفيف؛ لأنه- أعنى الكفيف- والد أمّ جدى أحمد؛ لأنى أحمد بن محمد بن أحمد، فوالدة الجدّ أحمد بنت الكفيف المذكور، و هو- أعنى الكفيف- محمد بن محمد بن أحمد بن الخطيب الرئيس أبى عبد اللّه بن مرزوق المتقدم الذكر، و كان الكفيف إماما عالما علامة، و وصفه ابن داود البلوى بأنه الشيخ الإمام، علم الأعلام، فخر خطباء الإسلام، سلالة الأولياء، و خلف الأتقياء الأرضياء، المسند الراوية المحدّث العلامة المتفنّن القدوة الحافل الكامل، و أخذ العلم عن جماعة: منهم عالم الدنيا أبوه، قرأ عليه الصحيحين و الموطأ و غير ما كتاب من تآليفه و غيرها، و تفقّه عليه و أجازه عموما، و عن عالمى تلمسان أبوى الفضل ابن الإمام و العقبانى، و غيرهما و اللجائى و الثعالبى، و النظار أبى عبد اللّه محمد بن أبى القاسم المشذالى، و قاضى الجماعة ابن عقاب و حافظ الإسلام ابن حجر العسقلانى، و كلّ هؤلاء أجازوه، و قرأ عليهم مشافهة، إلّا ابن حجر فمكاتبة. و مولده غرة ذى القعدة عام أربعة و عشرين و ثمانمائة، نصف ليلة الثلاثاء، و من شيوخه العلامة ابن العباس التلمسانى و غيره.

و قال السخاوى: قدم الكفيف مكة سنة إحدى و ستين و ثمانمائة، و سمعت سنة إحدى و سبعين و ثمانمائة أنه فى الأحياء؛ انتهى.

و أخذ عنه جماعة أئمة كالسنوسى صاحب العقائد الشهيرة و غيرها، و الونشريسى صاحب «المعيار»، و العلامة أبى عبد اللّه بن العباس، و حلاه بشيخنا و مفيدنا علم الأعلام و حجّة الإسلام آخر حفّاظ المغرب، و قال: قرأت عليه الصحيحين و بعض مختصرى ابن

الحاجب الفرعى و الأصلى، و حضرت عليه جملة من التهذيب و بعض الخونجى و غيرها، و أخذ عنه بالإجازة عالم فاس ابن غازى حسبما ذكره فى كتابه المسمى ب «التعلل برسوم الإسناد، بعد انتقال الساكن و الناد».

و قال بعض الحفّاظ: إنّ وفاته عام أحد و تسعمائة بتلمسان. وزرت قبره مرارا، رحمه اللّه تعالى! و نقل عنه المازونىّ فى نوازله المسماة ب «الدرة المكنونة، فى نوازل مازونة».

و أمّا والده عالم الدنيا أبو عبد اللّه محمد بن مرزوق الشهير بالحفيد فهو البحر الإمام

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۶؛ ص۳۴۷

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۴۸

المشهور الحجّة الحافظ العلّامة المحقق الكبير النظار المطلع المصنف المنصف التقى الصالح الناصح الزاهد العابد الورع البركة الخاشع الخاشى النبيه القدوة المجتهد الأبرع الفقيه الأصولى المفسّر المحدّث الحافظ المسند الراوية الأستاذ المقرئ المجوّد النحوى اللغوى البيانى العروضى الصوفى الأوّاب الولى الصالح العارف باللّه، الآخذ من كلّ فنّ بأوفر نصيب، الراعى فى كلّ علم مرعاه الخصيب، حجّة اللّه على خلقه، المفتى الشهير، الرحلة، الحاج، فارس الكراسى و المنابر، سليل الأكابر، سيد العلماء الأخيار، و إمام الأئمة، و آخر الشيوخ، ذوى الرسوخ، بدر التمام، الجامع بين المعقول و المنقول، و الحقيقة و الشريعة بأجل محصول، و آخر النظار الفحول، شيخ المشايخ، صاحب التحقيقات البديعة، و الاختراعات الأنيقة، و الأبحاث الغريبة، و الفوائد الغزيرة، المتّفق على علمه و صلاحه و هديه، الذكى الفهامة القدوة الذى لا- يسمح الزمان بمثله أبدا، أوحد الأفراد فى جميع الفنون الشرعية، ذو المناقب العديدة، و الأحوال السّديدة، شيخ الإسلام، و إمام المسلمين و مفتى الأنام، الذى له القدم الراسخ فى كلّ مقام ضيق، و الرحب الواسع فى حلّ كلّ مشكل مقفل، صاحب الكرامات و الاستقامات، السّنى السّنى، الحريص على تحصيل السنّة، و مجانبة البدعة، السيف المسلول على أهل البدع و الأهواء الزائغة، الذى أفاض اللّه تعالى على خلقه به بركته، و رفع بين البرية محلّه و درجته، و وسع على خليقته به نحلته، معدن العلم، و شعلة الفهم، و كيمياء السعادة، و كنز الإفادة، ابن الشيخ الفقيه العالم أبى العباس أحمد، ابن الإمام العلامة الرئيس الكبير الخطيب الحافظ الرحلة الفقيه المحدّث الشهير شمس الدين محمد، ابن الشيخ العالم الصالح الولى المجاور أبى العباس أحمد، ابن الفقيه الولى الصالح الخاشع محمد، ابن الولى الكبير ذى الكرامات و الأحوال الصالحة محمد بن أبى بكر بن مرزوق، العجيسى، التلمسانى. كان رحمه اللّه تعالى آية اللّه فى تحقيق العلوم، و الاطّلاع المفرط على النقول، و القيام التام على الفنون بأسرها، أمّا الفقه فهو فيه مالك، و لأزمّة فروعه حائز و مالك، فلو رآه الإمام لقال له:

تقدّم، فلك العهد و الولاية فتكلّم، فمنك يسمع فقهى و فروعى، و مثلك من راعى ما ينبغى فروعى، أو ابن القاسم لقرّبه عينا، و قال له: طالما دفعت عن المذهب عينا و شينا، أو

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۴۹

المازرى، لعلم أنه بمناظرته حرى، أو الحافظ ابن رشد، لقال: هلمّ يا حافظ الرشد، أو اللخمى لأبصر منه محاسن «التبصرة»، أو القرطبى لنال منه «التذكرة»، أو القرافى لاستفاد منه قواعده المقررة، أو ابن الحاجب لاستند إلى بابه فى كشف الإشكالات المحرّرة، إلى ما انضمّ إلى ذلك من معرفة التفسير و درره، و الاضطلاع بحقائق التأويل و غرره، فلو رآه مجاهد، لعلم أنه فى التحقيق خير جاهد، أو مقاتل، لقال: مثلك طبّق من الفهوم الكلى و أصاب المقاتل، أو الزمخشرى لعلم أنه كشاف الخفيات على الحقيقة، و قال لكتابه: تنحّ لهذا الحبر عن سلوك الطريقة، أو ابن عطية، لركب فى الرحلة إلى الاستفادة منه المطيّة، أو أبو حيان لغرق فى نهره، و لم تسل له نقطة من بحره، إلى الإحاطة بالحديث و فنونه، و الاطّلاع على أسانيده و متونه، و معرفة منكره و معروفه، و نظم أنواعه و رصف صنوفه، إذ إليه الرحلة انتهت فى رواياته و دراياته، و عليه المعوّل فى حلّ مشكلاته و فتح مقفلاته. و أمّا الأصول فالعضد ينقطع عند مناظرته ساعده، و السيف يكلّ عند بحثه حدّه حتى يترك ما عنده و يساعده، و البرهان لا يهتدى معه لحجّة، و المقترح لا يركب فى بحره

لجّة. و أمّا النحو فلو رآه محمود لتلجلج فى قراءة «المفصل»، و استقل ما عنده من القدر المحصّل، أو الرمانى لاشتاق إلى مفاكهته و ارتاح، و استجدى من ثمار فوائده و امتاح، أو الزجاج لعلم أنّ زجاجه لا يقوم بجواهره، و أنه لا يجرى معه فى هذا العلم إلّا فى ظواهره، بل لو رآه الخليل، لقال: هذا هو المقصد الجليل، و أثنى عليه بكلّ جميل، و قال لفرسان النحو: ما لكم إلى لحوق عربيته من سبيل، و أمّا البيان فالمصباح لا يظهر له نور عند هذا الصبح، و صاحب المفتاح لا يهتدى معه إلى الفتح، و القزوينى يلقى علومه لإيضاح المعانى، و السعد يرقى بفهومه فى مطالع المثانى، و كم له من مناقب، تنحطّ عن منالها الثواقب، و مواهب، تجلو بأنوارها الغياهب، و أمّا زهده و صلاحه فقد سارت به الركبان، و اتّفق عليه الثقلان، فمن وصفه بالبحر، فقل له: دون علمه البحر، أو البدر، فما يصل خلقه البدر، أو الدرّ، فأنى يشبه منطقه الدرّ، و بالجملة فالوصف يتقاصر عن صفاته و فضلاء عصره لا يرتقون إلى صفاته، فهو شيخ العلماء فى أوانه، و إمام الأئمة فى عصره و زمانه، شهد بنشر علومه العاكف و البادى، و ارتوى من بحار تحقيقاته الظمان و الصادى: [الكامل]

حلف الزمان ليأتينّ بمثله حنثت يمينك يا زمان فكفّر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۵۰

هكذا وصفه بعض العلماء، و هو فوق ذلك كلّه.

و قال فى حقّه بلديّنا الشيخ أبو الفرج بن أبى يحيى الشريف التلمسانى، رحمه اللّه تعالى: هو شيخنا الإمام العالم العلم، جامع أشتات العلوم الشرعية و العقلية حفظا و فهما و تحقيقا راسخ القدم، رافع لواء الإمامة بين الأمم، ناصر الدين بيده و لسانه و بنانه و بالقلم، محيى السنّة بالفعال و المقال و الشيم، قطب الوقت فى الحال و المقام، و النهج الواضح و السبيل الأمم، مستمرّ على الإرشاد و الهداية، و التبليغ و الإفادة، ذو الرواية و الدراية و العناية، ملازم الكتاب و السنّة على نهج الأئمة المحفوظين من البدع فى زمن لا عاصم فيه من أمر اللّه إلّا من رحم، ذو همّة عليّة، و رتبة سنيّة، و أخلاق مرضيّة، و فضل و كرم، إمام الأئمة، و عالم الأمة، الناطق بالحكم، و منير الظّلم، سليل الصالحين، و خلاصة مجد التّقى و الدين، نتيجة مقدمات المهتدين، حجّة اللّه على العلم و العالم، جامع بين الشريعة و الحقيقة، على أصحّ طريقة، متمسّك بالكتاب لا يفارق فريقه، الشيخ الإمام أبو عبد اللّه محمد، اتّصلت به فأويت منه إلى ربوة ذات قرار و معين، و قصرت توجهى عليه، و مثلت بين يديه، فأنزلنى- أعلى اللّه قدره- منزلة ولده رعاية للذّمم، و حفظا على الودّ الموروث من القدم، فأفادنى من بحار علمه ما تقصر عنه العبارة و يكلّ دونه القلم، فقرأت عليه جملة من تفسير القرآن و من الحديث صحيح البخارى بقراءتى و قراءة غيرى مرارا و صحيح مسلم كذلك و سنن الترمذى و أبى داود بقراءتى، و «الموطأ» سماعا و تفقّها و «العمدة»، و من علم الحديث أرجوزة «الحديقة» و بعض الكبرى و هى «الروضة» تفقّها، و من العربية نصف «المقرّب» تفقّها و جميع كتاب سيبويه كذلك، و ألفية ابن مالك، و أوائل «شرح الإيضاح» لابن أبى الربيع، و بعض «المغنى» لابن هشام، و من الفقيه «التهذيب» كلّه تفقّها، و ابن الحاجب الفرعى، و بعض مختصر الشيخ خليل، و «التلقين»، و ثلثى الجلاب، و جملة من «المتيطية»، و «البيان» لابن رشد، و بعض الرسالة، و كلّ ذلك قراءة تفقه، و تفقّهت عليه من كتب الشافعية فى «تنبيه» الشيرازى و «وجيز» الغزالى من أوله إلى كتاب الإقرار، و من كتب الحنفية «مختصر القدورى» تفقّها، و من كتب الحنابلة «مختصر الخرقى» تفقّها، و من أصول الفقه «المحصول»، و «مختصر» ابن الحاجب،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۵۱

و «التنقيح»، و كتاب «المفتاح» لجدّى، و قواعد عز الدين، و كتاب «المصالح و المفاسد» له، و «قواعد» القرافى، و جملة من «النظائر و الأشباه» للعلائى، و «إرشاد» العميدى، و من أصول الدين «المحصل» و «الإرشاد» تفقّها، و فى القراءات قصيدة الشاطبى تفقّها، و ابن برى، و من البيان «التلخيص»، و «الإيضاح»، و «المصابيح»، و كلّها تفقّها، و من التصوف «الإحياء» للغزالى سوى الربع الأخير منه، و ألبسنى خرقة التصوف كما ألبسه أبوه و عمّه، و هما ألبسهما أبوهما جدّه؛ انتهى ملخصا.

و كتب المذكور تحت هذا ما نصّه: صدق السيد بن السيد [بن السيد] أبو الفرج المذكور فيما ذكر من القراءة و السماع و التفقّه و برّ، و قد أجزته فى ذلك كلّه، فهو حقيق بها مع الإنصاف و صدق النظر، جعلنى اللّه و إياه ممّن علم و عمل لآخرته و اعتبر، قاله محمد بن مرزوق؛ انتهى.

و قال تلميذه الولى أبو زيد سيدى عبد الرحمن الثعالبى: قدم علينا بتونس شيخنا أبو عبد اللّه بن مرزوق فأقام بها، فأخذت عنه كثيرا، و سمعت عليه جميع الموطإ بقراءة صاحبنا أبى حفص عمر ابن شيخنا محمد القلشانى، و ختمت عليه أربعينيات النووى، قرأتها عليه فى منزله قراءة تفهم، فكان كلّما قرأت عليه حديثا يعلوه خشوع و خضوع، ثم يأخذ فى البكاء، فلم أزل أقرأ و هو يبكى إلى أن ختمت الكتاب، و كان من أولياء اللّه الذين رؤوا ذكر اللّه، و أجمع الناس على فضله من المغرب إلى الديار المصرية، و اشتهر ذكره فى البلاد، فكان بذكره تطرز المجالس، و جعل اللّه تعالى حبه فى قلوب العامة و الخاصة فلا يذكر فى مجلس إلّا و النفوس متشوقة إلى ما يحكى عنه، و كان فى التواضع و الإنصاف و الاعتراف بالحقّ فى الغاية و فوق النهاية، لا أعلم له نظيرا فى ذلك فى وقته، ثم ذكر كثيرا جدّا من الكتب ممّا سمعه عليه، و أطال فى ذلك.

و قال فى موضع آخر: هو سيدى الشيخ الإمام، و الحبر الهمام، حجّة أهل الفضل فى وقتنا و خاتمتهم، و رحلة النقاد و خلاصتهم، و رئيس المحققين و قادتهم، السيد الكبير، و الذهب الإبريز، و العلم الذى نصبه التميز، ابن البيت الكبير، و الفلك الأثير، و معدن الفضل الكثير، سيدى أبو عبد اللّه محمد ابن الإمام الجليل الأوحد الأصيل، جمال الفضلاء، سليل الأولياء، أبى العباس أحمد، ابن العالم الكبير، العلم الشهير، تاج المحدّثين، و قدوة المحقّقين، أبى عبد اللّه محمد بن مرزوق.

و قال أيضا فى موضع آخر: هو شيخى الإمام العلم الصدر الكبير، المحدّث الثقة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۵۲

المحقّق بقيّة المحدّثين، و إمام الحفظة الأقدمين و المحدثين، سيد وقته، و إمام عصره و ورع زمانه، و فاضل أقرانه، أعجوبة أوانه، و فاروق زمانه، ذو الأخلاق المرضية، و الأحوال الصالحة السنيّة، و الأعمال الفاضلة الزكية، أبو عبد اللّه.

و قال فى حقّه المازونى فى أول نوازله: شيخنا الإمام الحافظ بقية النظار و المجتهدين، ذو التواليف العجيبة، و الفوائد الغريبة، مستوفى المطالب و الحقوق، أبو عبد اللّه بن مرزوق.

و قال تلميذه الحافظ العلامة أبو عبد اللّه التنيسى عند ذكره: إنّ إمامنا مالكا سئل عن أربعين مسألة فقال فى ست و ثلاثين «لا أدرى، و جنّة العالم لا أدرى» ما نصّه: و لم نر فيمن أدركنا من شيوخنا من تمرّن على هذه الخصلة الشريفة و يكثر استعمالها غير شيخنا العالم العلامة رئيس علماء المغرب على الإطلاق أبى عبد اللّه محمد بن أحمد بن مرزوق.

و قال الشيخ أبو الحسن القلصادى فى رحلته: أدركت بتلمسان كثيرا من العلماء و العبّاد و الزهّاد و الصلحاء، أولاهم فى الذكر و التقديم الشيخ الفقيه الإمام العلامة الكبير الشهير شيخنا و بركتنا أبو عبد اللّه بن مرزوق، حلّ كنف العلم و العلا، و جلّ قدره فى الجلّة و الفضلا، قطع الليالى ساهرا، و قطف من العلم أزاهرا، فأثمر و أورق، و غرّب و شرّق، حتى توغّل فى فنون العلم و استغرق، إلى أن أطلع للأبصار هلالا لأنّ الغرب مطلعه، و سما فى النفوس موضعه و موقعه، فلا ترى أحسن من لقائه، و لا أسهل من إلقائه، لقى الشيوخ الأكابر، و بقى حمده مغترفا من بطون الكتب و ألسنة الأقلام و أفواه المحابر، و كان رضى اللّه عنه من رجال الدنيا و الآخرة، و كانت أوقاته كلّها معمورة بالطاعات ليلا و نهارا من صلاة و قراءة قرآن و تدريس علم وفتيا و تصنيف، و كانت له أوراد معلومة و أوقات مشهودة، و كانت له بالعلم عناية، تكشف بها العماية، و دراية، تعضدها الرواية، و نباهة، تكسب النزاهة، قرأت عليه- رضى اللّه عنه!- بعض كتابه فى الفرائض و أواخر إيضاح الفارسى و شيئا من شرح التسهيل، و عرضت عليه إعراب القرآن و صحيح البخارى و الشاطبيتين و أكثر ابن الحاجب الفرعى و التلقين و تسهيل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۵۳

ابن مالك و الألفية و الكافية و ابن الصلاح فى علم الحديث و منهاج الغزالى و بعض الرسالة و غيرها، ثم توفى يوم الخميس بمصر رابع عشر شعبان عام اثنين و أربعين و ثمانمائة، و صلى عليه بالجامع الأزهر بعد صلاة الجمعة، و حضر جنازته السلطان فمن دونه، و لم أر مثلها قبل، و أسف الناس لفقده، و آخر بيت سمع منه قبل موته: [البسيط]

إن كان سفكك دمى أقصى مرادكم فما غلت نظرة منكم بسفك دمى

انتهى ملخصا.

و فى فهرست ابن غازى فى ترجمة شيخه أبى محمد الوريا جلى ما صورته: و ممّن لقى من شيوخ تلمسان المحروسة الإمام العلم العلامة الصدر الأجلّ الأوحد المحقق النّظار الحجّة العالم الربانى أبو عبد اللّه محمد بن مرزوق، و قد حدّثنى بكثير من مناقبه و صفة إقرائه، و قوة اجتهاده، و تواضعه لطلبة العلم، و شدّته على أهل البدع، و ما اتّفق له مع بعضهم، إلى غيرها من شيمه الكريمة، و محاسنه العظيمة؛ انتهى.

و قال بعضهم فى حقّه: إنه كان يسير سيرة سلفه فى العلم و التخلق و الحلم و الشفقة و حبّ المساكين، آية اللّه فى الفهم و الذكاء و الصدق و العدالة و النزاهة و اتّباع السنّة فى الأقوال و الأفعال، و محبّة أهلها فى جميع الأحوال، مبغضا لأهل البدع و محبّا سدّ الذرائع، له كرامات؛ انتهى.

و أما شيوخه منهم العلامة السيد عبد اللّه الشريف التلمسانى، و عالم المغرب القاضى سيدى سعيد العقبانى التلمسانى، و الولى العابد الصالح أبو إسحاق سيدى إبراهيم المصمودى، و أفرد ترجمته بتأليف، و عن أبيه و عمّه، و يروى عن جدّه بالإجازة و ابن عرفة و أبى العباس القصار التونسى، و بفاس عن النحوى أبى حيان و أبى زيد المكودى، و جماعة غيرهما، و بمصر عن السراج البلقينى، و الزين الحافظ العراقى، و الشمس الغمارى، و السراج ابن الملقن، و صاحب القاموس، و المحب ابن هشام ابن صاحب «المغنى»، و النور النويرى، و الولى ابن خلدون، و القاضى التنيسى، و غيرهم.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۵۴

و أخذ عنه جماعة كالثعالبى، و القاضى عمر القلشانى، و ابن العباس و العلامة نصر الزواوى، و الولى سيدى الحسن بن كان، و ابنه، و أبى البركات الغمارى، و أبى الفضل المشذالى، و قاضى غرناطة أبى العباس بن أبى يحيى الشريف، و إبراهيم بن فائد، و أبى العباس التدرومى، و ابنه الكفيف، و سيدى على بن ثابت، و الشهاب ابن كحيل التجانى، و العلامة أحمد بن يونس القسمطينى، و العلامة يحيى بن بدير، و أبى الحسن القلصادى، و الشيخ عيسى بن سلامة البكرى، و غيرهم، كالحافظ التنيسى التلمسانى.

قلت: و سندى إليه عن عمّى الإمام سيدى سعيد المقرى، عن الشيخ أبى عبد اللّه التنيسى، عن والده الحافظ أبى عبد اللّه محمد التنيسى المذكور، عن ابن مرزوق المذكورة بكل مروياته و تآليفه.

و قال السخاوى فى حقّه: هو أبو عبد اللّه، يعرف بحفيد ابن مرزوق، و قد يختصّ بابن مرزوق، و قد تلا لنافع على عثمان الزروالى، و انتفع فى الفقه بأبى عبد اللّه بن عرفة، و أجازه أبو القاسم محمد بن الخشاب و محمد بن على الحفار الأنصارى و محمد القيجاطى، و حجّ قديما سنة تسعين و سبعمائة رفيقا لابن عرفة، و سمع من البهاء الدمامينى و النور العقيلى بمكة، و فيها قرأ البخارى على ابن صديق، و لازم المحب ابن هشام فى العربية، و كذا حجّ سنة تسع عشرة و ثمانمائة، و لقيه الزينى رضوان بمكة، و كذا لقيه ابن حجر؛ انتهى.

و أمّا تواليفه فكثيرة منها شروحه الثلاثة على البردة، و سمّى الأكبر «إظهار صدق المودّة، فى شرح البردة» و استوفى فيه غاية الاستيفاء، و ضمّنه سبعة فنون فى كلّ بيت، و الأوسط، و الأصغر المسمى ب «الاستيعاب، لما فيها من البيان و الإعراب» و منها «المفاتيح القراطيسية، فى شرح الشقراطيسية» و «المفاتيح المرزوقية، فى استخراج رجز الخزرجية» و رجز فى علوم الحديث سمّاه «الروضة» و مختصره فى رجز سمّاه «الحديقة» و رجز فى الميقات سمّاه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۵۵

«المقنع الشافي» مشتمل على ألف و سبعمائة بيت، و «نهاية الأمل، فى شرح الجمل» أى جمل الخونجى، و «اغتنام الفرصة، فى محادثة عالم قفصة» و هو أجوبة عن مسائل فى فنون العلم وردت عليه من علامة قفصة أبى يحيى بن عقبة فأجابه عنها، و «المعراج، إلى استمطار فوائد الأستاذ ابن سراج» فى كراسة و نصف، أجاب به أبا القاسم بن سراج الغرناطى عن مسائل نحوية و منطقية، و «أنوار اليقين، فى شرح حديث أولياء اللّه المتقين» و هو حديث أول حلية أبى نعيم فى شأن البدلاء و غيرهم، و «الدليل المومى، فى ترجيح طهارة الكاغد الرومى» و «النصح الخالص، فى الردّ على مدعى رتبة الكامل الناقص» فى سبعة كراريس، ردّ به على عصريّه الإمام أبى الفضل قاسم العقبانى فى فتواه فى مسألة الفقراء الصوفية لما صوب العقبانى صنيعهم، و خالفه هو، و «مختصر الحاوى فى الفتاوى» لابن عبد النور، و «الروض البهيج، فى مسائل الخليج» و «أنوار الدرارى، فى مكررات البخارى» [و رجز تلخيص ابن البناء]، و رجز تلخيص المفتاح، نظمه فى حال صغره، و رجز «حرز الأمانى» و رجز جمل الخونجى، و رجز اختصار ألفية ابن مالك، و تأليفه فى مناقب شيخه المصمودى، و تفسير سورة الإخلاص على طريقة الحكماء، و هذه كلّها تامة.

و أمّا ما لم يكمل من تآليفه فالمتجر الربيح و السعى الرجيح و المرحب الفسيح فى شرح الجامع الصحيح، و روضة الأريب فى شرح التهذيب، و المنزع النبيل فى شرح مختصر الخليل، شرح منه كتاب الطهارة فى مجلدين، و من الأقضية إلى آخره فى سفرين، و إيضاح السالك، على ألفية ابن مالك، إلى اسم الإشارة أو الموصول مجلّد كبير فى قدر شرح المرادى، و شرح شواهد شراح الألفية إلى باب «كان» مجلّد، و له خطب عجيبة.

و أمّا أجوبته و فتاويه على المسائل المنوعة فقد سارت بها الركبان شرقا و غربا بدوا و حضرا، و قد نقل المازونى و الونشريسى منها جملة وافرة.

و من تآليفه أيضا عقيدته المسمّاة «عقيدة أهل التوحيد، المخرجة من ظلمة التقليد» و «الآيات الواضحات، فى وجه دلالة المعجزات» و «الدليل الواضح المعلوم، فى طهارة كاغد الروم» و «إسماع الصم، فى إثبات الشرف من قبل الأم» و ذكر السخاوى أنّ من تواليفه شرح ابن الحاجب الفرعى، و شرح التسهيل؛ انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۵۶

و مولده كما ذكره فى شرحه على البردة ليلة الاثنين رابع عشرى ربيع الأول عام ستة و ستين و سبعمائة قال: حدّثتنى أمى عائشة بنت الفقيه الصالح القاضى أحمد بن الحسن المديونى، و كانت من الصالحات ألفت مجموعا على أدعية اختارتها، و كانت لها قوة على تعبير الرؤيا اكتسبتها من كثرة مطالعتها لكتب الفن، أنه أصابنى مرض شديد أشرفت منه على الموت، و من شأنها و أبيها أنهما لا يعيش لهما ولد إلّا نادرا، و كانوا أسمونى أبا الفضل أول الأمر، فدخل عليها أبوها أحمد المذكور، فلمّا رأى مرضى و ما بلغ بى غضب و قال: أ لم أقل لكم لا تسموه أبا الفضل، ما الذى رأيتم له من الفضل حتى تسموه أبا الفضل؟ سمّوه محمدا، لا أسمع أحدا يناديه بغيره إلّا فعلت به و فعلت، يتوعّد بالأدب، قالت: فسمّيناك محمدا، ففرج اللّه عنك؛ انتهى.

و من فوائده ما حكى فى بعض فتاويه قال: حضرت مجلس شيخنا العلامة نخبة الزمان ابن عرفة، رحمه اللّه تعالى، أول مجلس حضرته فقرأ وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ [الزخرف:

۳۶] فجرى بيننا مذاكرات رائقة، و أبحاث حسنة فائقة، منها أنه قال: قرىء (يعشو) بالرفع و (نقيّض) بالجزم، و وجهها أبو حيان بكلام ما فهمته، و ذكر أنّ فى النسخة خللا، و ذكر بعض ذلك الكلام، فاهتديت إلى تمامه فقلت: يا سيدى، معنى ما ذكره أنّ جزم نُقَيِّضْ بمن الموصولة لشبهها بالشرطية لما تضمنت من معنى الشرط، و إذا كانوا يعاملون الموصول الذى لا يشبه لفظه لفظ الشرط بذلك فما يشبه لفظ الشرط أولى بتلك المعاملة، فوافق رحمه اللّه تعالى و فرح- لما أن الإنصاف كان طبعه - و عند ذلك أنكر علىّ جماعة من أهل المجلس و طالبونى بإثبات معاملة الموصول معاملة الشرط، فقلت: نصهم على دخول الفاء فى خبر الموصول فى نحو «الذى

يأتيني فله درهم» من ذلك، فنازعوني في ذلك، و كنت حديث عهد بحفظ التسهيل، فقلت: قال ابن مالك فيما يشبه المسألة: و قد يجزم متسبب عن صلة الذى تشبيها بجواب الشرط، و أنشدت من شواهد المسألة قول الشاعر: [الطويل]

كذاك الذى يبغى على الناس ظالما تصبه على رغم عواقب ما صنع

فجاء الشاهد موافقا للحال؛ انتهى بنقل تلميذه المازونى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۵۷

و قد ذكر الشيخ ابن غازى الحكاية في فهرسته في ترجمة شيخه الأستاذ الصّغير، و فيها بعض مخالفة لما تقدم، فلنسقه، قال: حدّثني أنه بلغه عن ابن عرفة أنه كان يدرّس من صلاة الغداة إلى الزوال، يقرئ فنونا، و يبتدئ بالتفسير، و أن الإمام ابن مرزوق أوّل ما دخل عليه وجده يفسّر هذه الآية وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ فكان أوّل ما فاتحه أن قال له: هل يصحّ كون مَنْ هنا موصولة؟ فقال ابن عرفة: كيف و قد جزمت؟ فقال له: تشبيها لها بالشرط، فقال ابن عرفة: إنما يقدم على هذا بنصّ من إمام أو شاهد من كلام العرب، فقال: أمّا النصّ فقول التسهيل كذا، و أما الشاهد فقول الشاعر: [الطويل]

فلا تحفرن بئرا تريد أخا بها فإنك فيها أنت من دونه تقع

كذاك الذى يبغى على الناس ظالما تصبه على رغم عواقب ما صنع

فقال ابن عرفة: فأنت إذا ابن مرزوق، قال: نعم، فرحب به؛ انتهى. و هو خلاف ما تقدّم، و الأوّل أصوب لنقل غير واحد أنّ جزم الموصولات إنما يكون في الجواب، لا في الشرط، و اللّه تعالى أعلم.

و في بعض المجاميع أنّ ابن عرفة اشتغل بضيافته لما انفصل المجلس.

و من فوائده أنه كان يصرف لفظ [«هريرة» من] «أبي هريرة» بناء على أنّ جزء العلم غير علم، و خالفه أهل فاس في ذلك لما بلغهم، و مال الأستاذ الصغير و الحافظ القورى إلى منع الصرف لوجوه ليس هذا موضعها، و منها قول ابن مالك: [الرجز]

و لاضطرار كبنات الأوبر

فإنه مؤذن بأنّ جزء العلم علم، و قد ألف في المسألة أبو العباس التلمساني تأليفا سماه «الاعتراف، في ذكر ما في لفظ أبي هريرة من الانصراف»؛ انتهى.

و من نظمه: [الكامل]

بلد الجدار ما أمرّ نواها كلف الفؤاد بحبّها و هواها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۵۸

يا عاذلي كن عاذري في حبّها يكفيك منها ماؤها و هواها

و يعني ببلد الجدار تلمسان، و لذلك قال في رجز في علم الحديث ما صورته: [الرجز]

و أهلها أهل ذكاء و فطن في رابع من الأقاليم قطن

يكفيك أن الداودي بها دفن مع ضجيعه ابن غزلون الفطن

قلت: و حدّثني عمي الإمام سيدي سعيد المقرى- رحمه اللّه تعالى!- أنّ العلامة ابن مرزوق لما قدم تونس في بعض الرسائل السلطانية طلب منه أهل تونس أن يقرأ لهم في التفسير بحضرة السلطان؛ فأجابهم إلى ذلك، و عيّنوا له محلّ البدء، فطالع فيه، فلمّا حضروا قرأ القارئ غير ذلك، و هو قوله تعالى فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ [الأعراف: ۱۷۶] و أرادوا بذلك إفحام الشيخ، و التعريض به، فوجم هنيهة، ثم تفجّر بينابيع العلم، إلى أن أجرى ذكر ما في الكلب من الخصال المحمودة، و ساقها أحسن مساق، و أنشد عليها الشواهد، و جلب الحكايات، حتى عدّ من ذلك جملة، ثم قال في آخرها: فهذا ما حضر من محمود أفعال الكلب و خصاله، غير أنّ فيه خصلة ذميمة، و هي إنكاره للضيف، ثم افترق المجلس، و أخبرني أنه أطال في ذلك المجلس من الصبح إلى قرب الظهر، و قد طال عهدى بالحكاية،

و إنما نقلتها بمعناها من حفظى، و هى من الغرائب، و لو لا الإطالة لذكرت ما وقع له مع بعض علماء برصّة فى الحجاز حسبما ذكره فى مناقب شيخه المصمودى، رحم اللّه الجميع!.

رجع إلى ذكر مشايخ لسان الدين، فنقول:

[و من شيوخ لسان الدين أبو الحسن على بن الجياب، الأنصارى، الغرناطى]

و من مشايخ لسان الدين الرئيس أبو الحسن على بن الجياب، و هو كما فى «الإحاطة» على بن محمد بن سليمان بن على بن سليمان بن الحسن، الأنصارى، الغرناطى، أبو الحسن، قال: و هو شيخنا و رئيسنا العلّامة البليغ. و من مشايخه أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفى، و خلق، قال: و قد دوّنت شعره، فمن معشّراته قوله فى حرف الجيم: [الطويل]

جريئا على الزلّات غير مفكّر جبانا على الطاعات غير معرّج

جمعت لما يفنى اغترارا بجمعه و ضيّعت ما يبقى سجيّة أهوج

جنونا بدار لا يدوم سرورها فدعها سدى ليست بعشّك فادرجى

جيادك فى شأو الضلال سوابق تفوت مدى سنّ الوجيه و أعوج

جهلت سبيل الرشد فاقصد دليله تجد دار سعد بابها غير مرتج

جناب رسول ساد أولاد آدم و قرّب فى السبع الطباق بمعرج

جمال أنار الأرض شرقا و مغربا فكلّ سنا من نوره المتبلّج

جلا صدأ المرتاب أن سبّح الحصى لديه بنطق ليس بالمثلجلج

جعلت امتداحى و الصلاة عليه لى وسائل تحظينى بما أنا مرتج

و قال من الأغراض الصوفية السلطانية: [الكامل]

هات اسقنى صرفا بغير مزاج راحى التى هى راحتى و علاجى

إن صبّ منها فى الزجاجة قطرة شفّ الزجاج عن السّنا الوهّاج

و إذا الخليع أصاب منها شربة حاجاه بالسّرّ المصون محاجى

و إذا المريد أصاب منها جرعة ناجاه بالحقّ المبين مناجى

تاهت به فى مهمه لا يهتدى فيه لتأويب و لا إدلاج

يرتاح من طرب بها فكأنما غنّته بالأرمال و الأهزاج

هبّت عليه نفحة قدسية فى فىء باب دائم الإرتاج

فإذا انتشى يوما و فيه بقيّة سارت به قصدا على المنهاج

و إذا تمكّن منه سكر معربد فليصبرنّ لمصرع الحلّاج

قصرت عبارة فيه عن وجدانه فغدا يفيض بمنطق لجلاج

أعشاه نور للحقيقة باهر فتراه يخبط فى الظلام الداجى

رام الصعود بها لمركز أصله فرمت به فى بحرها الموّاج

فلئن أمدّ برحمة و سعادة فليخلصن من بعد طول هياج

و ليرجعن بغنيمة موفورة ما شيب عذب شرابها بأجاج

و لئن تخطّاه القبول لما جنى فليرجعن نكسا على الأدراج

ما أنت إلّا درّة مكنونة قد أودعت فى نطفة أمشاج

فاجهد على تخليصها من طبعها تعرّج بها فى أرفع المعراج

و اشدد يديك معا على حبل التّقى فإن اعتصمت به فأنت الناجى

ولدى العزيز ابسط بساط تذلّل و إلى الغنىّ امدد يد المحتاج

هذا الطريق له مقدّمتان صا دقتان أنتجتا أصحّ نتاج

فاجمع إلى ترك الهوى حمل الأذى و اقنع من الإسهاب بالإدماج

حرفان قد جمعا الذى قد سطروا من بسط أقوال و طول حجاج

و المشرب الأصفى الذى من ذاقه فقد اهتدى منه بنور سراج

أن لا ترى إلّا الحقيقة وحدها و الكلّ مضطرّ إليها لاجى

هذى بدائع حكمة أنشأتها بإشارة المولى أبى الحجّاج

وسع الأنام بفضله و بعدله و بحمله و بجوده الثّجّاج

من آل نصر نخبة الملك الرّضا أمن المروّع هم و غيث الراجى

من آل قيلة ناصرى خير الورى و الخلق بين تخاذل و لجاج

ما ذا أقول و كلّ قول قاصر فى وصف بحر زاخر الأمواج

منه لباغى العرف درّ فاخر و لمن يعادى الدين هول فاجى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۶۱

داست سعودك فى مزيد، و المنى تأتيك أفواجا على أفواج

و قال من المطولات: [الكامل]

لمن المطايا فى السّراب سوابحا تفلى الفلاة غواديا و روائحا

عوج كأمثال القسىّ ضوامر يرمين فى الآفاق مرمى نازحا

و قال يمدح، و يصف مصنعا سلطانيا: [الكامل]

زارت تجرّ لنحوه أذيالها هيفاء تخلط بالنّفار دلالها

فالشمس من حسد لها مصفرّة إذ قصّرت عن أن تكون مثالها

وافتك تمزج لينها بقساوة قد أدرجت طىّ العتاب نوالها

كم رمت كتم مزارها لكنه صحّت دلائل لم تطق إعلالها

تركت على الأرجاء عند مسيرها أرجا كأنّ المسك فتّ خلالها

ما واصلتك محبّة و تفضّلا لو كان ذاك لواصلت إفضالها

لكن توقّعت السّلوّ فجدّدت لك لوعة لا تتقى ترحالها

فوحبها قسما يحقّ بروره لتجشّمنّك فى الهوى أهوالها

حسّنت نظم الشّعر فى أوصافها إذ قبّحت لك فى الهوى أفعالها

يا حسن ليلة وصلها، ما ضرّها لو اتّبعت من بعدها أمثالها

لمّا سكرت بريقها و جفونها أهملت كأسك لم ترد إعمالها

هذا الربيع أتاك ينشر حسنه فافسح لنفسك فى مداه مجالها

و اخلع عذارك فى البطالة جامحا و اقرن بأسحار الهنا آصالها

فى جنّة تجلو محاسنها كما تجلو العروس لدى الزفاف جمالها

شكرت أيادى للحيا شكر الورى شرف الملوك همامها مفضالها

و صميمها أصلا و فرعا، خيرها ذاتا و خلقا، سمحها بذّالها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۶۲

الطاهر الأعلى الأمين المرتضى بحر المكارم غيثها سلسالها

حاز المعالى كابرا عن كابر و جرى لغايات الكرام فنالها

إن تلقه فى يوم بذل هباته تلقى الغمائم أرسلت هطّالها

أو تلقه فى يوم حرب عداته تلق الضّراغم فارقت أشبالها

ملك إذا ما صال يوما صولة خلت البسيطة زلزلت زلزالها

فبسيبه و بسيفه نلت المنى و استعجلت أعداؤه آجالها

الواهب الآلاف قبل سؤالها فكفى العفاة سؤالها و مطالها

القاتل الآلاف قبل قراعها فكفى العداة قراعها و نزالها

إن قلت بحر كفّه قصّرت إذ شبّهت بالملح الأجاج نوالها

ملأ البسيطة عدله و أمانه فالوحش لا تعدو على من غالها

و سقى البريّة فيض كفّيه فقد عمّ البلاد سهولها و جبالها

جمع العلوم عناية بعيونها آدابها و حسابها و جدالها

منقولها، معقولها، و أصولها و فروعها، تفصيلها إجمالها

فإذا عفاتك عاينوك تهللوا لمّا رأوا من كفّك استهلالها

و إذا عداتك أبصروك تيقّنوا أنّ المنيّة سلّطت رئبالها

بددت شملهم ببيض صوارم روّيت من علق الكماة نصالها

و أبحت أرضهم فأصبح أهلها خورا تغادر نهبة أموالها

فتحت إمارتك السعيدة للورى أبواب بشرى واصلت إقبالها

و بنت مصانع رائقات ذكّرت دار النعيم جنانها و ظلالها

و أجلّها قدرا و أرفعها مدى هذا الذى سامى النجوم و طالها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۶۳

هو جنّة فيها الأمير مخلّد بلغت إمارته بها آمالها

و لأرض أندلس مفاخر، أنتم أربابها، أضفيتم سربالها

فحميتمو أرجاءها، و كفيتمو أعداءها، و هديتمو ضلّالها

فبآل نصر فاخرت لا غيرهم لم تعتمد من قبلهم أقيالها

بمحمد و محمد و محمد قصرت على الخصم الألدّ نضالها

فهم الألى ركبوا لكلّ عظيمة جردا كسين من النجيع جلالها

و هم الألى فتحوا لكلّ ملمّة بابا أزاح بفتحه إشكالها

متقلّدون من السيوف عضابها متأبّطون من الرماح طوالها

الراكبون من الجياد عرابها و الضاربون من العدا أبطالها

أولىّ عهد المسلمين و نخبة ال لأملاك صفوة محضها و زلالها

إنّ العباد مع البلاد مقرّة بفضائل لك مهّدت أحوالها

فتفكّ عانيها، و تحمى سربها و تفيد حلما دائما جهّالها

و قال يرثى ولده أبا القاسم رحمهما اللّه تعالى: [الطويل]

هو البين حتما، لا لعلّ و لا عسى فما بال نفسى لم تفض عنده أسى

و ما لفؤادى لم يذب منه حسرة فتبّا لهذا القلب سرعان ما قسا

و ما لجفونى لا تفيض مورّدا من الدمع يهمى تارة و مورّسا

و ما للسانى مفصحا بخطابه و ما كان لو أوفى بعهد لينبسا

أمن بعد ما أودعت روحى فى الثرى و وسّدت منى فلذة القلب مرمسا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۶۴

و بعد فراق ابنى أبى القاسم الذى كسانى ثوب الثّكل لا كان ملبسا

أؤمّل فى الدنيا حياة و أرتضى مقيلا لدى أبنائها و معرّسا

فآها و للمفجوع فيها استراحة و لا بدّ للمصدور أن يتنفّسا

على عمر أفنيت فيه بضاعتى فأسلمنى للقبر حيران مفلسا

ظللت به فى غفلة و جهالة إلى أن رمى سهم الفراق فقرطسا

إلى اللّه أشكو برح حزنى فإنه تلبّس منه القلب ما قد تلبّسا

و هدّة خطب نازلتنى عشية فما أغنت الشكوى و لا نفع الأسا

فقد صدّعت شملى و أصمت مقاتلى و قد هدّمت ركنى الوثيق المؤسّسا

ثبتّ لها صبرا لشدّة وقعها فما زلزلت صبرى الجميل و قد رسا

و أطمع أن يلقى برحمته الرضا و أجزع أن يشقى بذنب فينكسا

أبا القاسم اسمع شكو والدك الذى حسا من كؤوس البين أفظع ما حسا

وقفت فؤادى مذ رحلت على الأسى فأشهد لا ينفكّ وقفا محبّسا

و قطّعت آمالى من الناس كلّهم فلست أبالى أحسن المرء أم أسا

تواريت يا شمسى و بدرى و ناظرى فصار وجودى مذ تواريت حندسا

و خلّفت لى عبئا من الثّكل فادحا فما أتعب الثّكلان نفسا و أتعسا

أ حقّا ثوى ذاك الشباب فلا أرى له بعد هذا اليوم حولى مجلسا

فيا غصنا نضرا ثوى عند ما استوى فأوحشنى أضعاف ما كان آنسا

و يا نعمة لمّا تبلّغتها انقضت فأنعم أحوالى بها صار أبأسا

لودّعته و الدمع تهمى سحابه كما أسلم السلك الفريد المخمّسا

و قبّلت فی ذاک الجبین مودعا لأکرم من نفسی علیّ و أنفسا

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۶، ص: ۳۶۵

و حقّقت من وجدی به قرب رحلتی و ما ذا عسی أن ینظر الدهر من عسا

فیا رحمهٔ للشیب یبکی شبیبهٔ قیاس لعمری عکسه کان أقیسا

فلو أنّ هذا الموت یقبل فدیهٔ حبوناه أموالا کراما و أنفسا

و لکنه حکم من اللّه واجب یسلّم فیه من بخیر الوری ائتسی

تغمدک الرحمن بالعفو و الرضا و کرّم مثواک الجدید و قدّسا

و ألّف منّا الشمل فی جنّهٔ العلا فنشرب تسنیما و نلبس سندسا

و کتب إلی القاضی الشریف و هو بوادی آش: [الطویل]

أهزلا و قد جدّت بک اللّمّهٔ الشمطا و أمنا و قد ساورت یا حیّهٔ رقطا

أغرّک طول العمر فی غیر طائل و سرّک أنّ الموت فی سیره أبطا

رویدا فإنّ الموت أسرع وافد علی عمرک الفانی رکائبه حطّا

فإذ ذاک لا تسطیع إدراک ما مضی بحال، و لا قبضا تطیق و لا بسطا

تأهّب فقد وافی مشیبک منذرا وها هو فی فودیک أحرفه خطّا

فرافقت منه کاتب السّرّ واشیا له القلم الأعلی یخطّ به و خطا

معمّی کتاب فکّه «احذر» فهذه سفینهٔ هذا العمر قاربت الشّطّا

و إن طالما خاضت به اللجج التی خبطت بها فی کلّ مهلکهٔ خبطا

و ما زلت فی أمواجها متقلّبا فآونهٔ رفعا و آونهٔ حطّا

فقد أوشکت تلقیک فی قعر حفرهٔ تشدّ علیک الجانبین بها ضغطا

و لست علی علم بما أنت بعدها ملاق، أ رضوانا من اللّه أم سخطا

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۶، ص: ۳۶۶

و أعجب شیء منک دعواک فی النّهی و هذا الهوی المردی علی العقل قد غطّی

قسطت عن الحقّ المبین جهالهٔ و قد خالفتک النفس فادّعت القسطا

و طاوعت شیطانا تجیب إذا دعا و تقبل إن أغوی و تأخذ إن أعطی

تناءی عن الأخری و قد قربت مدی تدانی من الدنیا و قد أزمعت شحطا

و تمنحها حبّا و فرط صبابهٔ و ما منحت إلّا القتادهٔ و الخرطا

فها أنت تهوی وصلها و هی فارک و تأمل قربا من حماها و قد شطّا

صراط هدی نکّبت عنه عمایهٔ و دار ردی أوعیت فی سجنها سرطا

فما لک إلّا السید الشافع الذی له فضل جاه کلّ ما یرتجی یعطی

دلیل إلی الرحمن، فانهج سبیله فمن حاد عن نهج الدلیل فقد أخطا

محبّته شرط القبول، فمن خلت صحیفته منها فقد فقد الشّرطا

و ما قبلت منه لدی اللّه قربهٔ و لا زکت الأعمال، بل حبطت حبطا

به الحقّ وضاح، به الإفک زاهق به الفوز مرجوّ، به الذنب قد حطّا

هو الملجأ الأحمى، هو الموئل الذى به فى غد يستشفع المذنب الخطّا

لقد مازجت روحى محبّته التى بقلبى خطّت قبل أن أعرف الخطّا

إليك ابن خير الخلق بنت بديهة تقبّل تبجيلا أنا ملك السّبطا

وحيدة هذا العصر وافت وحيدة لتبسط من شتّى بدائعها بسطا

و تتلو آيات التشيّع إنها لموثقة عهدا و محكمة ربطا

لك الشرف المأثور يا ابن محمد و حسبك أن تنمى إلى سبطه سبطا

إلى شرفى دين و علم تظاهرا تبارك من أعطى و بورك فى المعطى

و رهطك أهل البيت، بيت محمد فأعظم به بيتا و أكرم به رهطا

بعثت به عقدا من الدّرّ فاخرا و ذكر رسول اللّه درّته الوسطى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۶۷

و أهديت منها للسيادة غادة نظمت من الدّرّ الثمين بها سمطا

و حاشيتها من كل ما شانها، فإن تجعّد حوشىّ تجد لفظها سبطا

و فى الطيبين الطاهرين نظمتها فساعدها من أجل ذلك حرف الطا

عليك سلام اللّه ما ذرّ شارق و ما ردّدت ورقاء فى غصنها لغطا

و قال: [مخلع البسيط]

للّه عصر الشباب عصرا فتّح للخير كلّ باب

حفظت ما شئت فيه حفظا كنت أراه بلا ذهاب

حتى إذا ما المشيب وافى ندّ و لكن بلا إياب

لا تعتنوا بعدها بحفظ و قيّدوا العلم بالكتاب

و قال: [مخلع البسيط]

يا أيها الممسك البخيل إلهك المنفق الكفيل

أنفق وثق بالإله تربح فإنّ إحسانه جزيل

و قدّم الأقربين و اذكر ما روى ابدأ بمن تعول

و قال: [المتقارب]

و قائلة لم عراك المشيب و ما إن بعهد الصّبا من قدم

فقلت لها لم أشب كبرة و لكنه الهمّ نصف الهرم

و قال: [الطويل]

أ يعتادنى سقم و أنت طبيب و تبعد آمالى و أنت قريب

يقينى أنّ اللّه جلّ جلاله يقينى فراجى اللّه ليس يخيب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۶۸

و قال: [المتقارب]

هى النفس إن أنت سامحتها رمت بك أقصى مهاوى الخديعه

و إن أنت جشّمتها خطّة تنافى رضاها تجدها مطيعه

فإن شئت فوزا فناقض هواها و إن واصلتك اجزها بالقطيعة

و لا تعبأنّ بميعادها فميعادها كسراب بقيعه

و قال: [الكامل]

من أنت يا مولى الورى مقصوده طوبى له قد ساعدته سعوده

فليشهدنك له فؤاد صادق و شهوده قامت عليه شهوده

و ليفنين عن نفسه و رسومه طرّا، و فى ذاك الفناء وجوده

و ليحفظنه بارق يرقى به فى أشرف المعراج ثم يعيده

حتى يظلّ و ليس يدرى دهشة تقريبه المقصود أم تبعيده

لكنه ألقى السلاح مسلّما فمراده ما أنت منه تريده

فلقد تساوى عنده إكرامه و هوانه و مفيده و مبيده

و قال ملغزا فى حجل: [الرجز]

حاجيت كل فطن لبيب ما اسم لأنثى من بنى يعقوب

ذات كرامات فزرها قربة فزورها أحقّ بالتقريب

تشركها فى الاسم أنثى لم تزل حافظة لسرّها المحجوب

و قد جرى فى خاتم الوحى الرضا لها حديث ليس بالمكذوب

و هو إذا ما الفاء منه صحّفت صبغ الحياء لا الحيا المسكوب

فهاكها واضحة أسرارها فأمرها أقرب من قريب

و قال أيضا فى آب: [مجزوء الرجز]

حاجيتكم ما اسم علم ذو نسبة إلى العجم

يخبر بالرجعة و ه و راجع كما زعم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۶۹

وصف الحبيب هو بالتصحيف أو بدء قسم

دونكه أوضح من نار على رأس علم

و قال فى كانون: [الهزج]

و ما اسم لسميّين و لم يجمعهما جنس

فهذا كلّما يأتى فبالآخر لى أنس

و هذا ما له شخص و هذا ما له حس

و هذا ما له سوم و ذا قيمته فلس

و هذا أصله الأرض و هذا أصله الشمس

و هذا واحد من سب عة تحيا بها النفس

فمن محموله الجنّ و من موضوعه الإنس

فقد بان الذى ألغز ت ما فى أمره لبس

و قال فى سلّم: [الرجز]

ما اسم مركّب مفيد الوضع مستعمل فى الوصل لا فى القطع

ينصب لكن أكثر استعمال من يعنى به فى الخفض أو فى الرفع

هو إذا خففته مغيرا تراه شملا لم يزل ذا صدع

فالاسم إن طلبته تجده فى خامسة من الطوال السّبع

و هو إذا صحّفته يعرب عن مكسّر فى غير باب الجمع

له أخ أفضل منه لم تزل آثاره محمودة فى الشّرع

هما جميعا من بنى النجار و الأف ضل أصل فى حنين الجذع

فهاكه قد سطعت أنواره لا سيما لكلّ ذاكى الطبع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۷۰

و قال فى مائدة: [الرجز]

حاجيت كلّ فطن نظّار ما اسم لأنثى من بنى النجار

و فى كتاب اللّه جاء ذكرها فقلّما يغفل عنها القارى

فى خبر المهدىّ فاطلبها تجد إن كنت من مطالعى الأخبار

ما هى إلّا العيد عيد رحمة و نعمة ساطعة الأنوار

يشركها فى الاسم وصف حسن و من وصف قضب الروضة المعطار

فهاكه كالشمس فى وقت الضّحى قد شقّ عنها حجب الأستار

[رثاء لسان الدين لشيخه ابن الجياب]

ثم قال لسان الدين: و أمّا نثره فمطوّلات عرفت بما تخلّلها من الأحوال متونها، و قلّت لمكان البديهة و الاستعجال عيونها، و قد اقتنصت جزءا منها سميته «تافه من جم، و نقطة من يم». و ولد بغرناطة فى جمادى الأولى عام ثلاثة و سبعين و ستمائة. و توفى ليلة الأربعاء الثالث و العشرين من شوّال عام تسعة و أربعين و سبعمائة. و أنشدت من نظمى فى رثائه خامس يوم دفنه على قبره هذه القصيدة: [الكامل]

ما لليراع خواضع الأعناق طرق النعىّ فهنّ فى إطراق

و كأنما صبغ الشحوب وجوهها و السّقم من جزع و من إشفاق

ما للصحائف صوّحت روضاتها أسفا و كنّ نضيرة الأوراق

ما للبيان كؤوسه مهجورة غفل المدير لها و نام الساقى

ما لى عدمت تجلّدى و تصبّرى و الصبر فى الأزمات من أخلاقى

خطب أصاب بنى البلاغة و الحجا شبّ الزفير به عن الأطواق

أمّا و قد أودى أبو الحسن الرضا فالفضل قد أودى على الإطلاق

كنز المعارف لا تبيد نقوده يوما و لا تفنى على الإنفاق

من للبدائع أصبحت سمر السّرى ما بين شام للورى و عراق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۷۱

من لليراع يجيل من خطّيّها سمّ العدا و مفاتح الأرزاق

قضب ذوابل مثمرات بالمنى و أراقم ينفثن بالتّرياق

من للرقاع الحمر يجمع حسنها خجل الخدود و صبغة الأحداق

تغتال أحشاء العدوّ كأنها صفحات دامية الغرار رقاق

و تهزّ أعطاف الوليّ كأنها راح مشعشعة براحة ساقى

من للفنون يجيل فى ميدانها خيل البيان كريمة الأعراق

من للحقائق أبهمت أبوابها للناس يفتحها على استغلاق

من للمساعى الغرّ تقصد جاهه حرما فينصرها على الإخفاق

كم شدّ من عقد وثيق حكمه فى اللّه أو أفتى بحلّ وثاق

رحب الذراع بكلّ خطب فادح أعيت رياضته على الحذّاق

صعب المقادة فى الهوادة و الهوى سهل على العافين و الطّرّاق

ركب الطريق إلى الجنان و حورها يلقينه بتصافح و عناق

فاعجب لأنس فى مظنّة وحشة و مقام وصل فى مقام فراق

أ مطيّبا بمحامد العمل الرضا و مكفّنا بمكارم الأخلاق

ما كنت أحسب قبل نعشك أن أرى رضوى نسير به على الأعناق

ما كنت أحسب قبل دفنك فى الثرى أنّ اللحود خزائن الأعلاق

يا كوكب الهدى الذى من بعده ركد الظلام بهذه الآفاق

يا واحدا مهما جرى فى حلبة جلّى بغرّة سابق السّبّاق

يا ثاويا بطن الضريح و ذكره أبدا رفيق ركائب و رفاق

يا غوث من وصل الصريخ فلم يجد فى الأرض من وزر و لا من واق

ما كنت إلّا ديمة منشورة من غير إرعاد و لا إبراق

ما كنت إلّا روضة ممطورة ما شئت من ثمر و من أوراق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۷۲

يا مزمعا عنّا العشىّ ركابه هلّا ثويت و لو بقدر فواق

رفقا أبانا جلّ ما حمّلتنا لا تنس فينا عادة الإشفاق

و اسمح و لو بمزار لقيا فى الكرى تبقى بها منّا على الأرماق

و إذا اللقاء تصرّمت أسبابه كان الخيال تعلّة المشتاق

عجبا لنفس ودّعتك و أيقنت أن ليس بعد نواك يوم تلاقى

ما عذرها إن لم تقاسمك الردى فى فضل كأس قد شربت دهاق

إن قصّرت أجفاننا عن أن ترى تبكى النجيع عليك باستحقاق

و استوقفت دهشا فإنّ قلوبنا نهضت بكلّ وظيفة الآماق

ثق بالوفاء على المدى من فتية بك تقتدى فى العهد و الميثاق

سجعت بما طوقتها من منّة حتى زرت بحمائم الأطواق

تبكى فراقك خلوة عمّرتها بالذكر فى طفل و فى إشراق

أمّا الثناء على علاك فذائع قد صحّ بالإجماع و الإصفاق
و اللّه قد قرن الثناء بأرضه بثنائه من فوق سبع طباق
جادت ضريحك ديمة هطّالة تبكى عليه بواكف رقراق
و تغمّدتك من الإله سعادة تسمو بروحك للمحلّ الراقى
صبرا بنى الجيّاب إنّ فقيدكم سيسرّ مقدمه بما هو لاق
و إذا الأسى لفح القلوب أواره فالصبر و التسليم أىّ رواق

[رثاء الفقيه أبى عبد اللّه بن جزى لأبى الحسن بن الجياب]

و أنشد فى هذا الغرض الفقيه أبو عبد اللّه بن جزى: [الطويل]
أ لم تر أنّ المجد أقوت معالمه فأطنابه قد قوّضت و دعائمه
هوى من سماء المعلوات شهابها و خانت جواد المكرمات قوائمه
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۷۳
و ثلث من الفجر المشيد عروشه و فلّت من العزّ المنيع صوارمه
و عطّل من حلى البلاغة قسّها و عرّى من جود الأنامل حاتمه
أجل إنه الخطب الذى جلّ وقعه و ثلّم غرب الدين و العلم داهمه
و إلّا فما للنوم طار مطاره و ما للزيم الحزن قصّت قوادمه
و ما لصباح الأنس أظلم نوره و ما لمحيّا الدهر قطّب باسمه
و ما لدموع العين فضّت كأنها فواقع زهر و الجفون كمائمه
قضى اللّه فى قطب الرياسة أن قضى فشتّت ذاك الشمل من هو ناظمه
و من قارع الأيام سبعين حجّة ستنبو غراراه و يندقّ قائمه
و فى مثلها أعيا النطاسىّ طبّه و ضلّ طريق الحزم فى الرأى حازمه
تساوى جواد فى رداه و باخل فلا الجود واقيه و لا البخل عاصمه
و ما نفعت ربّ الجياد كرامه و لا منعت منه الغنىّ كرائمه
و كلّ تلاق فالفراق أمامه و كلّ طلوع فالغروب ملازمه
و كيف مجال العقل فى غير منفذ إذا كان بانى مصنع هو هادمه
ليبك عليّا مستجير بعدله يصاخ لشكواه و يمنع ظالمه
ليبك عليّا مائح بحر علمه يروّى بأنواع المعارف هائمه
ليبك عليّا مظهر فضل نصحه يحلّا عن ورد المآثم حائمه
ليبك عليّا معتف جود كفّه يواسيه فى أمواله و يقاسمه
ليبك عليّا ليله و هو قائم يكابده أو يومه و هو صائمه
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۷۴
ليبك عليّا فضل كلّ بلاغة يخلّده فى صفحة الطّرس راقمه
و شخص ضئيل الجسم يرهب نفثه ليوث الشّرى فى خيسها و ضراغمه

تكفّل بالرزق المقدّر للورى إذا اللّه أعطى فهو فى الناس قاسمه

يسدّده سهما و ينضوه صارما و يشرعه رمحا فكلّ يلائمه

إذا سال من شقّيه سائل حبره بما شاء منه سائل فهو عالمه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۶؛ ص۳۷۴

وم من كان باكيا فتلك مغانيه خلت و معالمه

تقلّد منه الملك عضب بلاغة يقدّ السلوقىّ المضاعف صارمه

و قلّده مثنى الوزارة فاكتفى بها ألمعىّ حازم الرأى عازمه

ففى يده و هو الزعيم بحقّها براعته و المشرفىّ و خاتمه

سخىّ على العافين سهل قياده أبىّ على العادين صعب شكائمه

إذا ضلّت الآراء فى ليل حادث رآها برأى يصدع الخطب ناجمه

و قام بأمر الدين و الملك حاميا فذلّ معاديه و ضلّ مراغمه

و قد كان نيط العلم و الحلم و التّقى به و هو ما نيطت عليه تمائمه

و دوّخ أعناق الليالى بهمّة يبيت و نجم الأفق فيها يزاحمه

و زاد على بعد المنال تواضعا أبى اللّه إلّا أن تتمّ مكارمه

سقيت الغوادى! أىّ علم و حكمة و دين متين ذلك القبر كاتمه

و ما زال يستسقى بدعوتك الحيا وها هو يستسقى لقبرك ساجمه

بكت فقدك الكتّاب إذ كان شملهم يؤلّفه من دوح فضلك ناعمه

و طوّقتهم بالبرّ ثم سقيتهم نداك فكنت الروض ناحت حمائمه

و يبكيك منى ذاهب الصبر موجع توقّد فى جنبيه للحزن جاحمه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۷۵

فتى نال منه الدهر إلّا وفاءه فما وهنت فى حفظ عهد عزائمه

عليل الذى زرّت عليه جيوبه قريح الذى شدّت عليه حزائمه

فقد كنت ألقى الخطب منه بجنّة تعارض دونى بأسه و تصادمه

سأصبر مضطرّا و إن عظم الأسى أحارب حزنى مرّة و أسالمه

و أهديك إذ عزّ اللقاء تحية و طيب ثناء كالعبير نواسمه

[مطالع ثلاث مراث فى ابن الجياب]

و أنشد الفقيه القاضى أبو جعفر بن جزى قصيدة أولها: [الطويل]

أبثّكما و الصبر للعهد ناكث حديثا أملّته علىّ الحوادث

و أنشد القاضى أبو بكر بن على القرشى قصيدة أولها: [الوافر]

هى الآمال غايتها نفاد و فى الغايات تمتاز الجياد

و أنشد الفقيه الكاتب القاضى أبو القاسم بن الحكم قصيدة أولها: [الطويل]

لينع الحجا و الحلم من كان ناعيا و يرع العلا و العلم من كان راعيا

[و هـذه ثلاث] قصائد مطولات يخرج استقصاؤها عن الغرض، فكان هذا التأبين غريبا لم يتقدّم به عهد بالحضـرة لكونها دار ملك، و التجلّة فى مثل هذا مقصورة على أولى الأمر؛ انتهى ما لخّصته من ترجمته فى «الإحاطة».

[من شعر ابن الجياب فى الألغاز]

و لنزد فنقول: و من ألغازه فى الدرهم: [الخفيف]

ما بغيض إلى الكرام خصوصا و حبيب إلى الأنام عموما

فاعجبوا منه كيف يحمى و يحمى و يكفّ العدا و يغنى العديما

إن تغير شطريه فالأول اسم يألف الضّرع و الغمام السّجوما

و يكون الثانى كبير أناس حطمته حياته تحطيما

فإذا ما قلبت أول شطر ردّ منطوق لغزه مفهوما

فإذا ما قلبت ثانى شطر كان كفّا و ليس كفّا رقيما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۷۶

قلبه بعد حذفك الفاء منه هو شىء يحلّل التحريما

أو صغير مستحسن لم يؤدّب إن تعلّمه يقبل التعليما

فلتبيّن ما قلته و لتعيّن و به فلنقم مقاما كريما

و قال فى المسك: [مخلع البسيط]

ما طاهر طيب و لكن ما أصله من ذوى الطهاره

من الظّباء الحسان لكن إذا تأمّلته ففاره

نصّ حديث الرسول فيه شهادة تقتضى بشاره

تصحيفه بعد حذف حرف منزلك الآهل العماره

يعنى مبنى.

و قال فى فلك: [مجزوء الرجز]

ما اسم لشىء مرتقى فى مغرب و مشرق

إذا حذفت فاءه كان لكك الذى بقى

و قال أيضا فى الفنار: [مجزوء الرجز]

ما اسم إذا حذفت من ه فاءه المنوّعه

فإنه ابنة الزنى مضافة لأربعه

يعنى ابنة الزناد، و هى النار.

و قال فى النوم: [مجزوء الرجز]

ما اسم مسمّاه به يسقط حكم التكليف

و إن دخلت البيت بالتص حيف حقّ التعنيف

و إن أردت شبهه فقلبه بالتصحيف

بيّنه فهو فى كتا ب اللّه بادى التعريف

و قال فی غزال: [المجتث]

حاجیتکم ما اسم شیء یروق فی الوصف حسنا

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۶، ص: ۳۷۷

له محاسن شتّی منها فرادی و مثنی

...له بل الشعر أثنی

مهما تنله بحذف أتاک حرفا لمعنی

إن زال أول حرف زال الذی منه یعنی

أو زال ثانیه منه فالقتل أدهی و أفنی

أو زال ثالثه فه و لغو صبّ معنی

فأوضح القصد یا من قد فاق عقلا و ذهنا

و قال فی النمل: [مجزوء الرجز]

ما حیوان اسمه قد جاء فی الذکر الحکیم

و هو إذا قلبته لمن به أنت علیم

و إن تصحّف اسمه فبعض أوصاف اللئیم

و قال فی دواة: [الوافر]

و ما أنثی بها رعی الرعایا و إمضاء المنایا و القضایا

و تقصدها بنوها من رضاع إذا انبعثوا لإبرام القضایا

لها اسم إن أزلت النقط منه فعذ بالله من شرّ البلایا

و إن أبدلت آخره بهمز فقد أبرأت نازلهٔ الشکایا

و إن بدّلت أوّله بنون أتیت ببعض أرزاق المطایا

فأوضح ما رمزناه بفکر سدید القصد مبد للخفایا

و قال فی سفینهٔ: [السریع]

ما ذات نفع و غناء عظیم لها حدیث فی الزمان القدیم

أوحی بها اللّه إلی عبده فحبّذا فعل الرسول الکریم

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۶، ص: ۳۷۸

دعا بها فیما مضی صالح حسبک ما نصّ الکتاب الحکیم

و فی کتاب اللّه ترددها فاقرأ تجده فی قضایا الکلیم

إن أنت صحّفت اسمها تلقه محلّ أنس أو بلاء مقیم

أو هو فعل لک فیما مضی لکن إذا أبرأت داء السقیم

فهاکه قد لاح برهانه مبیّنا لکلّ فکر سلیم

و قال فی المسک أیضا: [المتقارب]

کتبتم کثیرا و لم تکتبوا کهذا الذی سبله واضحه

فما اسم جری ذکره فی الکتاب فإن شئته فاقرإ الفاتحه

ففيها مصحّف مقلوبه يعبّر عن حالة صالحه

و ليست بغادية فاعلموا و لكنها أبدا رائحه

و يعنى بقوله فى الفاتحة قوله أول الأبيات «كتبتم» فافهم.

و قال فى صقر: [السريع]

حاجيتكم ما اسم لبعض السباع تصحيفه ما لك فيه انتفاع

و عكسه إن شئت عكسا له يوجد لكن عند دور السماع

و إن تصحف بعد قلب له فمذهب يعزى لأهل النزاع

فبيّن الألغاز و ارفع لنا بنور فكر منك عنه القناع

و قال فى الحوت: [مجزوء الرجز]

ما حيوان فى اسمه إن اعتبرته فنون

أحرفه ثلاثة و الكلّ منها هو نون

إن أنت صحّفت اسمه فما جناه المذنبون

أو أبيض أو أسود أو صفة النفس الخؤون

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۷۹

قلب اسمه مصحّفا عليه دارت السنون

كانت به فيما مضى عبرة قوم يعقلون

أودع فيه زمنا سرّ من السرّ المصون

فهاكه كالنار فى ال زّند له فيها كمون

و قال فى لبن: [المجتث]

أفديك ما اسم إذا ما صحّفته فهو سبع

و إن تصحّف بعكس ففيه للقبط شرع

و الاسم يعرب عمّا لديه ريّ و شبع

فى النحل يلفى و لكن لا يتّقى فيه لسع

فليس للنحل أصل و لا لها فيه فرع

فهاكه قد تبدّى لحجبه عنه رفع

و قال فى القلم: [الوافر]

و مأموم به عرف الإمام كما باهت بصحبته الكرام

له إذ يرتوى طيشان صاد و يسكن حين يعروه الأوام

و يذرى حين يستسقى دموعا يرقن كما يروق الابتسام

و له- رحمه اللّه تعالى!- كثير من هذا، و لم أر أحدا أحكم الألغاز مثل ما أحكمه ابن الجياب المذكور، و لو لا الإطالة لذكرت منها ما يستدلّ به على صحة الدعوى، و فيما ذكرنا كفاية.

[من نظم ابن الجياب فى رثاء عمر بن على بن عتيق القرشى الغرناطى]

و من نظم الرئيس ابن الجياب المذكور فى رثاء عمر بن على بن عتيق القرشى الهاشمى الغرناطى قوله: [الرمل]

قضى الأمر فيا نفس اصبرى صبر تسليم لحكم القدر

و عزاء يا فؤادى إنه حكم ملك قاهر مقتدر

حكمة أحكمها تدبيره نحن منها فى سبيل السفر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۸۰

أجل مقدر ليس بمس تقدم يوما و لا مستأخر

أحسن اللّه عزاء كلّ ذى خشية لربّه فى عمر

فى إمامنا التقىّ الخاشع الطاهر الذات الزكىّ التيّر

قرشىّ هاشمىّ منتقى من صميم الشرف المطهّر

يشهد الليل عليه أنه دائم الذكر طويل السهر

فى صلاة بعثت وفودها زمرا للمصطفى من مضر

قائما و راكعا و ساجدا لطلوع فجره المنفجر

جمع الرحمن شملنا غدا بحبيب اللّه خير البشر

و تلقته وفود رحمة اللّ ه تأتى بالرضا و البشر

قلت: هذا النظم- و إن برد بما فيه من الزحاف- فله من الوعظ و ذكر اللّه و رسوله، صلّى اللّه عليه و سلم، خير لحاف.

[بين ابن الجياب و ابن شيرين و ابن أبى العافية و غيرهم]

قال لسان الدين: و لما نظم القاضى أبو بكر بن شيرين ببيت الكتابة و مألف الجملة هذين البيتين: [الطويل]

ألا يا محبّ المصطفى زد صبابة و ضمّخ لسان الذكر منك بطيبه

و لا تعبأن بالمبطلين فإنما علامة حبّ اللّه حبّ حبيبه

و أخذ الأصحاب فى تذييل ذلك، قال الشيخ الرئيس أبو الحسن بن الجياب، رحمه اللّه تعالى و رضى عنه: [الطويل]

فمن يعمر الأوقات طرّا بذكره فليس نصيب فى الهدى كنصيبه

و من كان عنه معرضا طول عمره فكيف يرجّيه شفيع ذنوبه

و قال أبو القاسم بن أبى العافية: [الطويل]

أ ليس الذى جلّى دجى الجهل هديه بنور أقمنا بعده نهتدى به

و من لم يكن من ذاته شكر منعم فمشهده فى الناس مثل مغيبه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۸۱

و قال أبو بكر بن أرقم: [الطويل]

نبىّ هدانا من ضلال و حيرة إلى مرتقى سامى المحلّ خصيبه

فهل ينكر الملهوف فضل مجيره و يغمط شاكى الداء شكر طبيبه

فانتهى القول إلى الخطيب أبى محمد بن أبى المجد فقال: [الطويل]

و من قال مغرورا حجابك ذكره فذلك مغمور طريد عيوبه

و ذكر رسول اللّه فرض مؤكد و كلّ محقّ قائل بوجوبه

[بين ابن الجياب و أبى محمد بن أبى المجد]

و قال يوما الشيخ أبو الحسن بن الجياب تجربة للخاطر على العادة: [الخفيف]

جاهد النفس جاهدا فإذا ما فنيت منك فهو عين الوجود

و ليكن حكمها المسدّد فيها حكم سعد فى قتله لليهود

فأجابه أبو محمد بن أبى المجد بقوله: [الخفيف]

أيها العارف المعبّر ذوقا عن معان عزيزة فى الوجود

إنّ حال الفناء عن كلّ غير كمقام المراد غير المريد

كيف لى بالجهاد غير معان و عدوّى مظاهر بجنود

و لو انى حكمت فيمن ذكرتم حكم سعد لكنت جدّ سعيد

فأراها حبابة بى فتونا و أرانى فى حبّها كيزيد

كيف أسلو بنصحكم عن هواها و لو أبدت فعل المحبّ الودود

ليس شىء سوى إلهك يبقى و اعتبر صدق ذا بقول لبيد

[ترجمة عبد اللّه بن عبد البر بن على بن سليمان الرعينى (المعروف بابن أبى المجد)]

و ابن أبى المجد المذكور هو عبد اللّه بن عبد البر بن على بن سليمان بن محمد بن أشعب الرعينى، من أرجدونة من كورة رية، يكنى أبا محمد، و يعرف بابن أبى المجد، كان من أعلام الكورة سلفا و صلاحا و نية فى الصالحين، كثير الإيثار بما تيسّر، مليح التخلّق، حسن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۸۲

السّمت، طيّب النفس، حسن الظنّ، له حظّ من الأدب و الفقه و القراءات و الفرائض، و خوض فى التصوّف، قطع عمره خطيبا و قاضيا ببلده و وزيرا، قرأ على الأستاذ أبى جعفر بن الزبير و ابن أبى فضيلة المعافرى و ابن رشيد، و أجازه طائفة كبيرة. توفى ليلة النصف من شعبان عام تسعة و ثلاثين و سبعمائة، رحمه اللّه تعالى!.

تم الجزء السادس و يليه الجزء السابع مبتدئا بقول المؤلف:

من نظم ابن الجياب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۸۳

فهرس الرسائل و الخطب و المراسيم للجزء السادس من كتاب نفح الطيب

ابن حكم السلوى: رسالته إلى المقرى الجد ۲۱۳

ابن دحية، أبو الخطاب: فصل فى الاعتبار ۹۶

ابن عطية، أبو جعفر:

رسالته إلى الخليفة عبد المؤمن يستعطفه ۱۵۵

رسالته عن أبى حفص فى موقعة وادى ماسة ۱۵۸

ابن مرج الكحل: رسالته إلى صفوان بن إدريس ۴۸

أبو الحسن النباهى: رسالة منه إلى لسان الدين (يكيل له فيها التهم) ۱۰۲

تعليقة فى مدرج طى الرسالة السابقة ۱۰۴

صفوان بن إدريس، أبو البحر

رسالته إلى ابن مرج الكحل ۴۹

خطبة نكاح ۵۰

رسالة عتاب ۵۲

رسالة تهنئة إلى أبى القاسم بن بقى ۵۷

لسان الدين بن الخطيب

رسالة إلى السلطان أبى سالم ۳۱

رسالة عن الغنى بالله إلى سلطان مصر ابن قلاوون ۷۵

مرسوم بتولية النباهى القضاء ۱۱۰

مرسوم بتولية ابن زمرك كتابة السر ۱۱۱ مرسوم بتولية النباهى الخطابة مع القضاء ۱۱۳

رسالة فى عتاب ابن أبى رمانة ۱۱۹

رسالة إلى ابن مرزوق برفض الدنيا ۱۱۲

رسالة إلى أبى عنان فى الاعتذار عن المقرى الجد ۱۸۵

رسالة فى الموضوع السابق ۱۸۶

رسالة إلى ابن مرزوق عند قدومه على المرينيين ۳۳۵

يوسف بن تاشفين رسالة فى العزاء بأبى جعفر بن الزبير ۱۳۱

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۸۴

فهرس الجزء السادس من كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى التلمسانى

الباب الأول: فى أولية لسان الدين و ذكر أسلافه ۳

منزلته فى الكتابة ۳

للأمير إسماعيل بن يوسف بن الأحمر فى شأن لسان الدين، من كتاب له يسمى «فرائد الجمان، فيمن نظمنى و إياه الزمان» ۳

لابن خلدون فى شأن لسان الدين ۳

لغير هذين فى سلف لسان الدين ۴

تعقيب للمؤلف ۴

تعريف لسان الدين بنفسه فى آخر كتابه «الإحاطة» ۵

نسب لسان الدين ۵

سعيد جد لسان الدين الأعلى ۵

عبد اللّه بن سعيد ۶

سعيد بن عبد اللّه الجد الأقرب للسان الدين ۶

والد لسان الدين بن الخطيب ۶

بعض ما رثى به والد لسان الدين و قد استشهد فى موقعة طريف، لأبى محمد عبد اللّه الأزدى ۷
قصيدة للسان الدين يجيب بها أبا محمد الأزدى الذى رثى والده ۸
ذكر موقعة طريف التى استشهد فيها والد لسان الدين ۹
ترجمة لسان الدين لوالده عبد اللّه بن سعيد، و ذكر نماذج من شعره ۱۰
رثاء لسان الدين لوالده ۱۲
رثاء أبى زكريا بن هذيل لوالد لسان الدين عبد اللّه بن سعيد ۱۲
ترجمة أبى بكر بن عاصم، بقلم ابنه الوزير أبى يحيى بن عاصم القيسى ۱۳
عود إلى ترجمة لسان الدين و ذكر سلفه ۱۵
ذكر نسبتهم «السلمانى» و أنهم من حى من مراد من عرب اليمن القطحانيين ۱۶
بين لسان الدين و شيخه أبى الحسن بن الجياب ۱۶
نونية للوزير أبى فارس عبد العزيز الفشتالى ۱۷
تونية أخرى لأبى الفتح محمد بن عبد السلام المغربى التونسى نزيل دمشق ۲۳
نونية لسان الدين بن الخطيب فى فتح تلمسان ۲۶
كتاب من لسان الدين يخاطب به السلطان أبا سالم بعد فتح تلمسان، و قد جعله مقدمة لنونيته السابقة ۳۱
نونية الفقيه الزجال عمر التى سماها «تسريح النصال، إلى مقاتل الفصال» ۳۴
نونية للوزير أبى عبد اللّه بن زمرك أنشدها سلطان الأندلس يوم عيد ۳۸
كلمة عن ابن زمرك الوزير ۴۲
«لوشة» التى ينسب إليها لسان الدين بن الخطيب ۴۲
ترجمة أبى عبد اللّه محمد بن إدريس المعروف بابن مرج الكحل ۴۲
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۸۵
نماذج من شعر ابن مرج الكحل ۴۳
وفاة ابن مرج الكحل ۴۶
رائية لشمس الدين الكوفى الواعظ ۴۷
من نظم ابن مرج الكحل ۴۸
بين ابن مرج الكحل و الأديب أبى بحر صفوان بن إدريس ۴۹
خطبة نكاح من إنشاء أبى بحر صفوان بن إدريس ۵۰
رسالة عتاب من إنشاء صفوان بن إدريس ۵۲
ترجمة صفوان بن إدريس عن «الإحاطة» للسان الدين بن الخطيب ۵۲
قصيدة لصفوان بن إدريس فى تقديم مرسية على غيرها من البلدان ۵۳
قصيدة لصفوان يراجع فيها أبا الربيع بن سالم عن أبيات مثلها ۵۵
من رسال لصفوان بن إدريس يهنئ فيها قاضى الجماعة أبا القاسم بن بقى ۵۷
رحلة صفوان إلى مراكش ۵۸
ترجمة صفوان بن إدريس، عن ابن سعيد و ابن الأبار ۵۸

من رثاء الحسين بن على بن أبى طالب رضى اللّه عنه لناهض بن محمد الوادى آشى ۵۹
من شعر صفوان بن إدريس أيضا ۶۰
بين صفوان بن إدريس و الوزير الكاتب أبى محمد بن حامد (إجازة) ۶۰
بين صفوان و الوزير أبى إسحاق و قد رآه يقيد أشعارا من ظهر دفتر (إجازة) ۶۱
بين صفوان و الوزير أبى محمد بن حامد أيضا ۶۲
من شعر صفوان ۶۲
الباب الثانى من القسم الثانى من الكتاب، فى نشأة لسان الدين بن الخطيب ۶۳
مولد لسان الدين، نقلا عن «الإحاطة»
و نشأته نقلا عن ابن الأحمر ۶۳
لبعضهم فى ذكر منزلة لسان الدين ۶۳
من ترجمة لسان الدين بقلمه فى كتابه «الإحاطة، فى أخبار غرناطة» ۶۴
تعريف لسان الدين بالسلطان أبى الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج، أحد ملوك بنى نصر ۶۷
قصيدة للسان الدين فى رثاء السلطان أبى الحجاج ۶۸
ذكر خلع سلطان لسان الدين و قيام أخيه مقامه، عن لسان الدين فى «اللمحة البدرية» ۷۰
لسان الدين ينشد بين يدى سلطان فاس و قد التجأ هو و سلطانه إليه ۷۲
من خطاب من إنشاء لسان الدين عن سلطانه إلى سلطان مصر المنصور بن أحمد بن الناصر بن قلاوون ۷۵
رواية ابن خلدون فى خلع ابن الأحمر سلطان لسان الدين ۸۰
رواية أخرى لابن خلدون فى خلع ابن الأحمر تتضمن نشأة لسان الدين و نهايته ۸۲
ابن خلدون يتحدث عن مقتل لسان الدين ۹۱
أبيات للسان الدين قالها و هو سجين ۹۲
حديث للحافظ ابن حجر عن مقتل لسان الدين ۹۳
تخميس بعض بنى الصباغ لأبيات لسان الدين التى قالها و هو فى السجن ۹۴
أبيات لبعض الشاميين فى معنى بعض أبيات لسان الدين ۹۵
كلام لأبى الخطاب بن دحية فى التسلى عن كوارث الزمان ۹۶
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۸۶
أبيات فى الاعتبار- و ذكر الموت ۹۸
تهم ألصقها أعداء لسان الدين به ۹۹
من أعداء لسان الدين القاضى أبو الحسن النباهى، و ما يتصل بذلك ۹۹
حكاية للسان الدين مع رسول ملك النصارى تدل على علو همته ۱۰۰
مدح لسان الدين للقاضى النباهى ۱۰۱
ذم لسان الدين للقاضى النباهى بعد أن أظهر له العداوة ۱۰۱
خطاب تقريع من القاضى النباهى إلى لسان الدين ۱۰۱
صورة مرسوم من إنشاء لسان الدين بتولى القاضى أبى الحسن النباهى القضاء، و فيه من الثناء على القاضى ما يدل على أنه لم يشكر

النعمة ۱۰۹

مرسوم من إنشاء لسان الدين أيضا بتولى ابن زمرك كتابة السر ۱۱۱

مقارنة من المؤلف بين خلق لسان الدين و خلق القاضى النباهى و الكاتب ابن زمرك ۱۱۳

مرسوم من إنشاء لسان الدين أيضا بتولى القاضى النباهى الخطابة مع القضاء ۱۱۴

من هجو لسان الدين فى الوزير إبراهيم بن أبى الفتح الأصلع الغوى و فى ابن عمه محمد بن إبراهيم العقرب الردى ۱۱۵

من هجوه فى قاض من قضاة دولة السلطان إسماعيل بن الأحمر ۱۱۸

من هجوه فى وزير المغرب محمد بن على بن مسعود ۱۱۸

كتاب عتاب من لسان الدين بعث به إلى قاضى مكناسة الزيتون و قد تأخر عن لقائه يوم قدومه عليهم ۱۱۹

رسالة للسان الدين فى أحوال خدمة الدولة، و مصايرهم، و ما يجب عليهم، و كتب بها إلى ابن مرزوق ۱۱۹

تعليق لابن مرزوق على بعض ما جاء فى رسالة لسان الدين ۱۲۶

تعليق لابن لسان الدين على تعليق ابن مرزوق ۱۲۶

تعليق للمؤلف على كلام ابن مرزوق ۱۲۶

مرثية من شعر ابن صابر المنجنيقى ۱۲۷

إشارة و نماذج من مراث أخرى ۱۲۸

زيارة المؤلف لقبر لسان الدين ۱۲۹

رسالة لبعض أهالى المغرب فى العزاء بأبى جعفر بن جبير ۱۳۰

مقطوعات فى الزهد ۱۳۲

من شعر ابن الجوزى فى المعنى ۱۳۴

كلمة عن أبى الفرج بن الجوزى و مجالس وعظه، عن الذهبى و غيره ۱۳۴

رجع إلى أخبار لسان الدين ۱۳۷

من شعر لسان الدين و أخباره ۱۳۸

تحقيق فى شأن بيتين يقال إنهما قيلا فى لسان الدين ۱۴۰

عود إلى أخبار لسان الدين ۱۴۰

من قصيدة لابن زمرك يعرض فيها بلسان الدين ۱۴۰

قصيدة أخرى لابن زمرك يهنئ فيها سلطانه الغنى بالله بفتح بلاد المغرب و ظفره بابن كاس مجير لسان الدين ۱۴۳

قصيدة ثالثة لابن زمرك يهنئ بها سلطانه، قالها بعد مقتل لسان الدين ۱۴۸

رجع إلى أخبار لسان الدين ۱۵۲

تصنيفه كتابا يحتج فيه لجواز المبايعة بالملك لمن لم يبلغ الحلم و قد سماه «إعلام الأعلام، بمن بويع من ملوك الإسلام، قبل الاحتلام» ۱۵۲

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۸۷

تصنيفه كتابا يذكر فيه نباهة سلفه و قد سماه «المباخر الطيبية، فى المفاخر الخطيبية» و قدمه للسلطان عبد العزيز حين انحيازه إليه ۱۵۲

استعطاف الوزير أبى بكر بن عمار إلى المعتمد بن عباد حين قبض عليه ۱۵۳

نكبة عبد المؤمن بن على للوزير أبى جعفر بن عطية ۱۵۴

من اعتذارات ابن عطية لعبد المؤمن بن على ۱۵۵
ذكر بعض الأدباء من آل عطية ۱۵۷
إجازة بين عبد المؤمن بن على و وزيره أبى جعفر بن عطية ۱۵۷
من رسالة لأبى جعفر بن عطية كانت السبب فى ظهور تفوقه ۱۵۸
الباب الثالث من القسم الثانى من الكتاب، فى ذكر شيوخ لسان الدين بن الخطيب ۱۶۰
محمد بن أحمد، الحسين، السبتى، قاضى الجماعة ۱۶۰
مرثية الوزير ابن زمرك لشيخه قاضى الجماعة الحسنى، المذكور ۱۶۴
أبناء القاضى الحسين المذكور ۱۶۷
من شيوخ لسان الدين أبو عبد اللّه محمد بن جابر الوادى آشى ۱۶۹
بعض ما أنشده لسان الدين من شعر شيوخه، و لم يسمهم ۱۷۱
من شيوخ لسان الدين قاضى قضاة فاس أبو عبد اللّه المقرى جد المؤلف (ترجمة مستفيضة) ۱۷۲
ترجمة أبى موسى عمران بن موسى بن يوسف المشدالى (من شيوخ المقرى الكبير) ۱۸۷
ترجمة أبى إسحاق إبراهيم بن حكم السلوى ۱۸۸
ترجمة أبى محمد عبد اللّه بن عبد الواحد بن إبراهيم بن الناصر، المجاصى ۱۹۲
ترجمة الشريف القاضى أبى على حسن بن يوسف بن يحيى، الحسينى السبتى ۱۹۴
ترجمة قاضى الجماعة أبى عبد اللّه محمد بن منصور بن على بن هدية، القرشى ۱۹۶
ترجمة لأبى عبد اللّه محمد بن أحمد بن على التميمى ۱۹۶
ترجمة لأبى عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن عبد النور ۱۹۷
ترجمة لأبى عبد اللّه محمد بن الحسين البرونى ۱۹۷
ترجمة لأبى عمران موسى المصمودى الشهير بالبخارى ۱۹۷
ترجمة لأبى عبد اللّه محمد بن يحيى بن على بن النجار ۱۹۸
ترجمة لأبى الحسن على بن أبى بكر بن سبع بن مزاحم، المكناسى ۱۹۹
ترجمة لأبى عبد اللّه محمد بن حسين، القرشى، الزبيدى، التونسى ۱۹۹
ترجمة لإمام أهل الحديث فى عصره أبى محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمى ۲۰۰
ترجمة أبى عبد اللّه محمد بن سليمان السطى ۲۰۰
سرد جماعة من شيوخ المقرى الكبير ۲۰۰
ترجمة أبى عثمان سعيد بن إبراهيم بن على الخياط ۲۰۰
ترجمة أبى عبد اللّه محمد بن على بن الجمال ۲۰۱
ابنا أبى عبد اللّه محمد بن مرزوق العجيسى، و هما أبو عبد اللّه محمد، و أبو العباس أحمد ۲۰۱
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۸۸
أبو زيد عبد الرحمن بن يعقوب الصنهاجى ۲۰۱
أبو عبد اللّه محمد بن محمد الغزمونى ۲۰۱
أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم العبدرى ۲۰۲

أبو عبد اللّه بن أحمد بن شاطر الجمحى ۲۰۵

ذكر جماعة من شيوخ المقرى الكبير بتلمسان ۲۰۷

ذكر شيوخه فى تونس ۲۰۸

شيوخه فى فاس، و فى أغمات ۲۰۹

شيوخه فى مكة، و فى المدينة، و فى الشام ۲۰۹

رواية ابن خلدون عن شيخه أبى عبد اللّه المقرى الكبير ۲۱۰

من فوائد المقرى الكبير فى مواضع مختلفة ۲۱۱

من فوائده التى ذكرها تلميذه النظار أبو إسحاق الشاطبى فى كتابه «الإنشاءات و الإفادات» ۲۱۸

من فوائد المقرى الكبير مما لم يذكر سابقا ۲۲۲

ترجمات قصار للمقرى الكبير عن صاحب كتاب «نيل الابتهاج» و عن المرزوقى، و عن الوانشريسى ۲۲۹

مؤلفات المقرى الكبير ۲۳۲

بعض فوائد المقرى الكبير التى أودعها كتابه «المحاضرات» ۲۳۳

رجع إلى سرد مؤلفات المقرى الكبير ۲۵۴

من فوائد المقرى الكبير التى أودعها فى كتابه «الحقائق و الرقائق» ۲۵۵

من شعر المقرى الكبير ۲۶۹

لمحة العارض لتكملة تائية ابن الفارض ۲۶۹

من شعره الذى رواه لسان الدين فى الإحاطة ۲۷۸

و من شعره الذى لم يذكره فى الإحاطة ۲۷۹

تلامذة المقرى الكبير ۲۸۰

ترجمة ابن عباد الرندى شارح حكم ابن عطاء اللّه الإسكندرى ۲۸۱

عود إلى شيوخ لسان الدين ۲۸۸

ترجمة أبى محمد عبد الحق بن سعيد بن محمد ۲۸۸

ترجمة الفقيه يونس بن عطية (ابن أبى عفيف) الوانشريسى ۲۸۸

أبو على عمر بن عثمان الوانشريسى ۲۸۹

أبو جعفر أحمد بن محمد، الجنان، الأوسى ۲۸۹

أبو عبد اللّه بن أبى رمانة ۲۹۰

أبو على الحسن بن عثمان بن عطية الوانشريسى ۲۹۰

أبو العباس أحمد بن عاشر ۲۹۱

أبو عبد اللّه محمد بن على الفخار البيرى ۲۹۲

أبو عبد اللّه محمد بن خميس التلمسانى ۲۹۵

عود إلى ترجمة ابن الفخار، و ذكر فوائده ۳۱۲

أبو محمد عبد اللّه بن عبد اللّه بن حذلم، و ذكر نموذج من شعره ۳۱۵

وفاة ابن الفخار ۳۱۶

من مشايخ لسان الدين أبو عبد اللّه بن عبد الولى العواد ۳۱۶

و منهم أبو عبد اللّه بن بيبش ۳۱۷

و منهم قاضى الجماعة أبو عبد اللّه بن أبى بكر، الأشعرى، المالقى ۳۱۸

و منهم ابن أبى يحيى، و اسمه إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبى بكر، التسولى ۳۱۹

و منهم محمد بن أحمد الطنجالى الهاشمى ۳۲۱

و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن مرزوق (ترجمته باستفاضة عن لسان الدين) ۳۲۲

نماذج من شعر ابن مرزوق ۳۲۷

عود إلى الحديث عن ابن مرزوق ۳۳۵

خطاب من لسان الدين إلى ابن مرزوق حين قدم على بنى مرين مفلتا من الأندلس ۳۳۵

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۶، ص: ۳۸۹

نكبة ابن مرزوق و خلاصه منها ۳۳۷

تقريظ لسان الدين لشرح شفاء القاضى عياض لابن مرزوق ۳۳۸

ترجمة أبى عبد اللّه بن مرزوق عن المؤرخ ابن خلدون ۳۴۱

ترجمة ابن مرزوق عن الحافظ ابن حجر ۳۴۳

ترجمته عن الخطيب القسمطينى ۳۴۳

ترجمة محمد بن محمد بن أحمد بن أبى عبد اللّه بن مرزوق (و يعرف بابن مرزوق الكفيف، و هو والد أم جد المؤلف) ۳۴۶

ترجمة عالم الدنيا أبى عبد اللّه محمد بن مرزوق (المعروف بابن مرزوق الحفيد) ۳۴۷

و من شيوخ لسان الدين أبو الحسن

على بن الجياب، الأنصارى، الغرناطى ۳۵۸

رثاء لسان الدين لشيخه ابن الجياب ۳۷۰

رثاء الفقيه أبى عبد اللّه بن جزى لأبى الحسن بن الجياب ۳۷۲

مطالع ثلاث مراث فى ابن الجياب ۳۷۵

من شعر ابن الجياب فى الألغاز ۳۷۵

من نظم ابن الجياب فى رثاء عمر بن على بن عتيق القرشى الغرناطى ۳۷۹

بين ابن الجياب و ابن شيرين و ابن أبى العافية و غيرهم ۳۸۰

بين ابن الجياب و أبى محمد بن أبى المجد ۳۸۱

ترجمة عبد اللّه بن عبد البر بن على بن سليمان الرعينى (المعروف بابن أبى المجد) ۳۸۱

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة "الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى – "رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبيّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام عليّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة "للتحرِّى الحاسوبيّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإماميّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائى/ "بناية "القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹